

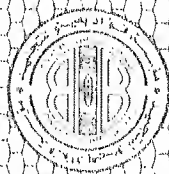
دكتور حسيّن مؤنس

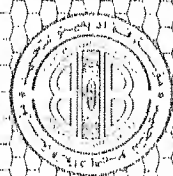
رحلة الأنبياء

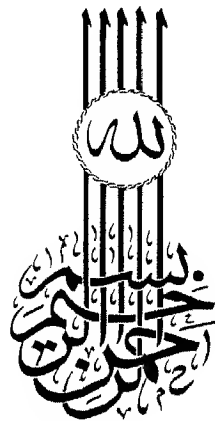
حديث الفردوس الموعود



دار السلام
للطباعة والنشر







رَحْلَةُ الْأَنْبِيَاءِ

حَدِيثُ الْفَرْدَوْسِ الْمَوْعُودِ

الطبعة الأولى
١٩٦٣م.

الطبعة الثانية
مُنقحة مُصححة ومزيدة
١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م



الدار السَّلام
للنشر والتوزيع

جدة

الإدارة : البغدادية - عمارة الجوهرة
تليفون : ٦٤٣٢٨٢١ ٦٤٣٤٠٤٣ / ٦٤٣٤٢٥٥
تلكس : ٤٠٤٣٥١ بشرا
ص ب ٢٠٤٣ ٢١٤٥١. برصا فستردار
المتردعات : طريق مكة المكرمة . سرق المطار القديم
الكتاب : ١ - شارع الملك عبد العزيز ، تليفون ٦٤٧٨٧٢٣
٢ - شارع فلسطين . مركز الزمان ، تليفون ٦٦٠٨٩٦٤

الدمام : الشارع العام ، ص ب ٨٩٩
تليفون : ٨٣٢٣٥١٥ ٨٣٣٥٥٢٠

دكتور حُسين مونس

رَحْلَةُ الْأَنْدَلُسِ

حديث الفردوس الموعود



الدار السعودية
للنشر والتوزيع

الوقت

هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ ...
مُهِدَاةٌ إِلَى الصَّدِيقِ الْكَرِيمِ : أَحْمَدُ نَجِيبٍ هَاشِمٍ ؛
وَمُهِدَاةٌ إِلَى كُلِّ مَنْ أَسْعَدَنِي الْحَظُّ بِصُحْبَتِهِ فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ ؛
وَمُهِدَاةٌ إِلَى كُلِّ مَنْ سَيَسِيرُ بَعْدَنَا عَلَى ذَلِكَ الدَّرَبِ الطَّوِيلِ .

هذه الطبعة الثانية

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فإن الكتب كالناس : لها حياة وحفظ ومقادير وهذا الكتاب صادق محبة وحسن قبول من قارئه لأول ظهوره ، ربما لأن موضوعه يمس عاطفة المسلم ووجدان العربي ، فهناك في قرطبة تلاقى أشعار أحمد شوقي ومحمد إقبال عبد الله أبي الخير وشعراء عرب كثيرين مجيدين ، ولا عجب في ذلك فإن الأندلس من أحب أرض الله إلى عباد الله ما بين عرب ومسلمين حتى لقد درجوا على أن يسمّوه : الفردوس المفقود .

وقد سمّيته الفردوس الموعود لأخفف بكلامي من شجن المسلم ولوعة العربي ، ولم يُخفف من أشجان صحيبي ما قلت من أن الأندلس غرق في ليل التاريخ لأن كل ما في هذا الكون مصيره إلى الزوال - أندلس وغير أندلس - ولا يبقى في النهاية إلا وجه ربك ذي الجلال والاکرام .

وقلت لهم إن الأندلس لا يكون قد ضاع إذا كنا قد انتفعنا بعبْرته أو تعلّمنا مما جرى عليه كيف نحصن بقية أوطاننا - وهي كثيرة والحمد لله - من أن تكون أندلسات

لا فائدة

قرأوا ما كتبت وزاد فيض الدموع .
بل بلغ من محبة بعض صنّاع الكتب في بلد عربي بعينه أن أقبلوا على
الكتاب يطبعونه مرة بعد أخرى بالتصوير حتى بهتت صورته ولم تعد ترى ،
ثم رقت أفئدتهم من سنوات فأعفوا عن الكتاب ، ولعل ما نزل ببلادهم
شغلهم عنا ، أقال الله عشرة هذه البلاد وغفر لأصحابنا عفاة الكتب وأعانهم
على العمل وطنهم العزيز .

* * *

وعدت إلى الكتاب أضمد جراحه وآسوا أسقامه فراجعت وقومت
وصويت ، ورأيت أن أستبدل بكل الصور القديمة صوراً ملوّنة ، فلعل بهجة
اللون أن تخفف أوصاب الأحزان .

وأعاني على ذلك أخي الأستاذ محمد بن علي الوزير فضم الكتاب إلى
سلسلة منشورات داره الزاهرة ، فأفاض الألوان على الكتاب فيضاً ، فأضاف
بذلك إلى الكتاب كتاباً آخر من الأشكال والألوان .

وقد أجريت هذه الطبعة على أنها الثانية وربما كانت العاشرة .
والحمد لله سبحانه صاحب الفضل والمنّة ، وهو من وراء القصد
والنية .

الدكتور حسين مؤنس
القاهرة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

مقدّمة الطبعَة الأولى مَوْعُودٌ لَا مَفْقُودٌ..

زرت إسبانيا أول مرة في صيف سنة ١٩٤٠ في غمار الحرب والضرِب ،
والدنيا قائمة قاعدة ..

ذهبت إليها لأطوف بآثارنا فيها ، ولكن ظروف الحرب وقلة المال
وضيق الوقت وتعطل الطرق حالت دون الأمل المنشود ، فغادرت إسبانيا
وكلّى أمل في أن أعود ...

ومن ذلك الحين لم يخرج الأندلس من خاطري أبداً : إذا كنت فيه فأنا
بين آثاره ومغانيه ، وإذا كنت بعيداً عنه فأنا مع تاريخه أتأمله وأستوحيه ..
ولا أدري كم مرة طوفت فيه ، ولكنّي ما زرتّه مرة إلا وشعرت كأنني
أزوره أول مرة : ألقاه لقاء مشتاق وأودعه وداع مشتاق ..

وحينما حللت في أوطان العرب وجدت الأندلس على كل لسان : من
رآه يحلم بما رأى ؛ ومن لم يره يحلم بما ينمّي النفس برويته . والأندلس عندهم
جميعاً بلد عربي قائم بأهله ومدائنه وعلمائه وشعرائه ومجده الذي كان ..
فكيف يكون مفقوداً وله كل هذا الوجود ؟

إنه موعود لا مفقود ..

موعود هند من يعلمون أن الماضي لا يموت إلا بالنسبة إلى الأموات ..

وموعد عند كل من يدركون أن التاريخ لا يعرف الأمس أو اليوم
أو الغد ، وإنما هو نهر الحياة يمضي إلى الأجل المضروب الذي قدره علام
الغيوب . .

وموعد عند كل من يؤمنون بأصالة هذه الحضارة العربية الزاهرة ،
التي عبرت القفار والبحار وثبتت أقدامها بين فكي الأسد ، وبنت صرحها
فأعلت والعدو والقنر لها بالمرصاد . .

نعم ، وما قرطبة الخلفاء بشيء من أشياء الماضي ، وإنما هي حاضر
ومستقبل ، ما دامت لنا قلوب تعي وتذكر . .

ولا غرناطة بنى نصر بذكرى غبرت ومضت ، وإنما هي علم حي
متجدد الرواء ، يعرفه كل من على وجه الغبراء : يزورها الناس جميعاً
للفرجة والإعجاب ، ونزورها نحن للذكرى وإعادة الحساب . .

والأندلس كله — من جبال البرت (البرانس) إلى الزقاق — كتاب
مجد خالد ، يقرأه من هو جدير بالجد الخالد ، ويستشعر الحياة فيه من يشعر
بأنه ينتسب إلى شعب لا يموت . .
موعد لا مفقود . .

بهذه الفكرة نزور الأندلس معاً ، ولا علينا من يحسبون أن الحشرات
فلسفة ، والعبرات حكمة ، وتذكر الألام تكفير وتطهير . .

والرجال لا يكون ولا يتوجعون ، إنهم يتأملون ويعتبرون ، وقد جرى
الزمان علينا كما جرى على غيرنا . ولم ينشئ البشر على طول الأعصر شيئاً
يبقى بقاء الجبال ، إنما هي أجيال تقبل وتمضي ، وتنشئ وتعلو ، ثم تمضي
وما بنت إلى حيث يمضي كل مخلوق . .

وسبحانه ، خلق فقدّر ، وهو يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير
الوارثين .

حسين مؤنس

مدريد ، مايو ١٩٦٣

الطريق إلى الأندلس

الطريق إلى الأندلس طويل . .

طويل في حكم الزمان ، لأن بيننا وبين عصره الأخير ما يزيد على خمسة قرون ، وبيننا وبين عصره الزاهر نحو عشرة قرون . .

وطويل في حكم المكان ، لأن الأندلس قابع هناك خلف بحار وجبال ووديان . .

وليس في الدنيا أرض عنيفة قاسية تتحدى الصبر وقوة الاحتمال ، كهذه الأرض التي أقام عليها أجدادنا مجدداً خالداً كالجبال والبحار والوديان . .

أرض صخرية قاسية ، تصلبت بثوالي البرد القارس والحر اللافتح لملايين السنين ، حتى تغضنت وبدت للرأى كأنها وجه عجوز . .

الطرق فيها أخاديد بين جبال ، أو خطوط تسترسل حتى تتلاشى في الأفق البعيد وسط البرارى والسهول . .

الأنهار شقوق في الأرض ، شحيحة ، تحمل من الحصى أكثر مما تحمل من المساء . .

في الشمال تجد الأرض صلبة سوداء ، يغسلها ماء المطر معظم العام . .
وفي الوسط تجدها رمادية ، أو بنية جافة كالجرانيت ، تتخللها كتل من الشيست الأسود كأنها رؤوس شياطين . .

وفي الجنوب رملية حمراء تتسلقها أشجار الزيتون في صبر وسكون . .
ومن قلب هذه الأرض العاتية تطفر هنا وهناك واحات خضراء كأنها
قطع من الجنة ، بالضبط كما يطفر الحنان والخير من قلب العجوز الطيب
الأصيل . .

واحات تلقاك على غير ميعاد . تكون وسط جبال موحشة يخيل إليك أنها
لا تنتهى ، ثم تنعطف انعطافة يسيرة فإذا أنت أمام الشجر الباسق والغاب
الملتف ، وأشجار البرتقال والكافور تملأ الجو عطراً وعبراً . .
وعلى ضفاف الأنهار الكثيرة التي تنحت وديانها وسط الصخر ، تجد
الرياض والمروج والزهور وأشجار الحور والصنوبر والسنديان . .
وما أسرع ما تنسى الصخور والأخاديد . .

بالضبط كما تشرق الابتسامة في وجه العجوز الطيب الأصيل ، تنسبك
رقعة قلبه أخاديد وجهه ، ويتحدث فتسمع منه أرق الأحاديث . .
ولكن الطريق بين الواحة والواحة طويل . .
والمسافة بين النهر والنهر يبدأ لا تقطعها إلا إذا كنت صبوراً كشجر
الزيتون ، عفاً كالشيست والجرانيت . .
والطريق إلى الأندلس — لهذا ، كما قلت — طويل . .

* * *

على هذه الصخور . وفي الطريق إلى تلك الوديان ، هلك الألوفا
من أجدادنا العرب بعد الألوفا . .
وكل شبر من أرض شبه الجزيرة هذه يقص قصة طويلة تنبع من أعماق
قلب الإنسان وتردد في قلب أى إنسان . .
والتاريخ الذى تحدثك به صخور الجزيرة ووديانها لا يقارن إلا بالتاريخ
الطويل الذى تحدثك به ضفاف النيل أو بوادي الشام أو عوالي نجد أو تهائم الحجاز

ولأمر ما ، تحس دائماً أن العصور هناك لا تموت . .

شيء من الخلود يتخلل كل شيء . .

تقف في وسط الفضاء الهائل الذي يحيط بك معظم الطريق ، وتصغى إلى الصمت الرهيب الذي يشمل كل شيء ، فيخيل إليك أن صوتاً من وراء المحجول يناجيك ، وأن أرواح الألوفا من أجدادك الذين عبروا بهذا المكان تخاطبك عبر القرون ، ولو قبضت قبضة من تراب الأرض لأحسست أنها تردّد في روعك نداء أبي العلاء أن تخفف الوطء ، فهذا الأديم ليس إلا أجساد الزاهبين ، أعيانهم السير وهم صادرون من قرطبة إلى أرض الجهاد ، أو غالم العذو الرابض وسط هذا السكون ، فتوسدوا الأرض وأكلهم التراب ، وظلت أرواحهم تحوم على أرض الشهداء . .

ولذا أنت وقفت في صحن المسجد الجامع في قرطبة ذات صباح باكر ، أحسست وكأن المصلين قد أقاموا الصلاة وبارحوا الصحن لتوهم ، وأن الشيوخ والأساتذة والطلاب لا يلبثون أن يجيئوا ليأخذوا أماكنهم إلى جانب الأعمدة حلقات حلقات . .

وفي القاعة الأولى من قاعات قصر الحمراء ، تتوقع وأنت تتأمل ما حولك أن الباب لا يلبث أن يفتح ، وأن السلطان أبا الحجاج يوسف بن الأحمر سيقبل عليك بعد لحظات ومن خلفه حاشيته ورجاله ، ليعقدوا مجلس المشاورة أو ندوة الشعراء . .

وفي قرطبة ، عندما وقفت في شارع ابن رشد ، أحسست أنني لو سألت أول عابر عن بيت أبي الوليد لدلني عليه . .

وفي لُوشة — تسمى اليوم لُوخا ، وهي بلد صغير في الطريق من غرناطة إلى مالقة — وهي بلد لسان الدين بن الخطيب ، وقفت ذات صباح أمام دار عربية الطابع في وسطها نافورة ينساب منها الماء في رفق موسيقى . خيل لي أن لسان الدين هناك ، مسنداً ظهره إلى الناحية الأخرى من النافورة مقبلاً على تأليف كتاب جديد . .

وفى جَيَّان - تسمى اليوم خاين" ، غير بعيد عن قرطبة - خيل إلى أننى لو فتحت دفتر التليفون لوجدت اسم جمال الدين بن مالك صاحب الألفية وعنوانه ، ولاستطعت الحديث إليه . .

وفى سَلَمَنْقَة ، فى الميدان الصغير أمام الجامعة ، جلست على مقعد خشبي أتأمل تمثال ميجيل أونامونو ، وما كنت لأتعبج لو أنه هبط عن قاعدته وأقبل فجلس إلى جانبي وأخذنا بأطراف الحديث . .

وفى بَطْلَيْيُوس ، وأنت تتطلع إلى الملعب الرومانى الهائل ، تشعر كأنك فى فترة استراحة طويلة بعض الشيء ، وأن الممثلين يستريحون من الفصل الأول من مسرحية لسوفوكليس ، وأنهم سيعودون ليمثلوا الفصل الثانى بعد قليل . . شعور غريب لا أشعر به خارج إسبانيا إلا فى موضعين : معبد الكرنك فى مصر وقلعة الحصن - أو حصن الأكراد - فى الشام . . ففى معبد الكرنك وأنت على ضفة بحيرة الآلهة ، تترأى فى مياهها الصافية صور الأعمدة الباسقة والجدران العالية ، تحس وكأن الفرعون وأهل بيته لا يلبثون أن يقبلوا فى قارب يقطع سكون البحيرة الأبدى . .

وفى حصن الأكراد ، تحس وأنت ترسل البصر فى ساحته الرحبية وكأنك تسمع وقع حوافر الخيل وصليل السيوف ، وأن الفرسان الذين توجوا هاماتهم بأكاليل النصر فى ميادين الجهاد ، لا يلبثون أن يدخلوا جماعات جماعات ، والخيل تعدو وتسهل والفرسان يتصايحون ويتنادون ورايات الأجداد تحفق فى الهواء . .

هنا أيضاً أشعر ألا شئ يموت . .

ويدهشك هذا الشعور ، لأنك وأنت تقطع شبه الجزيرة تمر بالأميال بعد الأميال لا يلقاك فيها إنسان أو عصفور ، بل ولا جرادة . .

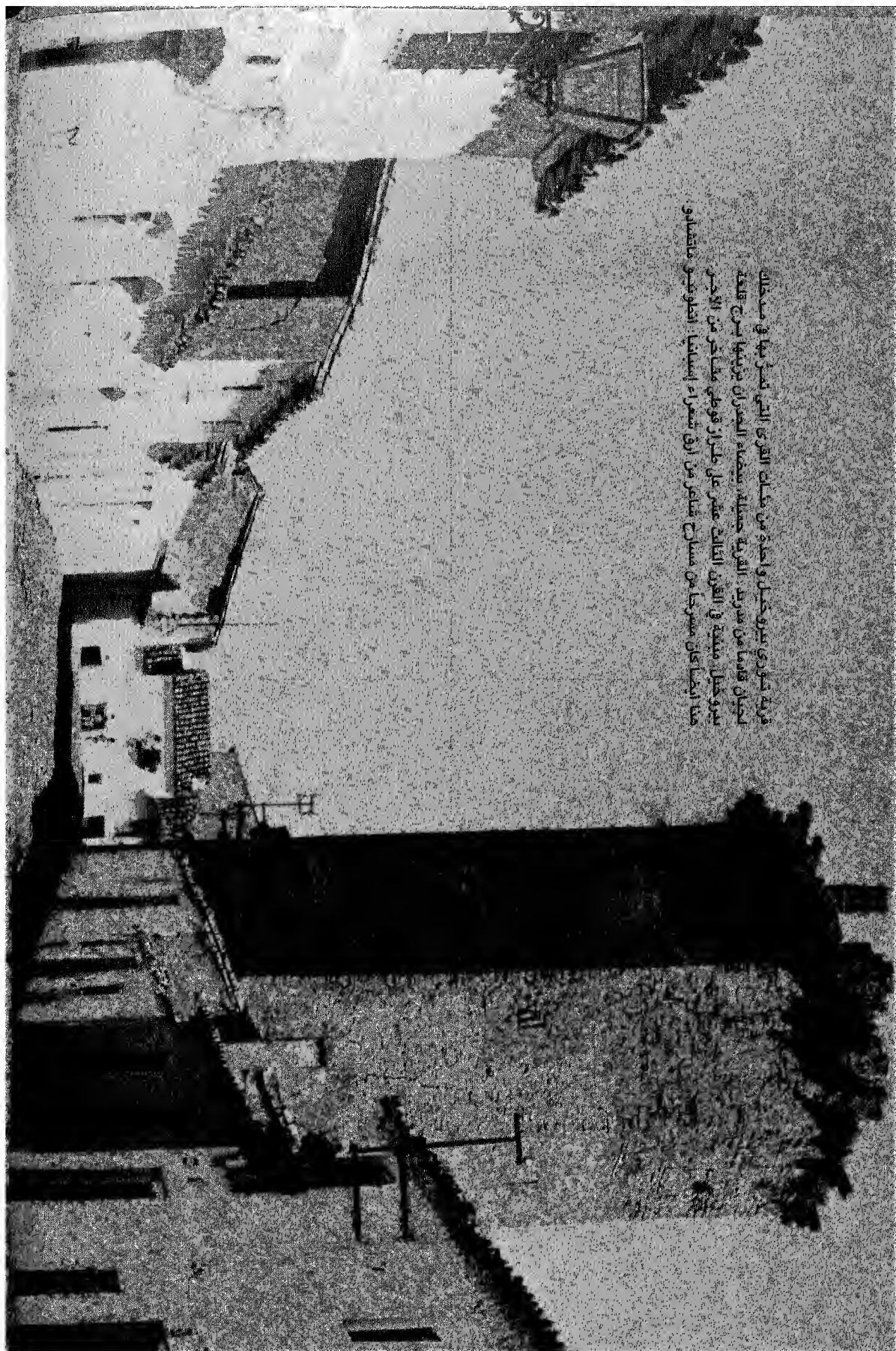
وفى وسط هذه الوحشة الشاملة ، تشعر - مع ذلك - أن الجو من حولك نابض بالحياة والأحياء . .



في الطريق من مدريد إلى الأندلس يمر الإنسان في
محطات طليطلة ونيوداد ريال وجيان في أيام
المسلمين كانت طليطلة ونيوداد ريال محورة

واحدة تنتهي عند خائق وسيلابيروس أو مطرد الكلب. وبعد الخروج من
الخائق ينضم الإنسان إلى جيان ثم إلى الأندلس. الصورة متاقصو خائق
وسيلابيروس الفاصل بين الأندلس وبقية إسبانيا إلى الشمال تاعل الجبال
والخوائف البائلة التي تقع بين الأندلس والشمال والقطار يمر في تاع الزادي

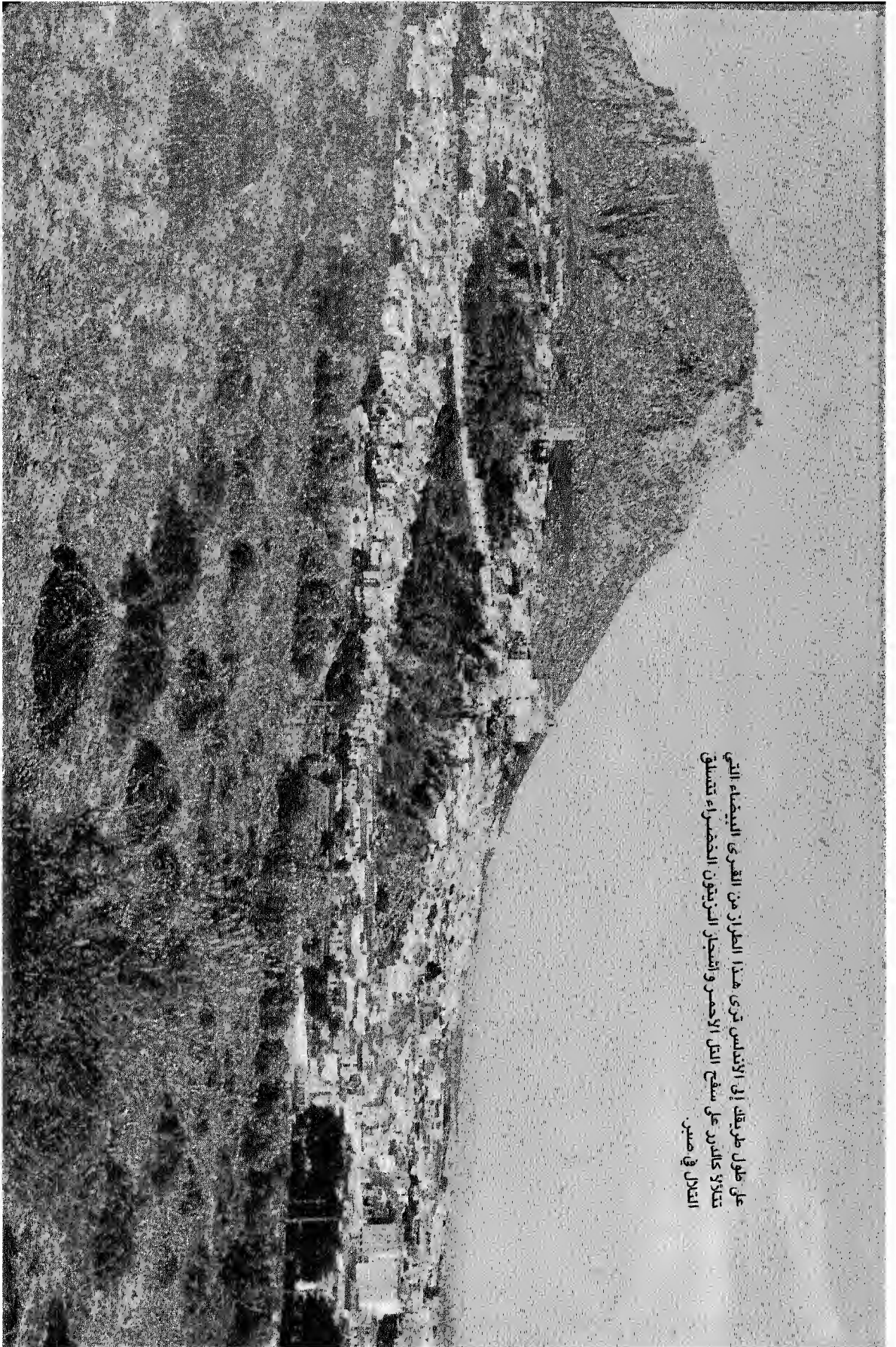
قرية تيوري تيوري وحل واحدة من مكنات القرى التي لم يبق فيها في مدينتها
لجنان قداما من مدينتها القرية جميلة، يقسمها الجدران بربيعها يروح قلعة
تيوري حلل مبنية في القرن الثالث عشر على طراز قوطي عفا عن الآخر
هنا ايضا كان مسرحا من مساح يتأخر من ارق شعراء اسبانيا انطونيو جنتانو.





شارع قسليدي في قرية من قرى تونسي
حيث وهي سان باطلو... لا تزال
تتنفس الجو العربي

على طول طريقك إلى الأندلس ترى هذا الطراز من القرى البيضاء التي
تتلاها كالدرر على سفح التل الأحمر وأشجار الزيتون الخضراء تنسلق
التلال في صبر.



وهذا هو الشعور الذى كان يملأ نفس الدون كيخوته وهو يقطع البرارى
والقلوات باحثاً عن الطغاة والشياطين ليحاربهم ويستأصلهم . .

تصوّر أجنحة الطواحين شياطين بأيديها السيوف . .
وتصور الأشجار عفاريت تسعى إليه فشدها بالسلاح . .
وتصور قطيع الغنم جيشاً من الأعداء . .

أوهام أقرب إلى الواقع من حقائق الحياة ، من هذه الأوهام تتألف أخلد
قصة كتبها إنسان . .

والذى كتبها أعجب قصصى ظهر فى الوجود : ميغيل ثرقاتنس سافدرا،
محارب مسكين وأسير تعيس ، شات ذراعه اليسرى فى موقعة ليبانتسو ،
وبقيت يده اليمنى لتكتب فى ظلامات السجن قصة أضحكت – ولا زالت
تضحك – الأجيال . .

من الدموع صاغ ضحكات . .
ومن خلف قضبان السجن فرج عن الآلاف . .
بالضبط كما تظفر الواحة الوارفة عند منعطف الطريق . .

* * *

وكذلك فى الطريق الطويل من قرطبة إلى سرقسطة – نحو سبعمائة كيلو
متر – تستطيع أن تحفن بيدك أية قبضة من التراب وتقسم أنها ليست إلا من
عظام جيوش الخلفاء ، فقد ظلت تقطعه ثلاثمائة سنة أربع مرات فى العام :
مرتين فى الذهاب وآخرين فى الإياب . .

كم ألوف منهم أنهمكها السير الطويل وأكلها تراب الطريق ! منها – من
عظام الألوف بعد الألوف من جنود العرب المجهولين – يفتدى شجر الزيتون
الذى يطل عليك من جوانب الطريق ، وإلا فن أين تغتذى الزيتون المباركة
إلا من روح طيبة مباركة والأرض من حولك لا ماء فيها ولا حياة؟

وعند مدينة سالم (مِدِينَاثِيلِي) - في طريقك من مدريد إلى سرقسطة في طرف قصيٍّ من البلد الحديث - تجد بوابة متهمة تقوم وحدها وسط فراغ وخراب ؛ إنها الأثر الباقي من ضريح أعظم قائد أندلسي في التاريخ : المنصور محمد بن أبي عامر ، ثاني اثنين دانت لهما هذه الجزيرة من أول التاريخ إلى مطلع العصر الحديث ، أولهما عبد الرحمن الناصر . .

وإلى شمال شبه الجزيرة - حتى جبال البُرت المعروفة بالبرانس - كان تمتد الأندلس . والمدائن اللطيفة التي تلقاك هناك نحن أهلها ، وأجدادنا بُنَاتُهَا : لَارِدَة ، وَشَقَّة ، تُطِيلَة وَبَنِيْلُونَة . . وغيرها كثير . كلها كانت بلاداً عربية ، ولا زالت إلى اليوم تحتفظ بروحها العربي ، وما بقي فيها من آثارنا يبدو لك وكأنه حطام طافية على الماء من سفينة ضخمة غالتها الأمواج . . والأندلس - الذي يسمونه اليوم أندالوثيّا ، تلك المديريات السبع الواقعة في الجنوب - ليس إلا جزءاً يسيراً من أندلسنا الحبيب . .

أين الباقي ؟ . . أين أهله ؟ . . كيف اختفت أيامهم في طيات الزمان ؟ . . تلك قصة طويلة ستلم بأطراف منها أثناء ما يتصل من الأحاديث . . والطريق إلى الأندلس - كما قلت لك - عبّر الزمان طريق طويل . .

* * *

ومع هذا فالأندلس ، هذا البعيد العزيز ، قريب منك . . يعيش معك وفيك . .

فإن التاريخ خالد ، وأهل التاريخ لا يموتون . . وما سطره الأندلسيون في سجل حضارة الدنيا يضمن لهم الخلود ويفرضهم على الأجيال . .

ودعنا من آثارهم في الفكر والعلم ، فذلك كتاب معروف ، ولدينا من الشواهد على ذلك ما يغنيننا عن البحث في دواوين الأدب وسجلات العلم والنور

بل إن حضارة الأندلس لم تقف عند حدود شبه الجزيرة الإيبيرية ، فقد امتدت وفاضت حتى شملت المغرب العربي إلى حدود تونس ، والكثير جداً من ثغور المغرب أنشأها الأندلسيون : تِطُون وتِلِمِسان ووَهْران وتِنِيس وجزائر بني مَزْغَنّا - التي تعرف اليوم بمدينة الجزائر - وغيرها كثير . وفي داخل المغرب تحدثك فاس عن نصيب الأندلسيين في إنشائها ، وتنبئك مِكنّاس بأثر العمارة الأندلسية ، وفي شاون - أو شفشاون - إلى جنوبي تطوان تجد مدينة أندلسية الهيئة والروح ، كأنها حي من أحياء غرناطة أو رُنْدَة عبر البحر واطمأن بين جبال الشمال الغربي ووديانه . .

ومن شبه الجزيرة عبرت هذه الحضارة المحيط الأطلسي كله . .

فعلى آلاف الأميال ، وعبر المحيط الأطلسي الشاسع ، بل على ضفاف المحيط الهادى ، وجدت الأندلس حياً يطاول الأزمان . .

وفي سان خُوسيه عاصمة كوستاريكا في أمريكا الوسطى وجدت نفسى فجأة في قاعة أندلسية خالصة ، كأنما نفس المعمارى الذى بنى الحمراء حمل أدواته وخف إلى هناك ليقع بإمضاءه على ساحل المحيط الهادى . .

ومن هناك عبر المحيط الهائل ، ونزل بلدة وادى القناة (جَوَادَ الْكَانَال) في الفلبين وأنشأ داراً عربية أخرى ووضع إمضاءه الحبيب . .

فن خالد يطوى الأرض بين جناحيه . .

وهنا ، في بلادنا ، يعيش الأندلس في وجداننا ينبض بالحياة والشباب كأنه بلد عربى معاصر ، ولو أننا اقترحنا اليوم ضمه للجامعة العربية لما شعر الناس بغربة في ذلك الاقتراح ، لأن الأندلس - بالفعل - عضو في الجامعة العربية الكبرى ، عضو له صوت كبير يتخطى القرون . .

وهذا الصوت الجهير صاحب فضل كبير في المكان الرفيع الذى تحتله حضارة العرب بين حضارات العالمين . .

والأوروبي الذى يفكر فى أن يفخر علينا بما تعلمناه منه فى العصر الحديث
يخفض من صوته عندما يذكر أن أساتذتنا الأندلسيين علموا أجداده فى
جامعات أوروبا كلها ، حتى الفاتيكان لا ينسى أن أحد بابواته من تلاميذ
قرطبة وشيوخها الأجلاء . .

وإذا كانت قمم الأدب الأوروبي العليا أربعاً : دانتي وثيرفانتس
وشيكسبير وجيته ، فإن اثنين منهم تلميذان للأندلس العربى ، أخذ الأول
منه أصل الكوميديا الإلهية ، وروى الثانى فصولاً من الدون كيخوته على
لسان عربى يسمى حامد بن النجلى ، والرابع - جيته - تلميذنا من ناحية
أخرى ، وديوانه الشرقى شاهد صريح على استلهامه شعراءنا المشرقين .

وهذا الأندلس الخالد لا يحيا عندنا فى قلوب العلماء فحسب ، بل فى
قلوب عامة الناس أيضاً . . ولافتات مثل « قهوة الأندلس » و « كازينو
الأندلس » و « عصر فواكه الأندلس » عادية مألوفة فى كل بلد عربى ؛ بل
هناك « أوتوبيس الأندلس » وهو أغرب اسم لشركة نقل رأيته . . وكلنا ،
فى الحقيقة ، نود أن نأخذ مكاننا فى « أوتوكار » يحملنا إلى ذلك الفردوس
البعيد . .

وفى المغرب يعزفون - إلى اليوم - موسيقى الأندلس وينشدون موشحات
ولدت فى قرطبة وغرناطة .

* * *

وكم من بلد عربى يؤكد اليوم أن أرضه - لا غيرها - هى نقطة اتصال
الشرق والغرب . .

ولا أنسى مناقشة طريفة بين صديقين : لبنانى وتونسى ، كل منهما
يريد أن يثبت أن بلده هو الموضع الوحيد لهذا الالتقاء . . واشتدت المناقشة
بينهما حتى خشيت أن يبلغ الحماس بأحدهما أن يطلب إلى حكومته أن تصدر
قراراً بالألا يلتقى الشرق والغرب إلا فى بلاده . .

والحق أن الموضع الوحيد في الدنيا الذي التقى فيه الشرق والغرب التقاء
حقيقياً كان الأندلس . .

هناك ضربت أشجار عربية جذورها في تربة أوروبية ، فأخرجت ثمراً
لونه غربي وطعمه شرقي . .

هناك كان الناس جميعاً ، من الخليفة والوزير والقاضي إلى البائع
والمغني ، يتحدثون في البيت والطريق لغة أوروبية ، فإذا قرأوا أو كتبوا
فبالعربية . .

هناك كان ملوك إسبانيا النصرانية في الشمال يوقعون على كتبهم بالعربية ،
وخلفاء المسلمين في قرطبة يستمعون إلى دعايات نداماهم ويشتركون فيها
بالإسبانية . .

هناك عكف ابن رشد على شرح أرسطو ، وترجم الناس شروحه إلى
اللاتينية وقرأوها في هذه اللغة أكثر مما قرأناها نحن في العربية . .

هناك كان الشاعر العربي يأخذ قطعة من أنشودة عجمية — أي إسبانية —
وينشئ عليها موشحاً عربياً تغنيه مغنيات بعضهن عربيات وبعضهن أوروبيات ،
ولكنهن كن يعشن معاً أندلسيات . .

هناك لم يكتف الشرق والغرب بالالتقاء ، بل أصبحا شيئاً واحداً فريداً
في بابه في التاريخ . .

ولا زال هذا الشيء الفريد في بابه في التاريخ قائماً إلى اليوم ، فإن وجوه
الناس الذين نلقاهم هناك إن هي إلا صور مما ترى حولك في بلدك العربي . .
ولا أنسى مشهداً في الطريق من وادي آش إلى غرناطة ، وهو طريق
زراعي يشبه طرق الأرياف عندنا . .

كان الوقت عصراً ، وكنت عائداً متعباً من « حصن اللوز » فجلست
أستريح على الطريق . .

ومن بعيد أقبل فلاح على حماره ، فلاح مصرى فى كل شىء : يلبس
برنسا يشبه الجلباب ، ووجهه أسمر متغضن لا يحمله إلا من اسمه بسطويسى
أو عوضين ، حتى رأسه لفه بشىء يشبه العمامة .
حتى الحمار .. بدا لى مألوفاً جداً حتى خيل لى أننا لو تركناه لىسار توأ
حتى يصل لى بلدنا ..

ووصل الرجل أمامى ، ونظر لى ، ثم أوما لى ، فهضت ، وأوسع لى
مكاناً خلفه ، وأردفنى ..

لم أتكلم ، ولم يتكلم .. وسار بنا الحمار ..

شعرت أن الرجل قريبي ، قريبي من بعيد ..

وعندما وصلنا المكان الذى أريد أنزلنى ومضى فى سبيله ، واختفى
فى منحرج الطريق ..

من أين ظهر ؟ .. لى أين مضى ؟ .. لا أدرى ..

جمعنى وإياه الطريق ..

طريق الأندلس الطويل ..

* * *

قطعت طريق الأندلس — من شمال شبه الجزيرة لى جنوبه ، ومن شرقه
لى غربه حيث تقوم البرتغال — عشرات المرات ..

قطعته وحدى ولا رفيق لى إلا خريطة وكتاب وذكريات ..

وقطعته فى رفقة إخوان من العرب أعزاء ، تحملنا الأحاديث عبر السهول
ومخارم الجبال ..

وكلما طال بنا الطريق نزلنا لنصيب شيئاً من قهوة أو طعام فى واحد من
تلك النزل اللطيفة التى تعمر الطريق ، ولنواصل حديث الأندلس الذى
لا تملة النفس مهما طال ..

وفى أثناء الحديث مع عالم أريب ، أو صحفي لبيب
موهوب ، تبدو الأشياء فى ضوء جديد . .

وفى بعض هذه الرحلات كنت أحس أن رفيقى هذا يتحدث كما
لو كان الجغرافى أبا عبيد البكرى أو الرحالة الأديب إبراهيم الحجارى أو
الشرىف الإدريسى ، وأن صاحبى ذاك يتحدث كأنه الشاعر الأمير المعتمد
ابن عباد أو صاحبه المسكين محمد بن عمار . .

وما مضيت فى هذا الطريق مع صديق إلا أحسست وكأننا أندلسيان ممن
مضوا مع أمس الدابر ، قد غادرنا أهلنا فى قرطبة أو طليطلة ومضينا مع
الدرب الطويل لبعض شأننا ، وأننا لن نلبث أن نلم بقرية من هذه القرى
الكثيرة التى كان يعمر بها أندلسنا فنقصدها جامعها ونصلى ما وجب من الفريضة
ثم نسأل عن الشيوخ وأهل العلم فنقصدهم حيث كانوا . .

ما تصورت أبداً على هذا الدرب أنه قد مضى زمان وأقبل زمان ،
وما وقعت عيني على كنيسة فى قرية إلا رأيتها مسجداً ؛ وما أكثر ما تتشابه
كنائس اليوم بمساجد الأمس فى هذا البلد ! إنها تقوم فى نفس المواضع التى
تعودنا أن نجد فيها مساجد القرى والبلاد الصغيرة عندنا ، حتى أبراجها
لا تختلف أبداً عن مآذن مساجد أريافنا . وفى قرطبة بالذات ، فى نهاية شارع
الجران كاپيتان ، نجد كنيسة صغيرة لا تشك عندما تراها من بعيد فى أنها
مسجد فى بنها أو الزقازيق أو أى حى من أحياء القاهرة . إنها كنيسة
سان نيكولاس ، القديس نيقولا ، لم يغير الزمان من هيئتها المسجدية شيئاً . .

حتى الحديث الذى يجرى بيننا هناك لا يلبث - أيا كان موضوعه - أن
يتطرق إلى الفلسفة والعبرة وما يجرى مجراهما ، وما أكثر ما يهز الزائر العربى
رأسه ويتأسف ويترحم ! كأن الماضى هنا أقوى من الحاضر وأغلب عليه ،
أو كأن المسير فى هذه الدروب إنما هو رجوع مع القرون القهقرى ، أو
ارتفاع بالنفس من واقع الحياة و « تلاهيا » إلى عالم التفكير والتأمل فى قيمة
هذه الحياة وما تساوى عند الله . .

وعندما أغمض عيني قبل النوم يختلط الماضي والحاضر ، وأحاديث
الأمس واليوم بعضها ببعض ، وأحس أنني أعيش زمناً أبداً لا ينتهي ، حتى
ما أدري إن كان الماضون ماضين حقاً أو الحاضرون حاضرين حقاً . .

لأن الزمن هنا خالد لا يموت . .

ولأن الأندلس حتى تنحدر عليه السنون كما تنحدر على شجرة الزيتون . .

شجرة طيبة مباركة ، لا شرقية ولا غربية ، حملها العربي وزرعها في
ثرى الأندلس ، فأصبحت هناك اليوم عماداً من أعمدة الاقتصاد . .

هدية من هدايانا الكثيرة إلى الفردوس الموعود . .

المكان والزمان

الزائر المتعجل الذي تضعه الطائرة في مطار مدريد ، وأمامه ثلاثة أيام يزور خلالها الأندلس ثم يعود إلى الطائرة لتضي به إلى بلد آخر ، يستطيع — مطمئناً — أن يريح نفسه والأندلس من هذا العناء . .

يستطيع أن يأخذ كتاباً مصوراً يتصفحه وهو مطمئن في كرسيه ويقول : لقد رأيت الأندلس ! وهو صادق ، فإنه لو خطف رجله ومضى كالطائر من بلد لبلد فلن يرى أكثر مما يراه في الصور . .

والزائر المتمهل بعض الشيء ، الذي يستقل السيارة من مدريد ، ثم يغلق عينيه فلا يفتحهما إلا تحت سقف جامع قرطبة ، ثم يمضي يتعجب ويتأسف ، ثم يغلقهما ليفتحهما ثانية أمام الحمراء فيعيد التعجب والتأسف . . يستطيع أيضاً أن يوفر على نفسه هذا العناء ، دون أن يحرم نفسه متعة التعجب والتأسف ، وهو مقيم مكانه لا يبرحه . .

لأن الأندلس ليس آثاراً ماضية . إنه ليس جامع قرطبة وقصر إشبيلية ومنارة الخير الأدا وحمراء غرناطة . إنه كائن لا يزال حياً ، لا زال يتنفس . إنه أرض الأندلس ، وشجره ، وجباله ، وصخوره ، ووديانه ، وبلدانه . .

إنه كائن حي كامل ، لا بد أن تراه كاملاً لتعرف من هو . . وهذه الآثار الباقية هي شيء من الزينة التي كان يتحلى بها ، أو بعض

الملابس التي كان يرتديها . . والزينة والملابس قد تدل على جانب من الرجل ، ولكنها ليست الرجل . . وهل تستطيع — مثلاً — أن تقول إنك تعرف مصطفى كامل إذا زدت غرفة تضم المكتب الذي كان يكتب عليه ، والقلم الذي كتب به ، والساعة التي كان ينظر فيها ؟ . .

لكي تعرف الرجل ينبغي أن تقرأ حياته وكتابات ، ينبغي أن تعيش معه . . والإسبان أنفسهم يقولون : a todo señor todo honor (لكل سيد حقه من التكريم) . .

والأندلس سيد عظيم ، وحقه علينا عظيم . وأقل حقوق هذا السيد علينا أن نمنحه من وقتنا — إذا شئنا زيارته — ما هو جدير به ، وألا ننصرف عنه إلا إذا أذن لنا ، أو أذنت لنا قلوبنا . وما أظن أنها تأذن إلا على رنمها ، فإن الأندلس حبيب ، حبيب غادرناه من زمن طويل ، واللقاء بيننا وبينه لقاء مسعد تستريح إليه القلوب . .

* * *

وقبل أن يمضي بنا الحديث ، نحب أن نحدد المراد بـ « الأندلس » . . يطلق لفظ « الأندلس » اليوم على الجزء الجنوبي من إسبانيا ، ويقع جنوبي نهر الوادي الكبير ، وهو يضم سبع مديريات ، هي : قرطبة وإشبيلية وقادش وجييان (خاين) وغرناطة ومالقة ووكبة (أويلبا) .

هذه المديريات السبع تسمى اليوم « أندالوثيا » ، فإذا قيل اليوم إن فلاناً أندلسي كان المراد أنه من إحدى هذه المديريات ، وإذا قيل إن هذه القطعة الموسيقية أندلسية كان المقصود أنها من الجنوب ، تحمل روحه وطابعه في اللحن والأداء . .

أما العرب فكانوا يطلقون لفظ الأندلس على ما شمله سلطانهم من شبه الجزيرة ، ولم يشمل هذا السلطان شبه الجزيرة كله دائماً ، وإنما مر بموجات متعاقبة من المد والانحسار . .

ففى وثبة الفتح الأولى (٧١٠-٧١٥م) شمل الأندلس شبه الجزيرة كله ، من جبل طارق فى الجنوب إلى جبال البرت الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا (وهى التى تعرف اليوم باسم البرانس) وإلى الساحل الشمالى لشبه الجزيرة المطل على خليج بسكايه ، وهو المعروف بساحل كنتبَرِيَّة ، وكان العرب يسمونه بحائط لإفرنجة . .

وقد قام بهذا الفتح ثلاثة من أبطال الفتوح الإسلامية الكبرى ، هم : طارق بن زياد وموسى بن نصير وابنه عبد العزيز بن موسى . .

وأعقب هذه الاندفاعة الأولى عصر قصير امتد أربعين سنة (٧١٥ - ٧٥٥) يسمى عصر الولاة كان الأندلس خلاله ولاية تابعة لمركز الخلافة الأموية فى دمشق ، وقد انحسر مُلك العرب خلاله بعض الشيء ، فخرج عنه الركن الشمالى الغربى المعروف بِجَلِّيْقِيَّة (جاليشيا) وكل الأراضى الواقعة بين ساحل كنتبَرِيَّة ونهر دُوِيْرُهُ حتى الطرف الغربى من جبال البرت . .

وفى هذا الجزء الذى ضاع نشأت إمارات نصرانية هى : أشتُرِيَس (أشترياس) التى عرفت فيما بعد بمملكة ليون ، وإمارة تَبَرَّة (نافار) وإمارات أخرى صغيرة كثيرة فى منطقة جبال البرت .

أى أن حدود الأندلس امتدت من الجنوب إلى نهر دُوِيْرُهُ ، وظلت فى ناحية الشرق شاملة لحوض نهر إِبْرُهُ كله حتى جبال البرت ، وهذه الناحية الشمالية الشرقية عرفت فى مجموعها بإقليم الثغر الأعلى ، وكان يضم أربع كور (أى مديريات) هى : سرقسطة (ثارجوثا) ولاردة (ليريدا) ووشقة (أويسكا) وطرطوشة (ترتوزا) .

ويستثنى من ذلك الطرف الشمالى الشرقى من إقليم برشلونة ، ويسمى قطلونية (كاتالونيا) فقد شمله سلطان مملكة الفرنجة فى فرنسا . هناك أنشأ ملوكها ولاية ثغرية (ولاية حدود) عرفت باسم الثغر الإشباني (ماركا هيسبانيكا) .

ولم يخضع إقليم قطلونية للعرب إلا خلال فترات قصيرة .

ثم أقبل إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان المعروف بالداخل (أي الذي دخل الأندلس). وأنشأ الإمارة الأموية القرطبية سنة ٧٥٦، وثبت دعائم السلطان العربي في هذه الحدود التي ذكرناها .
وخلف عبد الرحمن سبعة أمراء من خيرة من عرف العرب والمسلمون من حكام كفاية وحزماً وعدلاً وإحساساً بمسئولية الحكم ومطالب العمران ، وإليك أسماءهم وسنوات حكمهم بما فيهم عبد الرحمن :

٧٨٨ - ٧٥٥ م	عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل)
٧٨٨ - ٧٩٦	هشام بن عبد الرحمن المعروف بهشام الرضى
٧٩٦ - ٨٢١	الحكم بن هشام المعروف بالربضى
٨٢١ - ٨٥٢	عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط
٨٥٢ - ٨٨٦	محمد بن عبد الرحمن
٨٨٦ - ٨٨٨	المنذر بن محمد
٨٨٨ - ٩١٢	عبدالله بن محمد

ثم تولى عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله المعروف بالناصر، وهو حفيد عبدالله، وهو دون شك أعظم من عرف الجناح الغربي للعالم الإسلامي من حكام، وهو الذي ثبت أركان الأندلس الإسلامي ورفع مناره في الدنيا، حتى أصبحت قرطبة على أيامه درة العالم المتمدن حضارة وقوة ونظاماً .

حكم عبد الرحمن الناصر خمسين سنة هجرية (تسعين وأربعين ميلادية) ، أنفق نصفها الأول في تمهيد وتدعيم قواعد السلطان وإعلاء شأن العروبة والإسلام في الأندلس ، حتى إذا بلغ من ذلك ما يريد رأى أن اسم الإمارة لم يعد يناسب ما بلغت دولته من عظمة وجلال ، فاتخذ لقب « الخليفة » في سنة ٩٢٩ وتسمى بـ «الناصر لدين الله» ، ومن ذلك الحين أصبح الأندلس دار

خلافة إسلامية لا مجرد إمارة، وأصبح العالم الإسلامي مقسماً بين ثلاث خلافات: العباسية، والفاطمية، والأموية الأندلسية.

وتعتبر الفترة من ٩٢٩ إلى مارس ١٠٠٩ العصر الذهبي للأندلس : بلغت حضارته أثناءها أوجها ، واستقرت قواعد الحكم في مادان للخلافة الأموية من أرض شبه الجزيرة استقراراً كاملاً ، ودانت الممالك والإمارات النصرانية في الشمال بالطاعة لخليفة قرطبة ، ووفد ملوكها وأمرائها على قرطبة يخطبون ود الخليفة العظيم ، وطار ذكر قرطبة وحضارتها في نواحي أوروبا كلها . .

وخلفاء هذا العصر الذهبي هم :

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، الناصر لدين الله	٩١٢ - ٩٦١ م
الحكم بن عبد الرحمن المعروف بالمستنصر	٩٦١ - ٩٧٦
هشام بن الحكم المعروف بالمؤيد	٩٧٦ - ١٠٠٨

وكان هشام هذا عندما تولى الأمر غلاماً صغيراً ، فتولى الأمر باسمه ومن دونه رجال الدولة ، واستطاع واحد منهم هو محمد بن أبي عامر أن يقبض على زمام الملك بيد من حديد ، وأن يجعل من نفسه الحاكم الفعلي في بلاد الخلافة . وقد تلقب بالمنصور ، وكان عبقرياً من عباقرة السياسة والحرب ، وشعلة من النشاط والعمل ، وقد استطاع أن يوسع رقعة الإسلام في الأندلس فتخطت نهر دويره وارتفعت حتى نهر آخر صغير إلى شماله يسمى نهر المنيو ، وضمت جزءاً كبيراً من إمارة نَبَرَة (نافار) .

وخلف المنصور في مركزه وعمله اثنان من أبنائه ، ظلت حدود الأندلس في عهدهما كما كانت في عهد أبيهما ، وهما المظفر عبد الملك بن محمد بن أبي عامر ثم أخوه عبد الرحمن .

وقد ثار الأندلسيون على هذا الأخير ، وبدأت فتنة أهلية مخربة ، تعاقب على عرش الخلافة في أثناءها عدد من الخلفاء ، من بني أمية أولاً ثم من أسرة

تعرف ببني حمود وهم فرع من أدارسة المغرب الاشراف، ثم عادت إلى بني أمية مرة أخرى، ولم يستقر لها قرار بعد ذلك. حتى إذا تولى آخر بني أمية الأندلسيين - ويسمى هشاماً المعتد - كان أهل قرطبة قد سئموا هذه الفوضى، فاجتمع رؤساؤها وقرروا إلغاء الخلافة الأموية سنة ١٠٣١ م.

وهذه هي نهاية الخلافة الأموية في الأندلس.

وتقسمت بلادها لإمارات، تولى الأمر في كل منها مستبد بالامر، حتى أصبحت كأنها ممالك متعادية، وبدأ في تاريخ الأندلس ما يعرف بعصر ملوك الطوائف.

وفي أثناء النزاع على كرسى الخلافة انتهز ملوك النصارى في الشمال الفرصة، ووسع كل منهم سلطانه قدر ما استطاع على حساب المسلمين، فانحدرت حدود الأندلس إلى نهر تاجه، فيما عدا الناحية الشرقية إذ ظلت حدود الأندلس هناك في حوض نهر إبرة.

أى أن الأندلس لم يعد يشمل إلا نصف شبه الجزيرة.

وفي سنة ١٠٨٥ تمكن ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون من الاستيلاء على واحدة من أكبر ممالك الطوائف وهى طليطلة، وامتدت حدود مملكته بهذه الضربة حتى وصلت نهر آنة أو وادى آنة.

ومن ذلك التاريخ لم يعد الأندلس يشمل إلا ثلث الجزيرة، وأقبل ألفونسو السادس وغيره من ملوك إسبانيا النصرانية يهددون هذا الثلث.

وأمام الخطر المحيى استنصر الأندلسيون بأبناء عموماتهم أهل المغرب، وكانت دولة المرابطين قد قامت وامتد سلطانها حتى شمل ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية وجزءاً من غربى الجزائر، وما يعرف بموريتانيا (مروطانية).

وخف يوسف بن تاشفين رأس الدولة المرابطية لغوث الأندلس، وهزم ألفونسو السادس فى معركة كبرى هى «الزلاقة» سنة ١٠٨٦، وبهذا أنقذ

بقية الأندلس من الضياع ، ثم أزال دول الطوائف ووحيد بقية الأندلس تحت رايته .

والأندلس هنا لا تمتد حدوده إلا إلى نهر وادى آنه ، مع بقاء حوض نهر إيسره داخلا في نطاقه .

وعندما ضعف أمر المرابطين وقام عليهم الموحدون في المغرب ، ثار بهم نفر من الأندلسيين ، وعادت الفتنة ، وفي أثناءها استولى ملك أرغون على حوض الإبرة ، أى على الثغر الأعلى وعاصمته سرقسطة ، وكان ذلك سنة ١١١٨ .

وبهذا أصبح الأندلس لا يشمل إلا ربع شبه الجزيرة .

وبعد أن تم النصر للموحدين عبروا إلى الأندلس سنة ١١٥٠ ليحافظوا على ما بقى منه .

وقد تمكن الموحدون من ضبط أمور هذا الأندلس الصغير لفترة قصيرة من الزمان ، ولكن أعباء إمبراطوريتهم - التي شملت المغرب العربى إلى حدود ليبيا - ثقلت عليهم ، وعلى الرغم من انتصارهم العظيم في معركة الأرك (يوليو ١١٩٥) لم يلبثوا أن انهزموا في معركة العقاب (لاس ناكاس دى تولوزا ، يوليو ١٢١٢) التي تعتبر نهاية حكمهم الفعلى في الأندلس ورمز انهيار حدود ملك الإسلام فيه ، ففي أثناء الصراع المير بين المرابطين والموحدين سقطت بلاد إسلامية كبرى في أيدي ملوك النصارى .

ولذلك بعض التواريخ الهامة لمراحل هذا الانحسار :

سقطت طرطوشة سنة ١١٤٨ ، ولاردة ١١٤٩ ، وقلعة رباتح (كالاترافا) ١١٥٧ ، وكل ما يعرف اليوم بالبرتغال بين ١١٥٧ و ١١٧٧ ، وجييان ١٢٣٢ .

وفي سنة ١٢٣٦ سقطت قرطبة عاصمة الأندلس العربى الإسلامى ، ثم بلكنسية ١٢٣٨ ، ثم مرسية وكل شرق الأندلس حتى مالقة ١٢٤١ .

ثم سقطت لإشبيلية ١٢٤٨ ، وتبعها شدونة وأركش وقادش وما يتصل بها ..

ووسط هذا الطوفان استطاع فارس عربي أندلسي هو محمد بن الأحمر أن يعتصم في غرناطة وما حولها حتى وادى آش في الغرب ومالقة في الشرق ، وأنشأ إمارة عربية تجمعت فيها أعداد عظيمة من هاجر من المسلمين من البلاد التي سقطت ، وحصن هذه النواحي تحصيناً قوياً ، واستطاع أن يصمد فيها لهجات الممالك النصرانية ابتداء من سنة ١٢٣١ .

وفي هذا الركن الجنوبي الصغير عاش الأندلس العربي الإسلامي وانحصر فيه قرنين ونصف قرن من الزمان .

ورغم ما بذله خلفاء ابن الأحمر من جهود لم يستطيعوا الثبات أمام الضغط المتصل والهجوم العنيف ، فما زالت حواضر سلطنتهم تسقط الواحدة بعد الأخرى ، حتى استسلمت غرناطة في ٢ يناير ١٤٩٢ على يد فرناندو وإيزابيلا ملكي ارغون قشتالة وليون ، وهما المعروفان بالملكين الكاثوليكين .

هذا هو تاريخ أندلسنا بين المد والانحسار ، تستطيع أن تتبج حدوده مع مجارى أنهار شبه الجزيرة ، فعظمها يسير من الغرب إلى الشرق بين سلاسل جبال ، كأنها حدود طبيعية .

ففى عهد الفتح الأول كان الأندلس يعنى شبه الجزيرة كله ، أى ما يعرف اليوم بإسبانيا والبرتغال .

وفي عصرى الإمارة والخلافة كانت الحدود مجرى نهر دويره ثم تتصل مع حوض نهر لبره .

وفي عصر ملوك الطوائف انحدرت إلى مجرى نهر آنة ..

وفي عصرى المرابطين والموحدين لم تتعد نهر الوادى الكبير ، فيما عدا الناحية الشرقية التي ظلت كاملة تقريباً في يد المسلمين حتى سنة ١١١٨ ، أى إلى سقوط سرقسطة ..

وفي عصر بني الأحمر انحصر الأندلس جنوب نهر من نهيرات الوادي الكبير يسمى نهر شينيل ، وعلى نهر من نهيرات هذا الأخير يسمى حدّاره (دارو) تقوم غرناطة .

وتدخل في الأندلس الإسلامي الجزائر الشرقية ، وهي المعروفة بالبليار ، أكبرها ثلاث : مَيُورقة ومَنورقة ويابسة .

وقد خرجت هذه عن الأندلس بعد سقوط بَلَنَسِيّة سنة ١٢٣٨ ، سقطت في أيدي ملوك أرغون واحدة بعد أخرى . .

* * *

ربما كانت أمثل طريقة نزور بها الأندلس أن نبدأ من الجنوب ، لكي نسير في آثار العرب الذين أنشأوه . .

نبدأ من جزيرة طريف إلى جبل طارق إلى الجزيرة الخضراء إلى مَوْرور . .
أو من مالقة إلى أنطكيرة إلى شدونة إلى إستيجة . .
أو من المريّة إلى بَجانة إلى فَنِيانة إلى وادي آش . .
فهذه وأمثالها كانت طرق أجدادنا إلى الأندلس . .

وإذا رأيت مثلاً خريطة العالم كما رسمها ابن حوقل أو الإدريسي لرأيت البحر مقلوباً : مصر والشمال الإفريقي وبلاد العرب في أعلى ، وأوروبا في أسفل . .

وربما كان هذا هو الوضع الصحيح للعالم وللناس . .
ولكن الدنيا قد انقلبت : أصبح الأعلى أسفل وبالعكس . .
وما دمنا نعيش في دنيا مقلوبة فلا حيلة لنا . .
ولنبدأ من الأسفل على أنه أعلى ، ومن النهاية على أنها بداية . .
نبدأ الطريق من مدريد . .

أنت تعرف — طبعاً — أن العرب كانوا يسمونها مجريط ، وسنفردها

بفصل من هذا الكتاب ، ولكن سياق الكلام هنا يقتضى أن نتعرف أصل هذا الاسم . .

كلمتان يسيران فيهما كفاية . هذا الاسم يأتي من اللفظ العربى « مجرى » مضافاً إليه أداة من اللغة الإيبيرية القديمة هى « إيت » أو « إيط » ويراد بها التكثير . . فيقال : البيطريط ، من « بتر » أو « بطرا » - وهى الحجارة - مضافاً إليها « إيت » أو « إيط » ، والمعنى : الموضع الكثير الحجارة .

ولإذن فجريط معناه الموضع الكثير الجارى ، أو الكثير المياه . وهذا يطابق الحقيقة التاريخية ، فإن مدريد القديمة كانت تقوم إلى جنوب مدريد الحالية على مقربة من النهر الصغير الذى يسمى بالمثثاناريس ، وعندما عمرها العرب ساقوا إليها المياه ونظموا جريها بواسطة مجار تحت الأرض وقناطر وحنايا آثارها باقية إلى اليوم .

إلى هنا كفاية ، ونخرج من مدريد . .

طريقنا يجرى إلى الجنوب فى اتجاه ضاحية جميلة أشبه بالروضة تقع على ضفاف نهر تاجه هى أراخنويث . قبل أن نصل إلى هذه الضاحية نمر فى فسيح من الأرض قاحل ماحل ينذر أن يرى الإنسان فيه شجرة . أرض صخرية جافة تصور لك طبيعة الإقليم الذى تقع فيه عاصمة إسبانيا . لقد أكل الجفاف والرياح لحم الأرض - أى الطبقة الرقيقة التى تنمو فيها النباتات - منذ ألوف السنين . لم يبق من الأرض إلا هيكلها العظمى . إن كنت تريد أن ترى عظم الأرض فى مكان ما فدونك وهذا . .

وسط هذا المحيط الماحل تطفر أمام عينيك فجأة أراخنويث ، جنة وارفة الظلال مشرقة الخضرة على ضفة نهر تاجه . إنها تذكرك بقرساي ، وبالفعل فإن الذين أنشأوها هم ملوك أسرة البوربون الذين استقر لهم الحكم فى إسبانيا بعد حرب أهلية وأخرى أوروبية طالت ثلاث عشرة سنة . وهم من أبناء هنرى الرابع ولويس الرابع عشر ملكى فرنسا . صار لهم عرش إسبانيا نتيجة

لزيجات ومصاهرات . أول من حكم إسبانيا منهم فيليب الخامس (١٧٠٠ - ١٧٢٤) ، وفي أثناء الصراع الذي أوصله إلى العرش كانت فرنسا تؤيده ، ووقفت إنجلترا تؤيد خصمه الأرشيدوق كارلوس ، ولكي تشد أزره احتلت صخرة جبل طارق (٤ أغسطس ١٧٠٤) ، ولما انتهت الحرب رفضت الخروج منها ، ولا زالت ترفض ، بل جعلت جبل طارق جزءاً من ممتلكاتها . هكذا بدأت مأساة هذا الجبل الذي يحمل اسم الفاتح العربي طارق بن زياد . إنها نموذج صغير من أعمال الغصب التي بت بها إنجلترا إمبراطوريتها .

أرانخويث تستحق وقفة يسيرة . . إلى جانب الأشجار وغابات الحور والصنوبر والسنديان ، هناك النهر الجميل « تاجه » والقصور البديعة ، وهناك ثلاثة أشياء تشتهر بها : البلبال الطلقة على الأشجار ، والفراولة ، والاسفراج المعروف بالأسبرج ؛ والعرب هم الذين أدخلوه إسبانيا .

* * *

بعد الخروج من أرانخويث يخيل إليك أن الحياة قد ماتت فجأة . مرة أخرى نعود إلى صحراء الصخور . هنا وهناك تلقانا بلدة صغيرة صخرية كالبيئة المحيطة بها : أوكانيا ، دوس باريوس ، لاجوارديا ، مدريدنخوس ، حتى نصل إلى فالديبينياس . تدهشك قلة المواضع التي تحمل أسماء عربية على هذا الطريق . السبب أن العرب لم يستقروا كثيراً في هذه النواحي ، ولم يكن هذا طريقهم إلى الشمال . كانت جماعاتهم تفضل البطاح الخصبة إلى الشرق ، وكان طريقهم — لهذا — يسير بعيداً إلى الشرق . المنطقة كلها تسمى قشتالة الجديدة (كاستيليا لانيوفا) . قشتالة القديمة تبدأ من الشمال عند سانتاندر وتنتهي عند أرانخويث .

نحن الآن بين نهري تاجه ووادي آنة . هذا النهر كان يسميه العرب هكذا ، أما تعريبه إلى « الوادي البانع » فتكلف لا معنى له . . على يسارك يمتد إقليم المانشا ، وعلى يمينك إقليم إستريمادورا .

المانشا لفظ عربي محرف . صحته المنجى وهي الأرض المرتفعة ، وهي بالفعل أرض عالية واسعة على حافاتها من كل ناحية جبال عالية فكأنها حصن منيع . لم يطمئن العرب إلى سكناها ولم يكن لهم فيها غير بلاد صغيرة مثل وبندة (أويثي) وشنتميرية الشرق (سانتا ماريا دي ألباراثين) ، بل كانوا يسخرون من أولئك الذين يسكنونها ، إذ كانوا مشهورين بالإفراط في البداوة وجفاء الطبع . أشهر نواحي هذا الإقليم تقع في الجنوب ، وكانت تسمى « فححص البكوط » .

الإسبان أيضاً يسخرون من المانشا لأنها الميدان الذي اختاره ثرفانتس ليكون مسرحاً لمغامرات بطله الدون كيخوته دي لامانشا ، تستطيع أن ترجمه : السيد كيخوته المنشاوي أو المنجاوي ، والتسميتان لها طعم مصرى . .

ليس في الدنيا جهة أصلح لمغامرات الدون كيخوته من المانشا : أراض فسيحة مترامية لا يكاد يعمرها أحد . كان الناس يظنون أن الشياطين والمردة تسكن الفلوات ، ومن أراد أن يحارب الشياطين فليخرج إلى القفار . الأديرة الكثيرة المنتشرة في صحارى مصر بناها رهبان كانوا يريدون أن يقضوا حياتهم في حرب الشياطين والتغلب عليها ، هذا أيضاً كان هدف الدون كيخوته : أراد أن يهب حياته لحرب الشياطين من الإنس والجن ، لهذا أرسله ثرفانتس إلى هناك . .

وليس في الدنيا قصة طبعت الإقليم الذي جرت فيه بطابعها كما فعلت قصة الدون كيخوته بإقليم المانشا ، حتى أصبحت المواضع وأسماء الأعلام الخيالية الصرفة حقائق لا تقبل الشك عند الكثيرين . .

وما أكثر السائحين الذين يتحملون عناء الرحلة من بلد بعيد حتى يصلوا إلى بلدة ماثاناريس ، وهناك يحطون رحالهم ، ويمضون في طريق متعبة باحثين عن المواضع التي ذكرها ثرفانتس في قصته الخالدة : عن الطاحونة التي حارب أجنتها ، عن القرية التي صارع فيها الدمى ، عن الكهف الذي

قضى فيه أسبوع التوبة راکعاً يصلى ليتطهر ويخرج فارساً نبيلًا يحارب المردة والظالمين !

وليس فى هذه المواضع كلها إلا واحد يحتمل أن يكون صحيحاً ، هو قرية التوبوزو ، تصل إليها فى طريق مترب متعب ، وهم يقولون إنها قرية الفتاة التى عشقها ثرفانتس نفسه ، وصورها فى القصة فى شخصية دولثينا حيية الدون كيوخوته . يقولون إن اسمها الحقيقى أننا داركو دى موراليس .

وعلى أى حال فأهل القرية يعتبرون ذلك حقيقة ، ولا يشكون فى أن التوبوزو أهم بلد فى الدنيا ، وكيف يشكون فى ذلك ولديهم مكتبة فى دار العملة تضم نسخاً من الدون كيوخوته بكل لغة — من الإنجليزية إلى الأردية واليابانية — تحمل إهداءات موقعة من أسماء عظيمة مثل هندنبورج وموسوليني ودى فالبرا ؟

إلى هذه المجموعة أضفت فى يوم من أيام أغسطس ١٩٥٨ النسخة العربية.

وعندما ترك بلدة ماثاناريس تستطيع أن تمر بميدان من ميادين الخلود فى تاريخنا . فعلى خمسين كيلومتراً إلى غرب هذا البلد تقع مدينة ثيوداد ريال ، أى المدينة الملكية ، وهى مدينة محدثة أنشأها ملوك إسبانيا فى القرن السابع عشر ، وهى اليوم عاصمة المديرية التى تقطع أراضيها . على سبعة كيلومترات غربى ثيوداد ريال تجد بلداً صغيراً يسمى سانتا ماريا دى ألاكوس ، وهى التى أرجو أن تزورها .

فالبطاح المحيطة بالتل الذى تقوم عليه هذه القرية تسمى كامبو دى كالاترافا ، بطاح قلعة رباح . وكانت قلعة رباح بلداً إسلامياً عظيماً له صدى بعيد فى تاريخنا الأندلسى ، وهو اليوم قرية صغيرة تسمى كاستييو دى كالاترافا لافييخا (حصن قلعة رباح القديمة) وقد نشأت إلى جواره قرية جديدة تسمى كالاترافا لانويقا (قلعة رباح الجديدة) .

فى هذه المساحة الواسعة دارت رحى معركة الأرك الخالدة يوم الأربعاء

١٥ جمادى الثانية ٥٩١ / ٢٧ مايو ١١٩٥ وانجلت عن نصر عظيم للجيش العرب والإسلام يقودها أبو يوسف يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين على جحافل كبرى كان يقودها ألفونسو الثامن ملك قشتالة .

« * »

على يمينك يمتد إقليم إستريمادورا أشد أقاليم إسبانيا جفافاً وقحلاً . اسمه يحمل وصفه : إكستريما (الأقصى) + دورا (الجفاف) = الجفاف الأقصى . إنه صحراء ، أو ينبغي أن يكون صحراء ، لولا جهد الإنسان . الجبال في أقصى شمالها (جبال طَلَيْطِلَة التي يسميها العرب جبال البرانس) وفي أقصى جنوبها (سِيرَامورينا ، وسنمر بها بعد قليل) تجتذب السحب فتعصر ماءها ، ثم تدع الهواء يمضي صافياً جافاً كهذا الهواء النقي الذي يصنع الصحراء .

هنا تستطيع أن تمضي ساعة كاملة بالسيارة دون أن ترى مخلوقاً . يحذرونك أن تنطلق وحدك في هذه المتاهة ، وخاصة في الطريق من كاثيريس (قَصِيرش) إلى أَلْبُوكِيرِك (تحريف شنيع ، أصله : أبو بكر) . . لقد شبهها الرحالة لَـبَلَاتِيَّ بصحراء العرب . الجغرافيون الإسبان ينكرون ذلك في عنف ، ولكن الحقيقة التاريخية تؤيده . فقد أحب العرب هذه الناحية وسكنوها وعمروها كما كانوا يعمرن الخوف الشرق في مصر ، لا يدرى أحد كيف ، ولكنهم بطبيعتهم كالجمال ، يعرفون كيف يعيشون في الرمال . .

ليس بعجيب أن تكون في هذه الناحية مدينة تسمى « صفراء » لأن أصل الاسم عربي : صحراء ، وتلك هي الناحية التي سمى العرب جنوبها « الجوف » وأنشأوا فيها مدناً عامرة أهلها رعاة محاربون : تَرْجَالَة (تَرْوُخِيُو) ، شنت أكرج وقنطرة السيف وأم غزالة وغيرها كثير . وفي هذه الناحية بالذات كسب العرب نصراً من أكبر الانتصارات التي كسبوها في عصورهم الأخيرة

في الأندلس ، نصر الزَّلَاقَة (ساكراجاس) على مَقْرَبَة من بَطْلَيْئُوس
(اليوم : بَدَاخُوس) . .

وكما صنعت صحراء العرب أعظم محاربين عرفهم التاريخ ، فقد صنعت
إستريمادورا أعظم محاربين أطلعهم إسبانيا . من هنا خرج عدد من أكبر
الفاطحين الذين ذلّوا أمريكا الوسطى والجنوبية للإسبان : هنا موطن هِرْنان
كُورْتيس قاهر إمبراطورية الأزتيك في المكسيك (أصله من مِدْلين) ،
ونُونْيُوس دى بالبُؤَا فاتح بُنَا ومكتشف المحيط الهادى من ناحية أمريكا
(أصله من شَرِيش الفرسان) ، وفرانثيسكو بيثارو فاتح بيرو ومحطم دولة
الأنكا (أصله من تُرْجالة) ، ومن هنا خرج الألوف من الجنود المجهولين
الذين أنشأوا مجد إسبانيا وراء البحار ، أولئك الذين يسمونهم
الكُونْكِيستادوريس ، وهم دون شك من أكبر الفاتحين الذين عرفهم التاريخ :
تصور أن الذين فتحوا المكسيك كانوا نحو ٤٠٠ منهم مسلحين ببنادق بدائية
وستة مدافع !

هناك ، وابتداء من بلد يسمى طَلَبِيرَة الملكة (تالافيرا دى لارينا)
طريق يسمى إلى الآن طريق الفاتحين (لاروتا دى لوس كونكيستادوريس)
يسير حتى إشبيلية ، ومن ميناء صغير جنوبى إشبيلية يسمى سان لوكار (شَنَلُوقَر)
خرجت الحملات بعد الحملات إلى العالم الجديد ، من هذا الثقب الصغير خرج
الطوفان الذى أنشأ لإسبانيا ملكاً يعدل مساحتها عشرات المرات .

* * *

نعود إلى طريقنا . وصلنا إلى فالديبينياس على الطريق الرئيسى إلى
الأندلس ، المعروف على الخرائط بطريق رقم ٤ .
نحن فى منطقة من أغنى مناطق العنب فى إسبانيا ، ونبيذ فالديبينياس اسم
كبير فى عالم الخمور .

على يميننا وشمالنا تمتد المزارع تقوم فيها صفوف الشجيرات كأنها جنود ،
منظرها من بعيد يذكرك بحقول القطن عندنا .

الأرض هنا أرض رى ، فنحن نقرب رويداً رويداً من ملتقى عشرات من مجارى الماء الصغيرة التى تنبع من قمم عالية تسمى فى مجموعها سلسلة جبال الكاراذ (الاسم محرف عن الكرز أو الكريز) وسلسلة جبال كاثورلا وسلسلة جبال شقورة ، ثم تنحدر كل مجموعة من المجارى ناحية لتتكون بعد ذلك نهراً : المجموعة التى تنحدر إلى الجنوب تشارك فى تكوين الوادى الكبير ، والتى إلى الشمال تكون الوادى آنه ، والتى إلى الشرق تكون نهر شقورة ، وهو نهر مُرسية ، البلد الذى ولد فيه أبو العباس المرسى قديس الإسكندرية وملاكها الحارس . .

أسماء هذه الأنهار كلها عربية : نهر خَبَالُون (جبل عون) ، جَوَادَالِين (وادى العين) ، جَوَادَالْمِينَا (وادى المنار) ، وهكذا . .

بعد بلدة فالدينياس نبدأ فى اجتياز الممرات الكبرى المؤدية إلى قلب الأندلس . هذه الممرات تجرى وسط قمم شاهقة وهضاب عالية وتلال تتوالى من شرق ومن غرب . هذه الجبال والهضاب والتلال تسمى فى مجموعها جبال سِيرَامورينا ، أى الجبال السمرء . كان العرب يسمونها جبل المعدن . جبال مَهِيْلَة كما يقول ابن خلدون ، حجارتها جرانيتية سمرء داكنة ، من هنا جاء اسمها الإسبانى . إنها تمتد إلى الغرب حتى قرب حدود البرتغال . هذه الجبال كلها كانت الدرع التى تقى قلب الأندلس ، وهو حوض نهر الوادى الكبير .

مَنْ ملك نواصى هذه الجبال ملك الأندلس . ظل العرب فى أمن وعز طالما كانت هذه الجبال فى أيديهم . فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى اضطرب أمر الخلافة الأندلسية وتنافس الرؤساء ، كل منهم يريد أن يكون ملكاً ، وصاروا بالفعل ملوكاً كلوك المسرحيات : ملابس وكلام ، ثم لا شىء . .

هنا تقدم العدو الرابض فى الشمال . ما كان ليحسر على التقدم قبل ذلك أبداً ، ولكن الحقد بين الرؤساء والتنافس والغيرة فتحت له الطريق ، وفجأة

استولى الفونسو السادس على طليطلة وكان إقليمها يمتد إلى حدود هذه الجبال، أسلمه إياها ملك غلام تافه وسط حيل ومؤامرات . .

لم يدرك حين أسلمها أنه أسلم الأندلس كله . جهود أربعة قرون ، حضارة بنيتها أجيال بعد أجيال ملايين من الأندلسيين الآمنين العاملين . . كل هذا سلمه للعدو غلام . كان يسمى نفسه — لسخرية المقادير — القادر ! كان ذلك سنة ١٠٨٦ .

كان العالم الإسلامي كله في ذلك الحين في حالة يرثى لها من التفكك . بعد ذلك بثلاث عشرة سنة — ١٠٩٩ — ينزل الصليبيون أرض الشام ويستولون على بيت المقدس .

* * *

تركنا خلفنا فالديينياس ، الممرات التي نجتازها مرتفعة رهبة ولكنها خضراء ، غابات زاهية تطل على خنادق عميقة . الطريق يجرى بينها كأنه أفعى تتلوى ، في بعض الأحيان يخيل إليك أن السيارة تجرى بك على فيراندا طويلة تدور حول الجبل . .

في وسط هذه الجبال موضع تطل عليه القمم وتتلاقى عنده مجارى الأودية يسمونه ديسبينييا پرؤس . . اسم غريب ، لأن معناه « المكان الذى يطردون عنده الكلاب » ، يقذفون بها من قمم الجبال . الاسم وضعه الإسبان أثناء الحرب الطويلة بيننا وبينهم على المصير الأخير للأندلس ، هناك أقاموا حصوناً ليردوا هجماتنا . . في بعض كتبها يسمى مطرد الكلب .

هذه الممرات كانت أيضاً جنة قطاع الطرق . لا بد أنك قرأت أو رأيت فلماً من هذه الأفلام التي تصور قطاع الطرق الإسبان بملابسهم التقليدية المهلهلة، يعصبون رؤوسهم بمناديل حمراء تحت القبعات . هؤلاء كانوا سادة هذه الجبال من القرن السادس عشر إلى منتصف التاسع عشر، قصصهم ومغامراتهم تشبه الأساطير . لم يكونوا كلهم لصوصاً ، كان فيهم أبطال هاربون من ظلم

الملوك ورجال الملوك . من هؤلاء خرج أعنى قراصنة المحيط ، أولئك الذين سادوا المحيط الأطلسي والبحر الكاريبي زماناً طويلاً ، وهؤلاء بالذات كسبوا لإسبانيا انتصارات خلدها التاريخ . .

وفيما بين ديسبينايا وروس وباييلين تمضى بك السيارة في منحرجات و «مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه» - كما يقول المتنبي في بيته المشهور في ميمته الخالدة : « وفاء كما كالربع أشجاه طاسمه » - حتى تصل إلى بلد صغير يسمى ساننا إيلينا (القديسة هيلانة) . . هنا قف لحظة واقرأ الفاتحة وترحم على أرواح بضع عشرات الألوف من المسلمين استشهدوا على مسافة يسيرة غرب ذلك البلد الصغير . .

أولئك هم شهداء معركة العقاب ، والمراد بها العقبات ، وهى المقابل العربى لاسمها الإسباني « لاس نافاس دى تولوزا » ؛ والنافا هى المرتفع أو العقبة .

ولو استطعت أن تفرغ بعض يوم للطواف بهذه الناحية لعشت لحظات في مشهد لا ينسى من مشاهد تاريخنا الأندلسي ، بل تاريخنا العام . .

ستجد نفسك بين جبال عالية تقطعها وديان ووهاد ، وستشعر برهبة بالغة . لأنك الآن في قلب جبال المعدن أو سيراً مورينا كما تسمى ، وأنت تقطع المضائق التي حمت قلب الأندلس - وهو حوض الوادي الكبير - من الغارات التي كانت تنقض عليه من الشمال .

ففي الخامس عشر من صفر ٦٠٩ / ١٧ يوليو ١٢١٢ دارت الجولة الأخيرة من جولات معركة العقاب التي انجلى عن هزيمة قاصمة لقوات الموحدين أمام قوات قشتالة يقودها ألفونسو الثامن .

وكان يقود الجيوش الإسلامية محمد بن أبي يوسف يعقوب المنصور رابع خلفاء الموحدين ، وكان محمد هذا يلقب بالناصر ، وكان شاباً متواضع الملكات ، لم يقسم له من الذكاء وبعد المهمة ما قسم لأبيه المنصور الموحدي

بطل يوم الأرك العظيم قبل ذلك بست عشرة سنة في ٩ شعبان ٥٩١ / ١٩ يوليو ١١٩٥ .

وكان محمد الناصر هذا يرجو أن يدرك نصراً كنصر أبيه ، ولكن سوء حظه أراد له أن يقتل اسمه بقاصمة الظهر في تاريخ الأندلس : خرج من لشبيلية في المحرم سنة ٦٠٩ / يونيو ١٢١٢ ونزل بقلعة رباح Calatrava حيث استقبله قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادم كبير قواد الأندلسيين وزعيمهم . ولأمر ما وقع النفور بينه وبين الناصر ، وتسرع هذا فقتله ، فسأت ظنون الأندلسيين وتغيرت قلوبهم ، ووهنت الروح المعنوية في الجيش الإسلامي كله .

وأراد محمد الناصر أن يعبر ممرات ديسبينا بروس ليفضي إلى السهول التي كسب فيها أبوه معركة الأرك ، ولكن قوات قشتالة سبقته وعبرتها واحتلت مرتفعاً عالياً يسمى اليوم لاميلا دل رى (مرتفع الملك أو منضدته) ، وأشرفت على جموع المسلمين التي احتشدت في الوادي عند نهر صغير يسمى نهر مـجـانـيـا شرقى سانتا إيلينا هذه ، وهذا الوادي — كما ستره — سلسلة من الهضاب المتوالية هي المسماة بالعقاب ، واجتهد المسلمون في سد منافذ الجبال حتى يأمنوا في معسكرهم .

ومن أعلى «مرتفع الملك» هذا رسم ألفونسو خطة الهجوم في حصن لازال باقياً إلى اليوم يسمى حصن الفيرال (كاسترو دل فيرال) ، ثم تسللت جيوش قشتالة من ممر صغير تجده بين لاميلا دل رى وميراندا دل رى إلى شرقى سانتا إيلينا ، وكان المسلمون قد اجتهدوا في سد الطريق الرئيسى الذى يسمى اليوم نهر مورادال (پويرتو دى موراديل) ودقوا في الأرض ألوفاً من رؤوس الأسهم الصغيرة لعرقلة الخيل . مئات من هذه الأسهم لا زالت باقية في الأرض هناك ، تستطيع أن تجد منها بضعة دون مشقة .

باغت هذا الهجوم المفاجئ قوات المسلمين فتفرقت ، وأسرع محمد

الناصر هارباً إلى أبَدَة (أوبِدَة) ومنها إلى جِيَّان ثم إلى إشبيلية . وانتهى ذلك اليوم الذى تستطيع أن تعتبره نهاية الأمل فى استعادة مجد الأندلس .

* * *

وبعد قليل تصل بك السيارة إلى بايلين ، ملتقى طرق كبير . إنه فى حساب الجغرافيا بلد صغير فى مقاطعة جِيَّان ، ولكنه فى حساب التاريخ شىء هائل . .

إن كنت تذكر تاريخ نابليون ، فانت تذكر أنه عند هذا البلد هزمت جيوشه للمرة الأولى فى التاريخ . هناك تحطمت أسطوره ، زالت رهبته من القلوب ، لم يعد نابليون الذى لا يغلب ، بل نابليون المغلوب . .
كان ذلك فى ١٩ يوليو ١٨٠٨ ، وقد استولى نابليون على شبه الجزيرة كله ، وتوج أخاه جوزيف ملكاً فى مدريد ، وعسكرت فرق من جنوده فى أبهاء حمراء غرناطة . .

ولكن أهل الجبال رفضوا الطاعة ، قاموا وعلى رأسهم قائد شهم هو فرانثيسكو خافيير كستانىوس ؛ وكان يقود الفرنسيين الجنرال دويون . .
وعند بايلين دارت المعركة الحاسمة . انهزم جيش نابليون وقضى عليه ، ووقع الجنرال دويون أسيراً فى أيدي الإسبان ومعه هيئة أركان حربه كلها !
بعد الهزيمة بأحد عشر يوماً اضطر جوزيف نابليون إلى الهرب من مدريد . .

ومن بين جنود الإسبان الذين اشتركوا فى المعركة ضابط صغير اسمه خوسيه دى سان مارتين ، هذا الضابط الصغير هو الذى سيعحر الأرجنتين من إسبانيا فيما بعد .

من بايلين تحررت أوروبا من نير نابليون . .
ومن بايلين تحررت أمريكا الجنوبية من سلطان الإسبان . .
وعندما فقدنا نحن منطقة بايلين فقدنا الأندلس . .

* * *

وللأندلس طريق آخر لا يقل عن هذا متعة ولا أهمية . طريق قل أن يطره منا أحد ، لأنه لا يؤدي إلى قرطبة وغرناطة ، بل إلى شرق الأندلس ، أو جنوبه الشرقي بتعبير أدق . والناس ينسونه لأن القادمين إلى هذه البلاد يكونون في العادة متعجلين الذهاب إلى مدائن الأندلس الجنوبية الكبرى .

هذا الطريق تفضي إليه من جنوبي مدريد ، الطريق الرئيسي رقم ٤ ، حتى إذا وصلت إلى أوكانيا انحرفت جنوباً بشرق في طريق السيارات رقم ٣٠١ أو الخط الحديدي الذهاب إلى مرسية .

ستجد نفسك تقطع بطاحاً واسعة هي الجانب الشرقي من منطقة المانشا ، بطاح ممتدة حتى الأفق في كل ناحية ، كلها مزارع قمح أو كروم في الغالب . وتستوقف انتباهك قلة الأشجار ، فالأفق أمامك مفتوح حيثما نظرت لا تقوم فيه شجرة ، فيما خلا نوادر بين الحين والحين ، حتى تصل إلى بلدة كيتنار دى لا أوردن ، وأصلها حصن أنشأته جماعة الرهبان الحاربيين المعروفين باسم جماعة قلعة رباح (لا أوردن دى كالتراثا) ، وبعدها بنحو ساعتين تصل إلى بلدة الروضة (لارودا) وهي عربية كما يدل على ذلك اسمها ، ثم تصل إلى مدينة البسيط (الباثني) وهي بلد حديث جميل ، قام على أساس حصن عربي قديم يحمل نفس الاسم ، كان له دور عظيم في الصراع بين الإسلام والنصرانية في الأندلس أواخر أيام الموحدين .

وبعد البسيط تدخل في منطقة جبال رهيبة حقاً . لقد خلفت وراءك منطقة المانشا وسهولها ، وأنت الآن في الطرف الشمالي الشرقي الأقصى لجبال سيرا نيفادا (جبل الثلج) . هذه الجبال تبدو لك على يمينك وشمالك طيات بعد طيات ، وهي جبال قاحلة لونها قريب من لون الأسمنت ، والطريق بينها متعرج خطر لا بد أن تسير فيه بحذر ، وتقابلك فيه قرى عربية الأصل : الفيلين (تكتب اليوم Hellin) ، أو إسبانية حديثة : ييكللا ، ثيبيسا وما إليها . وكلها صغيرة صامته ، لأن المنطقة كلها كانت منطقة حصون ومواقع يطول بنا الأمر لو مضينا نحسبها (حصن الكرّس ، شقورة ،

قَرَبَاقَة، مُوَلَة، جَنَجَالَة، شَلْبَطْرَة. . الخ)، والمواقع الحربية بين المسلمين وأعدائهم التي دارت هناك كان معظمها في القرن الثالث عشر الميلادي، أيام كان المسلمون يدافعون دفاع المستميت عما بقي بأيديهم من الأندلس بعد موقعة عِقَاب تولوزا.

ونتهى أخيراً إلى مُرسية، فلما اتجهت بعد ذلك شمالاً بشرق إلى لَقَنْت (أليكانتي) أو جنوباً بشرق إلى قرطاجنة الحلفاء (كارتاخينا) أو جنوباً إلى المرية، وستحدث عنها كلها فيما يلي.

ولو ذهبت إلى المرية، وأردت بعد ذلك النزول إلى مالقة عن طريق مُطَرِيل فحبذا لو أخذت طريق الجبال الداخلي، وأنت تأخذه من بلدة صغيرة على البحر إلى غربي المرية تسمى البُنْيُول. بعد هذه البلدة تدخل في منطقة جبال وعرة. هذه هي منطقة البِشَارَات (لاس البوخاراس): أوعار متوالية ولكنها ساحرة بجمالها، فجبالها خضراء تشرح الصدر، وقممها عالية لو نظرت من إحداها لرأيت الوديان ساحقة العمق تحت قدميك. هذه هي قلب جبال سِيرَا نيقادا، ومن هنا تستطيع أن ترى قمة «أبو الحسن» (مولهاتين) أعلى جبال إسبانيا كلها. وفي وسط هذه الجبال تجد بلدة وادي آش (جَوَادِيكُس) بلد شاعرنا الملهم أبي عبدالله محمد بن الخداد المعروف بالوادي آشي. والعرب يسمون البلد أحياناً بوادي الآشات، والآش محرف عن اللفظ اللاتيني آكُس ويراد به الماء، أي عين الماء؛ وهو بدوره محرف عن أَكْوَا وهو الماء أيضاً. ولفظ أَيْكُس لا زال باقياً في أسماء كثير من البلاد الأوروبية: أَيْكُس لاشابل، أَيْكُس آن پَرُوفَانْس وما إليهما. وفي هذه الجبال تجد من بلادنا العربية برشانة (بورتشينا) وشرشال (خيرنخيل) وبرجّة (برنخا) ودَلَايَة (دالاس) وعدّرة (أدرا) وما إليها، وكلها بلاد أخرجت قادة وشعراء وكتاباً وعلماء يزدان بهم تاريخنا الفكري.

ولكن هذه الجبال مشهورة في تاريخنا بأنها كانت ميدان آخر ثورة كبرى قام بها المسلمون الأندلسيون بعد سقوط غرناطة. كان ذلك في أوائل القرن

السادس عشر الميلادي ، ثورة واسعة المدى قامت بها بقايا المسلمين هناك احتجاجاً على قوانين التنصير وديوان التحقيق ، ولكنها لم تعمّر طويلاً ، ثم قُضى عليها وساد السكون الذي تحس به من حولك حتى تصل إلى مُطْريل . ولم يؤرخ لهذه الانتفاضة الأندلسية الأخيرة أحد منا بالتفصيل الذي تستحقه ، وإليك موجزاً لما دار فيها لتعرف وأنت بين هذه الجبال في أي أرض تسير . .

كان ذلك بعد استسلام غرناطة بثمان سنوات . كان أهلها من المسلمين ومن جاورهم من جماعاتهم في بلاد الأندلس الأخرى قد اطمأنوا بعض الشيء بعد سنوات الحروب التي انتهت بتسليم البلد ، وكان الملك الكاثوليكيان - فرناندو وإيزابيلا - قد أعطيا من بقي منهم عهداً قاطعاً يضمن لهم الحرية في عقيدتهم ، وأقاما على البلد حاكماً معتدلاً هو الكونت دى تينديتا يعاونه أسقف هو أقرب إلى التسامح هو الأب إيرناندو دى تالايفرا . ولكن الكردينال ثيسينروس - رأس الكنيسة الإسبانية إذ ذاك - كان رجلاً عنيفاً شديد العصبيّة ، فأراد أن يرغم المسلمين على التنصر . ولجأ إلى إزلالهم ، فأمر بأن تحرق نسخ القرآن التي وجدت إذ ذاك ، وأحرقت بالفعل في ميدان باب الرملة في غرناطة . وكان طبعياً أن تثور نفوس المسلمين على إثر ذلك ، فهب أهل حي البيّاسين هبة رجل واحد ، وهاجموا ثيسينروس وكادوا يظفرون به لولا أن أسرع الأسقف إيرناندو دى تالايفرا فاستنقذه وأخذ يهدئ من روع الناس . ووصلت أنباء الثورة إلى الملك فرناندو وأسرع إليه فثيسينروس يهول الأمر ، فأصدر أمراً بإقامة محكمة للثائرين من أهل البياسين . وخاف هؤلاء من العقاب ، فقبل التنصر منهم من غلبه الخوف ، وفر الباقون إلى الجبال .

وتسامع المسلمون في بقية نواحي الأندلس بالأمر ، وأسرع أهل جبال البشارات فانقضوا على حكم الإسبان وقرروا الحرب دفاعاً عن أنفسهم وعقيدتهم .

وأسرعت الجيوش الإسبانية إلى هذه الجبال يقودها الكونت تينديتا وجونزالو فرنانديث دى كوردوبا ثم لحق بهما الملك فرناندو بنفسه ، ومضوا يستولون على بلاد البشارات واحدة واحدة بعد قتال مرير . وسقطت بلاد إقليم غرناطة التي كانت قد اشتركت في الثورة مثل وجّر ومُنْتُوجِرْ والأنجِرُون (لانخارون) ولُنْجَار ووادى آش وبَيّاسَة ، أما المرية فقد آثر أهلها التسليم .

وفي العام التالي - ١٥٠١ - تجددت الثورة على صورة أعنف في جبال فيلابريس ، وامتدت إلى جبال رنده ، وأسرعت جيوش قشتالة لقمعها يقودها أكبر قواد إسبانيا إذ ذاك : ثيفوينتيس وكونت أورينيا وألونسو دى أجيلار ، وأمام هذه القوات لم يستطع الثائرون الصمود .

وقد جنح الملك فرناندو إلى اللين أول الأمر ، ولكن ثيسينروس لم يزل به حتى أصدر مرسوماً في ١١ فبراير ١٥٠٢ يخير مسلمى الأندلس بين التنصر أو مبارحة أوطانهم . وتنصر من تنصر، وهرب بنفسه ودينه من هرب لاجئاً إلى بلاد المسلمين وأقربها المغرب .

صفحات من التاريخ تعقبها صفحات . .

وطريق الأندلس - في حساب التاريخ - طويل . .

سَلامًا يَا قُرْطَبَة

نحن على أبواب الأندلس ..

على أبواب ركن من الدنيا حبيب إلينا ، وإلى الناس أجمعين ..

فإن السائح الذى يدخل إسبانيا ، من أى باب من أبوابها ، لا يكاد يستريح من الرحلة الطويلة حتى يسأل عن الطريق إلى الأندلس ..

يحاولون إغراءه بزيارة الشمال أو الشرق أو الشمال الغربى ، فيأبى إلا أن يذهب إلى الأندلس . فى أدلة السياحة الإسبانية يجعلون الأندلس فى آخر الدليل : يريدون أن يبدأ الناس بالكنايس العجيبة الماثلة فى الإسكُريال وطلُيطة وشَقُوبِيَّة وأبِلَة وبلد الوليد وسَلَمَنْقَة وخاصة شَتت ياقُتب (سنت ياجو) .. ولكن السائح يهز رأسه ويقول : الأندلس أولا .. لأن الأندلس فى نظر السائحين جميعاً هو إسبانيا ..

وها نحن على الأبواب ، فى الطريق إلى ليناريس . بلد حديث ، ملتقى طرق ، وكل بلد من هذا الطراز لا يتوقف السائح فيه إلا إذا كان به عطش أو جوع . شربة مرطبة فى مقهى ، أو لقمة تكسر حدة الجوع فى مطعم ، ثم إلى قرطبة ..

هذه طلائعها تبدو . من أعلى جبال السَّيرَّا مورينا التى نجتازها تبدو لنا

بطاح سهل الوادى الكبير ، كأننا نخرج من صحراء إلى واحة ، كأننا ننظر من عند الأهرام إلى وادى النيل . المنطقة الجرداء التى تقطع آخر مراحلها أثر من آثار الصراع على مصير شبه الجزيرة .

قرون طويلة والعرب وأهل الشمال يتصارعون خلالها على مصير الأندلس . عندما انتهت الحرب كانت قد تحولت إلى بطاح مقفرة وقرى خلت من أهلها (ديسبندوبلادوس) . فى القرن السابع عشر حاول ملوك الإسبان تعميرها ، استقدموا معمرين من ألمانيا وسويسرا وفرنسا .

ولا بد أن الوادى الكبير كان فيما مضى أكبر مما هو اليوم بكثير ، إنه اليوم واد صغير . . كانت السفن البحرية تصل أيام العرب إلى قرطبة ، اليوم تصل إلى إشبيلية ، بل لا تكاد .

سهول الوادى الكبير تسمى اليوم فييجاس أو لاس فييجاس ، تحريف للفظ العربى « البقاع » ، وتسمى أيضاً كامبينيتاس . العرب يجعلونها « القنباية » . .

عن يميننا ، وعن شمالنا ، حقول قمح واسعة . هنا يعتمد الناس على الرى والمطر معاً . الملكيات هنا كبيرة ، كبيرة جداً . أصحاب الأراضى يهتمون بالأشجار : الزيتون والبرتقال واللوز والمشمش وما إليها . الزيتون لا يحتاج لعمل كثير ، ولهذا فإن مساحات شاسعة من حقول الزيتون التى نمر بها تبدو وكأنها غير مسكونة . الفلاحون يتجمعون فى قرى كبيرة كأنها مدن ، ها نحن نمر بإحداها . اسمها أندوختر ، العرب يسمونها أندوجر أو أندوشر ، ذكرنا ياقوت من شعرائها أبا إسحاق اليحصبى الأندوشرى . إنها اليوم لا تخرج شعراء ، بل تنتج الأورانيوم ، ولكل عصر اهتماماته . .

المنطقة كلها معادن ، كان العرب يسمون السيرة أمورينا جبال المعدن . كلما اقتربنا من قرطبة زاد الشوق إليها . الصبر ينفد فى هذه القطعة من

الطريق على قصرها . تتردد في الخاط
فيديريكو جارثيا لوركا :

« قرطبة . . .

بعيدة ووحيدة . . .

لأننى أسير إليها على بغلة سوداء

وتحتى خُرج ملء بالزيتون

ومع أننى أعرف الطرق كلها . . .

فإننى لن أصل أبداً إلى قرطبة

آه . . ما أطول هذا الطريق . . !

يا لهذه البغلة الباسلة . .

إن الموت ينتظرنى

قبل أن أصل إلى قرطبة . .

قرطبة . .

تلك البعيدة الوحيدة . . . »

* * *

سائق السيارة الذى يأتى بك من مدريد يفضل دائماً أن يدور بك خارج
قرطبة حتى يصل إلى ضفة الوادى الكبير ، ثم يسير بك محاذياً له حتى يصل إلى
الجامع الأعظم . إذا كنت متعجلاً فافعل ذلك ، أما إذا كنت قد أوسعت على
نفسك فى الوقت لكى تصحب قرطبة يومين أو ثلاثة ، فاطلب إلى السائق
أن يترك بك البلد : أن يمضى بك إلى ميدان لامجدالينا ثم شارع كلاوديو
مارسيلو حتى ميدان خوُسِيَه أنطونيو ، سُرَّة قرطبة اليوم . أو اطلب إليه أن
يمضى بك إلى ذلك الميدان الجميل المسمى كامپو دى لاميرثيد ، ثم شارع
الحَنِير اليسيمو فشارع ثيرفانتس .

أثناء السير الوئيد تستطيع أن ترى قرطبة وتتذوقها . .

لأنها قرطبة الحديثة كما يقولون ، ولكنى أشم في كل ركن منها ريح قرطبتنا الخالدة ، وأشعر تماماً أنني أسير في نفس الطرق التي سار فيها ابن رشد وابن طُفَيْل وابن حزم وابن شُهَيْد ، مع اختلاف الأسماء طبعاً . في هذه المدن التي صنعت التاريخ لا فرق بين قديم أو حديث ، إنه زمن واحد وموكب واحد يجمع كل شيء في آن واحد . .

فالطريق الذي دخلت منه البلد هو نفس الطريق القديم الذي كان أجدادنا يطرقونه إذا بارحوا قرطبة إلى الشمال . كان يسمى السكة العظمى ، وهي ترجمة لاسمه قبلهم . كان الرومان يسمونه ثيا آوجستا ، وهو طريق قديم سار فيه يوليوس قيصر ويومبي وتراجان وهادريان ، ثم سار فيه عبد الرحمن الداخل والأوسط والناصر ، ثم أمير العسكريين الذين أنجبهم الأندلس : المنصور بن أبي عامر .

وكان يقوم عليه باب من الأبواب الكثيرة في أسوار قرطبة ، وهو باب عباس — وكان الباب الذي يفضي منه الناس إلى شرق الأندلس — وإلى جانبه مقبرة البرج ، ثم يحترق الإنسان مُنية المغيرة ثم منية عبدالله ، ويصل أخيراً إلى أحد أبواب السور الداخلي لقرطبة : باب عبد الجبار . .

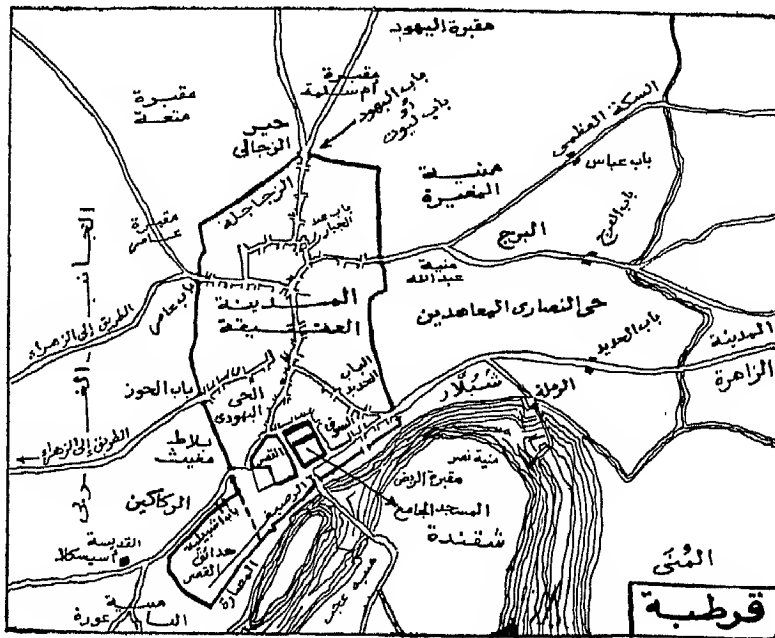
هذا — بالتقريب — هو الطريق الذي تسير فيه داخلا قرطبة ، فأنت تمر أولاً بين حدائق فاكهة واسعة يحيط كل منها بقصر من قصور الأغنياء ، الواحدة منها تسمى أويرتا (أى حديقة) : أويرتا دى ديتراس دى لاپورتيا (حديقة ما وراء الباب) ، أويرتا دى لاتورثيا (حديقة البرج الصغير) .. وهكذا . لأنها « ثيلات » بلغتنا الحديثة . الثيلا عند عرب الأندلس كانوا يسمونها المُنِيَّة ، وأويرتات اليوم هى مُنِيَّات الأمس .

إلى سنة ١٨١١ كانت المنيات العربية قائمة كما خلفها أصحابها ، مع اختلاف الأسماء طبعاً ، فإن القواد الذين دخلوا البلد مع فرناندو الثالث — الذي استولى على قرطبة من أيدي العرب سنة ١٢٣٦ — تقاسموا هذه المنيات وأعطوها أسماءهم . .

وهذا القسم الشرقى من قرطبة كان أعمر أقسامها أيام العرب ، كان يسمى المدينة الشرقية أو الشرقية أو الجانب الشرقى ، ولا زال إلى الآن يسمى أخكار كيا (الشرقية) .

أما بقية قرطبة فكانت تسمى المدينة أو المدينة العتيقة أو القصبة ، وكانت هذه المدينة العتيقة ذات سور منيع عليه أبواب مشهورة في تاريخ الأندلس كله : باب ليُون ، الباب الجديد ، باب القنطرة ، باب إشبيلية ، باب الجوز وباب عامر .

وقد اتسعت قرطبة العربية إلى الشرق والغرب ، وعبرت النهر ، وعمرت الضفة الجنوبية . وكانت لها ضاحية واسعة لأهل الحرف وأوساط الناس ، كانت تسمى شَقْنُودَة ، وهى اليوم تسمى الإسبيريٲو سانتو .



ورسم تقريبي لما كانت عليه قرطبة العربية في أوجها خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . يلاحظ الشارع الرئيسي . . كان يبدأ عند قنطرة الوادي ويمر بين الجامع والقصر ، ثم يتصل بعد ذلك إلى شمالي البلدة عند باب ليون ماراً بباب عبد الجبار

وبين قرطبة وضاحتها تلك لا تزال تقوم القنطرة العربية المشهورة .
كانت تسمى قنطرة الوادى . أصلها « كوبرى » رومانى ، وقد أصلحها
وجدها العرب مراراً . . كانت على أيامهم منزهاً يخرج إليه الناس بعد
الظهر ، كما يخرج أهل القاهرة إلى كوبرى قصر النيل .

هنا كان ملتقى الأدباء والشعراء . إلى يمين القنطرة وشمالها ، على شاطئ
الوادى الكبير ، كان يقوم « كورنيش » جميل كان يسمى الرصيف ،
وامتداده من ناحية اليمن كان يسمى شُبلًا ، ومن اليسار المُصَارَّة .. وهذا
الكورنيش يحمل اليوم أسماء حديثة : پاسيو دى لارييرا (أى منزله الشاطئ) ،
روندا دى إيزلاس .

ما أكثر الشعر الذى قاله الأندلسيون فى قنطرة الوادى ، وما أكثر
أقاصيص الهوى التى يقصونها !

لعل أطفها قصة الشاعر يوسف بن هارون الرمادى مع جارية فاتنة من
جوارى القصر ، رآها تسير وحدها عند باب العطارين (وهذا الموضع كان
مجمع النساء) فهام بها للنظرة الأولى ، ومضى يتبعها ، وعبر القنطرة وراءها .
حتى إذا صارت فى موضع خال من الناس خافت أن يكون شريراً يريد
أذاها ، فالتفت إليه وخاطبته ، وعرفت أنه صب مستهام بها ، فرجته أن
يدعها وشأنها ، ورفضت أن تقول له ممن هى وأين تعيش . كل ما قالت له أن
اسمها « خَلْوَة » وأنها ستلقاه فى نفس الموعد والمكان كل جمعة . ثم اختفت
فلم يعد يراها . وعاش بعد ذلك يحلم بها ويقول فيها الأشعار ...

* * *

وأنت تتمشى فى شوارع قرطبة اليوم فتشعر دائماً أن حزناً عميقاً يملأ
نفسك . إنه ليس الأسف على ضياعها ، فإن إشبيلية ضاعت هى الأخرى ،
ولكن هذا الحزن لا يثقل على نفسك على هذه الصورة هناك .
وقد كانت قرطبة هكذا دائماً . .

حتى في أيام عزها ، أيام الخلفاء العظام ، أيام الدولة الكبرى والجيوش
المنصورة والحضارة الزاهرة ، كانت قرطبة ذات وقار وسكون كأن أهلها
كانوا يشعرون أن القدر لهم بالمرصاد . .

يسمونها اليوم السلطنة الحزينة . .

وفيدريكو جارتيا لوركا يقول إنها بعيدة وحيدة . .

وأطونيو ماتشادو شاعر إشبيلية الأكبر في العصور الحديثة يقول في
إحدى قصائده إن مياه الوادي الكبير تتحول إلى دموع عندما تمر بقرطبة . .
والعشرات من شعراء العرب الذين أنجبهم قرطبة شعراء حزن وهموم ،
من عباس بن ناصح إلى ابن حزم لا نجد إلا الدموع . .

كان الأندلسيون يشعرون أن قرطبتهم الجميلة ينتظرها الموت .

كان أعداؤها كثيرين : العدو الكبير يزحف دائماً من الشمال ، وأعداء
صغار كثيرون يتربصون بها الدوائر من كل ناحية . .
كانت دائماً بعيدة وحيدة . .

بعيدة عن أخواتها في المشرق النائي : دمشق وبغداد والفُسْطاط والقيروان
. . وحيدة تحمل على كتفها عبء خلافة ومصير حضارة وشعب . .

هذا الشعور بالوحشة ملأ نفس عبد الرحمن الداخل ، صقر قریش
المظفر . أبياته التي تصور استيحاظه يعرفها كل قارئ للأدب العربي :

أقِرُّ من بعضى السلام لبعض	أيتها الراكب الميمم أرضى
وفؤادى ومالكه بأرض	إن جسمى - كما تراه - بأرض
وطوى البين عن جفونى نغمضى	قُدِّرَ البين بيننا فافترقنا
فعسى باجتماعنا سوف يقضى	قد قضى الله بيننا فافترقنا

وعبد الرحمن الناصر - أعظم خلفاء الغرب الإسلامى ، ملك الملوك
في عصره - كان يشعر بهذا الحزن . التاج والقوة والفخامة لم تصرف عن قلبه

الهموم ، حتى الورد البهيج كان يثير في قلبه الحزن :

- الورد مما يهيج حزني وبعث السوسن اهتياجي

وعندما ذهب مُلك بنى أمية الأندلسيين ، وقامت الفتنة التي أُنذرت
الأندلس بالنهاية (أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى)
تخربت قرطبة على أيدي أهلها .

لقد زارها ابن حزم ، ابنها البار الحبيب الذى جعل حياته رثاءً طويلاً
لبلده العزيز ، زارها بعد النكبة وقال يصف حالها : « وقفت على أطلال
منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية ومنازل البرابر المستباحة عند
معاودة قرطبة (أى بعد عودته إليها بعد الفتنة) ، فرأيتها قد أمّحت رسومها ،
وطُمت أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، فصارت صحارى
مجدبة بعد العمران ، وفيانى موحشة بعد الأُنس ، وآكاماً مشوهة بعد الحسن ،
وخرائب مفزعة بعد الأمن . . » ، إلى آخر هذا الوصف المفجع .

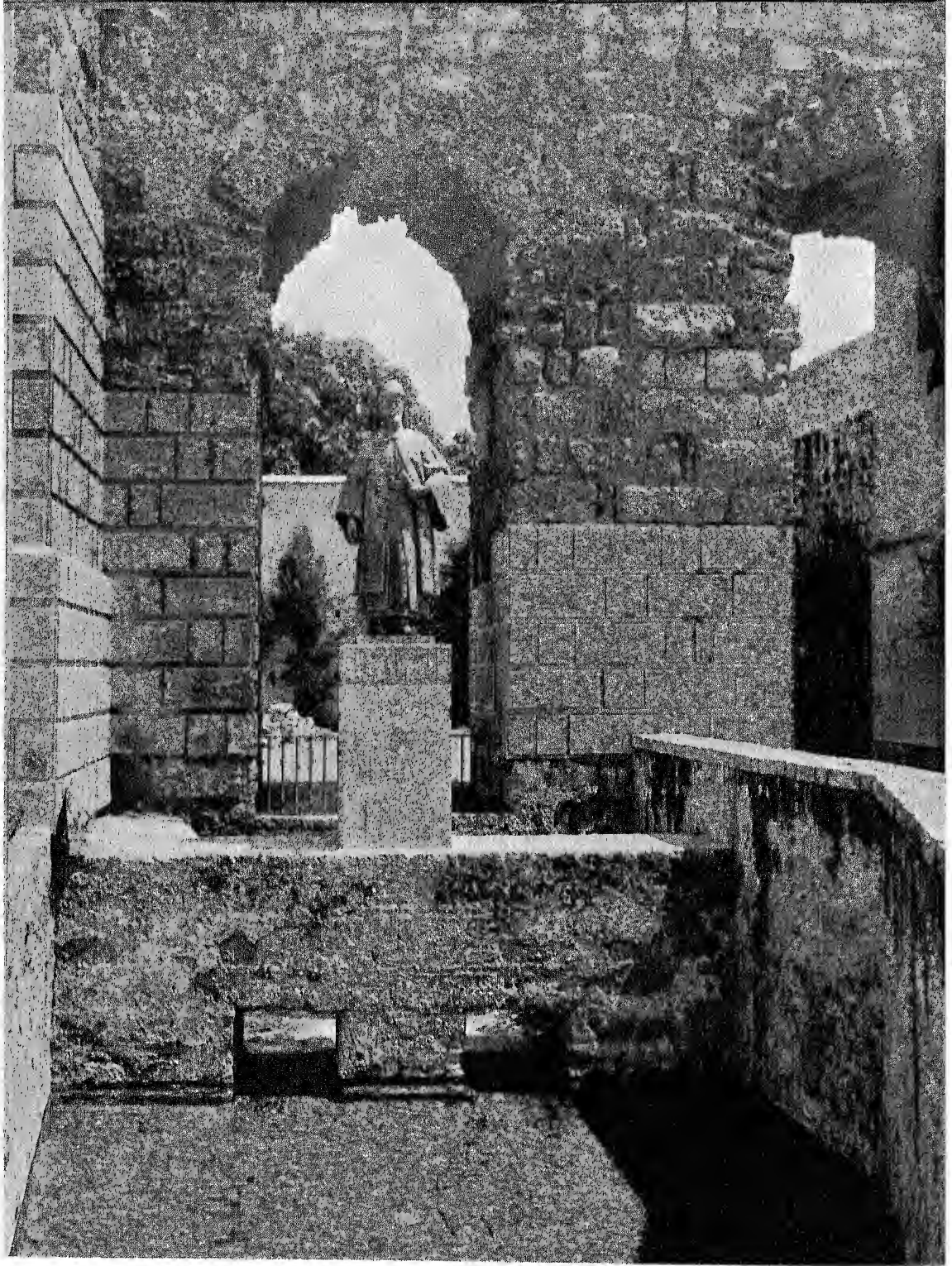
وابن حزم رجل دقيق ، كلامه ليس ككلام أديب يجرى مع عاطفة تدفعه
إلى المبالغة ، إنه كلام رجل يصف بالضبط ما رأى .

كان ذلك فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، فإن ابن حزم توفى سنة
٤٥٦ هجرية ، كانت قرطبة العربية قد بدأت تختصر من زمن بعيد . .

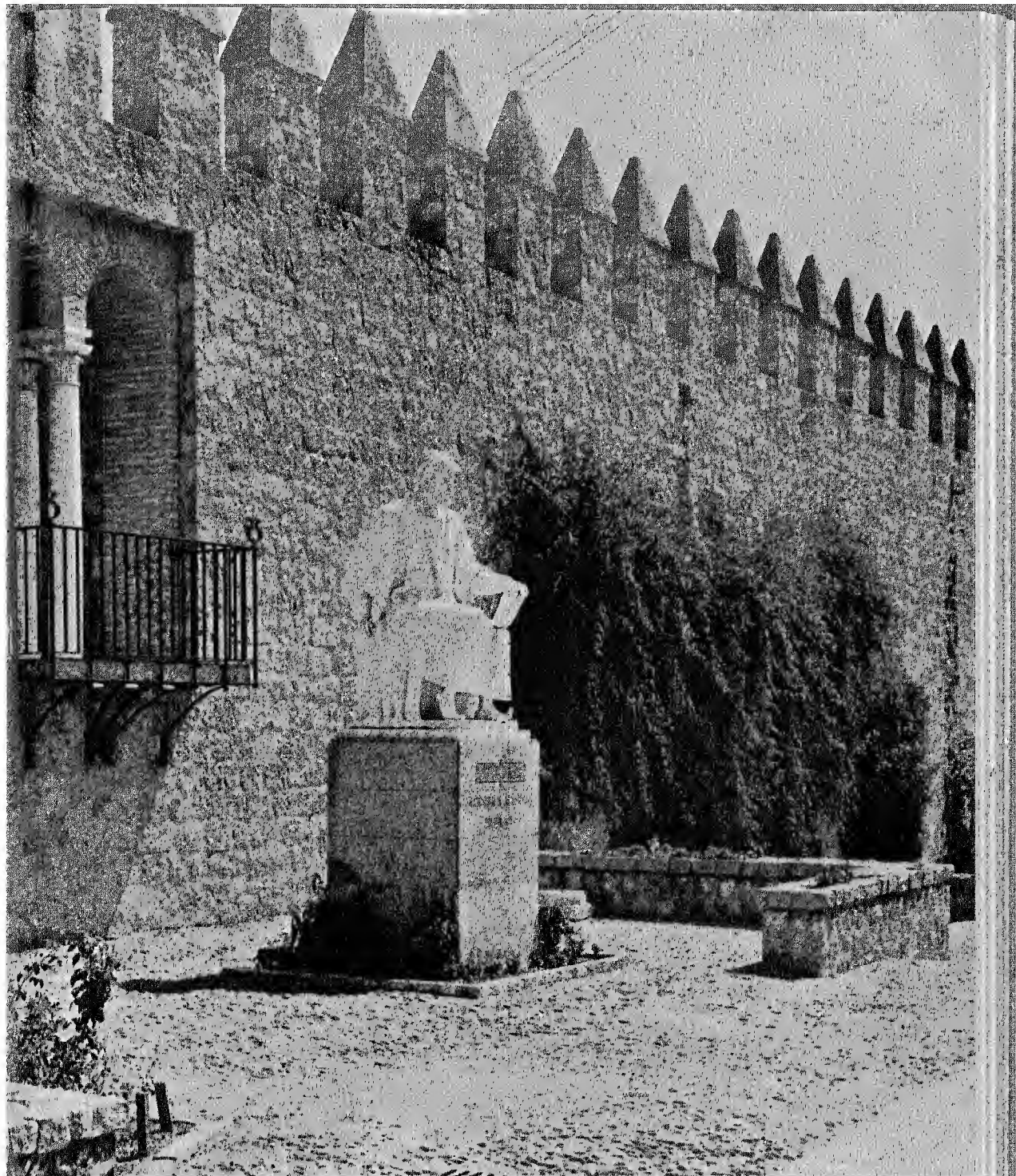
بقى لما من العمر بعد وفاة ابن حزم نحو قرنين من الزمان ، فقد سقطت
فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة وأرجون سنة ٦٣٣ هـ . أى ١٢٣٦ ميلادية .

خلال هذين القرنين لا يدرى إلا الله ماذا جرى لقرطبتنا : فتن لا تنتهى ،
حروب بين الرؤساء ، خيانات ومؤامرات بين الطامعين فى الملك والسلطان ،
وقرطبة تدفع الثمن ، وأهلها يكفرون عن خطايا هؤلاء وهؤلاء . .

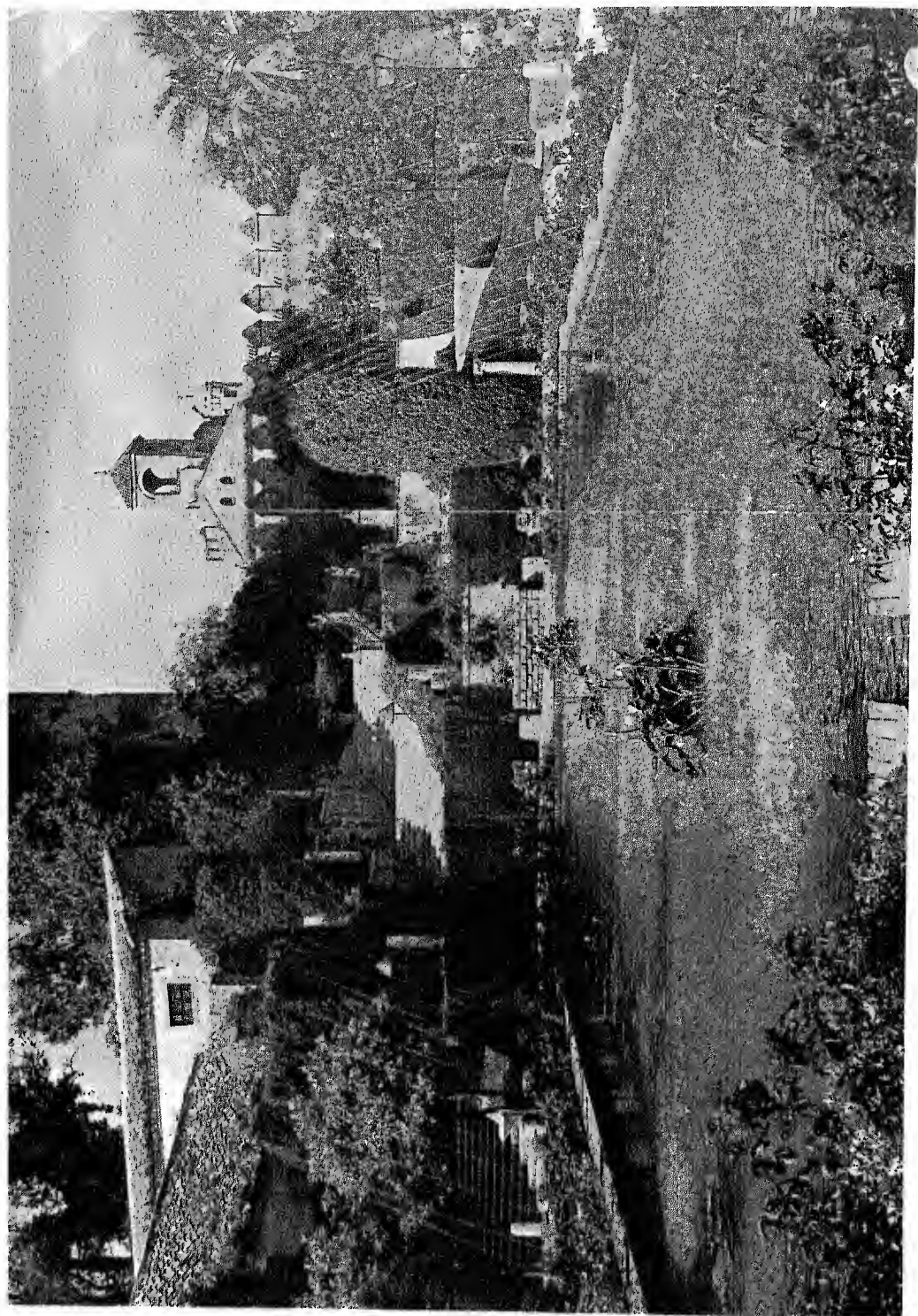
خلال هذه الفتن شغل الخراب سلطنة مبدن الغرب كله . شيئاً فشيئاً
تهاوت مبانيها وقتل من أهلها من قتل ، وفر الباقون إلى نواح أكثر أمناً :



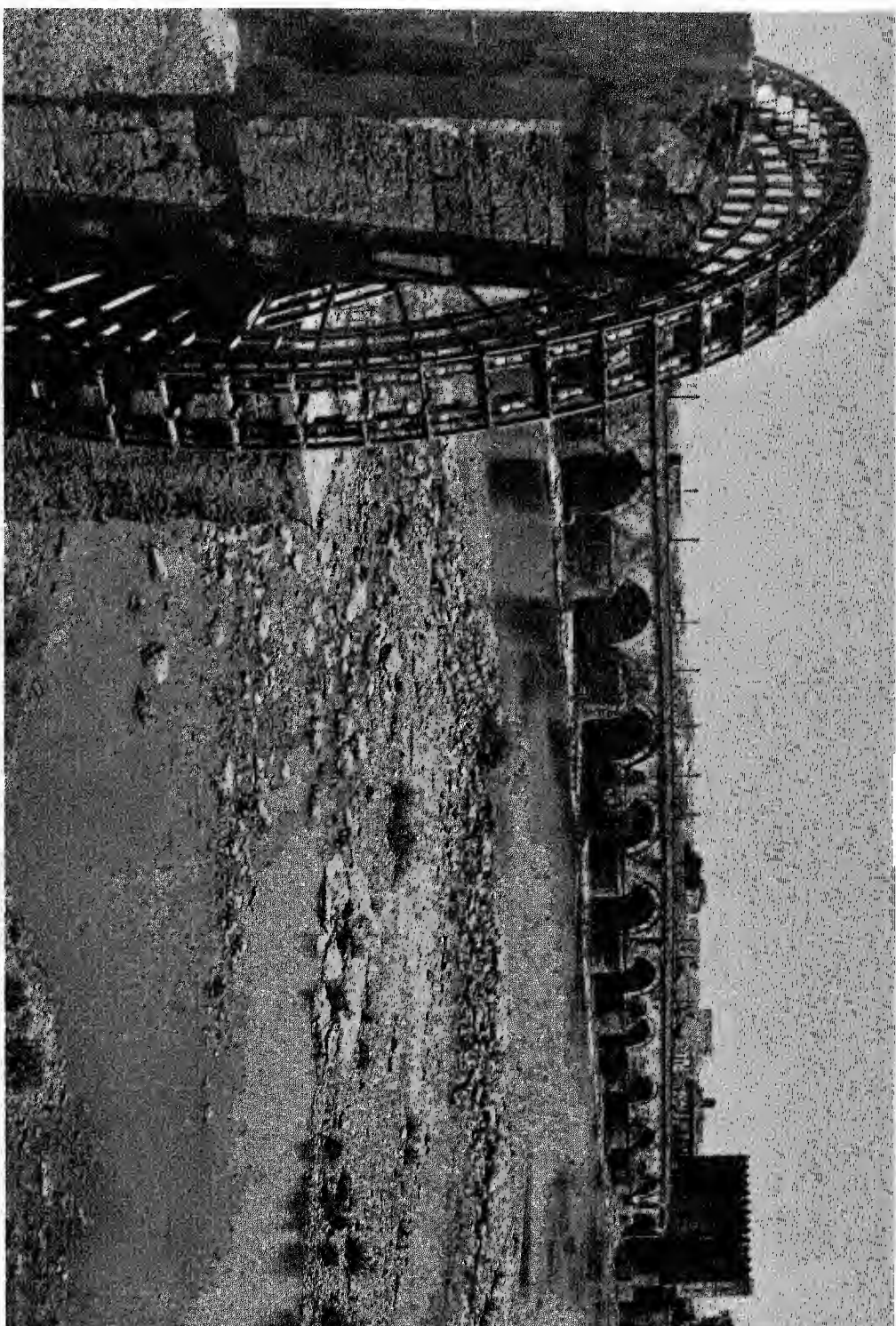
أبو محمد علي بن حزم. تمثال جميل أزيح الستار عنه سنة ١٩٦٣ أثناء الدورة الأولى للجلسات العملية. من تحت تلك البوابة كان ابن حزم يمر وهو في طريقه من داره في منية المغيرة بشرقي مدريد إلى قصر الخلافة أثناء وزارته القصيرة لعبد الرحمن المستظهر من خلفاء عصر الفتنة. رفع الستار عن التمثال سنة ١٩٦٣.



ابن رشد في مجلسه عند أحد أبواب سور قرطبة. هذا التمثال صنع واحتفل بإزاحة الستار عنه أثناء الدورة السادسة من الندوات العلمية السنوية التي كان ينظمها معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بالاشتراك مع الهيئات العلمية الإسبانية. السور هنا أعادوا ترميمه وفتحوا النافذة ذات العقود التي تراها إلى اليسار. كان ذلك سنة ١٩٦٦.



جانب من حدائق قصر قرطبة المواجه للجامع. هذه الحدائق حديثة الإنشاء ولكنها تقوم
على بقايا القصر الذي كان يقع فيه حدائق قصر الخلافة.



ناعورة الوادي الكبير. أقيمت هذه السباقية البديعة في نفس الموقع الذي كانت تقوم فيه ناعورة قرطبة لترفع الماء من النهر إلى مستوى الشارع لتصب الماء في قناة أو صهريج تبسج منه أناسيب من الفجار تحمل الماء إلى أحياء قرطبة. تظهر في الصورة قنطرة الوادي التي تصل قرطبة بربض شقندة. إنها رومانية الاصل تقوم على أرجل ضخمة ولكن المسلمين أعادوا بناءها مرة بعد أخرى.

إلى المَرِيَّة ومالقة وخاصة غرناطة، بل منهم من هاجر إلى المغرب أو إلى المشرق .

خلال هذه القرون الحزينة ، وخلف أسوار المدينة المهاوية ، عاشت قرطبة في خوف وشقاء ، ولكنها لم تذل أبداً . ظلت رافعة الرأس . خانها أولادها ، تخلّى عنها حماؤها ، ولكنها ظلت تبعث ضياء حضارتها الباهر إلى بلاد أكثر منها أمناً وأسعد حالا في الشرق والغرب على السواء . .

فبين هذه الخرائب عاش أبو الوليد بن رشد أعظم فلاسفة العصور الوسطى على الإطلاق ، مجد من أمجادنا التي تزداد مع الزمان جدة ، رجل مد يمينه فصافح أرسطو ومد شماله فصافح ديكارت وريتان . .

وبين هذه الأطلال عاش أبو بكر بن طفيل صاحب قصة حي بن يقظان ، أروع قصة فلسفية كتبها إنسان ، قصة ترجمت إلى لغات العالم كله ، طبعاتها في عواصم الدنيا لا تحصى .

ووسط هذا الحزن الشامل عاش أبو القاسم الزهراوى ، أعظم جراح ظهر في الوجود حتى العصر الحديث ، الرجل الذى أهدى الإنسانية عمليات استخراج الحصى من المثانة والكلى ، وعنه أخذ الأطباء عملية الكتلاراكنا . إذا كنت لم تسمع به قبل الآن فاقصد إلى أقرب مكتبة عامة إليك واطلب كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» وانظر كيف وصف أدوات الجراحة التي ابتكرها ورسمها بيده . .

وعلى هذه الأطلال وقف الشاعر الزجاج أبو بكر بن قزّمان يضحك ويغنى ويبكى . إنه أعظم عبقرية شعرية أنجبها الأندلس ، تقرأه حيناً فتقول : مجنون ، وتقرأه حيناً آخر فتقول : عبقرى . عبقريته وجنونه يوجزان مأساة قرطبة : هذه المدينة بناها العباقرة وضيعها المجانين . . .

هذه الحن كلها هي التي حكمت بالموت على قرطبة العربية قبل وفاتها بزمان . .

عندما سقطت لم يكن قد بقى منها إلا المسجد الجامع والحى الصغير المحيط به ، ومن عجب الأقدار أن يكون حياً اليهود ، ولا زال يحمل هذا الاسم إلى اليوم . .

بعد سقوطها بثلاثة قرون ونصف زارها الوزير المغربي محمد بن عبد الوهاب الغسانى فلم يجد فيها غير الجامع . .
وبعد ذلك بقرن زارها الغزال الفاسى سفير سلطان المغرب ، فلم يجد غير الجامع أيضاً . .

لو أننا اتعظنا بمأساة قرطبة لكان فى ذلك عزاء - « وما ضاع من مالك ما علمك » - ولكنها ضاعت ولم نتعلم شيئاً . .

* * *

وقد ورث أهل قرطبة خصال الأجيال العربية الماضية : الوقار والصمت والنظرة الفلسفية إلى الحياة . .

مهما بلغ فقر الواحد منهم فإنك تراه دائماً أنيقاً كريماً صامتاً ، يسير فى اعتزاز كأنه يشعر بوزن التراث الذى يحمله على كتفيه . .
قليل فى وصفهم مرة : إن الواحد منهم يتكلم كأنه الفيلسوف سيديكا ، ويتغنى بالشعر كأنه الشاعر بلليك ، ويتصرف كأنه لويس الرابع عشر . .
فى سمت ووقار وملابس سوداء يعيشون جميعاً ، لا صخب ولا عريضة ولا طيش ، لأنهم حاشية أعظم سلطنة عرفها التاريخ . .
قرطبة ، السلطنة الحزينة . .
قرطبة البعيدة الوحيدة . .

مسجد قرطبة العزیز فی المنفى البعيد

فی سنة ١٧٦٥ زار قرطبة سفير مغربی هو أحمد بن المهدي الغزال
ليحدث فی تنظيم تبادل الأسرى بين المغرب وإسبانيا . . إن الحرب بين
البلدين لم تسكن إلا بعد معاهدة استقلال المغرب فی مطالع سنة ١٩٥٦ .
وأطال السفير الوقوف بمسجد قرطبة الجامع ، ثم كتب بعد ذلك كتاباً
لطيفاً عن رحلته اختص فيه المسجد بوضع صفحات وصف فيها الشعور الذي
ملأ نفسه وهو بين يدي هذا الأثر العريق الجليل ، قال : « . . . وقد تخيل
الفكر أن حيطان المسجد وسواريه تسلم علينا ، وتهش إلينا ، من شدة ما وجدنا
من الأسف ، حتى صرنا نخاطب الجمادات ، ونعاق كل سارية ، ونقبل
سواري المسجد وجدرانه . . »

وهذا هو الشعور الذي يملأ نفسي كلما أقبلت على مسجد قرطبة : شعور
شوق عظيم أتمنى معه لو استطعت أن أمد ذراعي لأضمه كله إلى صدري ،
أو لأضم صدري إليه بتعبير أصح .

ولكنني لا أحسب أنه هو نفسه مشوق إلينا . . لقد تركناه وحده ومضينا ،
بنيناه وتأقنا فيه ، وأقمنا معه أيام الرخاء والسلام ، وعندما تغيرت الأيام

وجاءت الحرب دافعنا عنه وعن بلده ما استطعنا ، ثم أسرع الباقون منا يطلبون النجاة ..

وبقى هو وحيداً ..

وبعيداً — ونحن في ظلال الأمن — وقفنا نبكيه ..

وفعل الغير به ما فعلوا : أقاموا في وسطه كنيسة ، حولوا مئذنته إلى برج للنواقيس ، غيروا اسمه من جامع إلى كاتدرائية ..

وغضبنا ، وصرخنا ، ونحن نعرف أننا مسئولون إلى حد بعيد عما أصابه ..

والجامع العظيم يعرف ذلك ، وهو — لهذا — ينظر إلينا في عتب ، في سحر . هذا الصمت الشامل الذي يملأ أكبر بناء أقامته يد العرب في التاريخ أبلغ من كل كلام ..

إن هذا المسجد المهيّب — ككل عظيم — يؤثر الصمت إذا غضب ، وصمته أقسى من أى عتاب ..

ويوم يشعر هذا الوحيد في منفاه البعيد أننا اتعظنا ، أننا تعلمنا ، سوف تهش لنا حيطاته وسواريه كما يقول أحمد بن المهدي الغزال ..

• • •

مسجد قرطبة الجامع هو — دون شك — أضخم عمل معماري قام به العرب في الشرق أو الغرب على السواء ، فإن مساحة الصحن المسقوف ٤٨٦٨ متراً مربعاً ، أى ما يزيد على الفدان ..

فإذا أضفنا إلى ذلك الفناء غير المسقوف — وهو بقية صحن الجامع يحيط بها سوره — كانت مساحته ١٢١٨٩ متراً مربعاً ، أى نحو ثلاثة أفدنة . وعدد للسواري ، أى الأعمدة ، الباقية إلى اليوم يزيد على ١٢٠٠ سارية ..

ومحراب هذا المسجد أروع محاريب الجوامع الأثرية الباقية إلى اليوم ..

والحلول الهندسية التي وفق إليها المعمارى الأول الذى وضع تصميم هذا الجامع ، والابتكارات المعمارية والزخرفية التي وصل إليها هو ومن جاءوا بعده تقرر دون أدنى شك أن العرب كانوا أعظم مهندسى الدنيا حتى مطالع العصر الحديث . .

وهذه العبقرية الهندسية تتجلى إذا تأملت كيف حمل المهندس سقفاً ارتفاعه نحو تسعة أمتار على عمد رفيعة لا يزيد قطر الواحد منها على ٢٥ سنتيمتراً . لقد احتاج مهندس كنيسة نوتردام إلى عمد من الحجر قطر الواحد منها ٤ أمتار ليطمئن على مثل هذا السقف . .

لكى يصل المهندس العربى إلى ذلك وضع عموداً فوق عمود ، قوساً فوق قوس . فى مساجد أخرى ، لها مكانتها فى تاريخ الفن ، خاف المهندس من استخدام أعمدة الرخام الرفيعة ، واعتمد على أعمدة من الحجر سمك الواحد منها متر تقريباً ، أو أقام أعمدة من الرخام وربط بينها من أعلى بروابط من الخشب ، تبدو لك - إذا نظرت إليها - وكأنها سقالات نسيها البنائون بعد الفراغ من البناء ، فأضاع ذلك بهجة الجامع . . .

وأنصح دليل على عبقرية هذا الابتكار أنه لم يتكرر ، فن المعروف أن الممارين ينقل بعضهم عن بعض . إذا ابتكر واحد منهم شيئاً فى الشرق نقله الآخرون عنه فى سلسلة طويلة حتى يصل إلى أقصى الغرب . .

إلا هذا الابتكار . فريد فى نوعه على طول التاريخ ، فريد وحيد كالجامع نفسه . .

يقولون إن المهندس نقله عن سقاية ماء رومانية قديمة فى ماردة . هناك نجد ثلاثة أقواس بعضها فوق بعض . ولكن أى فرق ! إن الأعمدة التى تقوم عليها السقاية من الحجر ، وسمك الواحد منها ستة أمتار . .

والهدف الذى قصد إليه هذا المعمارى المبدع بهذا الابتكار يدعو إلى الإعجاب . . إنه هدف جمالى صرف . .

فقد خطط القسم الأول من الجامع أولاً ، ورسم الرسم وحسب حساب الارتفاعات ومقادير مادة البناء . .

ثم بدا له — بعد أن وضع أسس الجدران — أن عمد المساحة قليلاً ناحية الجنوب . .

وتصور في ذهنه هيئة البناء بعد التوسعة فلم تعجبه . . أحس أن الارتفاع لن يناسب المساحة ، سيدنو السقف منخفضاً بعض الشيء . . .

ولم يكن يستطيع أن يزيد في طول العمود ، فهى من الرخام ، وكانت قد أعدت وهيئت . .

لهذا خطر بباله أن يتم وضع الأعمدة ويعقد الأقواس بينها ، ثم يقيم أعمدة أخرى فوق الأعمدة الأولى ، ثم يعقد أقواساً ثانية ، وفوق هذه يقيم السقف . . ابتكار لا يخلو من جرأة ، وأقل ما يتطلبه حساب دقيق لاحتمال الأعمدة الأولى ، ثم أوزان الأعمدة الثانية وأقواسها والسقف فوقها . . ولكنه كان معمارياً ممتازاً وحاسباً دقيقاً ، فتم له ما أراد . .

ولم يجرؤ مهندس جامع آخر على تطبيق هذا الابتكار ، لأن أعمال العباقرة لا تتكرر ولا تقلد . .

وسنرى — عندما نفنى إلى صحن الجامع — أن الابتكارات الأخرى التى وصل إليها هذا المعمارى وتلاميذه لا تقل روعة عما ذكرناه . .

وإذا كان هناك بناء يدل على بانيه ، فإن جامع قرطبة رمز ناطق على عبقرية عبد الرحمن الداخل . هذا عبقرى الفن وذلك عبقرى السياسة والحرب . وكما خرج الفتى عبد الرحمن بن معاوية من آسيا وحيداً شريداً ، وعبر إفريقيا من طرف لطرف ليقيم لنفسه ملكاً في أوروبا ، فكذلك جامع قرطبة ، تبدو لك أقواسه الرائعة وكأنها تمتد حتى دمشق ، قنطرة ثقافية كبرى تظل البحر الأبيض من سواحل الشام إلى قلب ليبيا . رمز على حضارة

نحن رفعنا عمدها على ثلاث قارات ، ونحن بإذن الله نرفع رابتها في كل القارات . .

* * *

نحن أمام ثلاثة مساجد لا مسجد واحد . .

ثلاثة مساجد بنتها سبعة أجيال على الأقل من المعماريين ، فإن أول حجر وضع في المسجد كان سنة ٧٨٠ ميلادية ، وآخر حجر وضع فيه كان سنة ١٠٠٠ ميلادية . مائتان وعشرون سنة في عمل فني واحد يمتاز أول ما يمتاز بالوحدة والانسجام . لم يتكرر هذا الترابط بين أجيال الفنانين إلا مرة واحدة . كان ذلك في ميدان الموسيقى لا في مجال المعمار ، فهناك نجد أربعة من أعلام الموسيقى : جوزيف هايدن وأماديوس موتسارت ويوهان سباستيان باخ ولودفيج فان بيتهوفن يضافح أحدهم الآخر في سيمفونية كأنها بحر من النغم طوله مائة عام .

وقبل أن نمضي في تأمل هذا العمل الخالد علينا أن نبذل سحابة صغيرة نسجتها يد الأساطير . .

ذلك أنهم يقولون إن المسلمين عندما استقروا في قرطبة قاسموا أهلها كنيسهم الرئيسية ، فلما أراد عبد الرحمن الداخل إنشاء جامع اشترى منهم النصف الثاني وهدمه وأقام البناء . .

وذلك كله غير صحيح ، وما تقوله مراجعنا العربية أساطير نشأت في القرن العاشر ، أي بعد بناء الجامع بقرنين . .

ولقد نقب الأثريون تحت الجامع في كل موضع إلى عشرات الأمتار ، فلم يجدوا أدنى أثر لكنيسة أو بناء ، وتبينوا أنه يقوم على أرض عذراء . .

وماذا كان يضطر عبد الرحمن إلى أن يشتري نصف كنيسة ، ويعوض أهلها بمال لينبوا به كنيسة أخرى ، والأرض أمامه فضاء يبني فيها كيف يشاء ؟

* * *

الجامع الأول ، أو القسم الأول من الجامع ، بناه عبد الرحمن الداخل فيما بين سنتي ٧٨٠ و ٧٨٦ ، في ست سنوات لا سنة واحدة كما يقول هواة الأساطير . .

هذا الجامع هو الذى يدخل الناس إليه اليوم من الباب الرئيسى المعروف بباب النخيل . كان مدخله الرئيسى أيام عبد الرحمن الباب المعروف اليوم بباب القديس اصفهان ، وهو أول الأبواب الثلاثة الكبرى التى تراها فى واجهة الجامع الغربية الواقعة فى الشارع المعروف اليوم باسم شارع تورينوس . كان فى الماضى شارع قرطبة الرئيسى ، وكانوا يسمونه المحجة العظمى ، وكان يشرع من ضفة الوادى الكبير إلى آخر قرطبة ، فلا ينتهى إلا عند السور عند باب ليون الذى يسمى أيضاً الباب الحديد .

الجنوبى من الجامع الحالى .

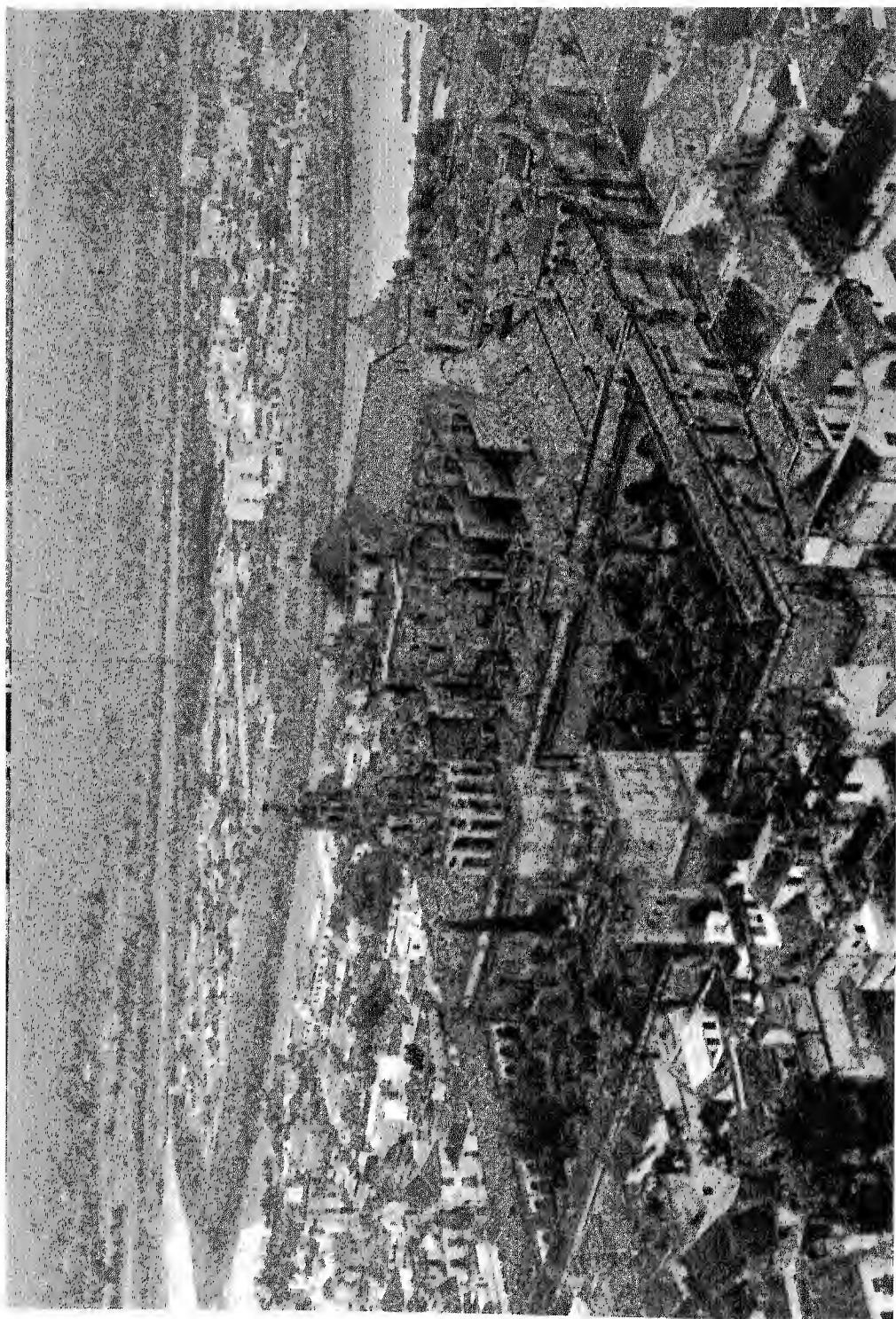
د (أو القوس) الثالث عشر فى اتجاه
بينك وأنت داخل) وينتهى إلى

إذا اقصيت من الباب الرئيسى الحالى وجدت نفسك فى رواق من الأقواس المزدوجة عرضه ٧,٨٥ أمتار . على يمينك خمسة صفوف من الأعمدة وعن يسارك خمسة أخرى . .

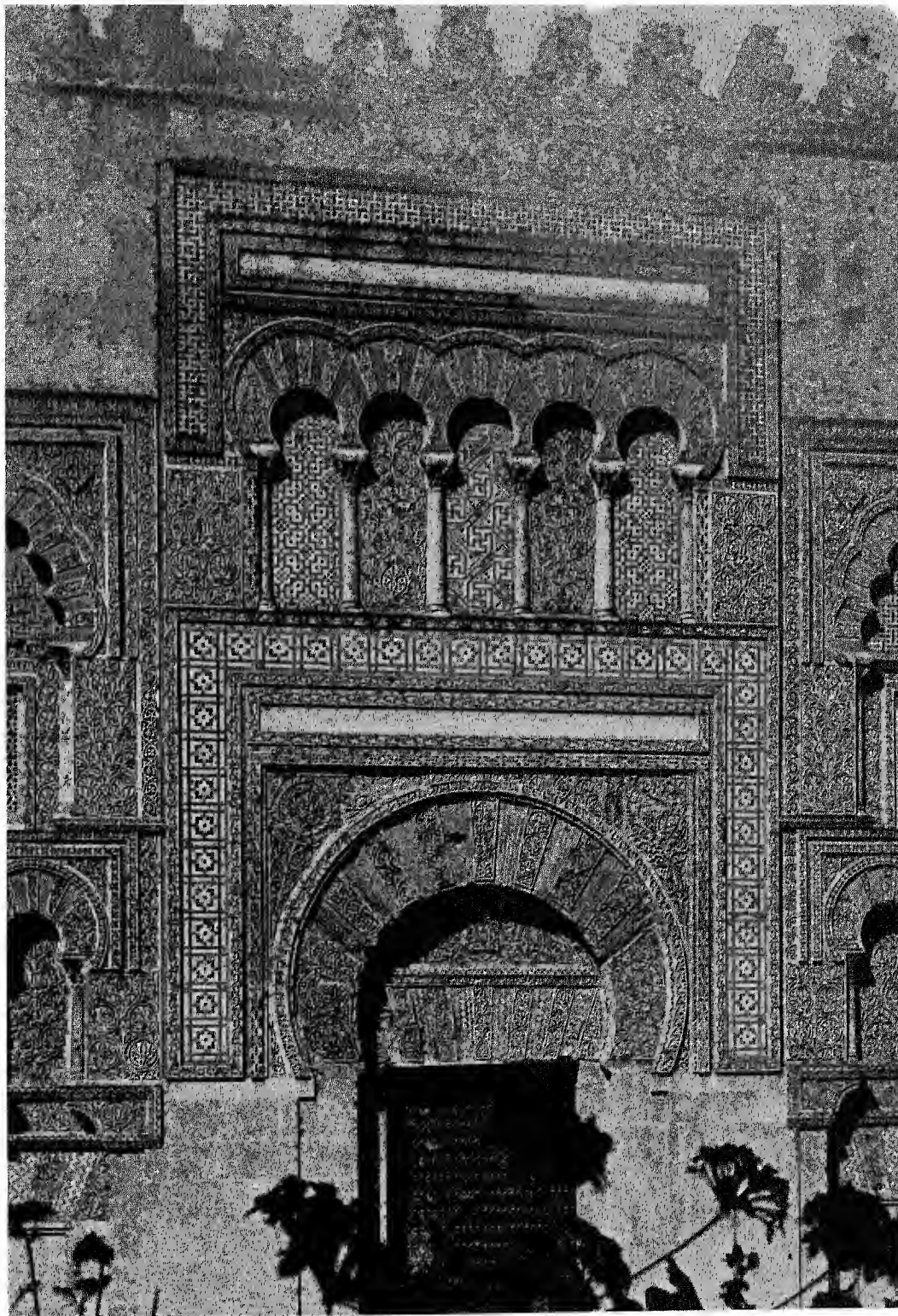
وعند القوس الثالث عشر كان يقوم جدار الجامع الأول الذى أقامه عبد الرحمن الداخل ، وتحت هذا القوس (أو البلاطة كما كانوا يسمونه) كان يقوم المحراب الذى صلى إليه صقر قريش . .

ولا زالت آثار جدار هذا الجامع الأول باقية إلى اليوم ، فإليك تجد هناك بدل الأعمدة أجزاء من الجدار تحمل الأقواس .

وإذا تأملت الأعمدة فى هذا الجزء لاحظت أنها مختلفة فى اللون والمادة : بعضها رخامى أبيض وبعضها مرمرى شفاف أو وردى أو أخضر . وتيجان



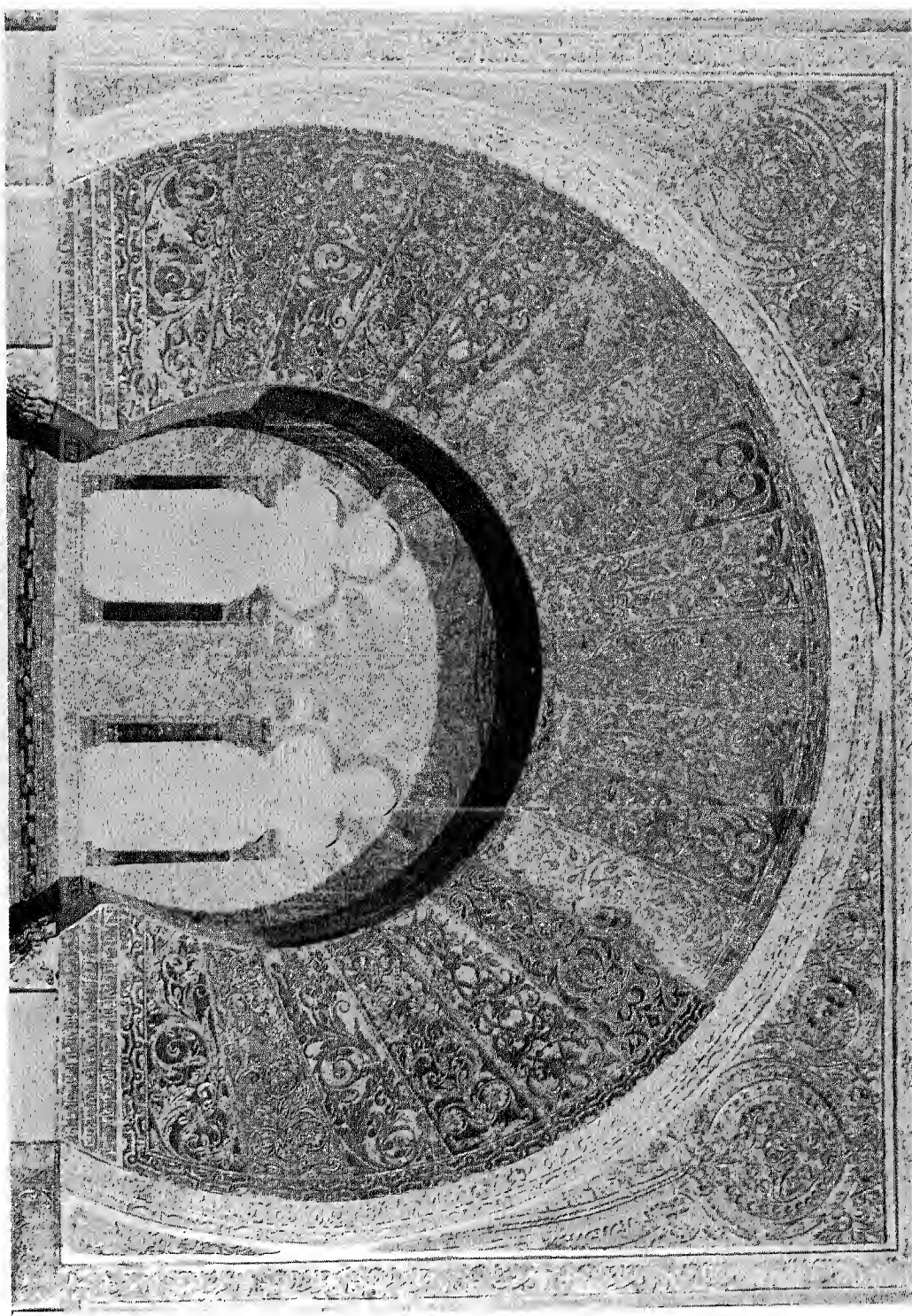
المسجد الجامع بقرطبة : إنه درة المدينة في عصور الإسلام وما بعدها. وهو أضخم مسجد عامر في الدنيا إلى يومنا هذا، وهذه صورة له من الجو برج الأجراس الذي تراه في صدر الصورة هو المئذنة بعد تجويرها. إنها في أقصى الصحن ناحية الشمال، وبيت الصلاة يمتد حتى الرصيف وهو شاطئ الوادي الكبير. على الضفة الأخرى من النهر ترى رياض شقندة.



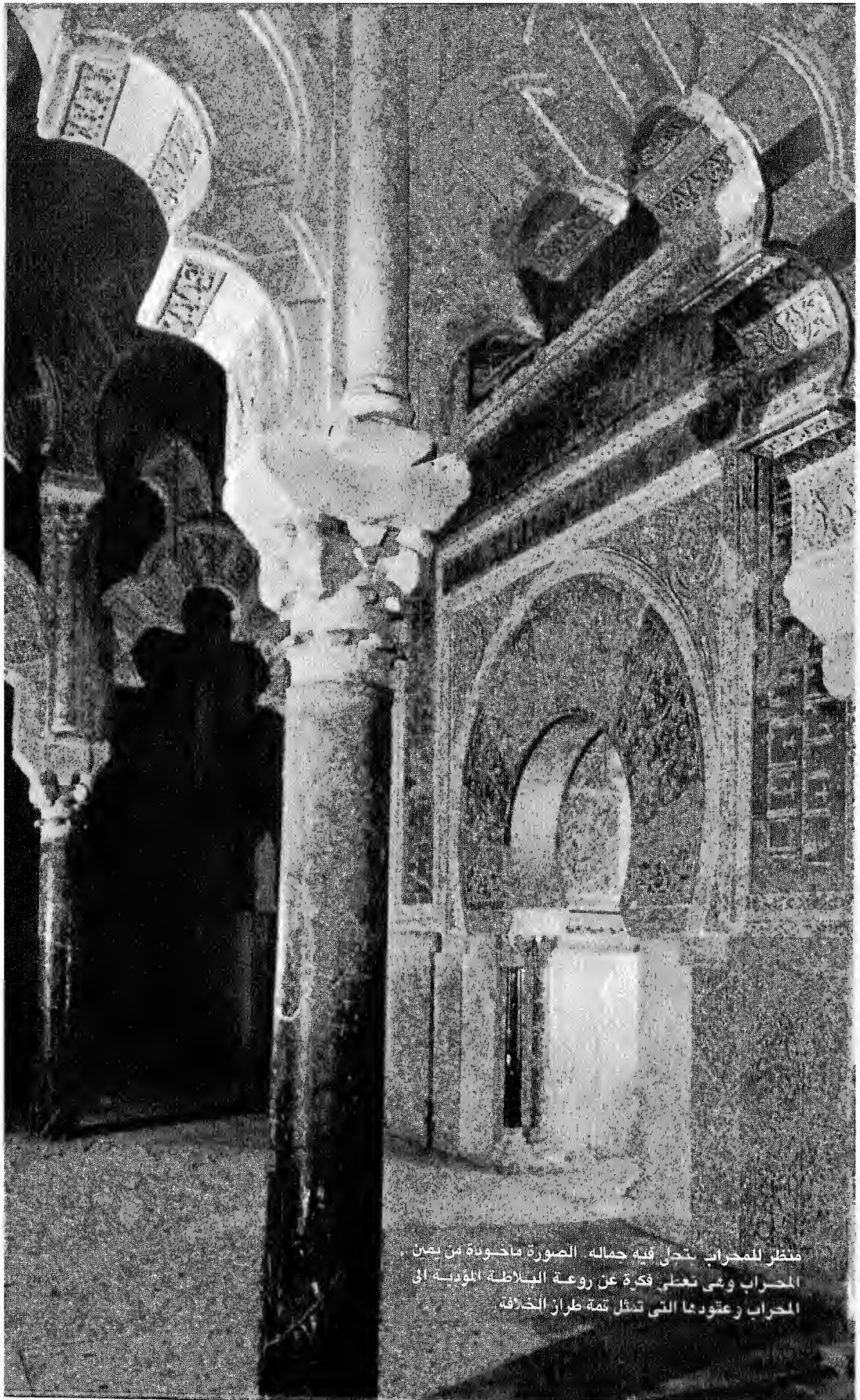
باب اصْطَفَيْنَ احد ابواب المسجد المغلقة الآن. تأمل كيف أحاط المعماري المسلم الباب بإطار باهر من الزخارف، وجعل فوق الباب تصويراً بديعاً للوحدات الفنية التي تتألف منها عمارة المسجد.



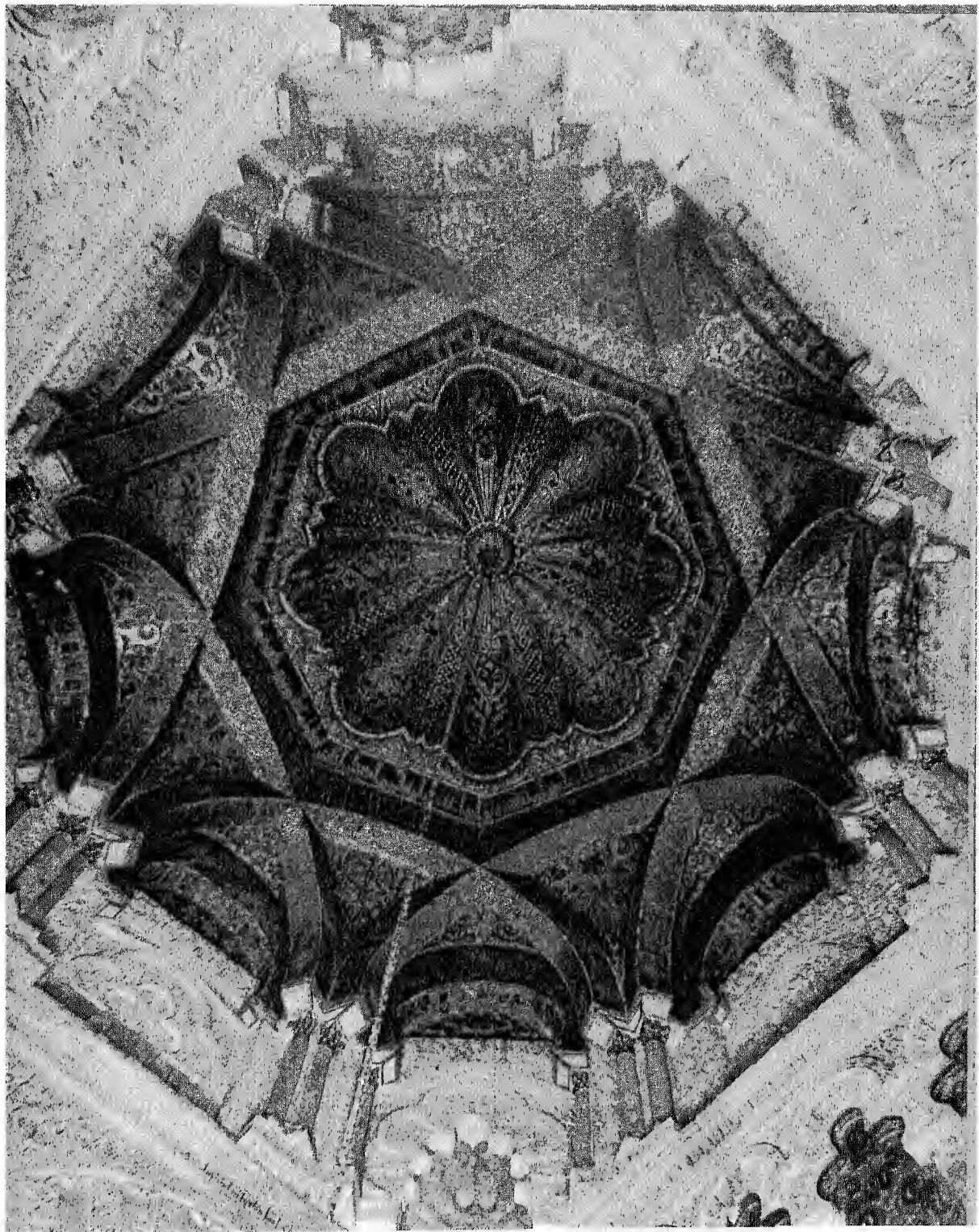
باب المغفرة من أبواب مسجد قرطبة. إنه يقع إلى جوار صومعة الجامع أي مثذنته في
الجدار الشمالي للمسجد. تأمل البوابات الزخرفية المتوالية التي تؤدي إلى صحن
الجامع.



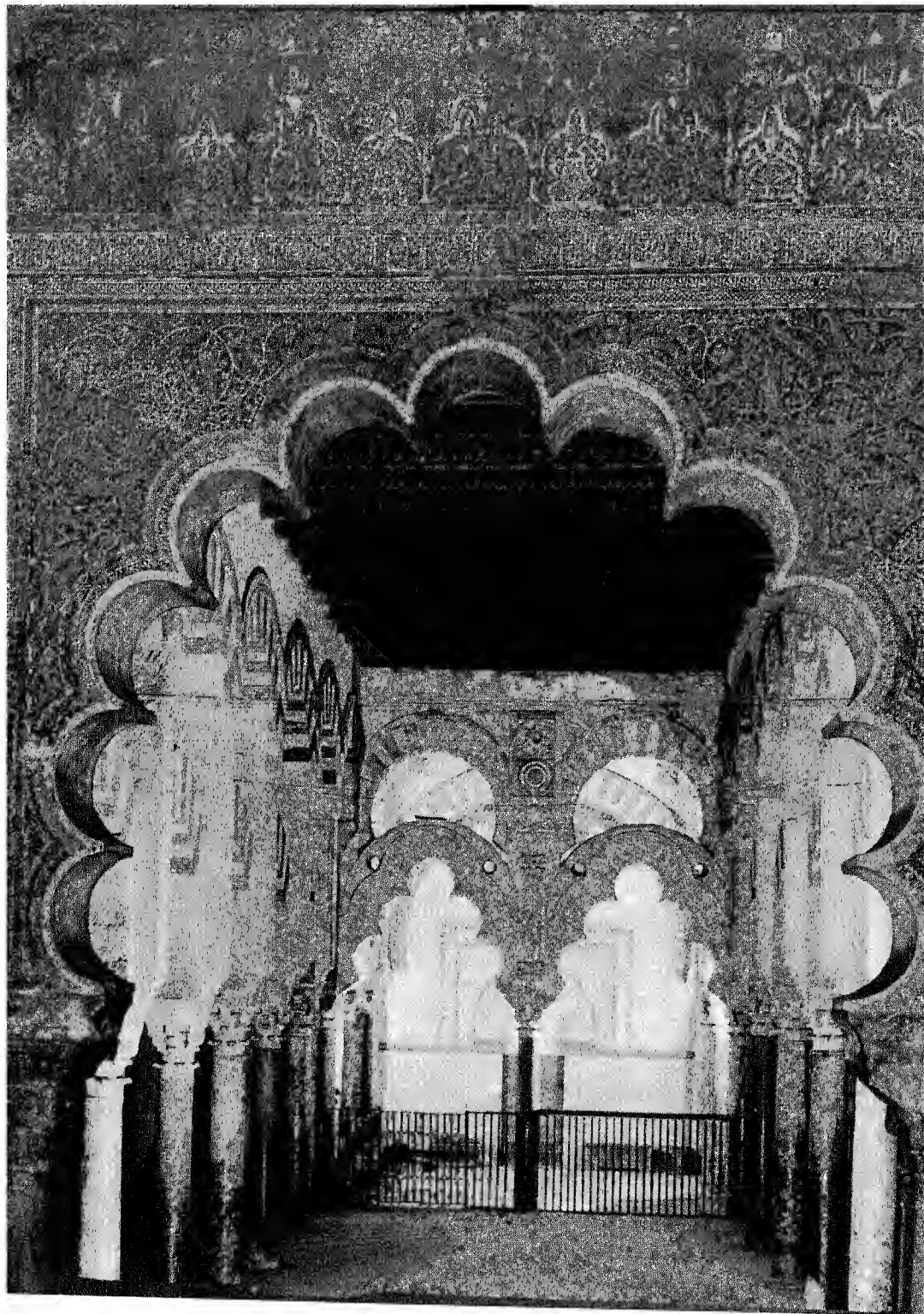
الجزء الأعلى من الحراب، والحراب كما ذكرنا في النص غرفة صغيرة
من الرخام كان يوضع بداخلها مصحف عثمان الشهيد رضي الله عنه.



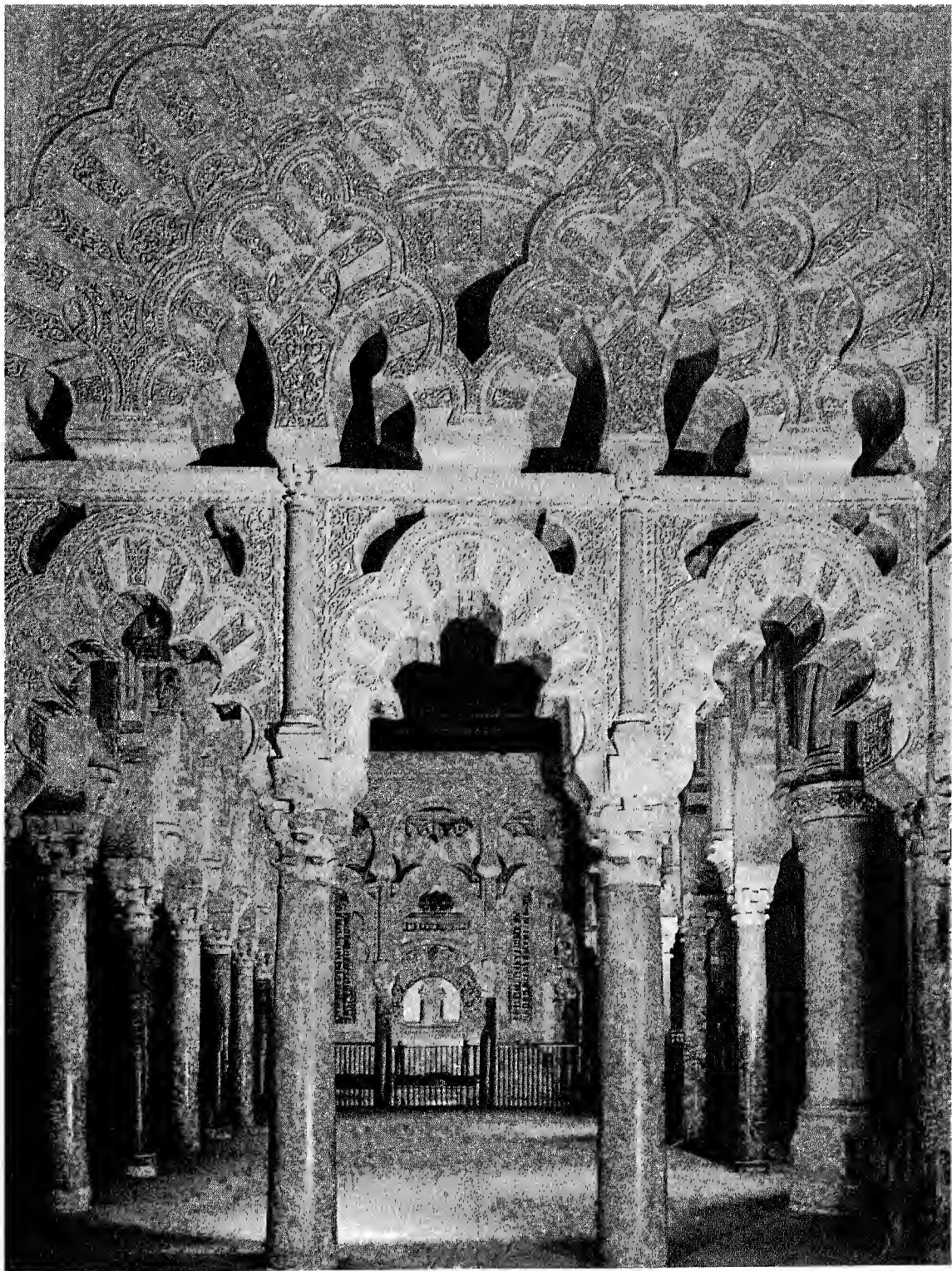
منظر للمحراب يتحلل فيه جماله. الصورة مأخوذة من اليمن
المحراب وهي تعطي فكرة عن روعة البلاطة المؤدية الى
المحراب وتعودها التي تمثل تمة طراز الخلافة.



القبّة الوسطى فوق بلاطة المحراب. انظر إلى العصبّات الحجرية التي تقوم القبّة عليها.
تلك هي بداية طراز العمارة القوطي.



بلاطة محراب المسجد الجامع بقرطبة. تأمل العقود المزدوجة. العلوية منها ذات
فصوص. وهذا القسم من الجامع من إنشاء عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر
وهو يمثل ذروة من ذرى الإبداع في العمارة الإسلامية.



المدخل إلى بلاطة المحراب. هنا ترى بوضوح كيف أنشأ المعماري العقود العليا فوق السفلى ووضع عموداً فوق عمود. وهذا التركيب كله يقوم على أعمدة دقيقة من الرخام المختلفة الألوان. قمة من قمم التوازن الهندسي في تاريخ العمارة العالمية.

هذه الأعمدة مختلفة الطرز : بعضها دُورِيّ وبعضها أبوني (وهما طرازان لمغربيان) والأخرى رومانية أو مركبة .

ذلك أن المعاري أتى بها من مواضع شتى ، بل فيها ما أتى به من قرطاجنة إفريقية (على مقربة من تونس الحالية) أو من إيطاليا ، وتكلف ذلك أموالاً طائلة دفعها عبد الرحمن الداخل عن طيب خاطر ، وقد عرف البناؤون كيف يسوون بينها في الطول والحجم .

أما كيف أقام المعاري العمود الثاني فوق الأول ، فقد وضع فوق تاج العمود الأول قاعدة صغيرة مربعة من الحجر ، وفوق هذه قاعدتين أوسع ، حتى حصل على اتساع كاف أقام فوقه العمود الثاني من الحجر ، وفرّج في نفس الوقت أربعة أقواس . .

وعند نهاية العمود الثاني فرع الأقواس الثانية موازية للأولى ، وأقام عليها السقف .

وابتكر شيئاً ثانياً زاد في جمال هذه الأقواس المزدوجة : عملها بالحجارة والطوب الأحمر ، طوبة من هذا وطوبة من ذاك ، فبدت الأقواس في الهيئة المزخرفة الجميلة التي تراها عليها الآن . .

وقد خفف السقف فجعله من الخشب ، ثم قواه بأعمدة خشبية أخرى ، ونقش ذلك كله ولونه بالذهب والأزرق والأحمر . .

والسقف الحالي ليس هو السقف القديم ، لقد بلى هذا ورفّع ووضع غيره من الخشب البسيط غير المزخرف . .

إذا أردت أن ترى نماذج من خشب السقف القديم ، وجدتها معلقة قطعاً على حائط بهو البرتقال ، وهو الذي كان الجزء المكشوف من صحن المسجد .

. . .

وبعد هذا القسم من الجامع مباشرة تجد الزيادة التي أضافها عبد الرحمن

الأوسط . وهى على نمط جامع عبد الرحمن الداخلى تماماً ، وتمتد إلى الجنوب سبعة أقواس تحملها ستة أعمدة ، تليها بقايا جدار الجامع بعد أن وسعه مرة ثالثة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

إنها مسجد ثان أضافه عبد الرحمن الأوسط إلى مسجد جده عبد الرحمن الداخلى ، تستطيع أن تسمى هذا الجزء مسجد عبد الرحمن الأوسط فى قرطبة ، فقد بنى مساجد أخرى كثيرة فى غير قرطبة ، أشهرها جامع ابن عبد بّس فى إشبيلية ، وقد حول هو الآخر إلى كنيسة . .

إذا وقفت فى الرواق فى هذا القسم من الجامع وظهرك إلى الباب الذى دخلت منه رأيت أجمل منظر يمكن أن تقع عليه عين داخل مسجد . . وإذا أمنت النظر فى أحد الأعمدة رأيت عجباً . .

ستجده - كأعمدة القسم الأول - من رخام أحمر أو أخضر أو وردى ، لأن هذه الأعمدة أيضاً جمعت من كل مكان فى إسبانيا ، بل أتى ببعضها من إيطاليا والمغرب ، ولكنك لن تحس أن بين بعضها وبعض فرقاً ، لا فى السمك ولا فى الهيئة ، لأن الفنان العظيم عرف كيف يصوغها فى قالب واحد .

تيجان هذه الأعمدة من كل طراز . وقد وضع المعمارى على كل منها قاعدة ضيقة من أسفل واسعة من أعلى ، وبذلك حصل على سطح أوسع ليضع عليه عموداً ثانياً من الحجر . .

من جانبي هذه القاعدة أخرج المهندس الأقواس الأولى ، يستدير كل منها ويستقر على رأس العمود المجاور . ولكى يزيد هذه الأقواس المزدوجة بهاء جعل واحداً منها مستديراً والثانى فى هيئة حلوة الحصان .

ومن بعيد يخيل إليك أنك فى غابة من النخل العجيب ، أغصانه تمتد فى كل اتجاه ، خفيفة رقيقة كأنها تهتز مع النسيم . .

وقد بقيت لنا أسماء من أشرفوا على هذه الزيادة الأولى ، وهم القاضى محمد بن زياد ونصر ومسرور موليا عبد الرحمن الأوسط .

ولكن عجيبة هذا المسجد الكبرى ، ميزته التي جعلته فريداً في طرازه حقاً ، هي الزيادة التي أضافها إليه الحكم المستنصر ثامن أمراء البيت الأموي الأندلسي والثاني من خلفائه . وقد تمت بين سنتي ٩٦١ و ٩٦٦ بإشراف علم من أعلام الفكر الأندلسي ، هو القاضي منذر بن سعيد البلوطي .

إنها مسجد جديد كامل . الفن الذي فيه يمثل ذروة من ذروات فنوننا العربية . بين يوم البدء في هذه الزيادة واليوم الذي أرسى فيه الحجر الأول من المسجد العظيم نحو ١٨٠ سنة ، خطا الفن الأندلسي خلالها خطوات شاسعة إلى الأمام . ولكن مهندسي الحكم المستنصر عرفوا كيف يؤلفون بين القديم والجديد على نحو حفظ على البناء وحدته الفنية الكاملة ، فلا تشعر وأنت تخطو داخل هذا القسم الجديد أنك تعبر من القرن الثامن إلى القرن العاشر الميلاديين . هذه الزيادة الجديدة أضيفت في جنوب الجامع — أي في اتجاه نهر الوادي الكبير — في نفس اتجاه زيادة عبد الرحمن الأوسط .

بهذه الزيادة وصل الجامع إلى ضفة النهر . إذا نظرت إلى رسم الجامع وموقعه لاحظت كيف زحف مسجد قرطبة حتى وصل إلى الحد الطبيعي : ضفة النهر .

إن الجامع يحكي في نموه وتطوره قصة البيت الأموي الذي أنشأه ورعاه . كما وصلت الخلافة الأموية الأندلسية أوجها على أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ف كذلك وصل الجامع إلى أوجه في أيامهما . كان وصول المسجد إلى النهر ، وإلى الأوج معاً ، إيداناً بوصول البيت الأموي إلى قمة مجده . هناك قمة أخرى للخلافة القرطبية : قمة وصل إليها محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور ، قمة مصطنعة خادعة أضرت أكثر مما نفعت . وعلى يد المنصور زاد الجامع زيادة ضخمة ، ولكنها مصطنعة أيضاً . .

لم يتطابق تاريخ دولة وتاريخ بناء مثل التطابق الذي نراه بين تاريخ بني أمية الأندلسيين وتاريخ جامعهم . كلهم أضافوا إليه إلا واحداً : المنذر ابن محمد (حكم أقل من سنتين) .

عبد الرحمن الناصر هو الذى أمر بهذه الزيادة التى نتحدث عنها ، وعهد إلى ابنه الحكم المستنصر فى الإشراف عليها ، واستمر العمل فيها أيام الناصر وابنه الحكم ، فهى من عملهما معاً .

* * *

وقبل أن ننتقل إلى الفصل التالى ، الذى نتحدث فيه عن زيادة الحكم المستنصر ، أحب أن تلاحظ أن المنظر الذى تراه الآن لا يمثل إلا جانباً صغيراً من الجلال الفنى الذى أفرغه عليه المعمارى العظيم يوم بناه . فسترى فى الفصل التالى أن يد التغير قد عبثت بالجزء الذى بناه عبد الرحمن الأوسط : أنشئت كنيسة صغيرة يتقاطع محورها مع محور المسجد ، وبني مصلب هذه الكنيسة على يسار الرواق فضاء معظم جباله ، ومساجدنا قطع من الفن يضيرها أقل عبث أو تغير . ثم إن أبواب المسجد التى تفضى إلى بهو البرتقال قد سُدَّت عدا المدخل الذى أتيت منه ، وهو أيضاً مدخل مظلم عليه بدل الباب أبواب ، فاحتبس النور وأصبح الداخل يدخل وكأنه فى شبه ظل لا يكاد يتبين معه شيئاً . فإذا ذكرت أن النور كان عنصراً من العناصر التى حسب الفنان حسابها عندما وضع تصميم هذا المسجد ، تصورت مقدار الخسارة التى نزلت بالجامع من جراء هذا التحريف . .

إنك تنظر إلى المسجد الآن وكأنك تتأمل لوحة فنية فى ضوء خافت حبيس . كل ما تراه هو الهيكل العام ، أما التفاصيل التى شقى الفنان ليضيفها ، أما اللامحات التى تعبر عن شخصه وتميزه عن غيره ، فقد خفيت كلها ، ولم يبق إلا أن تستكمل ما خفى عن طريق التصور والخيال . .

ونحن فى الأندلس فى دنيا لا تكتمل صورتها إلا مع خيال خصب خلاق يكمل ما ضاع ويستنقذ ما فات . وما من مرة تأملت هذا الجامع إلا تصورت أننى أنظر إليه بعين غواص ينظر إلى قاع البحر خلال الماء ، كل شئ يترأى له خلال سحب رقيقة من الماء ، وكل شئ أمامه يراقص مع سبر الماء فلا يتبين الواقع إلا فى صبر وعناء . .

نورٌ على نور

آثرت أن أفرد لهذا القسم الثالث من المسجد — أو المسجد الثالث ، إذا شئت — فصلاً قائماً به ، لأنه عمل فني كامل ، ابتكار فني معماري فريد في بابه ، وإن كانت يد الفن الماهرة قد عرفت كيف توفق بينه وبين مسجد عبد الرحمن الداخل وزيادة عبد الرحمن الأوسط على نحو من الرقة واللطافة لا تستبين العين معهما انتقالاً حاداً أو مفاجئاً . .

وربما كان هذا في ذاته رمزاً على ما دخل على دولة بني مروان في الأندلس من تطور بعيد المدى على يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر ، والذي يكتبه بعض المحدثين — مجازة للأوروبيين في أسلوبهم في تلقيب ملوكهم — عبد الرحمن الثالث . .

فقد تولى عبد الرحمن الناصر سنة ٩١٢ والفن على أشدها ، كان نفر من الظاهرين في نواحي الأندلس قد أغراهم الحُكم العادل اللين بالخروج عن الطاعة ، والأندلس — كما رأيت — بلد عسير الطبيعة لا يسهل جمعه تحت راية واحدة . ولم يتوحد شبه الجزيرة قبل العرب أبداً ، ولم يتوحد بعدهم إلا في القرن الثامن عشر .

وكان عبد الرحمن الناصر يعرف هذه الطبيعة الجموح وما يتطلبه تذليلها من جهد ، فشمر عن ساعد الجِد ومضى يعمل ستاً وعشرين سنة متوالية ،

لم يسترح له فيها جنب ، حتى أوفى على الغاية وجمع أطراف بلده حول راية قرطبة ، وأظله بالعدل والسباحة وساسه بالعقل وبعد النظر والرفق والكياسة ، فأزهر وأينع ، ورفرف الرخاء على رباه ونشطت النفوس واشربأت الآمال ، وغلما الأندلس بئمن هذا الناصر المبارك جنة الدنيا تتألق في قلبه قرطبة ، أزهر حواضر أوروبا كلها إذ ذاك . .

وفي خلال هذا الجهد المتصل ، بعد أن مهد البلاد وأقر الأمن والأمان ، وجد أن لقب الإمارة لم يعد يتناسب مع الجلال الذى صار إليه ، وأنه لا يضىفى على مُلك الأندلس الرُواء الجدير به بين ملوك أوروبا – وكان فيهم من يتخذ لقب الإمبراطور – فاتخذ لقب الخليفة ، وأصبحت قرطبة مركز أول خلافة إسلامية قامت على أرض أوروبية ، والثانية خلافة آل عثمان فى القسطنطينية .

وكان لا بد لهذه الخلافة الزاهرة من مسجد جامع خليق بروائها ، وقد كان عبد الرحمن الناصر قديراً على أن ينشئ جامعاً جديداً رائعاً ينسب إليه ، ولكن سلائل بنى مروان فى الأندلس كان فيهم حرص على التقاليد واستمسك بمنهج أجيالهم الأولى ، كأنهم كانوا يجرون فى سياستهم على الحديث النبوى الشريف الذى يقول : « لا يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله » .

وكانوا يعرفون أيضاً أن وحدة الدولة والوطن لا تقوم إلا على أساس من وحدة التاريخ ، ومهما بلغ من رواء ملك عبد الرحمن فهو بناء على ما أسس جدُّه عبد الرحمن الداخل ، وما دام هذا قد أنشأ ذلك المسجد وجعله محراب جماعة الإسلام فى الأندلس ، فليظل كذلك ، لا تُخلع عنه هذه الصفة ولا يُنقل عنه هذا الشرف إلى غيره ، وليوسّع هذا المسجد وليُضف عليه من جمال الفن وجلال الخلافة ما شاء إبداع الفن ونمو الحضارة وما قدَّرَ جُاهُ الخليفة ...

وقد احتفل عبد الرحمن بهذه الزيادة الجديدة ما شاء له الاحتفال ، وعهد فى الإشراف عليها كما قلنا إلى ابنه الحكيم – وكان آية من آيات ربه فى العلم والفهم وصفاء القلب وصدق النية – وأردفه بكبير علماء قرطبة فى وقته

وقاضها وخطيب مسجدها الجامع منذر بن سعيد البلوطي ، وأفرغ عليهما
من الأموال ما يلزم لهذا العمل الجليل . .
لا غرابة إذن في أن تجيء هذه الزيادة جامعاً جديداً قائماً بذاته داخل
الجامع القديم . .

وقد ذكرنا كيف عرف المهندسون الأندلسيون كيف يوفّقون بين ما
ابتكروه في هذه الزيادة الجديدة ونظام المسجد الأول وزيادته . .
ووصفنا مدخل الزيادة ، وبينّا ما تمتاز به من تجديد وابتكار . .
ونحب أن نستلفت نظرك قبل أن نمضي مع الوصف إلى أن هذا الجزء
من الجامع ، وجزءاً كبيراً من زيادة عبد الرحمن الأوسط — التي خلفتها
وراءك — قد نالها تغيير كبير أضاع الكثير من روائهما بعد أن خرجت قرطبة
من دار الإسلام . .

ففي أعقاب سقوط البلد وتحويل المسجد الجامع إلى كنيسة جامعة
(كاتدرائية) أيام فرناندو الثالث اسخنفر القسس وأنشأوا كنيسة صغيرة
يُدخل إليها من أحد أبواب المسجد الشرقية المفضية إلى الشارع المسمى المَحَجَّة
العظمى (يسمى الآن شارع تورينخوس) وهو الباب الذي يسمى اليوم باب
القديس ميخائيل (پويرتا دِسان ميغل) وأقاموا في وسط المسجد تماماً — إلى
يسار الرواق بين العمودين الثاني عشر والخامس عشر في اتجاه المحراب —
مصلباً مسيحياً تراه إلى يسارك إذا وقفت في هذا الموضع من الرواق ، وهم
يسمونهُ اليوم «الكُور» أي قلب الكنيسة . .

وأما ما أدخل من التغيير على زيادة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر
فنشير إليه بعد قليل . .

والمهم لدينا أن هذه التغييرات شابت جمال المسجد الجامع وأضررت
بوحده الفنية الرائعة ، فقد كنت إذا أفضيت من الباب إلى الرواق وجدت
نفسك في روضة مترامية من الأعمدة تبسق من أعاليها الأقواس اثنين اثنين ،

فتحس أنك في غابة نخيل من مرمر مختلف ألوانه ، سعه تلك الأقواس
البديعة بيضاء وحمراء ، حتى يستقر بصرك على المحراب وما يؤدي إليه من
أشكال هندسية تأخذ بمجامع الأبواب ، أصبحت تجد هذه الكنيسة القديمة ثم
الكاتدرائية من خلفها كأنهما جلمودان يأخذان عليك مذاهب النفس والبصر ،
ويحولان بين خيالك واسترساله مع أمواج العاطفة والإيمان وإشراق النفس . .
وهذا بعض ما أصاب هذا المسجد العظيم على يد الزمان وأهل الزمان . .

* * *

انتهينا في مطافنا إلى البلاطة التي تلى مدخل زيادة عبد الرحمن الناصر
والحكم المستنصر . .

وقفنا تحت قبتها ، لتأمل الإعجاز الفني الذي خلعه المهندس والصانع
العربيان عليها . .

إذا نظرت إلى يمينك لاحظت أن هيئة القوس تختلف عما رأيته إلى الآن
في هذا الجامع . .

إنه قوس من خمسة فصوص . .

وفوقه وضع المهندس قاعدة أخرج منها قوسين صغيرين ، أحدهما
يمضي إلى اليمين والثاني إلى اليسار . .

وفوق هذين القوسين وضع قوساً ثالثاً . .

وفوق ذلك كله رفع قبة تقوم على عروق متشابكة من الحجر . .

لأنها قبة صغيرة ، ولكنها آية من آيات الفن . .

وهي واحدة من ثلاث قباب تزين سطح هذا المسجد العظيم . .

الثانية والثالثة فوق البلاطتين اللتين تقعان عن يمينك وعن يسارك . .

ليس في الدنيا أجمل من هذه الأقواس المتشابكة التي تراها إذا رفعت
بصرك إلى أعلى وأنت تحت هذه القبة . .

لأنها خيمة معلقة في الهواء ، خيمة من حجر أشبه بفروع الشجر ، ولكنها
بلغت من الدقة والرقّة بحيث يخيل إليك أنها مرسومة في الهواء . .

لقد استهوت هذه البلاطات الثلاث أفئدة الإسبان . عندما حولوا المسجد إلى كنيسة فجعلوا الوسطى منها مصلى سموه المصلى الملكي (كاييساريال) واليمنى مصلى آخر سموه باسم بلد صغير في إقليم قرطبة : فَيِّيا فَيِّثُوسا، والتي إلى اليسار سموها مصلى الرسول بطرس . .

بيننا وبين المحراب الآن سبعة أقواس من الطراز المزدوج العام في المسجد. بعد أن تقطعها تجد نفسك أمام آية أخرى من آيات الفن في كل العصور...

* * *

أراد الفنان أن يهيئ نفس المقبل على المحراب ، لأنه ليس محراباً عادياً يشبه ما رأيت إلى الآن في مساجد الإسلام . .

لهذا قدم بين يديه بثلاث بلاطات بدیعة تبدو للرائي وكأنها ثلاثة أقواس نصر رائعة . .

الأقواس في هذه البلاطات الثلاث مركبة متشابكة ، السفلى منها من سبعة فصوص ، ومن أعلى كل منها فرعٌ معماري نصف قوس يستم في البلاطة التي عن يمين وعن شمال . .

وفوق الأعمدة الأولى رفع الثانية ، من الممر هذه المرة . .

وعلى هذه الأعمدة العليا أقام الأقواس الثانية . .

وفوق هذه البلاطات أقام قبأباً أو مناور ينفذ منها ضوء باهر . .

المنظر من بعيد يحار فيه النظر . .

خلف هذه « الدنتلا » من الحجر يفيض النور ، نور الله سبحانه وتعالى . .

فيض رائع من نور البارئ تعالى يملأ بيته سبحانه . .

لم أر في حياتي تصويراً أروع من هذا لقول الله سبحانه وتعالى يصف

ذاته القدسية : (نور على نور) . .

وهذا النور الرباني كله يبدو لك من خلال الأقواس والأعمدة التي

وصفناها وكأنه خيال . .

إنه الفن الصافي يسبح معك لله بارئ الأرض والسموات . .

فإذا أفضيت إلى هذه البلاطة السابقة للمحراب ، ووقفت وسط هذا القبض من نور الله ، واستدرت وراءك لترى ما قطعت إلى الآن من المسجد ، رأيت عجباً أى عجب . .

فهذه هى الأعمدة والأقواس تتوالى أمامك فى نسق كأنها طريق لا ينتهى ، والرواق يمتد أمامك إلى الباب كأنه طريق فى غابة من الشجر يهتز ويتمايل . . أرجو أن تضيف إلى هذا شيئاً . .

فإن الرواق ينتهى عند الباب الذى دخلت منه فى شبه ظلام ، وما كان هكذا على أيامنا . .

كان الباب الرئيسى للمسجد يقع فى آخر هذا الرواق – أو أوله بتعبير أصح – ولم يكن باباً، وإنما كان قوساً عظيماً يفضى إلى الصحن غير المسقوف المسعى اليوم بهو البرتقال . .

أى أنك لو كنت فى مكانك هذا أيام الحكم المستنصر مثلاً ، لرأيت الصحن المكشوف وفيه أشجار البرتقال ترف مع النسيم . . نور من خلف ، ونور من أمام . .

ونعود إلى المحراب . .

إنه لا يشبه المألوف من المحاريب ، فهو ليس تجويفاً فى الجدار مزيناً بالزخارف والألوان كما هو الحال فى غيره من المساجد ، بل هو أشبه بصومعة تدخلها من مثل باب مسجد . .

هذا الباب الزخرفى على هيئة حدود حصان مرفوعة فوق قواعد من الرخام . أحجار القوس كلها ملونة تزينها الزخارف يحيط بها من خارج القوس إطار زخرفى .

الجدار حول العقد وفوقه منقوش تزيينه كتابات .

يلى ذلك من أعلى ، وحتى السقف ، صف من الأقواس الزخرفية الصماء . يخيل إليك أنها تصوير باليد لأعمدة المسجد وأقواسه فى زيادة الحكم المستنصر .

وداخل هذه الأعمدة والأقواس زخارف زهرية تضيف على هذه الواجهة خفة ونضارة ، وإطارات قوس الباب مزخرفة بكتابات يزعم أدلاء المسجد لمن يسرون معهم من السائحين أنها أسماء المهندسين الذين بنوا الجامع . .
ولإليك قراءة هذه الكتابات :

كتابة الإطار الخارجى لواجهة المحراب تبدأ من السطر الأول من اليمين من أسفل ، وتصعد ثم تسير من اليمين إلى اليسار ، ثم تنحدر إلى أسفل اليسار . .
وكذلك السطر الثانى . .

الكلمات الأربع الأولى من السطر الأول ليست شيئاً مفهوماً . إنها تقليد لهيئة الكتابة العربية ، لأن الذين رمموا المسجد سنة ١٨١٦ وجدوا أن الكتابة والزخرفة سقطتا من هذا الجزء ، فأكملوه بتقليد هيئات الحروف العربية حتى لا يبقى فراغاً . . وبعد ذلك تقرأ الآية السادسة من سورة السجدة : (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) . .

ثم الآية ٦٥ من سورة غافر ، تقرأ منها من أسفل إلى أعلى : (هو الحى) . وتستمر الآية فى السطر الأعلى من اليمين إلى اليسار : (لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين) . وبقية السطر : موفق الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكيم أمير المؤمنين أصلحه الله .
ثم تستمر الكتابة من أعلى إلى أسفل : لهذه البنية المكرمة ومعينه على نيته الخالصة فى التوسع لرعيته . . وبقية السطر مطموسة .

والسطر الثانى - ابتداءً من أسفل اليمين - أوله لا يقرأ لأنه نقش زخرفى فى هيئة الكتابة الكوفية ، ثم بعد ذلك تقرأ من أسفل لأعلى : ما إليه وإليهم الرغبة فيها ابتداء من فضله فيهم ، وصلى الله على محمد وسلم .

والسطر الثانى من أعلى من اليمين إلى اليسار ، ثم من أعلى إلى أسفل : أمر الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكيم موليه (أى مولاه) وحاجبه جعفر

ابن عبد الرحمن رحمه الله بتشديد هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليح ومحمد بن نصر وخلد (= خالد) بن هاشم أصحاب شرطته ومطرف ابن عبد الرحمن الكاتب . .

وتحت هذين السطرين ، وفي إطار مستطيل من اليمين إلى اليسار : (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم نص الآية ٢٣ من سورة الحشر : (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) .

وعند قاعدتي القوس (العقد) على اليمين واليسار كتابتان تتألف كل منهما من ثلاثة سطور .

على اليمين ، بعد البسملة ، الآية ٤٣ من سورة الأعراف : (بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق) . وبعد ذلك : أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكيم أمير المؤمنين . .

وعلى اليسار يستمر الكلام : أصلحه الله موليه (= مولاه) وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رضى الله عنه ينصب هذين المنكبين فيما أسسه على تقوا (= تقوى) من الله ورضوان فتم ذلك في شهر ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثلث مائة (ثلاثمائة) . .

ونقوش الواجهة وكتابات محلاة بالفسيفساء ، وهى المعروفة فى اللغات الأوروبية باسم موزايك أو موزايكو .

يصنعونها بأن يقطعوا الحجر مكعبات صغيرة ضلع الواحد منها سنتيمتر أو أقل ، ثم يغمسوها فى الألوان : أزرق وأحمر وذهبي وأصفر ورمادى ووردي . .

ويرسمون الرسم الذى يريدون على الموضع المراد رسماً خفيفاً بالفحم ، ثم يلصقون قطع الفسيفساء على خطوط الرسم وظلاله ، فتتكمّل الصورة بهذه القطع . .

هذا الفن ابتدعه المصريون في العصر المسيحي ، وعُثم أخذه البيزنطيون وجودوه ، ثم انتقل إلى عرب المشرق . .

وفي عهد الحكم المستنصر ، وأثناء بناء جامع قرطبة ، كانت هناك علاقات ثقافية بين الدولة البيزنطية والدولة الأموية في قرطبة : كانوا يتبادلون الكتب والعلماء وأشياء الفن . ورأى قسطنطين السابع أن يبعث إلى الحكم المستنصر بهدية من هذه الفسيفساء ، فطلب إليه الحكم أن يبعث معها بعاملين يعلمان صناع قرطبة وضع الفسيفساء ، ففعل . وتعلم القرطبيون هذا الفن وطبقوه على واجهة المحراب ، فجاءت آية في جبال الفن .

الألوان الغالبة عليها الأزرق العربي ، وهو ذلك الأزرق الصافي المتوسط العمق ، وهو مشهور في عالم الألوان باسمهم (بلو دارابي) ، ثم الذهبي والأحمر .

* * *

ونفضى إلى داخل المحراب . .

إنه مقصورة صغيرة ذات أضلاع . .

جدرانها مبطنّة من أسفل بالرخام الأبيض ، ثم يلي ذلك عقود زخرفية صماء ، ثم إفريز محلي بالكتابة ، يليه إفريز زخرفي صغير .

وفوق هذا أقام المعماري المبدع سقف المحراب . جعله من قطعة واحدة من الحجر ، هيأها على صورة المحارة مقسمة إلى فصوص زخرفية . .

والإفريز الأول المكتوب يضم نص الآيتين ١٠٢ - ١٠٣ من سورة آل عمران ، وأنت تقرأهما من اليمين إلى اليسار :

(بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) .

نبوءة بالغيب من صاحب الغيب سبحانه . .
إنذار من الله بما سيكون . .

وما كان الله ليذكر أهل الأندلس بنعمة من نعمه أجدى عليهم من الاتحاد
والاعتصام بحبله ، فإن الخطر الأكبر الذى كان يهدد هذا الأندلس العربى
الإسلامى هو التفرق ، فبلدهم ثغر وجبهة قتال ، والأعداء من حولهم كثيرون .
ولكنهم نقشوا كلام الله سبحانه بأيديهم ولم يعوه بقلوبهم . .
وتفرقوا ، واختلّفوا ، وتحادّوا ، وتحاربوا . .
وعادوا على شفا حفرة من النار . .
وأكلتهم النار !

وما قاساه أهل الأندلس نتيجة للتفرق لم يكن غير النار والدمار وضياح
الأهل والولد والدين والديار . .
وسبحان من أنذر فأعذر ، وأرسل كلماته هدى ونوراً لمن أراد الهدى
والنور . .

رحم الله أبا إسحق إبراهيم بن خفاجة حين قال يرثى بلنسية :
عائت بساحتك الطُّبى يا دارُ ومحا محاسنك البلى والنسارُ
فإذا تردد فى جنابك ناظر طال اعتبارُ فيك واستعمارُ
أرض تقاذفت النوى بقطينيها وتمخضت بجرابها الأقدارُ
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها : لا أنت أنت ، ولا الديار ديار

ونحت هذا الإفريز الذى زانته هذه الآيات الواعظة ترى إفريزاً آخر
واسعاً تقرأ فيه الآية ٢٣٨ من سورة البقرة مسبوقة بالبسملة : (حافظوا على
الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) ، وبعد ذلك : أمر الإمام
المستنصر بالله عبد الله الحكيم أمير المؤمنين أصلحه الله ، فيما شيد من هذا
المحراب بكسوته بالرخام داخله فى جزيل النور وكريم المنار ، فقم ذلك على يدى
موليه (مولاه) وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رضى الله عنه ، بنظر

محمد بن تميم وأحمد بن نصر وخلد (خالد) بن هاشم أصحاب شرطته، ومطرف
ابن عبد الرحمن الكاتب في شهر ذي الحجة من سنة أربع وخسين وثلاث
ماية (ثلاثمائة) (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة
الوثقى) وإلى الله عاقبة الأمور (سورة لقمان، آية ٢٢).

وفي إفريز ضيق، يدور مع المحراب تحت الأقواس الزخرفية، تقرأ
الآيتين ٥ و ٦ من سورة المائدة: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة
فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى
الكعبين. وإن كنتم جنباً فاطهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء
أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا
طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله ليجعل عليكم من
حرج، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون).

وفي هذا المحراب كتابات أخرى، بعضها آيات قرآنية وبعضها توقيعات
من اشتركوا في عمله. والمسجد كله حافل بهذه الكتابات، يطول بنا الأمر
لو مضينا نذكرها واحدة واحدة..

ولكن تهمننا تلك التي تعين تواريخ عمل بعض أجزاء هذا العمل الفنى
العظيم.

فعلى القوسين المؤديين إلى البلاطة السابقة على المحراب تقرأ: الحمد لله
على الهدى (الهدى)، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء. أمر الإمام المستنصر
بالله عبدالله الحكيم أمير المؤمنين وفقه الله موليه (مولاه) وحاجبه جعفر بن
عبد الرحمن، رحمه الله، بعمل هذا المشرع إلى مصلاه، فتم بعون الله
بنظر محمد بن تميم وأحمد بن نصر وخلد (خالد) بن هاشم ومطرف بن
عبد الرحمن الكاتب. الحمد لله..

وتقرأ أيضاً: بسم الله الرحمن الرحيم. أمر عبدالله الحكيم أمير المؤمنين
أصلحه الله موليه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن، رحمه الله، بعمل هذه

الفيسفاء فى البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين
وثلاث مائة .

وغير ذلك كثير . .

والذى ضاع وتفرق من هذه الذخائر أكثر مما بقى . .

فقد وجدوا مثلاً - فى سنة ١٨٤٤ قطعة من عقد من المرمر وهم يحفرون
فى شارع رُوَيْلاس كتب عليها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا حول ولا
قوة إلا بالله العلى العظيم . أمرت السيدة « مُشْتاق » أم الأمير المغيرة بعمل
هذا المنار والسقيفة المنضمة له ، وتجديد طرر هذا المسجد ، فتم بعون الله على
يدى جعفر بن عبد الرحمن فتاها . . فى شهر رمضان [سنة] . . . بين
وثلاث مائة » .

وإذن فقد كان أمراء وأميرات البيت الأموى يضيفون إلى هذا المسجد
قدر ما استطاعوا ، كأنه كان ديوان بيتهم يجتهد كل منهم فى الإضافة إليه
ووضع اسمه فيه . . .

والأمير المغيرة نحن نعرفه . إنه ابن عبد الرحمن الناصر وأخو الحكم
المستنصر . وقد قتل غيلة عقب موت أخيه . خاف محمد بن أبى عامر
وأصحابه الطامعون فى الدولة أن يصل إلى العرش من دون الغلام الصغير
هشام بن الحكم المستنصر ، فيضيع سلطانهم ، فقتلوه . .

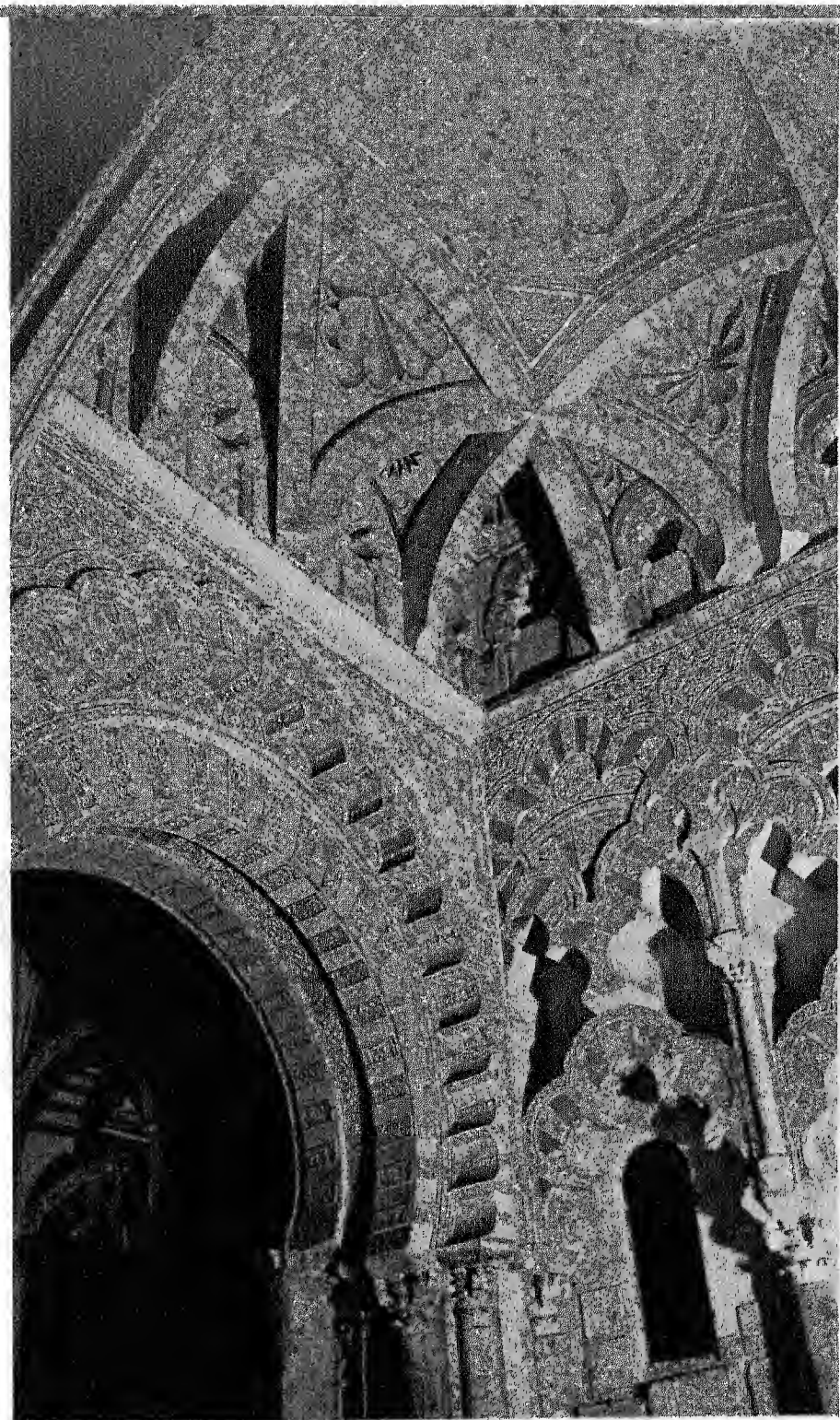
° ° °

على يمين هذا المحراب البديع وعلى يساره أقام المعمارى غرفاً أو مقاصير . .
فى الأولى منها - على يمين المحراب - كان يوضع مصحف ذى النورين
عثمان . .

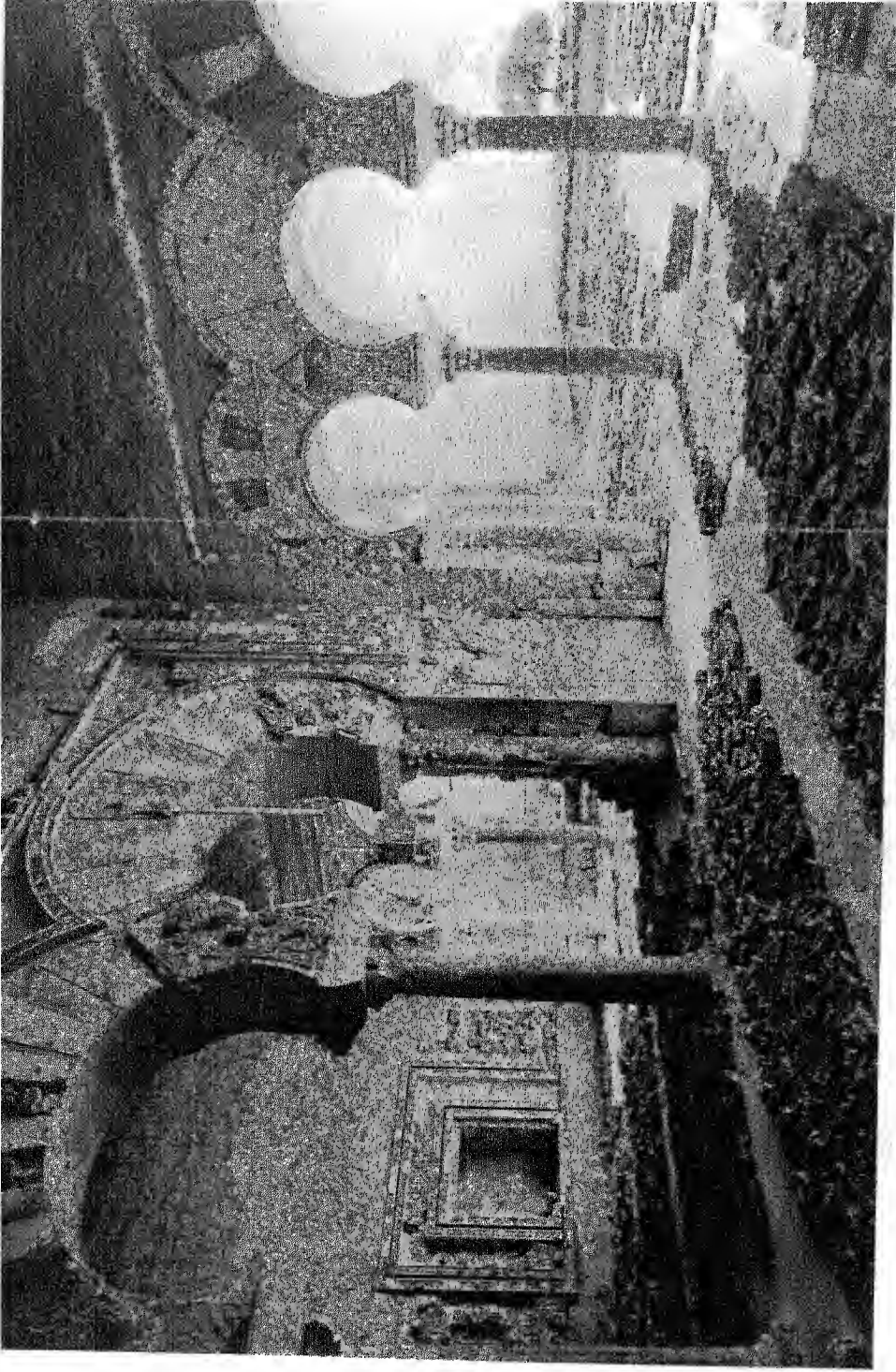
كان قد أتى به - أو زُعم - إلى بنى أمية ، وعليه قطرات من دمه الزكى . .
فى هذه المقصورة كان يحفظ على وساد من مخمل يحمله كرسى مطعم
بالصدف . ويوم الجمعة من كل أسبوع ، كان يُخرج قبل الصلاة ، ويؤتى
به للقارئ فى المحراب ، فيقرأ منه ما شاء الله له أن يقرأ . .



تفضل جميع السجدة السرفى على
و... القبرين والكنيسة - من
مختصا - ليست: اصلحة فاقوا من
الظهور الماروك عفا من الطيور
والكنيسة مملكة الماروك - الامم
والاراضي في ان مملكة مملكة
الرحمن الماروك والاراضي على
الرحمن الماروك والاراضي على
القاصر عليها اصطف - فالعمر من
الرحمن الماروك والاراضي على



صورة جميلة جداً للعصبات الحجرية الحاملة للقبة الوسطى في المسجد الجامع. هذه
العصبات الحجرية تقرر دون شك أن طراز العمارة القوطي الذي يعتبر أعظم الإضافات
الأوروبية للعمارة في العصور الوسطى من ابتكار المسلمين وميلاده هنا في قرطبة.



مثال رائع من أمثلة الترميم الأثري. هذا مدخل مدينة الزهراء المكية التي أنشأها عبد الرحمن الناصر على سفح جبل العروس الواقع جنوب غربي قرطبة. كل هذا أقامه الأثريون من قطع صغيرة كالتى تراها أكواماً في مقدمة الصورة. البوابة ذات العقود الثلاثة من طراز الخلافة بؤدي إلى مجلس الخليفة في صدر البهو. كان كرسي الخليفة يقوم في نفس الموضع الذي تتأمل أنت منه هذه الصورة. وإلى اليسار ترى بهواً ثانياً في حفلات الاستقبال كان الوزراء وكبار رجال الدولة يجلسون على مقاعد إلى يسار البهو ويمينه. أما الأمراء فكانوا يحفون بالخليفة في مجلسه.



هكذا يزینون شوارع قرطبة الإسلامية . مثال من التزیوق السیاحی الانیق . بلدية قرطبة
تقوم بعمل الواجهات والنوافذ ووضع اصص الزهور وسكان البيوت یرعونها .

والمقاصير الأخرى كانت مخازن لحاجات المسجد : كتب وشموع
وما عسى أن يحتاج له قومته وخدمه . .
المقصورة الأولى إلى اليسار وسعوها وغيروا شكلها بعد تحويل المسجد
الجامع إلى كنيسة . إنها اليوم مصلى باسم القديسة تيريزا (كاثوليكاً) سانتا
تيريزا) ومستودع للذخائر الكنيسة (تيسورو) . .
والبلاطة التي أمامها تسمى العشاء الرباني (سانتا ثينا) . .
وفي أيام الخلافة القرطبية كانت البلاطة الواقعة أمام المقصورتين الأولى
والثانية على يمين المحراب مقصورة يصلى فيها الخلفاء .
وكان الخلفاء يدخلون إليها من باب مواجه لها ، وهو في نفس الوقت
أمام باب القصر على الجانب الآخر من شارع المحجة العظمى . ولم يكن الخليفة
يعبر الطريق ، وإنما كان يمر في قنطرة فوق الشارع من قصره إلى باب
الجامع . .
هذه القنطرة كانت تسمى السباط ، وباب المسجد الذي تنهى عنده هو
باب السباط . .
ولا زال هذا الباب باقياً إلى اليوم . .
° ° °
إلى هنا كان ينبغي أن ينتهي المسجد . .
على هذه الصورة كان ينبغي أن يظل أبداً ، فقد وصل جداره إلى
« الرصيف » على ضفة الوادي الكبير . .
ولكن ، فيما بين ٩٨٠ و ١٠٠٢ استبد بأمر الأندلس محمد بن أبي عامر
الملقب بالمنصور . .
كان — كما ذكرنا — عبقرية من عباقرة السياسة والحرب . .
أقام لنفسه داخل الدولة الأموية دولة تسمى الدولة العامرية ، وقضى على
منافسيه في عنف وقسوة ، وتتبع بالأذى كل من توسم فيه بالنجابة من
بنى أمية . .

وعند ما أصبح هذا الرجل كل شيء ، لم يعد في الأندلس شيء . .
ودولة تقوم على عمود واحد ، لا بد أن تنهار عندما يزول هذا العمود
الواحد . .

وهذا هو ما حدث بالفعل . . بعد المنصور جاء ابنه المظفر ، فحكم سبع
سنوات . . ثم ابنه الثاني عبد الرحمن المعروف بشنْجُول فحكم أقل من
عامين . .

وفي سنة ١٠٠٩ قتل شنْجُول ، وانتثر عقد الدولة ، وبدأت الفتنة . .
ولم تعد وحدة الأندلس بعد ذلك أبداً . .

وفي سنة ١٠٣١ زالت الخلافة الأموية من الوجود ، وبدأ النزاع الطويل .
وقد كانت أيام المنصور كلها فتوحاً وأجساداً ، ولكنها كانت مجرد
طبول : دوى عظيم وفتح قليل . . ففي غزواته التي قاربت الخمسين لم يقض
على واحد من أعداء الأندلس قضاءً نهائياً ، ولا حول قاعدة من قواعد
الخصوم إلى قاعدة من قواعد الإسلام . . وكان مجده ، من كل ناحية ،
مجداً حريماً أجوف كله آلام ودماء ، لنا قبل غيرنا . .

ولكى ينسى الشعب آلامه ودماءه ، اجتهد ابن أبي عامر في أن يهر
أنظاره بكل عجيب من الأعمال . .

ومن هذه الأعمال العجيبة تلك الزيادة التي أضافها الجامع قرطبة . .
أراد أن يضيف إلى الجامع جزءاً يزيد على ما أضافه سابقوه . .
ولكن كيف وقد وصل الجامع إلى النهر ، ولم يعد يقبل لإضافة في الاتجاه
الطبيعى ؟

وكما حطم المنصور كل القواعد ليبني مجده ، أضاع تناسق الجامع ليضيف
زيادته .

وسع الجامع من ناحيته الشرقية : أضاف إليه بطول هذه الناحية ما يزيد
على ثلث مساحته أيام الحكم المستنصر .
أضاف وحده ٢٤٥ عموداً وقوساً ، اجتهد في أن تكون من طراز عمد

المسجد وأقواسه . وهى بالفعل تبدو وكأنها كذلك ، ولكن الفرق بعيد لمن يتأمل من قريب .

وأبسط هذه الفروق أن الأقواس تبدو من بعيد وكأنها مبنية بالحجر والطوب الأحمر كبقية أقواس المسجد ، ولكنها فى الحقيقة كلها حجر ، واللون الأحمر طلاء . .

وكذلك جدار المسجد الشرقى وأبوابه التى صنعها المنصور ، لا تقارن فى البهاء والدقة بالجدار الغربى وأبوابه . .

المهم لدينا أن المسجد أصبح بهذا أضخم ما بناه العرب من المساجد . . وكما أضاف المنصور إلى صحنه المغطى أضاف إلى صحنه غير المغطى ما يعادل ثلثه ، وأدار السور على ذلك كله . .

وهذا الصحن غير المغطى هو المسمى اليوم بغناء النارنج (أى البرتقال) . وهو أيضاً فريد فى بابيه ، لأن الفقهاء كانوا يحرمون غرس الأشجار فى صحنون المساجد غير المغطاة ، ولكن فقهاء الأندلس أباحوا ذلك ، وكان الذى أفتى بذلك الفقيه صمصعة بن سلام الشافى (توفى سنة ٧٧٤) . وكانت هذه الفتوى مدار مناقشات طويلة بين الفقهاء .

ولا زال شجر البرتقال قائماً فى الصحن إلى الآن ، وإن كان قد أعيد غرسه وتنظيمه على نظام سياحى جديد ، وأضيفت إليه بضع نخلات ونافورات . .

وكانت للمسجد ميضأة عظيمة وسط الفناء المكشوف ، ساق الخلفاء إليها الماء من الجبل فى قنوات من الرصاص ، كان الماء يجرى فيها ليلاً ونهاراً . ولكى يضيف المنصور إلى الجامع شيئاً جديداً ، أنشأ تحت الميضأة صهريجاً عظيماً يتكون من تسعة أقبية تقوم على أربعة أعمدة واثنى عشر قوساً . ولا زالت آثار هذا الصهريج باقية إلى اليوم . . وكان يحيط بالمسجد سور عظيم فيه سبعة عشر باباً . .

ولم يكن للصحن المسقوف أبواب تؤدي إلى الصحن غير المسقوف ، بل الأقواس كانت هي الأبواب ، فكان الضوء يدخل منها ويملأ الجامع نوراً . . ومن ناحية النهر ، أنشأ الحكم المستنصر والمنصور رصيفاً (أى كورنيشاً) جميلاً بطول الجامع ، وكان هذا أيضاً من منزهات قرطبة . .

أما مثذنة الجامع فكانت آية في الجمال ، كانت تقوم إلى يمين الداخل من باب فناء النارج - وهو يعرف اليوم بباب المغفرة (پويرتا دِلْ پِردون) - وكان ارتفاعها نحو ٤٥ متراً ، وكانت أشبه ببرج عظيم ارتفاعه ٣٠ متراً فوقه مثذنة طولها ١٥ متراً . .

هكذا كان الجامع عندما خلفناه وراءنا وتركناه وحيداً عند سقوط قرطبة سنة ١٢٣٦ . .

* * *

كان لا بد أن يدفع هذا العزيز الوحيد ثمن تخليتنا عنه . . لقد حوله الغالبون إلى كنيسة جامعة (كاتدرائية) ، وأصبح اسمه من ذلك الحين « لاكاتيدرال » . في كتب السياحة يسمونه : لاميشكيتا كاتيدرال ! حولوا مثذنته إلى برج أجراس . .

وفي قلبه تماماً ، وخلف الكنيسة التي أنشئت فيه عقب سقوط قرطبة ، أنشأوا في جزء من زيادة عبد الرحمن الأوسط وجزء من زيادة المنصور كنيسة كاملة تتكون من مذبح ومصلى ومصلب وخلوات للاعتراف . .

أنشأوا ذلك كله على أسوأ صورة فنية يتصورها العقل : أزالوا ٨٠ عموداً وقوساً والسقف الذي فوقها ، وبنوا شيئاً ثقيلاً ينكره من يراه من النصارى قبل المسلمين . .

ولإلى جانب المحراب والقبلة أقاموا مصلى يعرف بمصلى القديسة تيريزا ، إلى جانبه مستودعات للذخائر الكنيسة كما ذكرنا . ولكي يسود داخل البناء الجديد الظلام الذي يقولون إنه لا بد منه للخشوع

الكاثوليكي ، أقاموا جداراً بين صحن الجامع وفناء النارج ، وسدوا ١٣ من أبواب الجامع بالحجارة ، فأصبح الجامع مظلماً في كثير من أجزائه .
وفي وسط الجامع تماماً - عند الكنيسة التي أنشأوها - ينعدم الضوء تقريباً . .

وأضافوا أشياء أخرى ، واجتهدوا ما وسعهم في إزالة المعالم الرئيسية لذلك الجامع الأصيل . .

ويقال إن شارل الخامس - المعروف بالإمبراطور شرلكان - عندما دخل الجامع أول مرة بعد إنشاء الكنيسة في قلبه ، تأسف إذ سمح للقساوسة بهذا التشويه ، وقال لهم : لقد بنيت هنا ما كان يمكن بناؤه في أى مكان آخر ، فضيعةم بعملكم هذا ما كان أثراً وحيداً في الدنيا . .
ولكن ، رغم ذلك كله لا زال المسجد مسجداً . .

رغم الجدران والسدود والأجراس والظلام والمصايبات وصور القديسين ، لا زال الجامع جامعاً ، جامعاً تتردد فيه آى القرآن في نغم طويل خافت ، كأنه صوت عتاب أو سوط عذاب . .

وقرطبة اليوم هى الجامع ! هامش على المبنى العظيم ، هامش ضخم ، ولكنه هامش !

والذى يأخذ القطار من مدريد إلى قرطبة ثمانى ساعات ، لا يفعل ذلك ليشرّب القهوة في ميدان خوسيه أنطونيو ، بل لكي يزور ذلك العزيز العظيم .
وفي دليل قرطبة الرسمي يحاولون أن يصرفوك عنه ، ويزينون لك زيارة الكنائس التي أنشأوها ، والمعالم التي جددت فيما بعد : كنيسة سانتا فكتوريا ، مذبح عذراء المصابيح ، برج مالويرتى ، كنيسة سان فرانثيسكو ، كنيسة سان خايتنتو ، قلعة قلتهرة ، تمثال انتصار سان رافايل ، وما إلى ذلك . .

ولكن الزائر يسأل أولاً عن الجامع ، ولا يزور غير الجامع . . .
وعندما يخرج يتجه إلى شارع تورينخوس ويتأمل واجهة الجامع الغربية ،

ثم يمضي لينظر المكان الذي كان يقوم فيه قصر الخلفاء في مواجهة الجامع من هذه الناحية . . ثم يسرع بمبارحة قرطبة . .

ولكننا نحن العرب لا نزور قرطبة سائحين . .

إننا نزورها كما يعود النازح المغترب إلى وطنه وبلده . قد يكون كل شيء فيه قد تغير ، ولكنه يظل وطنه وبلده وموضع حنينه ..

يقف في موضعٍ ما قام فيه مبنى جديد سامق فيحس كأنه لا يراه ، إنما هو يرى البيت الصغير الذي كان قائماً قبله ، البيت الذي ولد فيه أو ولد فيه واحد من أترابه ، ولعب معه في رحابه ؛ ويمضي مع الذكريات . .

وقرطبة بلدنا ، مهد من مهادنا : هنا عشنا ، هنا سعدنا ، هنا بنينا وأعلينا ، وهنا أيضاً أصابنا الزمان وبكىنا . .

بعد أن نخرج من الجامع نمضي في الشوارع الصغيرة المحيطة به . نتمشى في طرقاتها الصغيرة التي تشرح النفس بنظافتها وروائها ، ونقول : هنا كان يقيم أهل العلم من أساتذة وطلاب ، في هذه الدور سكنوا ودرسوا وقضوا الليل يستذكرون أو يؤلفون . .

وهنا أيضاً كانوا يسمعون أذان المؤذن مع السحر ، يتردد في نعاس الليل ، يدعو المؤمنين إلى بيت الله . .

وتستيقظ قرطبتنا على صوت المؤذن ، ويقبل الناس للصلاة على ضوء الشموع وقناديل الزيت ، ثم يستند أهل العلم ظهورهم إلى العمدة في انتظار موعد الدروس . .

ويقبل الشيوخ . . وتبدأ حلقات الدروس في أركان هذا القدس الفسيح ، وفي ركن معروف يجلس قاضي قرطبة وإلى جانبه كاتبه وأمامه المتقاضون يتكلم عنهم محامون بالمعنى الصحيح . كانوا يسمونهم خصوصاً أو مخاصمين أو وكلاء ، وكانوا قانونيين مؤهلين يجيدون الأخذ والرد ويحسنون الدفاع . .

وقضاة قرطبة كانوا أشبه بمستشارى النقض فى أيامنا ، أحكامهم قوانين
يسجلها الناس ويطبقها بعد ذلك القضاة . .
وفى ركن آخر نجد جماعة من أهل الأدب ، يتطارحون الشعر ويروون
آخر ما وصلهم من شعر أهل المشرق . .
وهنا وهناك نجد رجالا قد اعتزلوا بأنفسهم يؤلفون : هذا فى الفقه ،
وذاك فى الأدب ، وذلك فى الجغرافية أو الأعشاب والطب . .
مسجد ، ومجلس قضاء أعلى ، وجامعة . .
جامعة بأدق ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، جامعة تخرج فيها علماء دارت
على علمهم الأرض وعاشت على نورهم الأجيال . .
نور ، على نور ، على نور . .
نور الله سبحانه ، ونور الحق والعدالة ، ونور العلم والعرفان . .

ولن نغادر قرطبة قبل أن نزور موضعين : قصر الخلفاء ومدينة الزهراء .
أما قصر الخلفاء فلم تبق منه إلى الآن إلا آثار كأنها أوهام . .
فأمام الجامع فى شارع تورينخوس - الذى كان يسمى بالمحجة العظمى -
تجد مبنى ضخماً يسمونه القصر الأسقفى (پلاثيو إيبيسكوبال) ، إذا اجتزت
بابه وصعدت سلمه وانحرفت يمينا سرت فى طرقة واسعة تؤدى بك إلى سلم
ينزل إلى حديقة فسيحة . .
مكان هذا القصر الأسقفى كان يقوم قصر الخلفاء ، وتلك حديقته . .
إذا انحرفت بعد ذلك القصر إلى اليمين وجدت نفسك فى شارع صغير
يسمى شارع أمادور دى لوس ريوس ، وهو علامة إسباني جليل ، كان أول
من درس جامع قرطبة وسجل كتاباته وكتبه فى العصر الحديث . .
شارع أمادور دى لوس ريوس يؤدى بك إلى فضاء واسع بعضه حدائق .

في بعض أجزاء منها ينقبون اليوم عن آثار القصر العظيم"، وقد وجدوا بالفعل مواضع جديدة وأسساً .

هناك نجد قصراً عظيماً يسمونه القصر الملكي (كاسا ريال) أو قصر الملكين الكاثوليكين (بالاثيو ديلوس رييس كانوليكوس) .

كان هذا جناحاً من أجنحة قصر الخلفاء ، وكان هذا القصر مجموعاً عظيماً من الأبنية تحتل هذه المساحة كلها ، وتطل على نهر الوادي الكبير بواجهة عظيمة هي اليوم سور القصر الملكي .

كانت للقصر على أيام الخلفاء أبواب كثيرة ، يذكر أبو القاسم بن بشكُوال المؤرخ منها خمسة، أكبرها باب السُدة، وهو باب القصر من ناحية النهر ، كان يؤدي إلى « الرصيف » منزله قرطبة العظيم . والسدة هنا معناها دواوين الحكومة وإداراتها ، فقد كانت تقوم في مبنى عظيم داخل القصر . في هذا المبنى كانت مكاتب الوزراء ، وكانوا كثيرين ، ومكتب رئيس الوزراء وكانوا يسمونه الحاجب ، وبيت الوزراء أو بيت الوزارة ، وكانت قاعة فسيحة لاجتماعات الوزراء ، يجلس كل منهم على مرتبة (حشية) خاصة به ، ومرتبة الحاجب أعلى من مراتب سائر الوزراء .

وباب العدل كان يقوم في حيث يوجد اليوم باب القصر الأسقفى ، وقد أقام عبد الرحمن الأوسط أمام هذا الباب « فواره » أي نافورة .

والأبواب الثلاثة الباقية نعرف أن واحداً منها كان داخلياً ، أي يؤدي إلى الحدائق ولهذا كان يسمى « باب الجنان » . أما الاثنان الباقيان : « باب الحديد » و « باب الوادي » فلم نعرف إلى الآن أين كانا يقومان . .

ويبدو أنه كان هناك باب سادس يسمى باب قُورية .

وخلف القصر — كما قلنا — كانت تمتد الحدائق في اتجاه الشرق .

في هذه الحدائق التي تمتد إلى فندق « كوردوبا پالاس » كانت تقوم قصور الأمراء .

ويطلق على هذه الحقائق كلها اليوم اسم « حديقة الملك » (أويرتا دِل رِي) ، وكان بنو أمية الأندلسيون - كأجدادهم في المشرق - لا يطبقون البقاء طويلاً في قصورهم الرسمية ، وكانوا يتخذون لأنفسهم قصوراً ريفية (يسمونها في الشام بالبوادي) يخرجون إليها بين الحين والحين مع أهلهم والمختارين من أصحابهم ليقضوا ساعات بعيدة عن تكاليف الرسميات . .
من هذه القصور واحد ابتناه عبد الرحمن الداخل عرف بالرصافة ، كان يقع على ثلاثة كيلومترات من قرطبة إلى شمالها الشرقي على قمة تل يسمى إلى الآن بالرصافة .

في هذا الموضع أنشأوا اليوم فندقاً سياحياً لطيفاً من هذه الفنادق التي يجيدون إنشاءها في إسبانيا ، اسمه « نُزُل الرصافة » (پارادو دِ لا الرصافة) .
وأنشأ عبد الرحمن الناصر لنفسه قصرًا آخر على كيلو مترين من قرطبة في اتجاه الشرق على ضفة النهر ، وسط مزارع ورياض ، وكان يسمى « مَنية الناعورة » ، والناعورة هي التي نسميها في مصر بالساقية ، ولا زال اسمها في اللغة الإسبانية « لانوريا » . أما الساقية عند الأندلسيين فكانت التربة الصغيرة تشق للرى ، وقد دخل اللفظ في اللغة الإسبانية بهذا المعنى :
أثيكيّا . .

* * *

أما أعظم منشآت بنى أمية خارج قرطبة فهي مدينة الزهراء . . لا زال موضعها باقياً إلى اليوم ويسمونها « مَدِينَا أُنثَرَا » .
تقوم أطلال مدينة الزهراء على خمسة كيلومترات شمالى غربى قرطبة ، وأنت تصل إليها عن طريق طويل ممهد .
موقعها يعرف عند القرطبيين اليوم باسم « قرطبة القديمة » (كوردوبا لافييخا) ، وهو سفح آخر مرتفع من سلسلة الجبال التي تسمى بجبال قرطبة (سَيِيرَا دِ كوردوبا) ، وكان العرب يسمون هذا المرتفع بجبل العروس .

على سفح هذا التل وفي ليحفه وفي البسيط الممتد أمامه أقام عبد الرحمن
الناصر مدينته « الزهراء » . .

لقد وجد هذا الخليفة العظيم أن قصر الخلفاء داخل البلد لم يعد يتسع
للمظاهر الكبرى التي تناسب جلاء الخلافة العظيم ، فإن الملوك والأمراء والسفراء
الذين يقدون على بلاطه يضطرون إلى السير بمواكبهم داخل البلد ، فتتغص بها
الشوارع ويضيق الناس وتتعطل أعمالهم ، ففكر في إنشاء قصور ملكية بعيداً
عن العاصمة ، كما فكر لويس الرابع عشر في إنشاء قصور فرساي خارج
باريس . .

وبالفعل كانت الزهراء فرساي الأندلس . .

ولمؤرخينا في ذلك أسطورة : يزعمون أن جارية من جوارى عبد الرحمن
الناصر ، كانت تسمى الزهراء ، وهبت قدراً جليلاً من المال لفداء أسرى
المسلمين في بلاد الأعداء . .

وأرسل الناصر إلى تلك البلاد فلم يجد فيها أسيراً مسلماً واحداً ، فطلبت
الزهراء أن تُبنى بالمال مدينة تحمل اسمها . .
مجرد أسطورة . .

استمر إنشاء الزهراء سنوات طويلة ، ١٣ على قول البعض ، و ٤٠ على
قول آخرين . .

وكما كانت عادة عبد الرحمن الناصر ، عهد في الإشراف على بنائها
إلى ابنه الحكم المستنصر .

بدأ الناصر ببناء قصر عظيم للاستقبال . بناه على سفح جبل العروس ،
بحيث يشرف على السهل الفسيح أمامه .

لقد أعاد الأثريون الإسبان إنشاء هذا القصر ، وهو يتألف من قاعة
كبيرة بابها الرئيسي نحو الوادي ، إذا أفضيت إليها وجدت عن يمينك

ويسارك عقوداً تشبه عقود الجامع إلا أنها مفردة الأقواس ، وفي الصدر ثلاثة عقود كبرى ، الأوسط منها أوسع من الباقين .

تحت هذا العقد الأوسط كان يوضع عرش الناصر ، وعن يمينه ويساره مقاعد الأمراء والوزراء ، وتمتد المقاعد على الجانبين إلى الباب ليجلس عليها كبار رجال الدولة . .

وخلف العقود الجانبية ممران كان يصطف فيهما جند الحرس ، وتتصل صفوفهم إلى خارج القاعة وتمتد حتى الوادى ، فيمر الضيوف بين صفوف الجند من بعيد ثم يدخلون القاعة فيحيون الخليفة وهم بالباب ، ويتقدمون فيحيون مرة أخرى ، حتى إذا كانوا أمام الخليفة قرأوا عليه تحية ثالثة ، ثم يأمر بجلوسهم حيث يشاء ، وينظرون إلى الوادى والجند والحرس مصطفين فيه صفوفاً ، مشاة وفرساناً ، ثيابهم بيضاء وعلى مناكبهم أقبية بيض تتدلى خلف ظهورهم ، تزين رؤوسهم العمام وفي أيديهم السيوف . . منظر باهر طالما تحدث في وصفه المؤرخون . .

وبقية القصر قاعات للخليفة والأمراء ورجال الدولة . .

وأنشئت إلى جوار هذا القصر قصور أخرى للأمراء والوزراء والموظفين ، وقد بقيت آثار الكثير منها . .

وعلى درجة بعد هذه على السفح أقيمت مساكن الجند والحرس ، وأعد ميدان عظيم للعرض العسكرى ، يشهده الخليفة من قصره ، ومخازن للسلاح والعتاد ودور للخيل . .

كان الذى وضع تصميم هذه المدينة وقام بتنفيذ منشآتها تحت إشراف الحَكَم معمارى أندلسى مشهور هو مسلمة بن عبدالله ، هو دون شك من أعلام تاريخ هندسة تخطيط المدن . .

كانت المدينة تقوم على ثلاث درجات ، أعلاها قصر الخليفة وقصور

الأمراء ، والدرجة الثانية كانت حدائق يقوم فيها جامع الزهراء ، والثالثة للقواد والجند وأهل البلد . .

وقد ساق هذا المهندس البارع الماء للبلد من أعلى جبال قرطبة وفتح له فتحات في جبل العروس ، ثم مد أنابيب الرصاص والآجر إلى القصور والحدائق وبيوت الناس ، ولا زالت قطع من هذه الأنابيب باقية إلى اليوم . . وقد انتقل الناصر إلى الزهراء في أخريات سنوات حكمه ، ثم أقام فيها من بعده ابنه الحكم المستنصر .

كانت الزهراء مدينة واسعة ، يقول المؤرخ ابن عذارى أن أعمدة الرخام التي جلبت لها بلغت ٤٣١٣ عموداً . وقال غيره أنها كانت عامرة بالأسواق والمتاجر ، وأن سوراً عظيماً كان يدور عليها ، وكانت للسور أبواب كثيرة أكبرها المفضى إلى طريق قرطبة ، ويقال إن ذلك الباب كان مزيناً بتمثال عظيم للزهرة ، كان هذا الباب يسمى « باب العقبة » . أما باب قصر الخليفة فكان يؤدى إليه ممر طويل مسقوف بالقرميد ، ولهذا كان يسمى بالسَّطْح الممرّد ، ينهى إلى باب القصر المسمى بباب السُّدَّة .

وكان للزهراء قاض وصاحب شرطة وصاحب مدنة ، وهذا الأخير كان لقب حاكم المدينة أو « محافظها » كما نسميه اليوم .

ولم يكتب للزهراء عمار طويل . لم تكد الفتنة الكبرى يندلع لها سنة ١٠٣١ حتى هجر الناس هذه الضاحية المتطرفة ، ولجأوا إلى قرطبة .

وخرّب البلد شيئاً فشيئاً بتوالى الفتن . عند ما زارها الشريف الإدريسي أوائل القرن السادس الهجرى — الثانى عشر الميلادى — وجدها خراباً . .

إشبيلية ، الأرملة الطروب ..

في أواخر القرن الماضي كانت ميادين السياحة الكبرى في العالم ثلاثة :
الأقصر والأندلس وسويسرا . . .

وكانت السياحة ترفاً أرستقراطياً لا يقبل عليه إلا الأغنياء ، أغنياء أوروبا في الغالب . كانوا يزورون هذه النواحي في حراسة قناصل دولهم :
كان الواحد منهم يسير في الطرقات وكأنه يوليوس قيصر ، ينظر إلى العالم في كبرياء من وراء وجه محمر كأنه الجزر ، وأستان بارزة كأنها بقايا
جمجمة ، وقد علق في رقبتة منظاراً مقرباً وآلة تصوير ، وسار يخطال في
بدلة تقليدية من التويد السميك . .

وتسعون في المائة من هؤلاء كانوا يكتبون كتباً عن رحلاتهم بعد عودتهم
إلى بلادهم . هذه الكتب هي التي أعطت مصر صورتها التقليدية السياحية :
الأهرام والرمال وأبو الهول . . والتي أعطت إسبانيا صورتها الرومانتيكية :
الراقصة الأندلسية ذات الشعر الأسود الفاحم تزيينه قرنفلة تتوهج ، وقد التوى
جسدها في هيئة تشبه علامة الاستفهام ، ورفعت ذراعها فوق رأسها في هيئة
بالغة الرقة والجمال ، وفي أصابعها الكاستانييتاس ، ومن خلفها راقص في بدلة
تحكي جسده كأنها جلد ثان فوق لحمه ، وعلى رأسه قبعة قرطبية سوداء . .

هذه هى صورة إشبيلية فى أذهان معظم الناس ، من زاروها ومن لم يزوروها . ولو أنك أريت هذه الصورة لواحد من أجدادنا الذين كانوا أهلها فى القرن العاشر الميلادى مثلاً لما تردد فى التعرف على بلده رغم اختلاف الملابس والزمان . .

فإن لإشبيلية كانت أيام العرب مدينة الفن والموسيقى والرقص والغناء . . كانت ملتقى الشعراء ومجمع الموسيقيين وأهل الفن وملجأ كل راغب فى متاع الحياة . .

كانت أكبر من قرطبة وأغنى ، ولكن هذه كانت أجل وأوقر . . كانت أول عاصمة للأندلس العربى : فيها أقام موسى بن نصير وابنه عبد العزيز . .

وكانت آخر عاصمة للأندلس . هنا قضى خلفاء الموحدين السنوات الأخيرة قبل سقوط البلد سنة ١٢٤٨ فى يد الإسبان ، وانحسار الأندلس إلى منطقة غرناطة . .

ومن هنا خرج الألو ف بعد الألو ف من عمروا نواحي أمريكا الجنوبية والوسطى من الإسبان . .

وهنا فاض ذهب العالم الجديد أنهاراً ، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . . ثم تسرب الذهب — لا يدري أحد كيف أو متى — وأخذ الفقر ينفق بجناحيه الأسودين فوق البلد الجميل . .

ولم يبق من ذكريات العز الذاهب إلا أساطير شاردة تحوم إلى اليوم فى شوارع إشبيلية ، وعلى أساس هذه الأساطير نشأت حكايات جديدة : هنا مسرح مغامرات الدون خوان ، وهنا عاش حلاق إشبيلية ، وهنا كان مسرح مأساة كارمن ، وهنا أيضاً جرت مأساة ماريّا كورونل ، تلك الجميلة التى تعقبها الملك بيدرو القاسى طامعاً فى جمالها ، وقتل زوجها ليظفر بها ، ففرت إلى الدير ، وتبعها الملك إلى هناك ، فلم تجد ما ينجىها من مطاردة هذا

المحب اللدود إلا التخلص من سبب شقائها : جالها ! فألقت على وجهها
زيتاً مغلياً . .

أقاصيص وحكايات . . مهازل ومآس . .

* * *

ولكن المأساة الكبرى هى مأساة لإشبيلية العربية نفسها . .

بعد سقوط الخلافة استبد بها بنو عباد . . طراز عجيب من الناس :
باليديسمى كتبوا أرق الشعر وأعذبه ، وباليديسمى اقترفوا أشنع الجنائيات
وأبشعها . فى ظلالهم عاشت لإشبيلية سنوات طويلة تتوزعها الموم والمخاوف ،
تتخللها ساعات قصيرة من مسرة مريضة فيها إسراف على النفس والعصب .
بنو عباد هؤلاء — أبو القاسم محمد وابنه المعتضد ثم حفيده المعتمد — عاشوا
ذاهلين عن حاضرهم ومستقبلهم : الأخطار من حولهم والعدو ينوش أطراف
ملكهم ويتخطف رجالهم ، والمنايا تطل عليهم مع الصباح والمساء ، ومع هذا
فقد وجدوا وقتاً ينظمون فيه الشعر ! لياليهم الطويلة كانت تنقضى فى تطارح
الشعر ، مخاطباتهم بعضهم لبعض ، حتى رسائلهم لأعدائهم ، كانت شعراً !
ثم انقضت أيامهم كأن لم تغن بالأمس . .

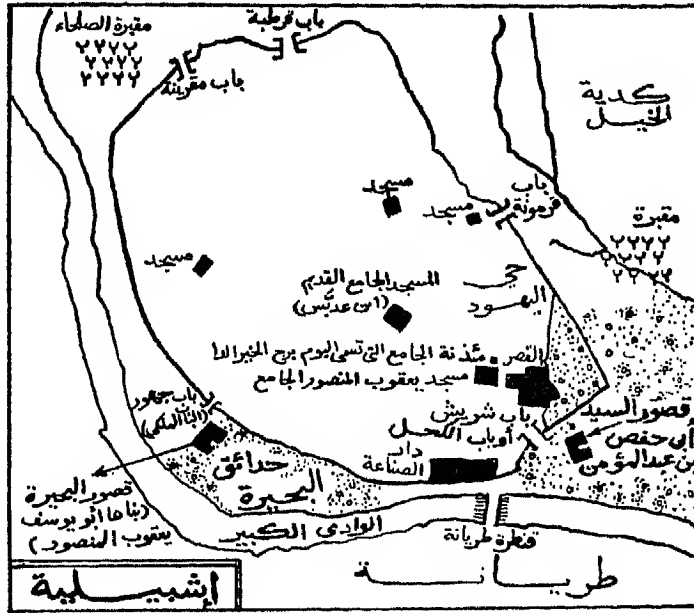
وبعد ذلك بقرن من الزمان عرفت لإشبيلية فى ظلال الموحدين عصرأ
ذهيبأ قصيراً . .

كان ذلك أيام الموحدين ، . .

الإسلامى كله . خلال معظم القرن الهجرى السادس
١١٣٠ على وجه التحديد — قام خلفاء الموحدين بمراسم
الأندلس ، وكانت لهم فيه مواقع وأمجاد . .

وفى أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على (٥٥٨ — ٥٨٠ /
١١٦٤ / ١١٨٤) وابنه أبى يعقوب يوسف المعروف بالمصور (٥٨٠ /

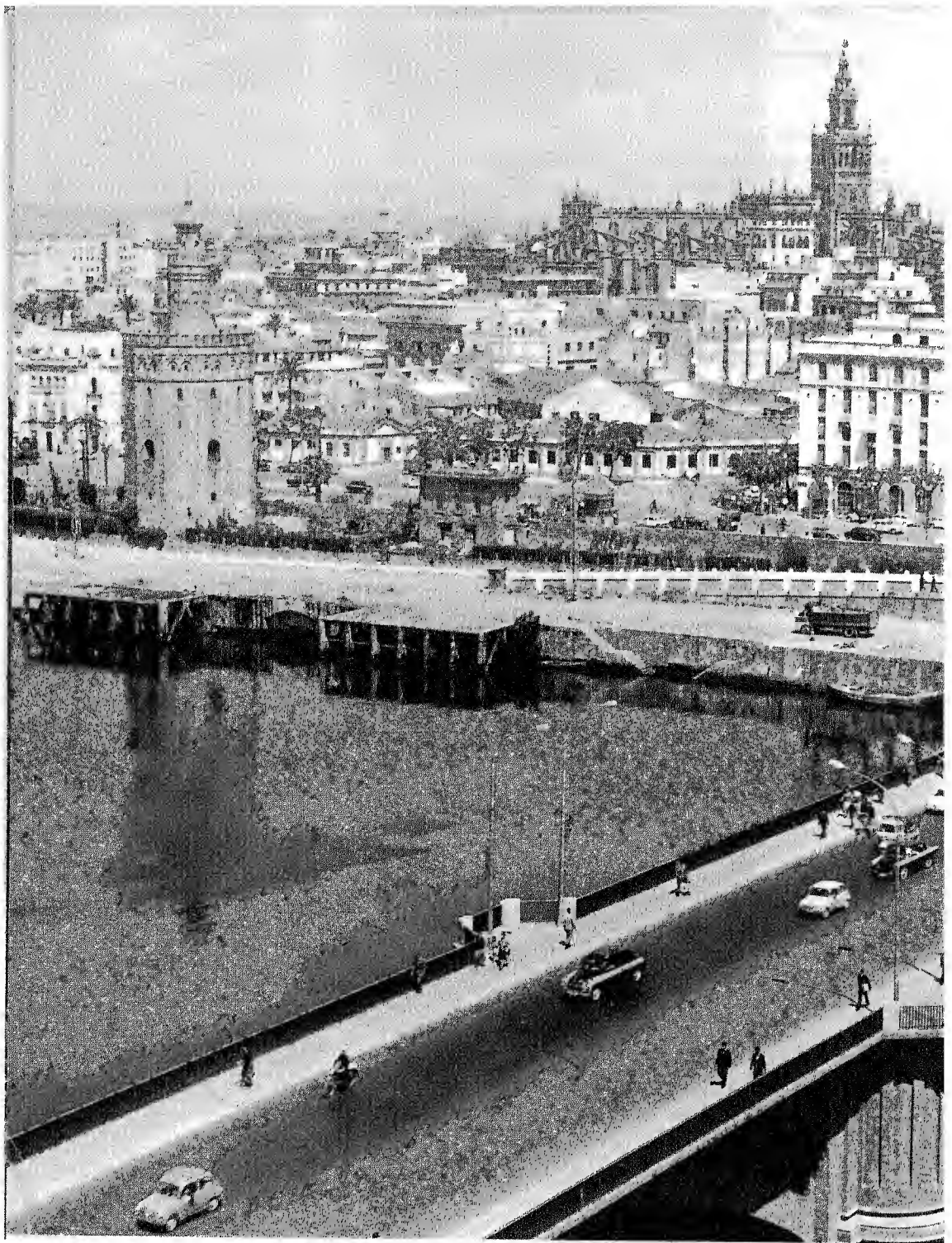
٥٩٥ / ١١٨٤ - ١١٩٩) عرفت لإشبيلية نحو ٤٠ سنة كانت آخر سعادها
على أيامنا . .



إشبيلية العربية : يلاحظ أن هذا البلد الكبير أدخلت عليه تعديلات كبيرة
وأضيفت إليه مبان ومنشآت كثيرة أيام الموحدين ، وخاصة أيام أبي يوسف
المنصور ثالث خلفائهم

فقد اتخذها هذان الموحديان العظيمان قاعدة ومقاماً ، واجتهد الثاني منهما
في عمارتها والنهوض بها ، حتى أصبحت إلى جانب قرطبة أزهر بلاد أوروبا
خلال القرن السادس الهجرى / الثاني عشر الميلادى . .
ثم كان بعد ذلك الانحدار السريع . .

لأن الضغط من الشمال لم يعد مجرد حرب بين دول نصرانية ودول
إسلامية في شبه الجزيرة ، وإنما أصبح حرباً صليبية تشترك فيها أوروبا كلها
ضد بقية من بلد أنهكته الحروب والفن والثورات . .



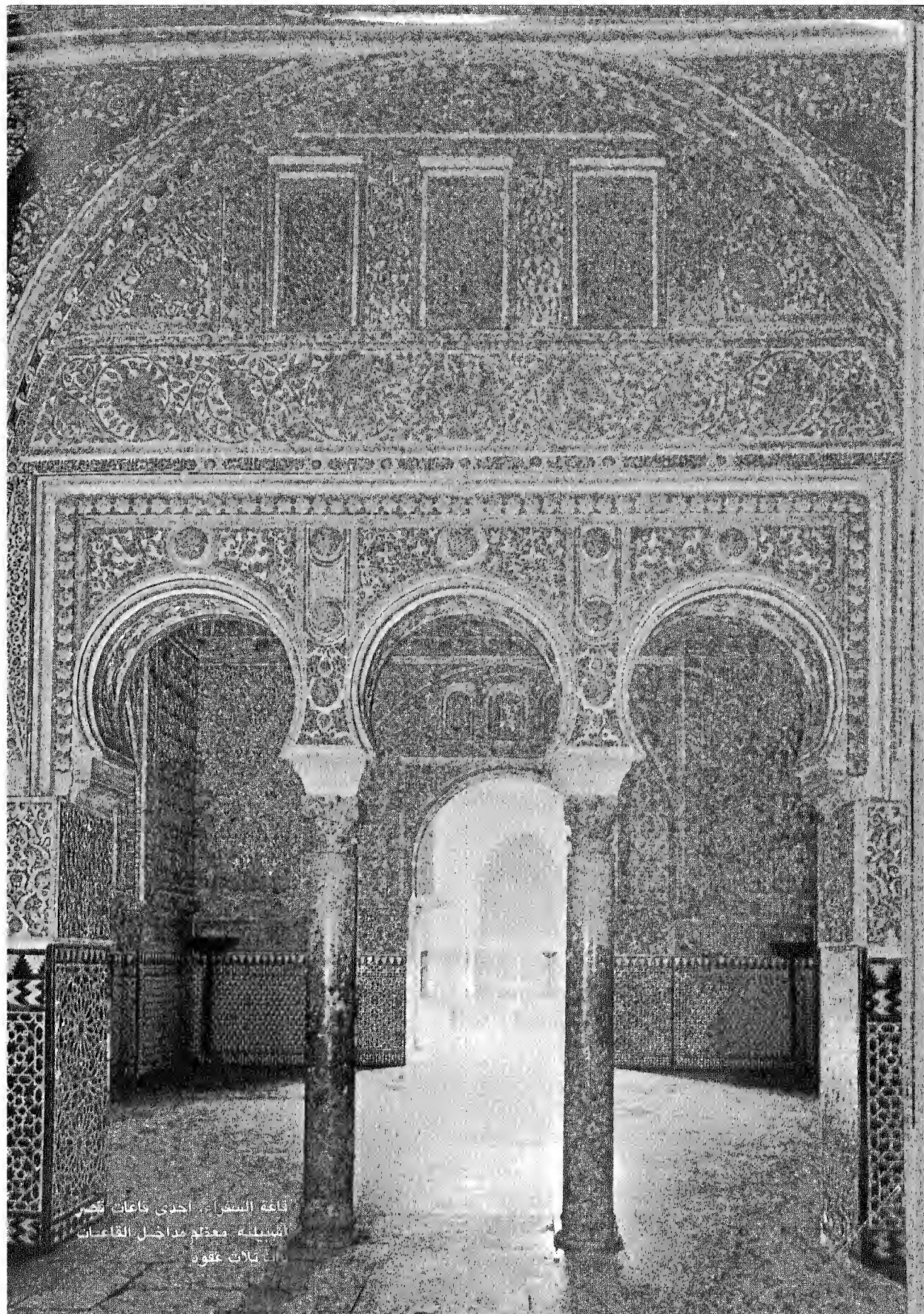
بشارة إشبيلية المشهورة بها في الدنيا هي الدوارة أو لآخرالسداء، وهي مئذنة مسجد
الجامع الثاني الذي بني أيام الموحدين في العصور الإسلامية. حيثما نظرت رأيتهـا.
هي تطل عليك من بعيد وأنت على شاطئ الوادي الكبير عند كوبري (قنطرة) فقرينة.

فتحت كنيسة اشبيلية على كل
مساحة المسجد الجامع
الموحدي والخيرالدا الباقية
إلى اليوم كانت مئذنة الجامع،
وما هي قطع أخرى من عمارة
الجامع باقية: باب الرحمة من
ابواب الجامع يطل على صحن
البرتقال. El plato de los Naranjos.

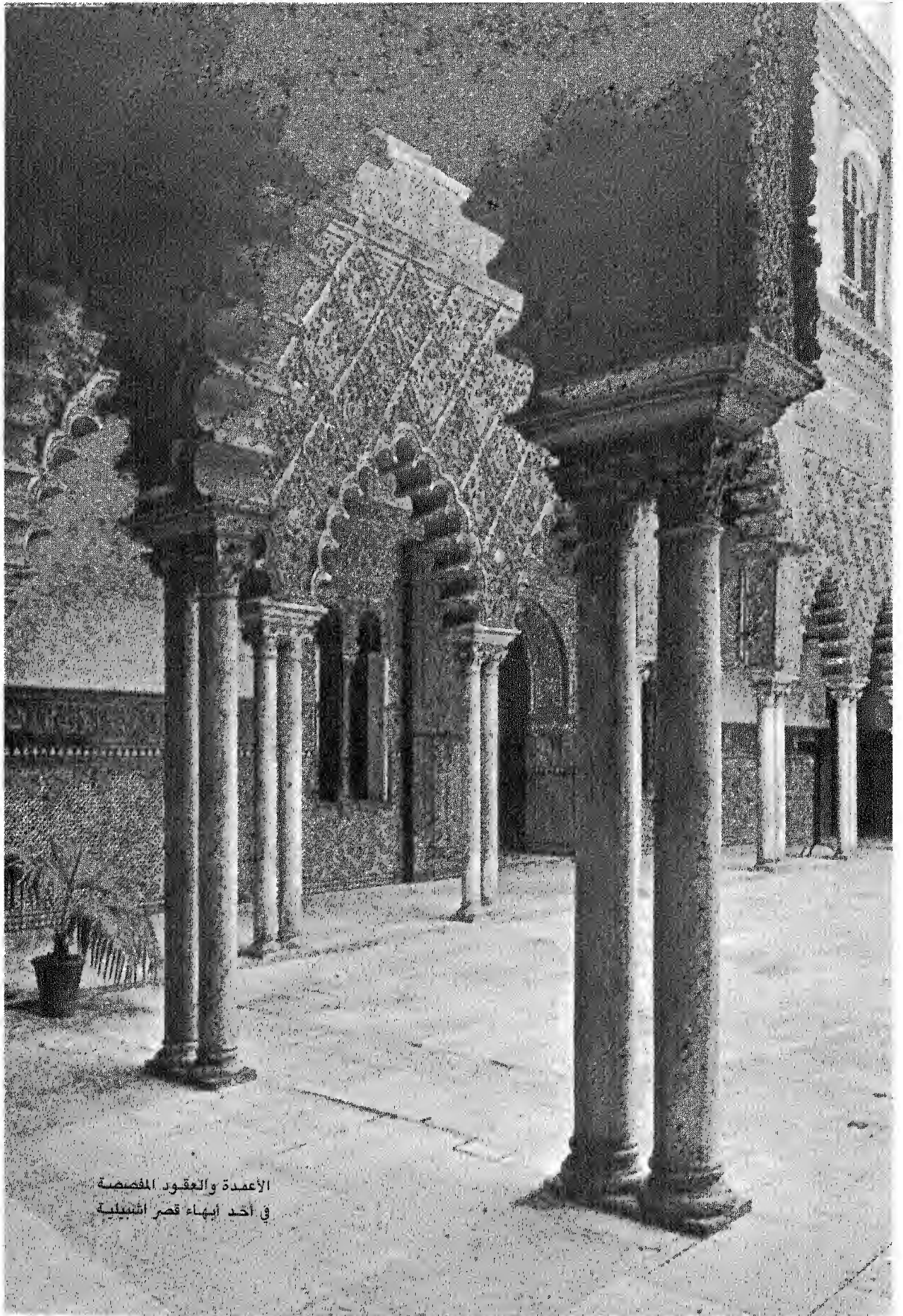




إلى جوار الكاتدرائية والخيرالدا تجد قطعة من جدار الجامع، رمت على نفس هيئتها
لتكون جزءاً من مدخل قصر إشبيلية، ترى المدخل هنا مطلياً بالأحمر وعليه رمز ملوك
قشتالة وليون.



قاعة السرايا - إحدى قاعات قصر
السيفية معظم مدخل القاعات
بأبواب ثلاثية عقود



الاعمدة والعقود المفصصة
في أحد إيحاء قصر اشطاب

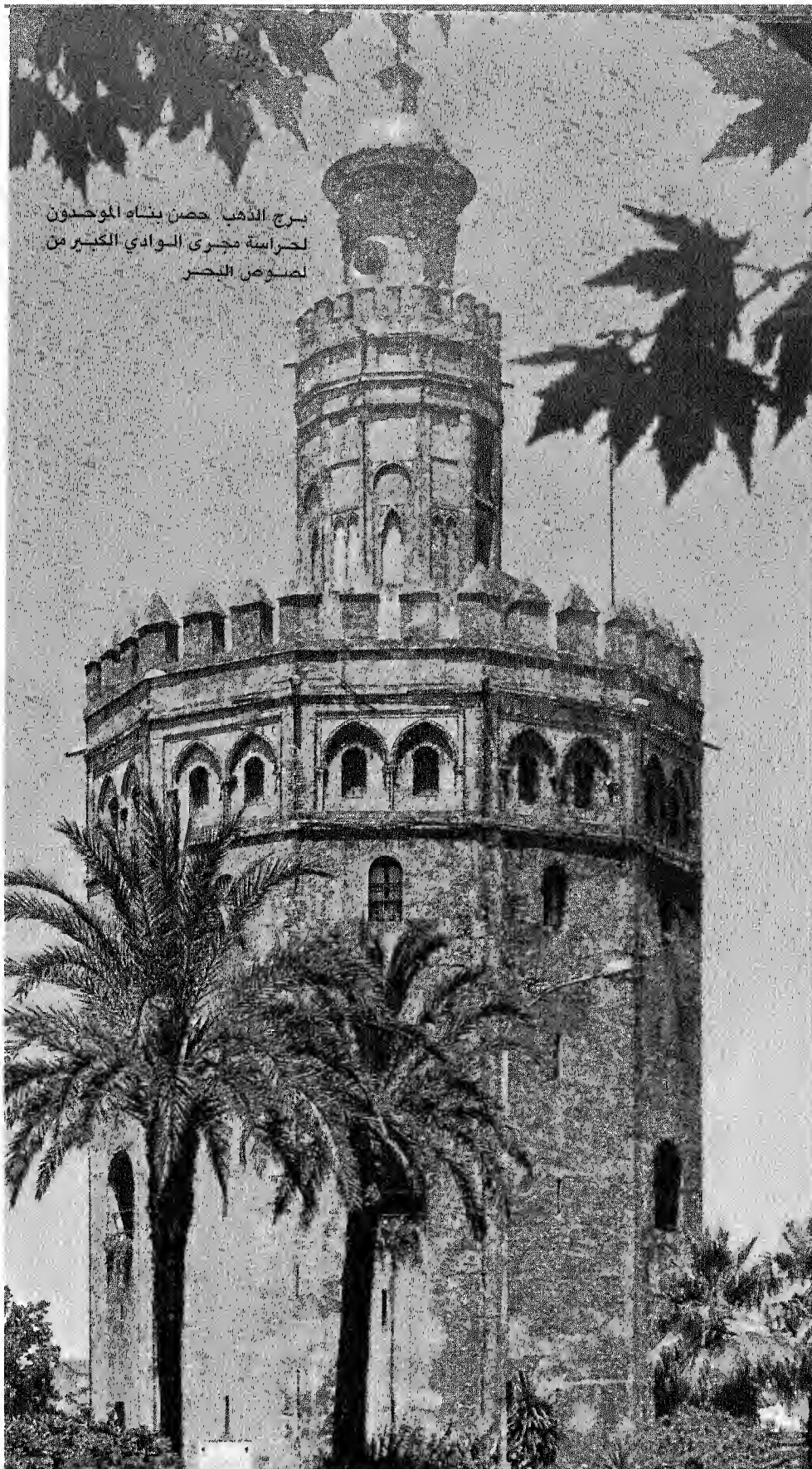


بوابه‌ی ورودی مسجد
بازار اصفهان



سلم بايع بن سلال تضر
بالتوس المويج في الدسيلة

برج الذهب حصن بناء الموحدين
لحراية مجرى الوادي الكبير من
لصوص البحر



ويشهد التاريخ بأن العرب بذلوا في الدفاع عن إشبيلية وبقية الأندلس أقصى ما يستطيعه حَوْلُ البشر ، ألوف بعد ألوف استشهدت في هذا الدفاع . دافعوا وجاهدوا واستشهدوا ، فإذا كان التوفيق لم يكتب لهم فذلك قدر الله المكتوب ، وسبحانه يُجرى على عباده ما يشاء . .

ولقد جرى في تقديره أن تخرج إشبيلية من دار الإسلام في الثالث والعشرين من نوفمبر ١٢٤٨ ؛ وهو وارث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوراثين . .

وبعد أن خرجت إشبيلية من أيدينا ، شهدت — من القرنين الخامس عشر إلى آخر السابع عشر — شيئاً جديداً لم يكن في الحسبان . .

لقد اكتُشف العالم الجديد ، وخرج الألوف بعد الألوف من الإسبان إلى ذلك العالم الذي تفتحت أبوابه فجأة يطلبون الغنى والجاه . .

وكانت إشبيلية الباب الكبير الذي خرجوا منه . .

لم تشهد مدينة من الحركة ما شهدته إشبيلية خلال هذين القرنين . . ألوف تأتي من شتى نواحي إسبانيا والبرتغال ، وتقيم في البلد أياماً ريثما يحل موعد الرحيل ، ولهذه الألوف أقيمت الفنادق والحانات والأسواق . . واتسع الميناء ، وكثر بناء السفن والنجارون والحدادون وكل من له صلة بأعمال السفن والبحار . .

ومع هؤلاء أتى أهل الأسواق أخلاطاً من كل مكان . .

ومع كل مركب عائد من أمريكا أقبل مال كثير وذهب كثير . .

وأزهر البلد وراجت أحواله حتى أصبح من أغنى بلاد أوروبا . .

وأقبل الناس على البناء ، هدمت أحياء قديمة بأسرها وقامت أحياء جديدة ، وما أهل القرن الثامن عشر حتى كانت إشبيلية القديمة قد تلاشت آثارها . .

ولهذا فإنك لا تجد اليوم في ذلك البلد إلا القليل من آثارنا . .

وخلال القرن التاسع عشر سكنت ريح الهجرة وقل النشاط ، وأصبحت إشبيلية مقاماً محبباً للملوك وأهل الغنى واليسار ، وأنشئت فيها حدائق واسعة هى حدائق الملكة ماريا لويزا وهى من أجمل رياض إسبانيا . .
 وإشبيلية اليوم تتجدد مرة أخرى . بعد حركة الإنشاء والبنيان على غير نظام جاء عصر تخطيط المدن وهندسة الشوارع والميادين . .
 وهذه الحركة الجديدة ينحصر كل يوم - أكثر فأكثر - ما كان قد بقى من معالم البلد القديم . .

وجدت للبلد أيجاد جديدة ولدت فى تلك العصور . .
 فهنا عاش ، ورقد رقدته الأخيرة ، كريستوف كولومبوس . .
 وهنا أيضاً ظهر اثنان من أكبر رسامى إسبانيا : بيلاسكيث وموريثو . .
 وحول إشبيلية كان قلب الأندلس الحقيقى . كل بقعة هنا كانت عربية ، وكل بلد أو قرية نمر عليها فى طريقنا من قرطبة إلى عروس مدائن الأندلس لها فى تاريخنا السياسى والنفكرى ذكريات . ما من قرية أو بلد إلا وقد أطلع عالماً أو أديباً . خذ كتاب « المغرب فى حلى المغرب » وانظر فصل لإشبيلية وإقليمها تدهش لعشرات الأعلام الذين أطلعتهم إشبيلية ، ورصعت بهم تاريخنا الأدبى المجيد ، هناك على المحيط الأطلسى ، على آلاف الكيلومترات من مهد العروبة . ذلك أعظم شاهد على قوة العنصر العربى المجيد وحضارته التى طوت الأرض كأنها بساط . .

* * *

البلد ضخم يمتد عشرات الكيلومترات . إنه رابع بلاد إسبانيا بعد مدريد وبرشلونة وبلنسية . . سكانه ٥٠٠ ألف . عدد مبانيه - إن كان ذلك يهملك - ٢١,٠٠٠ بيت ، وعدد ميادينه ٤٨ .

يسمونها مدينة الميادين . كل ملتقى شارعين يسمونه هنا ميداناً . .
 ولكن الذى يهمننا من البلد - ويهم كل السائحين - قطعة صغيرة فى

جنوبها تقريباً يتوسطها ميدان يسمى ميدان النصر (تريومفو) . .

حول هذا الميدان الصغير يتجمع كل ما يهمنا : قصر لإشبيلية البديع ، الكنيسة الكاتدرائية ، منارة الخيرالدا ، دار محفوظات الهند الغربية . وعلى مقربة منه قصر بيلاتوس ، شارع سييريس ، كنيسة السلفادور ، برج الذهب ، حي سانتا كروث . .

هنا في هذا الجزء بالذات كانت لإشبيلية العربية . على الضفة الأخرى من النهر كانت تقوم طريانة ضاحية لإشبيلية .

نبدأ بالكنيسة ، فهي تقوم بالضبط في موقع مسجد لإشبيلية الجامع ، شقيق جامع قرطبة العظيم . .

لا يمكن أن تتصور ضخامة هذه الكنيسة . كتلة هائلة من الحجر تحتل قلب البلد كله . حيثما اتجهت وجدتها أمامك ، ولا بد أن تدور حولها . إنها تحتل ٨٨١٦ متراً مربعاً ، أى فدانين . يقولون إنها ثانية كنائس العالم بعد كنيسة القديس بولس في روما . ما رأيت زائراً أطاق البقاء داخلها دقائق : ظلام رهيب ، أعمدة هائلة من الحجر تبدو لك وكأنها أشباح ، صور وتماثيل شاحبة تقرأ في وجوهها الرغبة في الفرار إلى النور . حتى قبر كريستوف كولومبوس أقاموا فوقه مجموعة نحتية رهيبة : أربعة رجال من الحجر بالحجم الطبيعي يحملون نعش المكتشف العظيم . .

وكل شيء ملبس بالذهب ، ذهب حقيقي : رؤوس الملائكة والقديسين والأنبياء والأعمدة . على كل خطوة مصلى يكاد يهبط بما يثقله من ذهب . هنا تتكبدس تلال من ذهب أمريكا . الإسبان أتوا من أمريكا بأضعاف ما أتى به الإنجليز من الذهب . الإسبان وضعوه في الكنائس وتجمد هناك . الإنجليز تاجروا به . الفرق بين التصرفين يعطيك الفرق بين التاريخ الاقتصادي لكل من البلدين . .

ولماذا أقاموا هذا البناء الهائل كله ؟

السبب أنهم أرادوا أن يخفوا كل أثر للجامع العربي الشهيد . .

هنا ، وعلى هذه المساحة كان يقوم مسجد إشبيلية الجامع . .

إذا شئت قلت إن هذه الكنيسة الهائلة تجثم على رفات مسجد عظيم ،
مسجد لا يقل عن مسجد قرطبة رواء أو فخامة ، ولو عاش لكان مجدداً من
أمجاد العمارة في تاريخها كله . .

وما دمننا نزور الأندلس العربي ونجدد ذكره ، فلنستعد صورة هذا
المسجد العربي الجليل ، وإذا كان الزمان قد اعتدى عليه وغاله ، فليس من
الإنصاف أن نعين الزمان عليه ونتناساه . .

وسأتيك بأطراف من وصفه الفصل كما حفظه لنا أبو مروان بن صاحب
الصلاة مؤرخ الموحدين .

كان البادئ بتعمير إشبيلية أيام الموحدين خليفتهما الثاني يوسف بن
عبد المؤمن بن علي .

في سنة ٥٦٦ / ١١٦٠ أنشأ لإشبيلية « القنطرة العظيمة الهندسية المسوكة
بالمراكز المؤسسة » ، والمراد هنا جسر من القوارب يصف بعضها إلى جوار
بعض ، وتثبت على مسافات محسوبة بقواعد من الحجر راسية في قاع النهر ،
وعلى القوارب توضع ألواح من الخشب فتصبح وكأنها طريق ، وتقام لها
حواجز على الجانبين . وكان افتتاح هذه القنطرة سنة ٥٦٧ - ١١٦٠ ،
وكانت تقوم في موضع الكوبرى المعروف اليوم باسم إيزابيلا الثانية بين
إشبيلية وطريانه .

وابتني يوسف بن عبد المؤمن لنفسه قصوراً في الطرف الجنوبي من
إشبيلية ، عند باب من الأبواب الباقية من سورها القديم يسمى اليوم باسم
الباب الملكي « بويرتا ريال » وكان في أيامنا يسمى باب جهنم .

وأنشأ حول القصر حدائق واسعة عرفت باسم البحيرة ، والبحيرة في
المصطلح الأندلسي هي الحديقة الواسعة . .

وكان لإشبيلية إذ ذاك مسجد جامع مشهور هو جامع عمر بن عبدبّس،
 بناه عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٤ / ٨٣٠ ، وكان من أعظم مساجد
 الأندلس جلالاً وبركة .

وقد زال هذا الجامع ، ومكانه اليوم كنيسة السلفادور . .
 ورأى يوسف بن عبد المؤمن أن المسجد الجامع القديم لم يعد ينفي بحاجات
 أهل لإشبيلية ، فقرر بناء مسجد جديد يضاهي مسجد قرطبة .

اختار الموضع الذى تقوم عليه الكاتدرائية اليوم ، وعهد إلى أكبر
 مهندسى عصره أحمد بن باسة فى وضع تصميم المسجد ، وأقام للإشراف
 على البناء نفراً من رجاله نذكر منهم أبا داود يلول بن جلداسين ، وكان
 « مشرفاً على الأعمال » ، أى أشبه بوزير الأشغال اليوم ، وعاونه فى العمل
 أبو بكر بن زهر وأبو بكر اليناقى وعبد الرحمن بن سعيد العنسى .

كانت مساحة الجامع كمساحة مسجد قرطبة الجامع ، وإليك قطعة من
 كلام ابن صاحب الصلاة تعطيك فكرة عن عظمة هذا الجامع ، أنقلها
 بلفظه الذى لا يخلو من طرافة :

« . . . واهتبل العرفاء (أى اجتهد المهندسون) واستعرفوا وتحذقوا
 فى بناء القبة التى على محرابه أعظم الاهتبال فى العمل بصنعة الجبس والأقباة
 بالبناء ونجارة الخشب بغاية الاحتفال . وابتنوا عن يسار المحراب ساباطاً
 فى الحائط (أى قنطرة فوق الطريق تؤدى من القصر إلى أحد أبواب الجامع)
 يمشى فى سعة فيه الماشى - مُعدّاً لخروج الخليفة عليه من القصر إلى هذا
 الجامع لشهود صلاة الجمعة . . وعلى يمين المحراب أقباة فى حائط الجامع
 معقود بالبناء لكون (أى ليوضع) المنبر فيه عند إخراجه للخطبة وإدخاله
 فيه . وصُنِعَ هذا المنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة ، اتخذ
 من أكرم الخشب مفصلاً منقوشاً مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة فى ذلك ،
 من غريب العمل وعجيب الشكل والميثل ، مرصعاً بالصندل ، مجزعاً بالعاج

والأبنوس ، يتلأأ كالجمر بالأشغال وبصفائح من الذهب والفضة ، وأشكال في عمله من الذهب الإبريز يتألق نوراً ، وبحسبها الناظر لها في الليل البهيم بلوراً . ثم أردفت له بالعمل المقصورة من أحسن الخشب مختصرة من قصبة وثيقة لحجبه (أى يحيط بها سياج من خشب وثيق ليحميها) وكان الخليفة يتطلع ببناءه (أى يراقب سير العمل) . . . حتى انكملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس منه بالأقباء ، وكل بالتسقيف . . . فكانت المدة في بنائه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً قمرياً » .

وقد تم بناؤه في ١٤ شعبان سنة ٥٧١ (٢٨ فبراير ١١٧٦) .

وكان صحنه أيضاً قسمين : قسماً مسقوفاً وقسماً غير مسقوف . .

وكما رأيت في قرطبة كان في الصحن المسقوف أشجار برتقال ، ولا زالت بقية من ذلك الصحن قائمة خلف الكنيسة تراها إذا وقفت وراء الكنيسة على مقربة من برج الخير الدا ، وتسمى أيضاً بهو أشجار البرتقال (باتيو دى لوس نارانخوس) .

وكانت أول جمعة صُليت فيه في ٢٤ ذى الحجة ٥٧٧ (أول مايو ١١٨٢) .

هذا هو المسجد الشهيد ، الذى تقوم على رفاته الكاتدرائية . .

واحد من ألوف كانت تعمر بها الأندلس . .

* * *

لم يكن هذا المسجد ، الذى تقوم فوق أطلاله الكنيسة — كما قلت — أقدم ولا أحسن مساجد إشبيلية . لأن أعظمها كان مسجد ابن عبدبّس ، وقد بناه عبد الرحمن الأوسط ، وتأنق فيه كما تأنق في الجزء الذى بناه من جامع قرطبة . . .

وقد زال هذا الجامع أيضاً من الوجود . وتقوم مكانه اليوم كنيسة السلفادور الواقعة بين ميدانى الخبز (پلاتا دل پان) والسلفادور قريباً من الكاتدرائية . .

كان هذا المسجد الجامع القديم معظماً عند مسلمي الأندلس جميعاً، وله في التاريخ كرامات كثيرة، فقد حاول النورمان - المعروفون بالمجوس - إحراقه مرتين. وجدده خليفة الموحدين أبو يعقوب المنصور سنة ١١٩٥. وعند ما سقطت إشبيلية في يد فرناندو الثالث سنة ١٢٤٨ (بعد سقوط قرطبة باثنتي عشرة سنة) حوله إلى كنيسة. ثم هدم وأعيد بناؤه فيما بين سنتي ١٦٧٤ و١٧١٤، ولم يبق من الجامع الجليل إلا قاعدة مئذنته، وهي اليوم برج الكنيسة..

ولم يبق من المسجد الجامع الموحدى إلا مئذنته..

لا أظن أن المسلمين أقاموا في تاريخهم مئذنة أروع من هذه.. ارتفاعها في الهواء ٩٦ متراً، وطوابقها سبع. ومن العجيب أنك تصعد فيها دون سلم، بل على ممر منحدر رفيع تسير عليه دون مشقة، وهذا المصعد يدور مع الجدار الداخلى حتى أعلاه.

وكلما درت مع الجدار دورة كاملة وجدت شرفة عربية بديعة تكشف لك جزءاً من البلد، فإذا وصلت إلى الشرفة السابعة وجدت أشبه بأسبيلاناد واسع تشرف منه على كل إشبيلية وسهلها..

وبعد ذلك كانت ترتفع المئذنة، وكان في أعلاها ثلاث كرات ضخمة - تسمى التفاحات أو التفافيح - مغطاة بطبقة سميكة من الذهب كانت تتألق من بعيد. كان ملوك الإشبان يقتربون إذ ذاك من إشبيلية شيئاً فشيئاً ونظرهم مثبت في هذه الكرات الذهبية الرائعة التي كانت تبدو لهم في ضوء القمر وكأنها نجوم في الفلك. لقد صنعها ورفعها إلى موضعها على ارتفاع ٩٦ متراً المعلم أبو الليث الصقلی.

وبعد سقوط إشبيلية وقع زلزال كسر المئذنة، فاستعاض عنها الإشبان بدوارة تبين اتجاه الرياح، ومن هنا سميت المنارة كلها: الحيرالدا، أى الدوارة..

* * *

وكما رأينا في قرطبة ، كان قصر حكام إشبيلية العرب يقع في مواجهة الجامع ، في الناحية الجنوبية من ميدان تريومفو . .

يغلب على الظن أن أول من بنى هذا القصر وسكن فيه هو عبد العزيز ابن موسى بن نصير ، وتعاقب عليه حكام العرب حتى إذا أصبحت إشبيلية قاعدة مملكة بني عباد أصبح القصر دار ملك .

ثم سقطت إشبيلية في يد فرناندو الثالث سنة ١٢٤٨ .

وكان بنو الأحمر إذ ذاك جادين في بناء الحمراء وقصورها في غرناطة ، فرأى منافسهم سادة إشبيلية أن يبنوا لأنفسهم في إشبيلية قصرًا يضارع الحمراء . فهدموا القصر القديم ، واستقدموا عمالا من غرناطة لبنوا لهم قصرًا عظيمًا . .

وعمل العرب الذين بنوا هذا القصر وأمثاله يعرفون بالمُدَجَّنين ، أى الذين دَجَّنُوا (أقاموا مكانهم) تحت سلطان الغالين ، وقد ابتكروا فنًا عظيمًا مزجوا فيه بين الطراز الأندلسي والطراز المغربي والطراز القوطي ، وأخرجوا من هذا كله ذلك الطراز المعماري الوحيد الذى أضافته إسبانيا إلى تاريخ الفن المعماري في تاريخها الطويل . .

والمعالم المميزة لهذا الطراز هى الأقواس المدببة من أعلاها ، تعتمد على أعمدة رخامية رفيعة كأنها أقلام الرصاص ، وقد توضع اثنين اثنين لتحتمل ما فوقها . ويمتاز كذلك بالزخارف الجصية أو المنحوتة فى الحجر التى يحار فيها النظر ، والكتابات الزخرفية التى يذهب فيها الفنان مع ابتكاره إلى مداه .

هذا القصر — أو الكاثار — يتألف من قاعات وأبهاء يلى بعضها بعضاً فى تناسق هو أقرب إلى السحر . فى بعض الأحيان تقف أمامك أربع بوابات أو خمس يلى بعضها بعضاً فتتصور أنك فى قاعة مرايا . .

وكل قاعة تحمل اسما : العرائس ، السفراء ، الآنسات ، ملوك العرب ، فيليب الثانى ، وما إلى ذلك . .

وهو يتكون من طابقين ، والطابق الأرضي هو الأجل . وكان ملوك إسبانيا ينزلون فيه إذا قدموا إلى إشبيلية ، وملك إسبانيا اليوم ينزل في بعض أجنحته أيضاً في الدور الثاني .

ومن أبدع ما ينفرد به هذا القصر هي السقوف البديعة التي تقوم فوق قوائم الدور الأرضي . انها أجمل مجموعة سقوف عربية منقوشة ملونة في الدنيا ، وقد طالما تمنيت لو استطعنا تصويرها وعمل اطلس بها .
وحدات هذا القصر تحفة من التحف ، تشم وأنت تتمشى فيها رائحة البرتقال والريحان ، وقد حرفوا اسمه إلى «الريّانس» .

هذا القصر بنته الحضارة العربية وحدها ، دون ملك أو سلطان ، بناه إخوان لنا مساكين في ظلال الحزن والأسر ، ونقشوا بأيديهم للسيد الإسباني كتابات مثل : عز لمولانا السلطان بدر (أو بضره ، وهو پدرو القاسي . .) .
و«النعمة الشاملة» و«الملك لله وحده» . .

نعم ، لله وحده الملك ! نقشها الفنان العربي الأسير بالدموع . .

خلف هذا القصر يقع حي سانتا كروث . لا يُعرف كيف كان يسمى أيام العرب . حي عربي كامل يذكرك بأحياء المدن المغربية : حوار وأزقة متعرجة . نوافذ البيوت تكاد تتلاقى . في بعض الأحيان يمد الرجل يدع فيقطف زهرة نابطة على شبك جاره . البيوت بيضاء ناصعة ، تحليها الزهور . . .

تسير في هذه الحواري والأزقة كيف شئت . ينجل إليك في بعض الأحيان أنك لن تخلص منها أبداً . تذكرني «بزقة السبع لويات» في مدينة فاس . .

وبمناسبة «زقة السبع لويات» . .

غير بعيد من الكاتدرائية تجدد شارع شيريس - أو اللويات أو المنحنيات - إنه أشهر شوارع إشبيلية . خان الخليلي في أقصى البحر الأبيض

المتوسط. أسائل نفسي كلما سرت في هذا الشارع ورأيت التجار: لماذا لا يلبسون العمام؟ ..

هنا تجد كل طريف من التحف، والمطاعم فيها كل شهى. تجد المطعم صغيراً فتحسب أنك لن تجد فيه غير الشطائر، فإذا أخذت مكانك قدموا لك قائمة طعام في طول ذراعك، تحتاج إلى نصف ساعة لتختار منها ما تريد..

لم يبق من إشبيلية التي تهمنا غير برج الذهب. أحد أبراج الحراسة التي أقامها العرب على ضفاف الوادي الكبير لرد الغزوات من ناحية البحر.. برج هائل يشبه مئذنة جامع ابن طولون. كان الفارس يصعد بفرسه إلى قمته..

ليست هناك إشبيلية واحدة، بل اثنتان.. الأولى هي إشبيلية طول العام، هادئة ساكنة كغيرها من بلاد الله.. في شهر مارس يلبس البلد ملابس الحداد أثناء ما يسمى بالأسبوع المقدس..

شيء رهيب...

ابتداءً من «أحد السعف» ولمدة أسبوع تتحول إشبيلية إلى مأتم مقبض حزناً على السيد المسيح. شرفات الكنائس تغطي بشارات الحداد. أجراسها تدق أنغام الموت رتيبة وثيدة بالليل والنهار. مواكب تقطع البلد كأنها قوافل تائهة في صحراء: صامتة حزينة تتقدمها صفوف من رجال مقنعين يلبسون قلانس طويلة سوداء وبنفسجية وبيضاء كأنهم جماعة الكوكلوكس كلان. كل موكب يحمل تمثال للسيدة العذراء. مئات من تماثيل السيدة العذراء من الشمع أو الخشب تراها محمولة على عروش. بعض المواكب تمثل مسير المسيح الأخير في طريق الآلام على مذاهب المسيحيين. بعض الرجال يمثلون المسيح: يسرون حفاة الأقدام مكبلين يحملون صليباً كأنها أنقال، والناس تركع عند مرور المواكب..

شيء رهيب . . .

ويتهيئ الأسبوع المقدس . . وبعد بثلاثة أسابيع يبدأ الأسبوع
البهيج . . .

أسبوع الرقص والغناء والطرب والشراب والطعام . . .
البلد كله يتحول إلى مولد . . .

وفي حديقة واسعة قرب حدائق ماريا لويزا تبنى مدينة كاملة من
كابينات خشبية . كل أسرة موسرة، كل هيئة، حتى القنصليات، تتخذ
كابينات . .

وعلى ذلك كله يضافون بحرًا من النور . .

وفي هذه الكابينات - التي تسمى كازيتات - يدور الرقص . الناس -
من السابعة إلى السبعين - يرقصون بالملابس الإشبيلية الجميلة . .
وبالنهار مواكب فرسان يردفون وراءهم أمازونات . .
بعد الحداد يجيء جنون المرح كما تفعل الأرملة الطروب . .
أرملة من إشبيلية؟

أرملة أولئك الرجال الذين جعلوا لها مكاناً في التاريخ، ثم غالتهم
أحداث الزمان . هناك أغنية شعبية كان أهل إشبيلية العرب يغنونها تقول:
إشبيلية عروس وبعلاها عبّاد . .

وعباد هو الملك الشاعر المعتمد . لم تطرب بلد كما طربت إشبيلية أيام
المعتمد . . .

ولم تبك بلد كما بكت إشبيلية يوم بارحها المعتمد في طريقه إلى
المنفى . .

ولو أتيت لك فسحة من الوقت استطعت أن تأخذ مركباً إلى جزر
الكنارياس . .

مجموعة من الجزائر قرب الشاطئ الإفريقي مقابل جنوبي المملكة المغربية، في مواجهة منطقة إيفني تماماً .

إذا وصلت إليها أحسست كأنك في جنة الخلد، فلا غرابة أن سماها العرب جزائر الخالدات .

احتلها الإسبان في القرن السادس عشر. لم يجدوا فيها إلا قبيلًا من أهل المغرب - دون شك - يسمون الجوانشي . كانوا قومًا طوالاً عراضاً، ولكنهم بادوا، وليس هناك اليوم إلا الإسبان . . . ولهذا فهي جزء من إسبانيا . . .

وقد عرف الإسبان كيف يحيلون هذه الجزر إلى جنة حقاً . إنها بعيدة هناك وراء البحار السبعة كما يقولون، لا يكاد يرونها شيء من متاعب أهل الدنيا. تصور أن نفرًا من أهلها لم يعلموا بأن الحرب العالمية الثانية قامت وقعدت! . . . مرت بعيداً عنهم، كأنها زوبعة في بحر الصين . . . لا شعروا بحرب ولا أحسوا بضرب . . .

وفي هذه الجزائر نفر من إخواننا العرب . . . إنهم مهاجرون جدد، معظمهم كانوا في طريقهم إلى أمريكا، ثم أعجبتهم هذه الجزر فحطوا رحالهم فيها، ووفقهم الله إلى ما يصبون إليه من مال ورخاء . . . وهم هناك يتسمعون أخبارنا ويستمعون إلى إذاعاتنا وبيعثون في طلب كتبنا من القاهرة ودمشق وبيروت . . .

إذا وقفت بك الباخرة أو الطائرة مرة في ميناء لاس بالماس (أى النخل) أو ميناء سانتا كروث فالتمس هؤلاء الإخوة وراء الأمواه، واحمل إليهم تحية الأوطان وآلها، واحمل عنهم تحية إلى أوطان رحلوا عنها وحملوها في قلوبهم .

ولا تلتمس هناك عصافير الكناريا . . . فقد هاجرت كلها، فيما يبدو . . . تركت فضاء الله في جنة الخلد لتعيش في الأفاص . :

غرناطة ، المعقل الأخير ..

لو أننا قصدنا من إشبيلية إلى غرناطة في رفقة واحد من رحالتنا الأدباء من أهل الأندلس أمثال إبراهيم الحيجارى ، أو على بن سعيد ، أو أبي الحسين ابن جُبَيْر لما قطعنا هذه المسافة — ٢٥٧ كيلو متراً — في أقل من شهرين ، لأنه كان لا بد مستوقفاً إيانا عند كل قرية أو بلد نمر بهما ويقول : هذا بلد فلان الذى قال وفلان الذى أنشد ويمضى يرتل ما حفظ ، وما أكثره !

إذا كنت تريد أن تأخذ فكرة عن الحصوبة الفكرية الأدبية للأرض التى تمر بها فى الطريق من إشبيلية إلى غرناطة فما عليك إلا أن تجرى بصرك فى بضع صفحات من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » للسان الدين بن الخطيب آخر الشعراء والعلماء الموسوعيين الذين أطلعهم الأندلس ، أولئك الذين تشعر وأنت تقرأ لهم أنهم حملوا تراث العرب الفكرى كله فى صدورهم ، لا يغيب عنهم اسم شاعر ظهر فى قرية نائية مما وراء سيحون وجيحون ، ولا يند عنهم بيت شعر استشهد به التبريزى فى شرحه للمعلقات السبع أو لفظ غريب استعمله أبو الطيب فى إحدى قصائده .. أو تتأمل فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » لأبى الحسن على بن سعيد الذى حمل تراث الأندلس الثقافى فى قلبه ومضى به إلى المشرق يحدث الناس بآياته من تونس إلى العراق . .

ستجد وأنت تتصفح هذين الكتابين أن الطريق من إشبيلية إلى غرناطة

— ككل ما قطعناه إلى الآن من طرق الأندلس— إنما هو طريق علم ونور ،
فما من قرية نمر بها إلا أطلعت العالم والعالمين والشاعر والشاعرين وما فوق
ذلك حتى ليحدثوننا أن الفلاحين في حقول الأندلس كانوا يقولون الشعر
أو يطربون له على الأقل ، وتلك آية من آيات الحضارة العربية الباهرة :
هذه القوة الدافعة التي حملتها في كيانها حتى لتجدها في أطراف عالم الإسلام ،
في سهول الهند أو جزائر إندونيسيا وفي سواحل الأطلسي عند شواطئ
إسبانيا والبرتغال والمغرب العربي في نفس القوة التي تجدها بها في القاهرة
وبغداد ودمشق . وقد لمس أرنولد توينبي هذه الحقيقة وأشاد بحياة الحضارة
العربية في دراسته التاريخية المعروفة ، ونحن حريون بأن نتناول الموضوع
بمزيد من التفصيل ، فهذا — أعتقد — مجدها الأكبر ، وعمادنا في الحاضر
والمستقبل .

فإذا لم يتسع وقتك لصحبة هذه الكتب ، فعندك معجم البلدان لياقوت
الحموي — وهو مجد من أمجاد تاريخنا الفكري — فابحث فيه عن أسماء ما تمر
به من المدن والقرى ، وانظر من أطلعت من أهل الفكر والأدب . . انظر
قلعة وادي إيريه (الكالا دي جواديرو) ، الرّحل (الراها) ، أشونة
(أسونا) ، أسطبة (استيا) ، الروضة (رويدا) ، أنطكية (أنتيكيرا) ،
أرشدونة (أرشيدونا) ، لوشة (لوشا) ، إلى آخر هذه المعالم التي تخطف
بك السيارة ماراً بها وأنت مسرع تتعجل الطريق إلى غرناطة . . .

ولكننا متعجلون ، والشعر زاد الهادئ المتند خلى البال ، وأين نحن
من خلو البال ! إننا نرى الدنيا على خريطة ، ونزور المدن في بطاقات بريد ،
ونلم بالتاريخ في أفلام يصنعونها هناك في هوليوود . .

المهم أن تذكر أننا نمضي الآن على آخر خط دفاع كان قد بقي للأندلس
في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . ضاعت آندوخر (١١٥٥) وقرطبة
(١٢٣٦) وجيآن (١٢٤٦) وقرمونة (١٢٤٧) وإشبيلية (١٢٤٨)

وغيرها من قواعد خط الوادى الكبير. انكشفت جبهة الأندلس على طولها ،
وتجمعت قوى ممالك إسبانيا لتضرب الضربات الأخيرة . شجعها على ذلك
أن قوى الموحدين كانت قد انحسرت بعد هزيمتهم فى معركة « العقاب »
المعروفة باسم لاس نافاس دى تولوسا (١٢١٢) ..

حوالى سنة ١٢٥٠ كان يبدو أن أيام العرب فى الأندلس أصبحت
معدودات ..

ولكن هذه البقية الصغيرة من المجد الزاهب قاومت - مع ذلك - قرنين
من الزمان . السبب فى ذلك يرجع إلى الطبيعة الجغرافية للإقليم الذى أصبح
مقلهم الأخير ، ويرجع كذلك إلى حيوية الجنس العربى التى لا تنفد . ففى
هذا العصر الأخير بالذات أنشأ العرب شيئاً لا نظير له جالاً وروعة : قصور
الحمراء ، وأطلعت أرومتهم علماء وأدباء وشعراء ، يكفى أن نذكر منهم لسان
الدين بن الخطيب .

ويرجع السبب - أخيراً - إلى اختلاف ملوك إسبانيا فيما بينهم ، كلما
شدوا علينا وتقدموا شراً اختلفوا فيما بينهم ، وتنفسنا ..
وكان من الممكن أن تنفّس إلى اليوم ..

ولكن علتنا الكبرى الاختلاف والحسد والحقد بين الرؤساء ...
هذه الحيات التى تأكل القلوب قتلتنا . وضعنا الحنجر فى قلوبنا بأيدينا ،
و « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » ...

* * *

ولكن مدينة واحدة من هذه التى نمر عليها فى طريقنا إلى غرناطة لم تكن
عربية . كانت القاعدة التى صُوبت منها الضربة القاضية إلى الحصن الأندلسى
الأخير . تلك هى « سانتافى » أو « سَنَتَفِى » كما تكتب فى نصوصنا العربية .
بناها فرناندو وإيزابيلا فى أواخر ١٤٩١ ليديرا منها معركة غرناطة الأخيرة ..

بينها وبين غرناطة نحو تسعة كيلومترات ، وتستطيع أن تقسم أن كل شبر من هذه المسافة قد روى من دماء المجاهدين الذين قاموا بالدفاع الأخير عن غرناطة أكثر مما روى من مياه الأمطار . فقد دافعت غرناطة قبل سقوطها دفاعاً رهيباً ، واستشهد في ميدان الشرف من أهلها ألوف بعد ألوف ، واحتفظت لنا الروايات بأسماء أبطال نحن جديرون بأن نقيم لكل منهم تمثالا ارتفاعه ألف متر : موسى بن أبي الغسان ونعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة وغيرهم كثيرون . . .

وألوف من الجنود المجهولين . . .

ولكن ، لا مفر من قضاء الله . . .

وفي ٢ يناير ١٤٩٢ استسلمت غرناطة ، واحتلت الحمراء . انتهت قصة الأندلس . . .

وشهد هذه المأساة ألوف ، في مؤخرتهم وقف رجل صامت ينتظر الفرصة ليتحدث إلى فرناندو وإيزابيلا . . .
ذلك كان كريستوف كولومبوس . . .
في وقت واحد ماتت دنيا وولدت دنيا . . .
وذلك هو التاريخ . . .

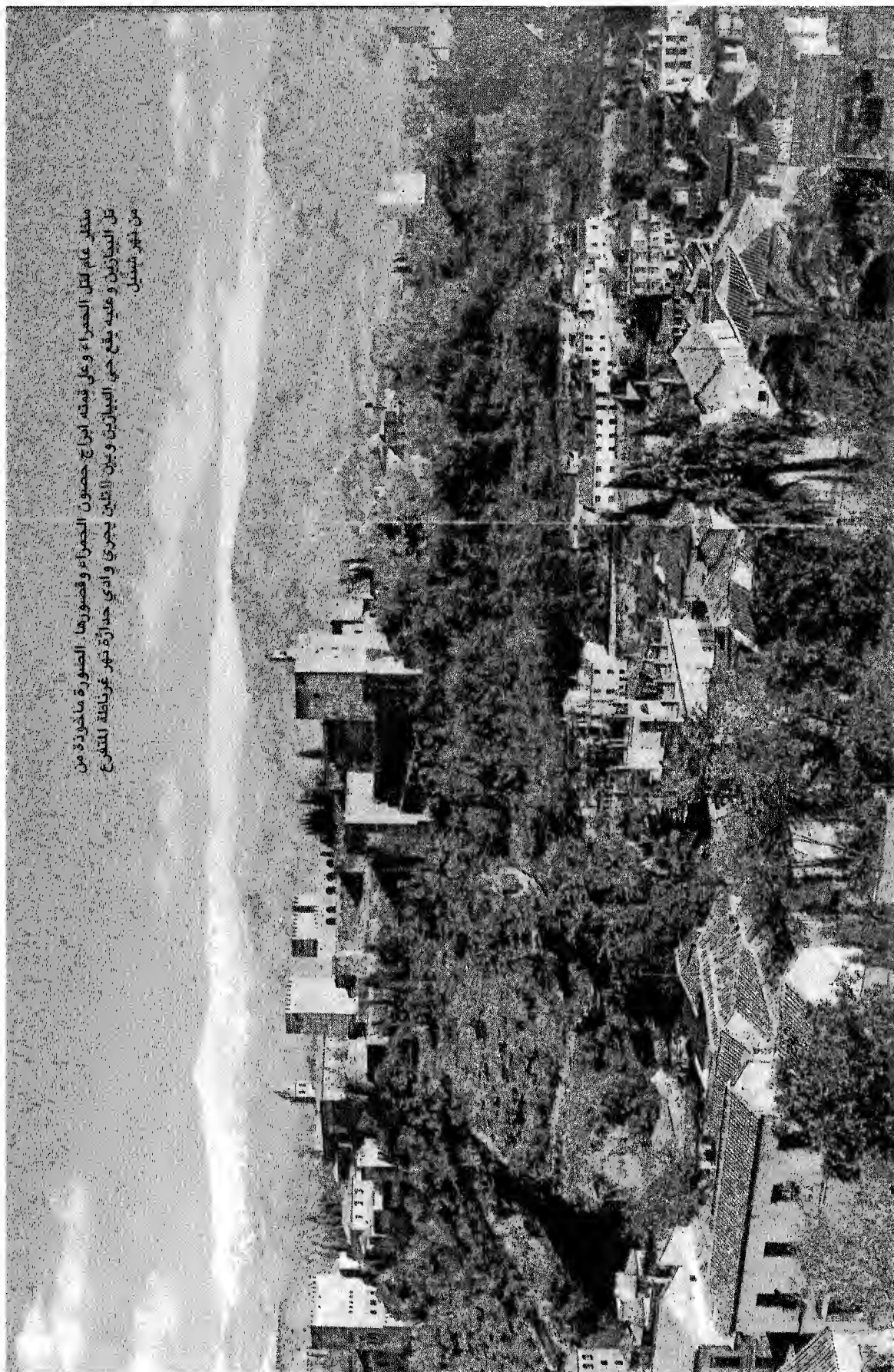
* * *

لندع الماضي وراءنا ، ولننظر إلى الطريق من حولنا . . .

إنه روضة يانعة ، خضرة تمتد إلى مدى البصر وأشجار فاكهة من كل لون . تلك هي البقاع (لاس فيجاس) الغرناطية . إنها ليست قديمة ، أنشأها الغرناطيون خلال القرن الأخير من تاريخهم العربي . حفروا شبكة من الأنفاق والقنوات لتصل مياه نهر حداره (دارو) إلى كل جزء من ذلك السهل .

على يميننا وشمالنا تقوم مصانع كثيرة . مدخل غرناطة من ناحية الشرق مدينة صناعية فعلا . مصانع السكر والنسيج تمتد مداخنها في الهواء . مستعمرات

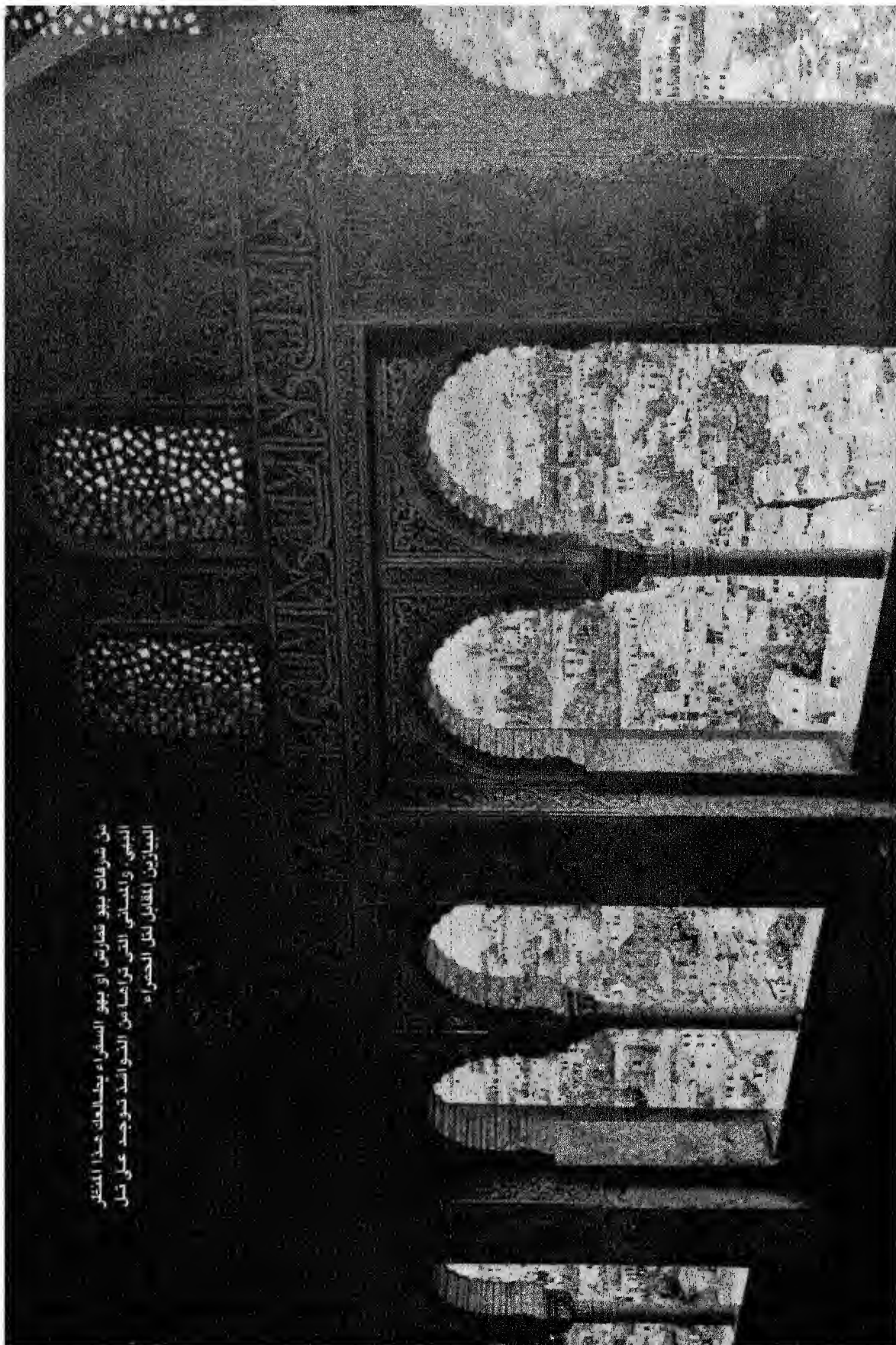
منظر عام لقلعة الحمراء وعلى قمة أبراج حصون الحمراء وقصورها الطويلة ماثلة من
على التلال وعلى يد بني النصارى والذين الذين يجرى وادي حجارة نهر غرناطة المتفرع
من نهر سبيل

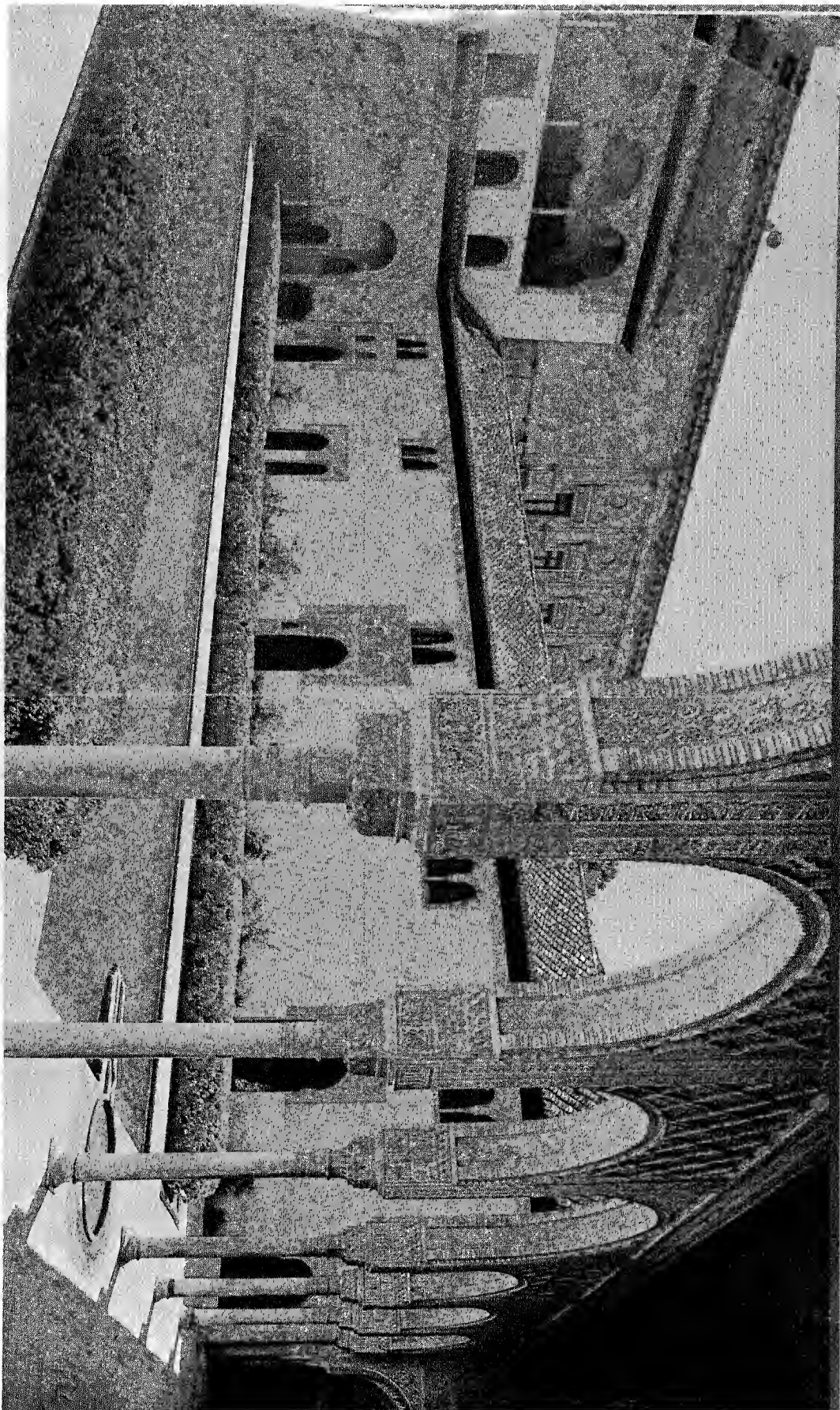


الحمراء تشرف على مدينة غرناطة أسفل القل. الحسان التي والاسطح التي
تغطي السطح هي جزء من السلسلة وهي الجزء المرتفع من برج غرناطة.

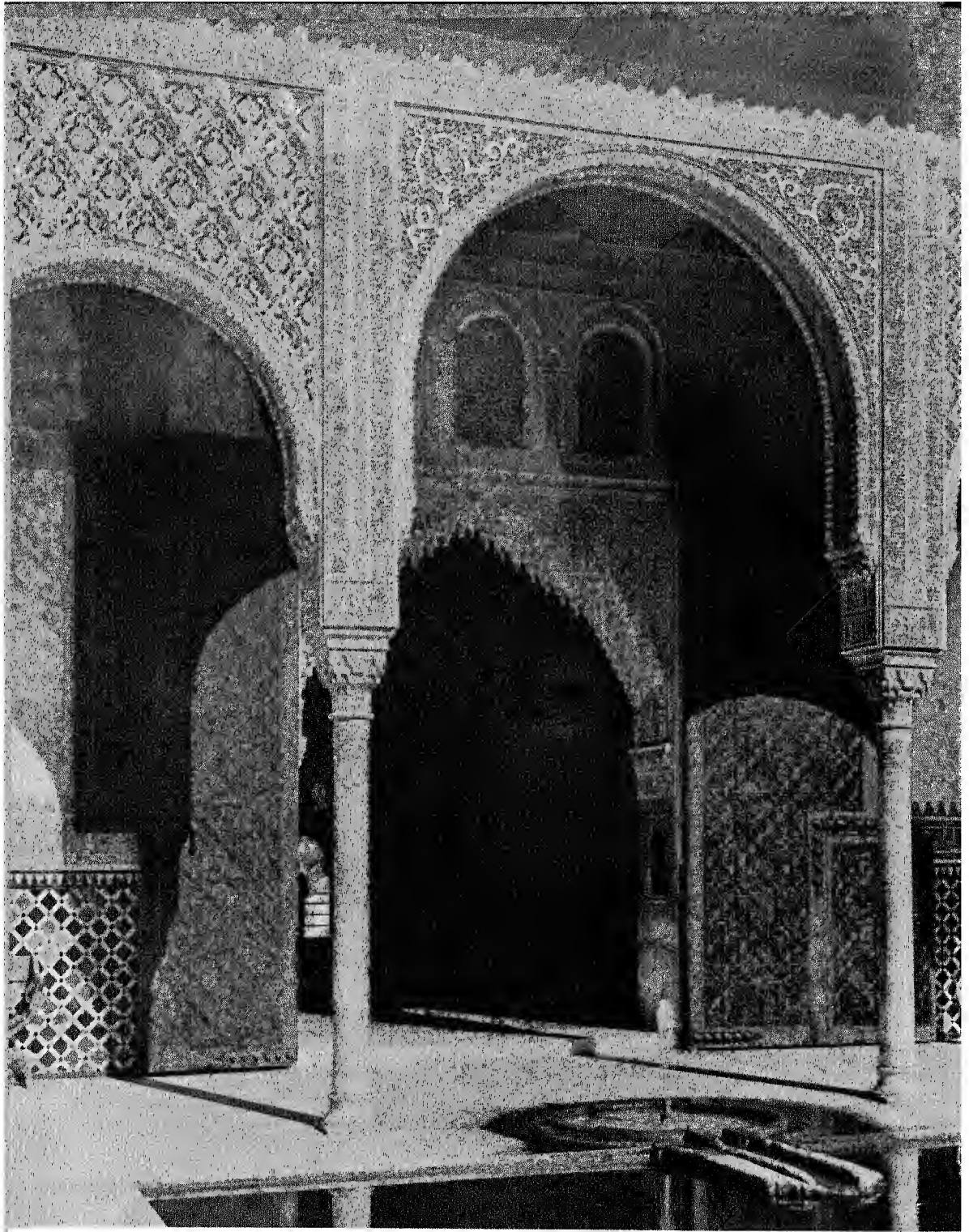


من شرفات بيوت قناريش أو بيوت السقراء يطالعك هذا المنظر
الطبي، والحياتي التي تراها من الفواصل تتوجد على تل
البيارات المقابل لتل الحضر.



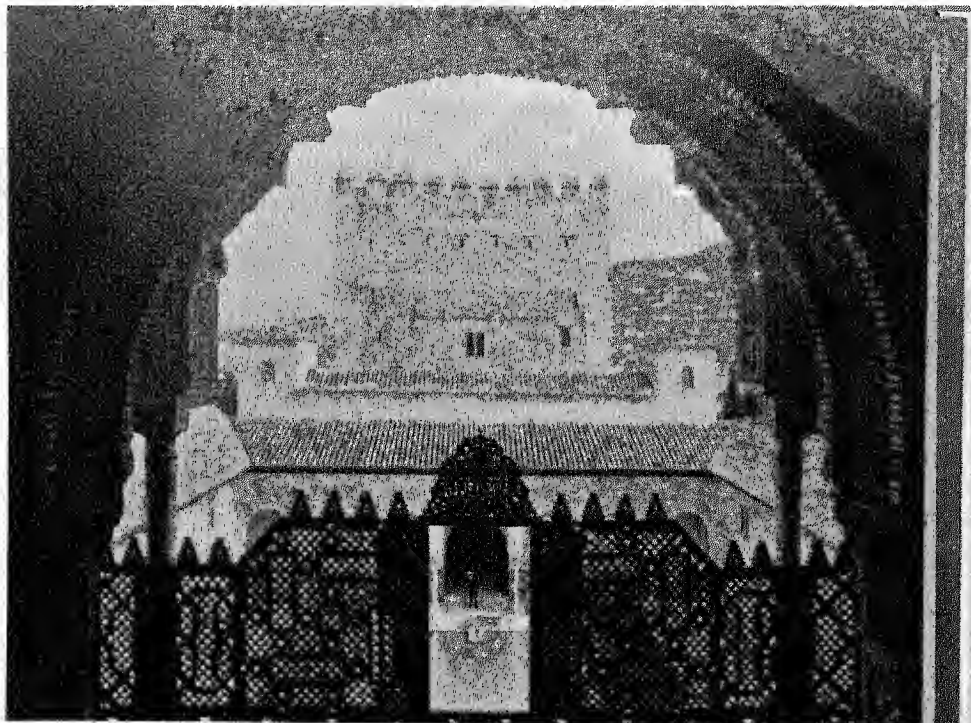


منظر عام لبحر الريحان مأخوذ من ناحية بهو قمارش. التسمية جاءت من إطار الريحان الذي يحيط بالبركة المستطيلة التي تتوسط البهو. أخذ المصور الصورة من هنا لكي يريك تفاصيل أعمدة الحراء الدقيقة الأنيقة.

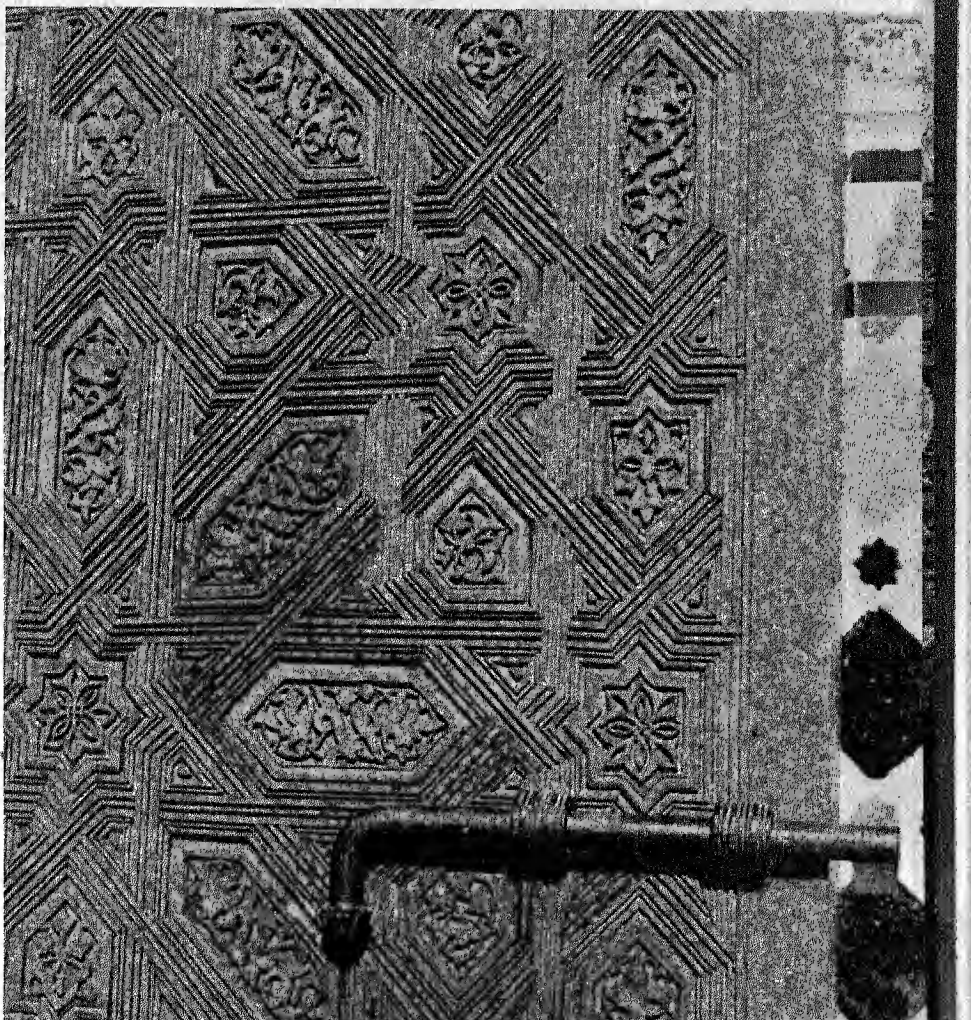


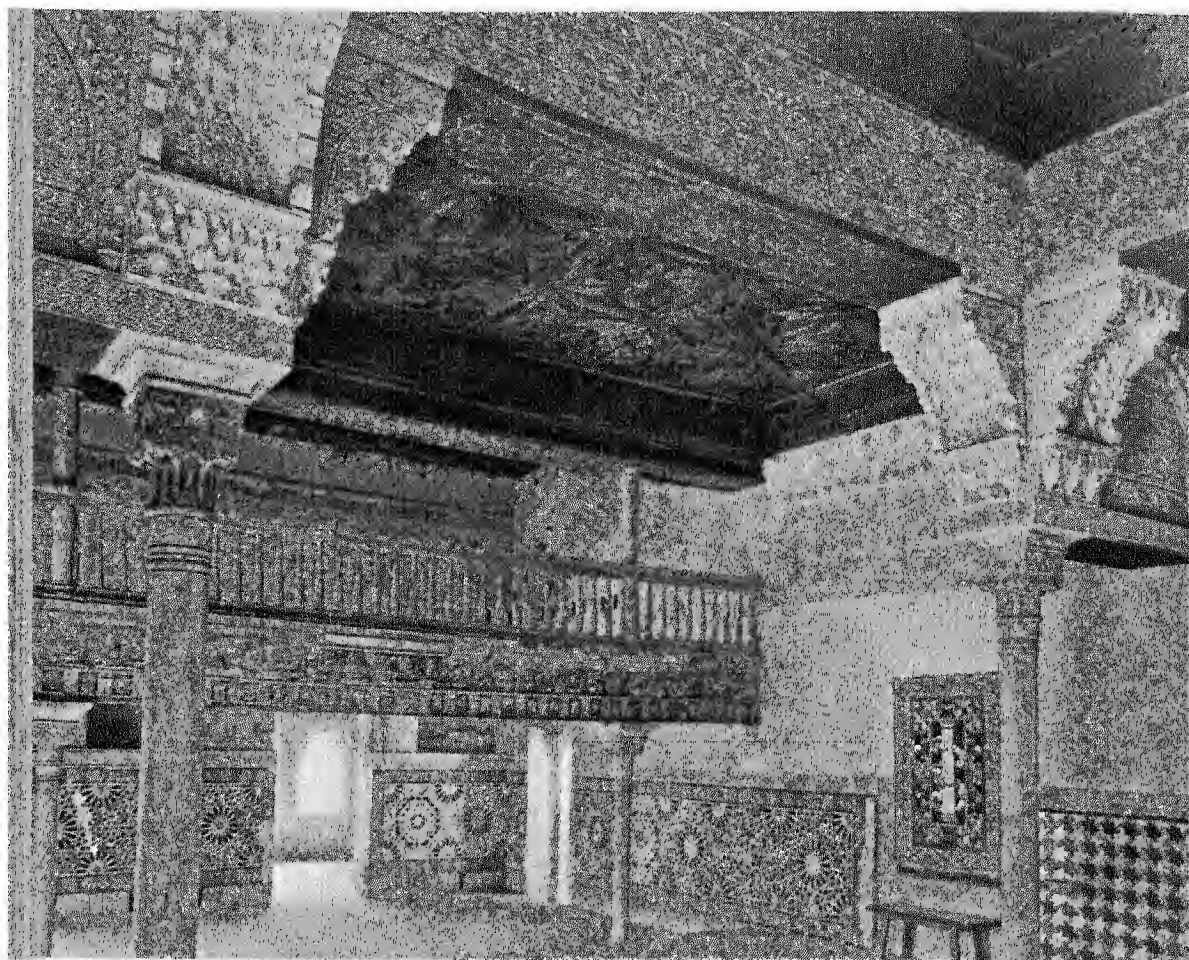
صورة لبعض العقود الدقيقة التي اشتهرت بها الحمراء. الأعمدة رقيقة من الرخام تحمل عقوداً من الخشب المغطى بالجص المزخرف والرخام. لاحظ الزليج أو (القاشاني) الذي يغطي أسفل الجدران.

منظر لا يشهده الكثيرون
بهو الريحان من أعلا
سقف البناء المواجه لبهو
قمارش. لاحظ إبداع
صناعة الخشب.

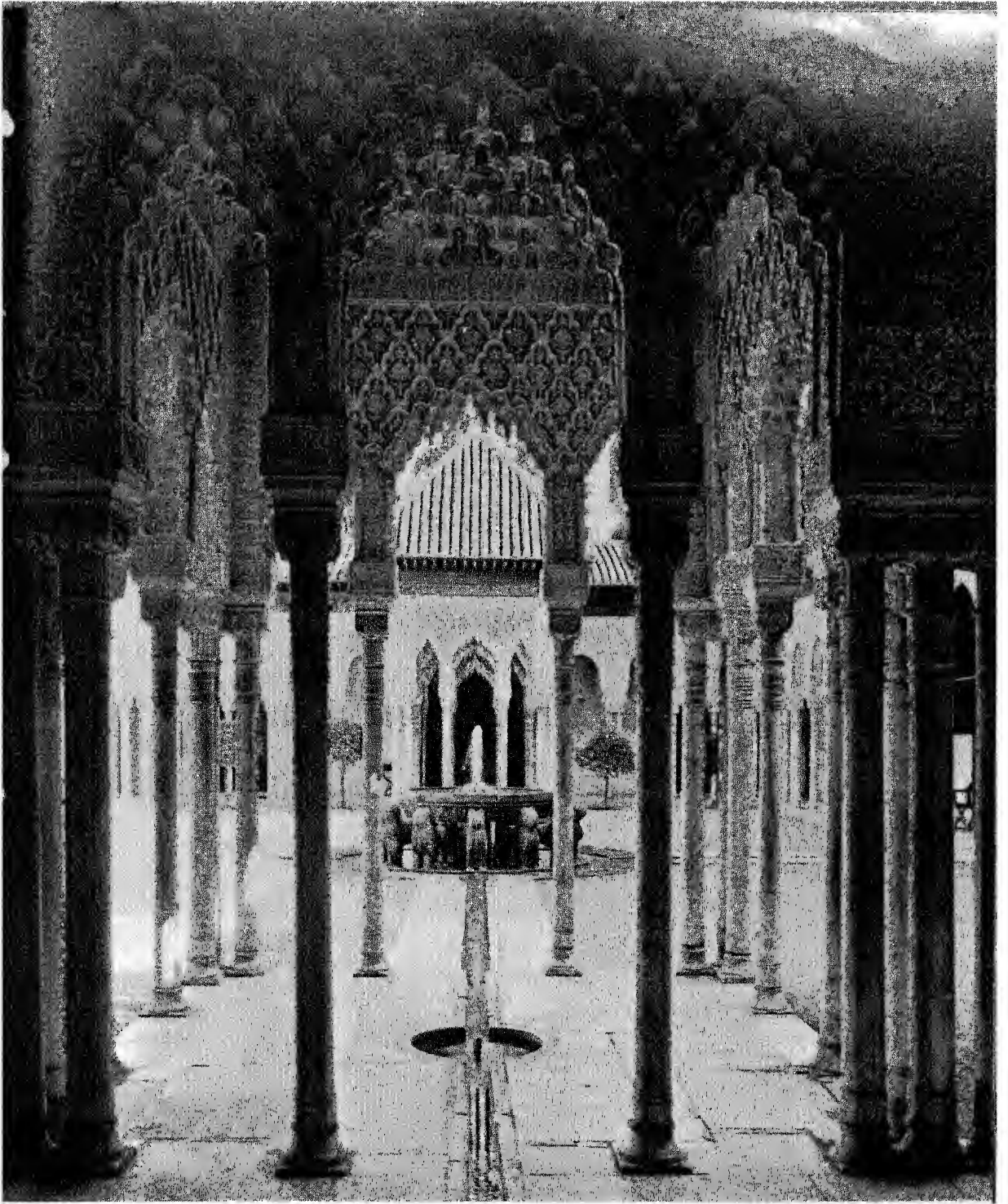


بواب الدخول إلى بهو
قمارش، إنه مفتوح دائماً
ولهذا لا يظهر جمال شغل
الخشب ولا هيئة المفنّاح
الحديدي لهذا الباب.

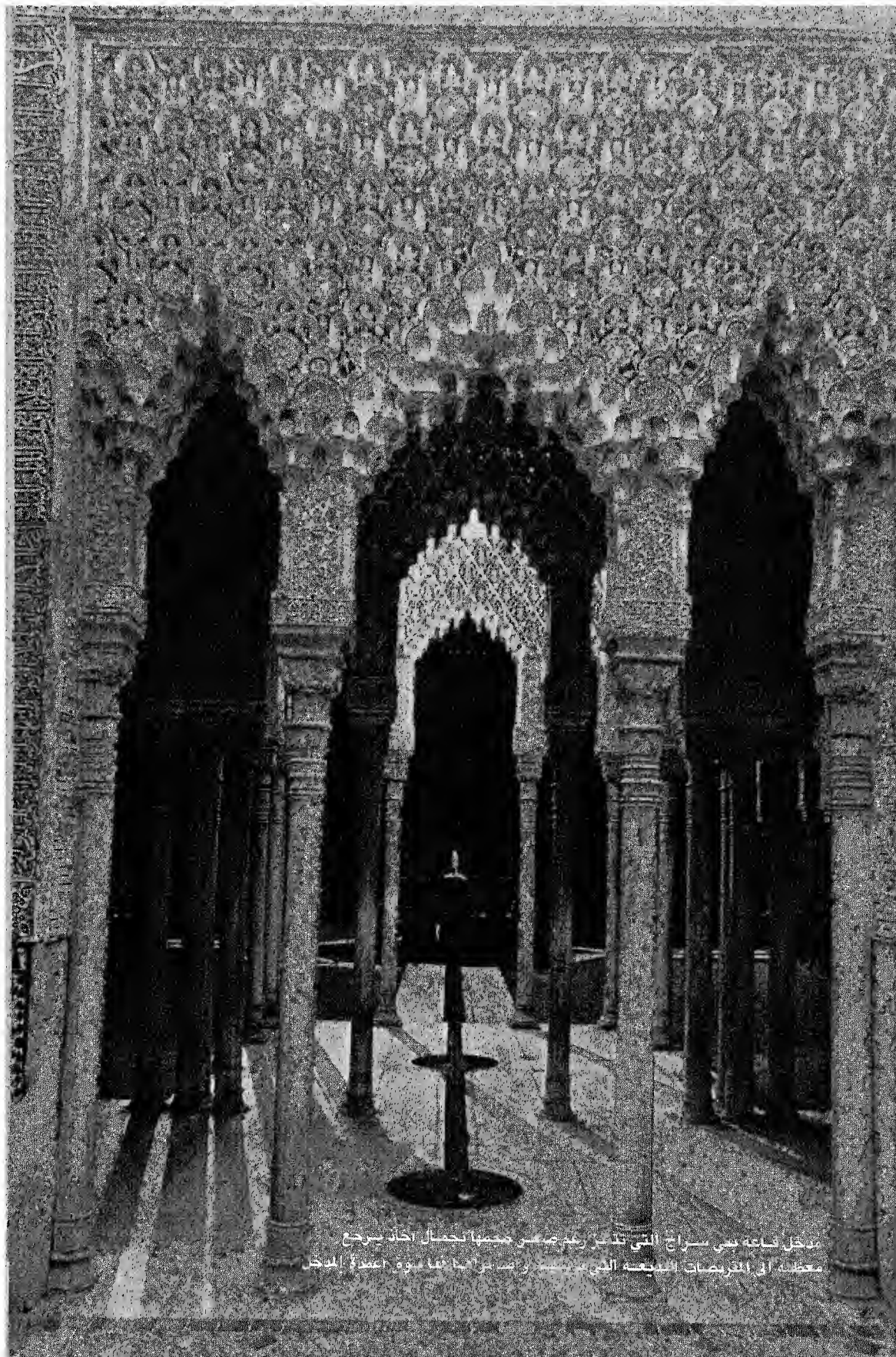




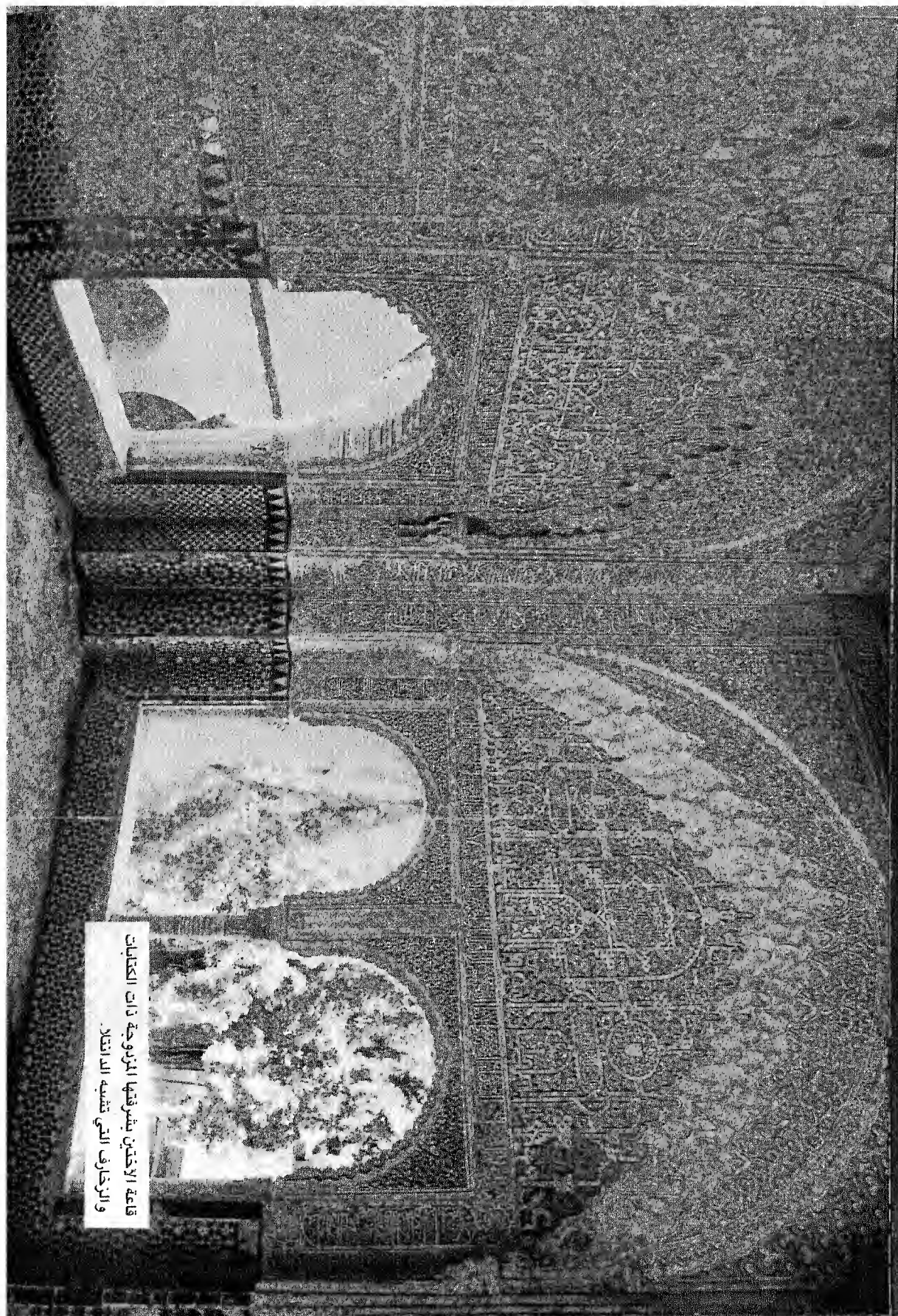
قاعة المشور هي أول ما يلقاك عندما
تدخل قصور الحمراء. وما كان قبل ذلك
من المباني زال.. هذه القاعة من إنشاء
السلطان محمد الغني بالله، وكان الفراغ
من إنشائها سنة ١٣٦٥م. أي أن عمرها
٦١٩ سنة ميلادية. كانت في الأصل
مجلساً يجتمع فيه السلطان برجال دولته
للتشاور. وبعد سقوط المدينة أراد
النصارى أن يحولوها إلى مصلى فأقاموا
تلك الشرفة الخشبية التي تراها وسط
القاعة، ثم الغوا الكنيسة عندما اعتبرت
الحمراء أثراً قومياً. وتركت القاعة على
هذه الصورة.



بهو السباع :
صورة جامعة له أخذت من
خميلة المدخل تقابلها في
الناحية الأخرى خميلة مماثلة
لها وفي الوسط النافورة التي
تحملها السباع .



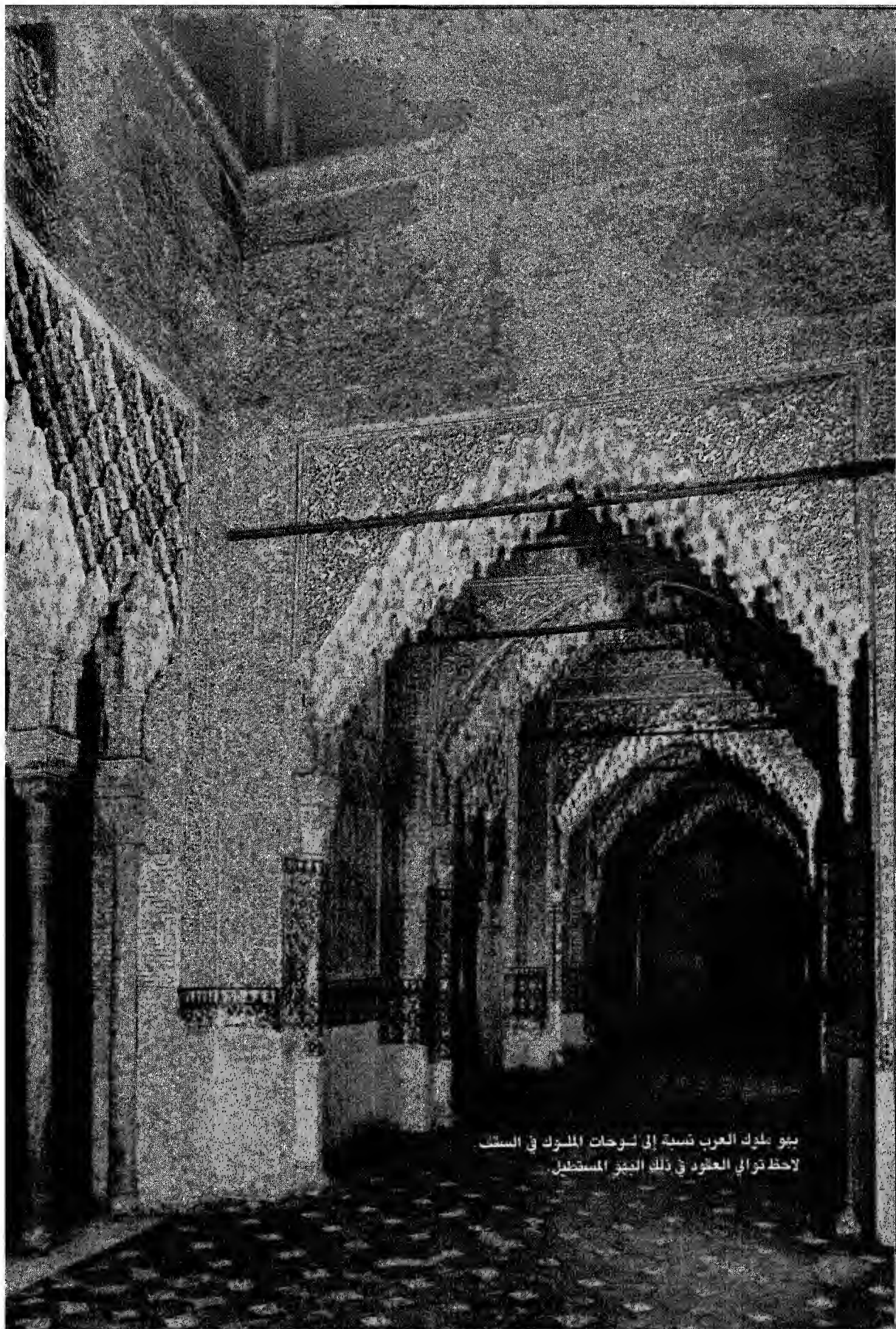
مدخل قاعة في سراج التي تدعى رعد جسر محمدا بحمال أحد سراج
معظمه إلى المقيصات النجعة الذي في رعد و سراجها لها سوه اعطة الداخل



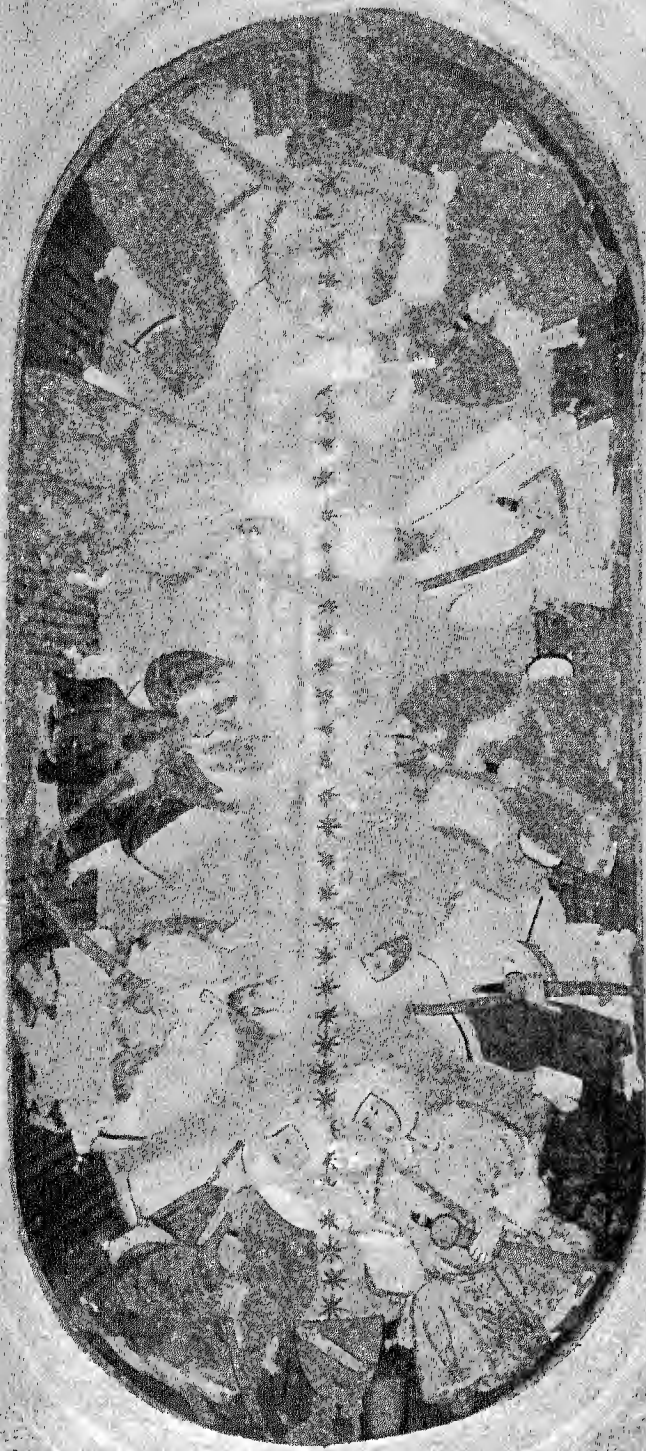
قاعة الإختين بشرقيها المزوجة ذات الكعابيات
والرخارف التي تشبه الدانتلا.



النافورة التي تتوسط
الحديقة التي تراهها من
شرفة عين دار عباسية
(البندقية)

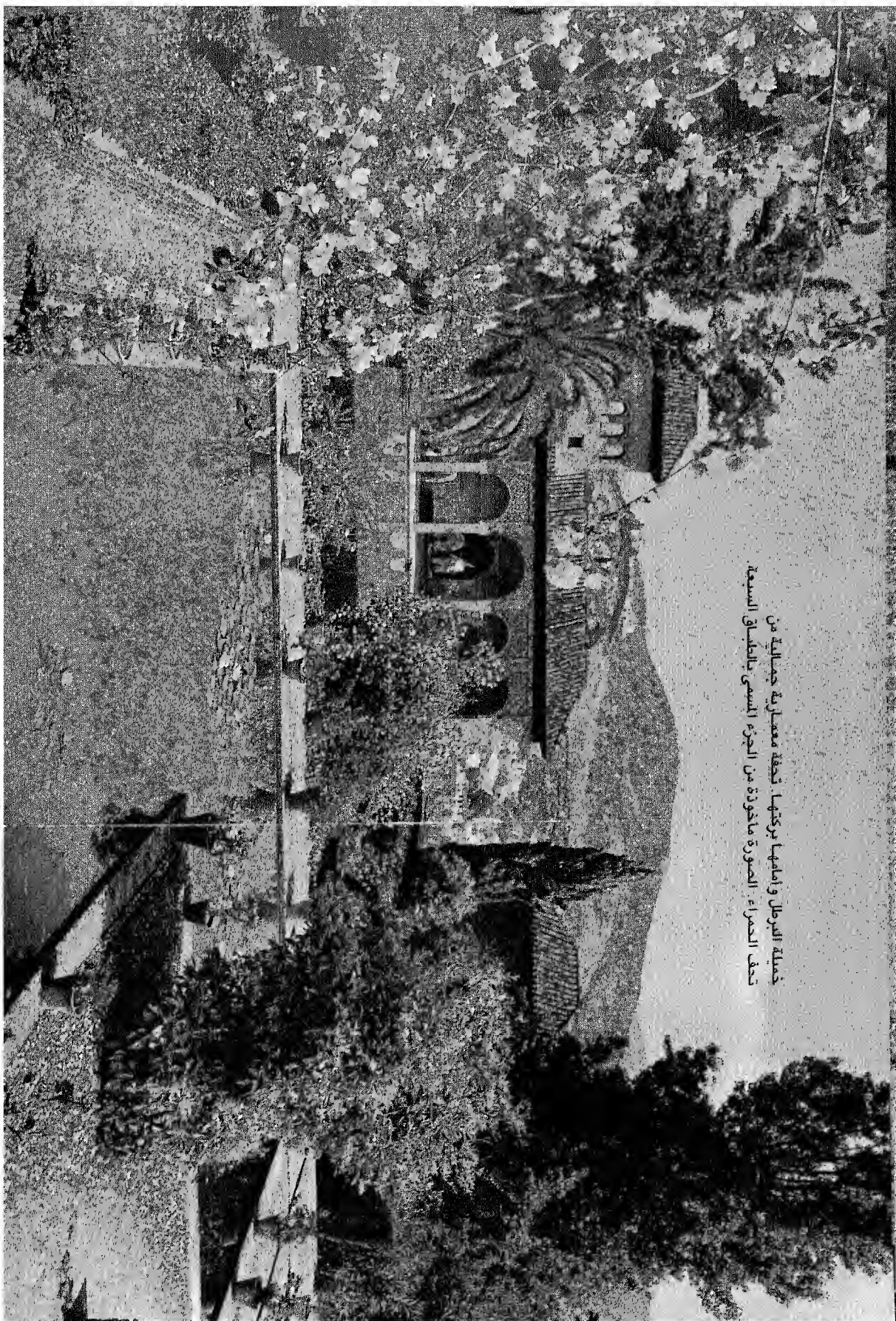


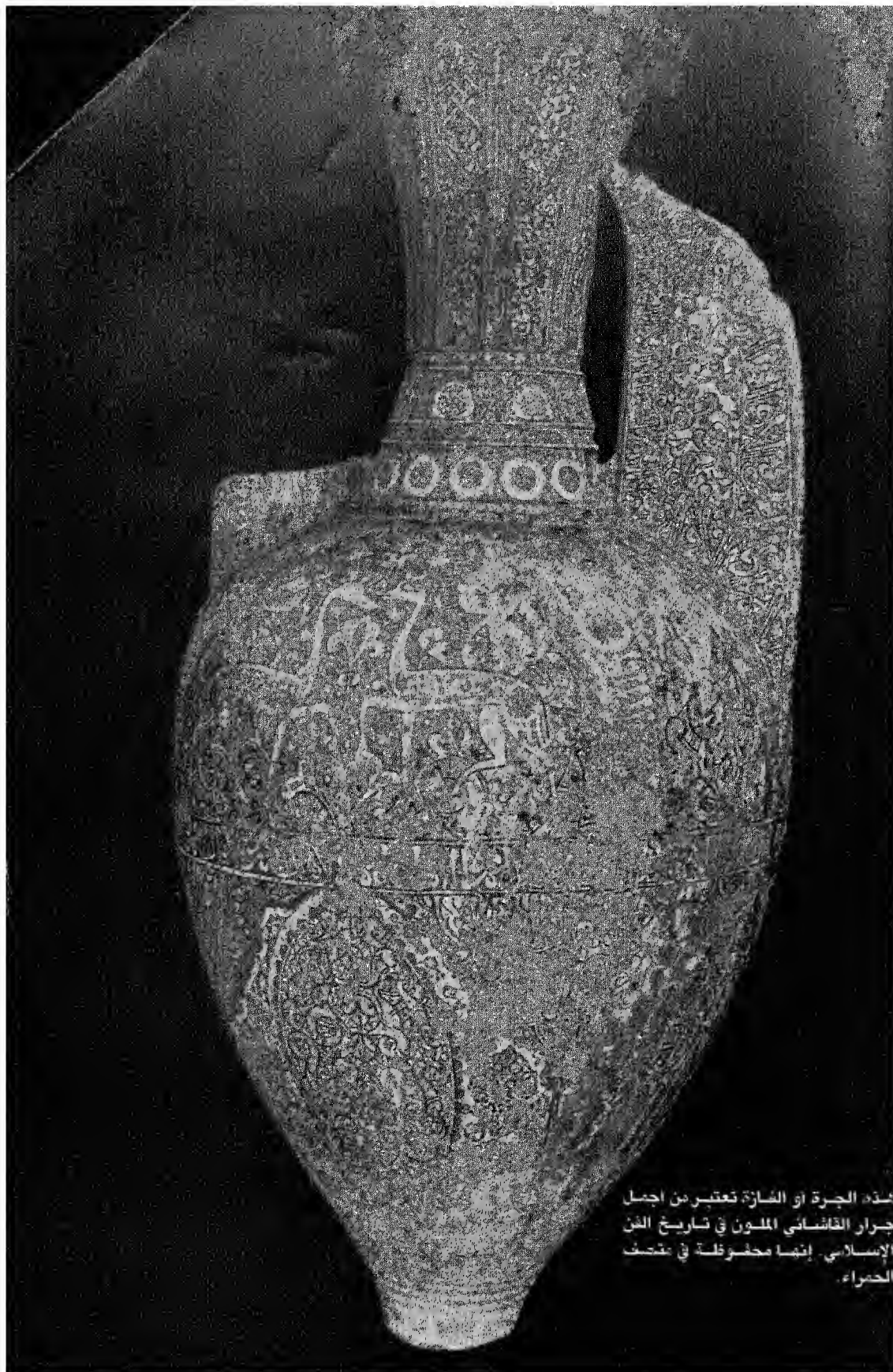
بنو ملوك العرب نسبة إلى لوحات الملوك في السقف
لاحظوا في العلوه في ذلك البيت المستطيل



لوحة ملوك العرب
واحدة من لوحات في سقف
القبو الذي ترى صورته
في الصورة السابقة، وقد
أُجتمعت في هذا الكتاب أن
هذه اللوحات سابقة على
ميلاد فن التصوير
الحديث في عصر النهضة
في إيطاليا.

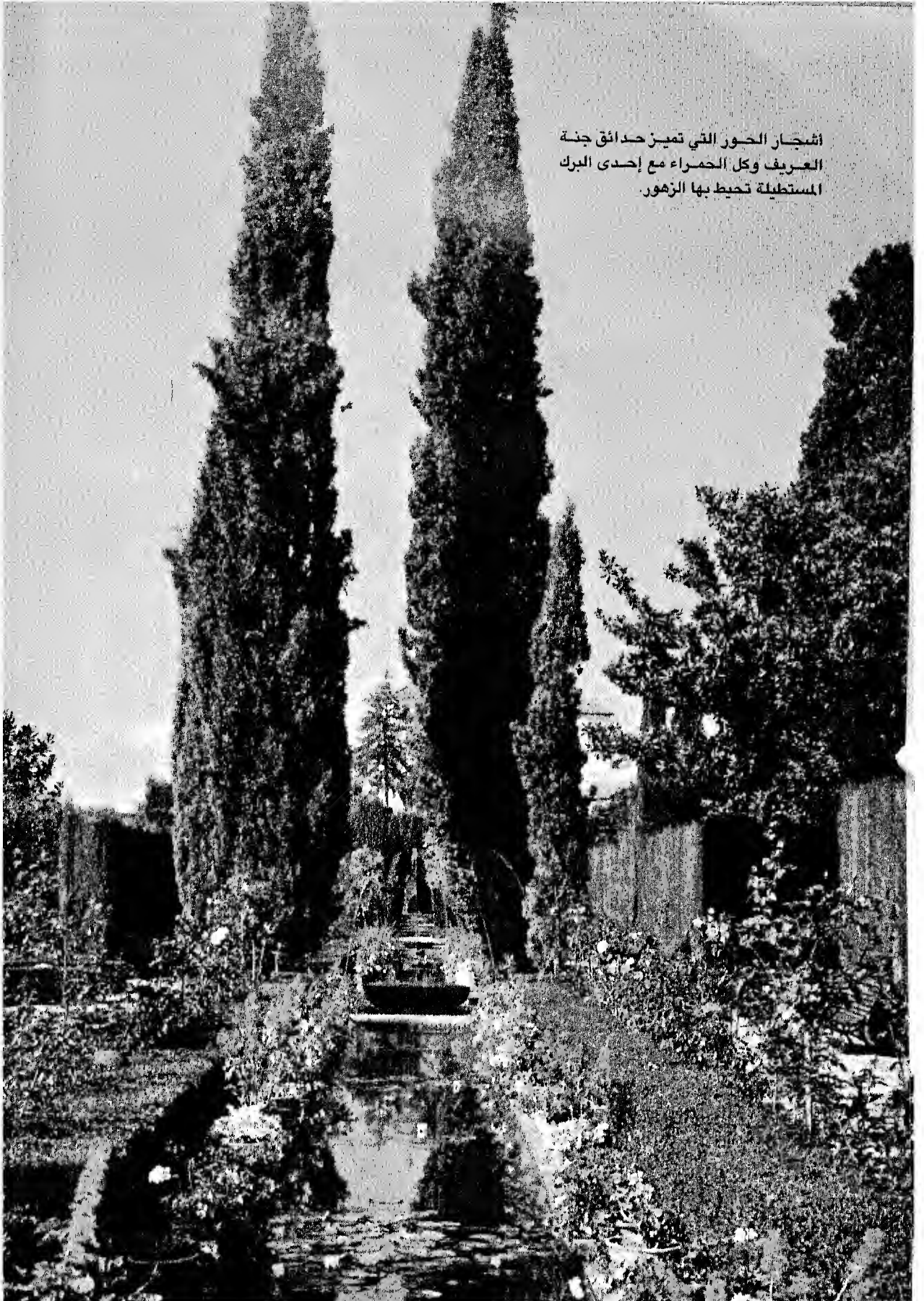
خيمة البرطل وأمامها بركتها. تحفة معمارية جميلة من
تحف الحراء. الصورة مأخوذة من الجزء المسمى بالمعلاق السبعة





هذه الجرة أو الفانة تعتبر من أجمل
جرار القاشاني الملون في تاريخ الفن
الإسلامي. إنها محفوظة في متحف
الحمراء.

اشجار الحور التي تميز حدائق جنة
العريف وكل الحمراء مع إحدى البرك
المستطيلة تحيط بها الزهور.



مدن العمال تكاد لا تنتهى . عمارات متجاورة كأنها علب الكبريت . ذلك كله نشأ بعد الحرب العالمية الثانية وكذلك بعد الحرب الأهلية الأسبانية .

فجأة نجد أنفسنا فى شارع فسيح جميل تظله الأشجار ، ذلك هو الجران بيا دى كولون (شارع كولومبوس الكبير) ، وتبدأ سلسلة العمارات والمتاجر والمقاهى ودور السينما والمطاعم . تلك المنشآت التى تهبط بك فى لحظة من عالم الخيال إلى الواقع المادى ، تنقلك قروناً كثيرة فى نغمضة عين . .

هذه المنشآت لم تكن هنا قطعاً أيام عاش واشنطون إيرفنج فى غرناطة ليكتب « حكايات الحمراء » أو أيام وضع الموسيقى الأندلسى مانويل دى فابا- الذى ولد فى قادس - متابعته الأندلسية ، أو أيام كتب فيديريكو جارتيا لوركا مسرحيته الخالدة « الزفاف الدامى » ، ولم تكن موجودة قطعاً أيام أنشأ أنخل جانيقيت - أكبر مفكر غرناطى فى العصور الحديثة - ندوته الأدبية فى القرن الماضى ، أو أيام رسم رسامون عالميون من أمثال روبرتس وكالفرت لوحاتهما الرائعة عن غرناطة . .

لنترك إذن دنيا ناطحات السحاب وأضواء النيون ودور السينما وراء ظهرنا كما تركنا « سانتانى » والتاريخ الحزن ، ولننظر البلد الذى أتينا نزوره . . .

خير مكان لذلك أن نتجه نحو النهاية الشمالية لشارع الملكين الكاثوليكين (فرناندو وإيزابيلا) لنقف على تلك القنطرة اللطيفة التى تسمى باسم الكنيسة المجاورة لها : سانتا آنا .

سنجد أنفسنا فى قاع واد ضيق يجرى فيه نهر كأنه خندق ، ذلك هو نهر حدّاره الذى يسمونه الدارو . .

إنه فرع من نهر شِنِيل ، وهذا بدوره فرع من نهر الوادى الكبير . . على يميننا يرتفع جبل أخضر ، يقوم كأنه الحصن ، وفوقه قصور وقلاع ، ذلك هو تل الحمراء ، وتلك قصورها وقلاعها . .

على يسارنا تل آخر يرتفع ارتفاعاً هيناً ، تغطيه تقريباً بيوت بيضاء ،
ذلك هو حى البيازين ، حى أوساط الناس والعمال فى غرناطة القديمة . وخلفنا
تقع مدينة غرناطة .

القصور والقلاع على يميننا كانت مقام الملوك والأشراف والقواد
والأغنياء . .

والبيوت البيضاء عن يسارنا وخلفنا وفى الفسيح بين التلّين كانت بالطبع
بيوت الرعية . .

الذين على يميننا هم الذين أكلوا وشربوا واستمتعوا ثم أسلموا البلد للعدو . .
والذين على يسارنا وخلفنا هم الذين عملوا وتعبوا ودفَعوا الضرائب ،
ثم بيعوا للعدو . . .

هذا — فى لمحين — هو ملخص تاريخ غرناطة . .

لنرجع أدرأجنا ، قبل أن نجرّفنا ذكريات التاريخ مرة أخرى . .

فى الفسيح الذى تمتد فيه غرناطة الحالية كانت تمتد غرناطة العربية على
جانبى نهر حداره . كان إذ ذاك نهراً حقيقياً يفيض بالماء ، وخاصة فى الربيع
بعد ذوبان ثلوج جبل الثلج (سييرا نييفادا) . كانت تقوم عليه قناطر
كثيرة : قنطرة الدباغين ، قنطرة القزازين ، قنطرة القاضى ، وهكذا . .

كانت مجموعة من الضواحي (أرباض) للحمرأ : ربض القاضى ،
ربض المنصور ، ربض زناته . . كان يحيط بها كلها سور منيع له أبواب
ضخمة ، بقى منها اليوم باب إلبيرة وباب البيازين وباب الرملة . . .

وكانت المساجد كثيرة جداً ، وقد زالت كلها . . وكذلك كانت
الفنادق ، وقد بقى منها واحد سنراه بعد قليل .

أما المسجد الجامع ، فكان يقع بالضبط حيث تقوم الكاتدرائية اليوم .
وكانت إلى جانبه مدرسة ذات شهرة طاهرة ، لا زالت آثارها باقية
إلى اليوم . . .

وعندما تقف عند ملتقى شارعى الملكين الكاثوليكين والجران بيا ،
فأنت بالضبط فى قلب غرناطة القديمة والحديثة .

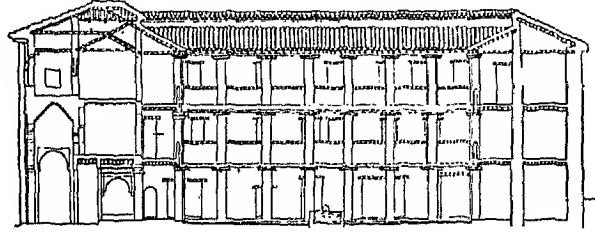
لنلق نظرة على ما بقى منها ، لنفرغ بعد ذلك للحمرء وجنة العريف . .

نقطة البداية — كما هو الحال فى إشبيلية — هى الكاتدرائية ، فهى
جامعنا القديم . . كما فعل أحبار إشبيلية فعل أحبار غرناطة : هدموا الجامع
وأقاموا على مساحته كلها شيئاً هائلاً ، يقول فى وصفه چان سيرمييه إنه
« يدهش أكثر مما يؤثر فى النفس . لا بد أن تظهر أنك تعجب به تأدباً » .
فى هذه الكنيسة قبر فرناندو وإيزابيلا وابنتهما خوانا المحبونة وزوجها فيليب
الجميل ، وفيها صور عربيات بالحمار يتصرن على يد القسيس ، وصور عرب
يقولون لك إنهم سعادوا إلى القسيس مختارين أيدخلوا النصرانية . بدئ فى بنائها
سنة ١٥٢٣ ، ولم تفرغ إلا فى القرن الثامن عشر .

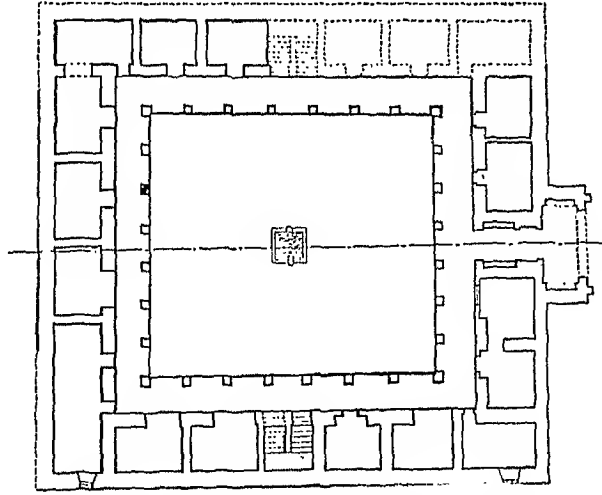
خلف الكاتدرائية تجد بقية المدرسة العربية القديمة . لم يبق منها إلا الجناح
الذى يضم محراب جامعها . معظم ما كان قد بقى فيها من الآثار العربية نقل
إلى متحف الآثار فى غرناطة ، ومتاحف أخرى .

على مقربة من الكاتدرائية تجد القيسارية ، لا زالت تحتفظ باسمها العربى .
سوق صغير أنيق مثل خان الخليلي ، ولكنه أطف وأجمل . إنها صورة من
قيساريتنا العربية ، فقد احترقت هذه سنة ١٨٤٣ وأنشئت الجديدة على طرازها .
إذا خرجت من القيسارية إلى الشارع الكبير وجدت فى الناحية الأخرى
شارعاً صغيراً يسمى ماريانا بينيدا ، فيه الفندق — أو الحان — الغرناطى
المشهور . كان يسمى « الفندق الجديد » . إنه الوحيد الذى بقى لنا من فنادق
الأندلس . هندسته تعطيك فكرة عن نظام فنادقنا القديمة : مدخل عربى كبير
يليه مدخل أصغر على جانبيه غرفتان صغيرتان . إنهما تقابلان ما يعرف
فى الفنادق الحديثة « بالاستقبال » و « البواب » . هنا كان الداخل يسجل اسمه
ويحجز غرفته . كان يسجل أيضاً دابته إذا كانت معه دابة . بعد ذلك تجد

فناء واسعاً في وسطه حوض . هنا كان النزيل يربط دابته لتشرب ، ريثما يتولى الخدم أمر طعامها . البناء يقوم حول الفناء على هيئة ثلاث طبقات من الشرفات . أبواب الغرف تفتح على الشرفات .



مقطع في فندق غرناطة المعروف اليوم بربع الفحم يبين تصميمه الهندسي



مسقط لفندق غرناطة يبين هيئته العامة . يلاحظ المدخل إلى الفناء يتوسطه مسقى الدواب ، والمبنى قائم حوله ثلاثة أدوار كل منها يتألف من غرف متجاورة تطل على الفناء .

تبدلت الأيام على هذا البناء بعد العرب . استعمل ذات مرة مخزناً للفحم ، لهذا يسمى اليوم حظيرة الفحم (كورال دل كاربون) . واستعمل مرة أخرى مسرحاً ، ومثلت فيه روايات كالدرون ولُوبِ دى فيجا . وهو اليوم ملك للدولة تابع لإدارة قصور الحمراء . .

وغير هذه هناك في الوادى أبواب باقية من غرناطة العربية : باب الرملة — ينطقونه اليوم بالنطق الغرناطى القديم : ييب الرملة — وباب البيرة وقطع من الأسوار ، ومنازل متناثرة . .
وهناك حى البيازين الذى سنزوره بعد الحمراء . .

* * *

أنت مشوق الآن إلى زيارة الحمراء ، لهذا وحده أتيت ، لهذا وحده
يأتى الألوف أيضاً كل يوم . غرناطة بدون الحمراء تصبح بلدة ريفية مثل
مُطْرِيْل أو كولمينار ، هل سمعت عنهما ؟ إنهما هناك غير بعيد عنها .
الفنان العربى صنع من بلدة صغيرة فى أقصى أوروبا درة تتألق وتجذب
الألوف . لكى تصبح روما روما كان لا بد أن يتعاون فى إنشائها ملوك الرومان
وأباطرتهم من رومولوس إلى قسطنطين ، والرسل والبابوات من بطرس إلى
بيوس الحادى عشر . أما غرناطة فقد أصبحت قبلة أنظار الدنيا بمجموعة
واحدة من القصور والحدائق ، بل بنصف مجموعة ، والنصف الثانى عدت
عليه العوادى وزال من الوجود . .

الطريق إلى الحمراء طريق جميل . اصعده على قدميك ليزداد استمتاعك
به ، خذ الشارع المسمى كويستا دى جوميريث (مصعد بنى نغمارة ، قبيلة
مغربية) . بعد قطعة صغيرة من شارع ضيق ستجد نفسك أمام بوابة حديثة
تسد الطريق ، هذه بناها شارل الخامس (شرلكان) مكان بوابة الحمراء
القديمة التى كانت تسمى باب الرمان .

إن الحمراء حصن بنى على سفح تل وفوق قمته الفسيحة التى تشبه
المنضبة . لم يكن بنو الأحمر أول من تنبه لحصانتها ، سبقهم إلى ذلك الثائرون
على خلفاء بنى أمية . ثم اتخذها قاعدة له أحد ملوك الطوائف وهو باديس بن
حبوس أوائل القرن الحادى عشر الميلادى . سميت من ذلك الحين بالقصبة
الحمراء ، نسبة إلى لون حجارة التل الذى بنيت عليه .

فى ذلك الوقت أيضاً بدأت مدينة غرناطة أسفل التل تعمر . إلى جوارها كانت تقوم مدينة كبيرة تسمى إلبيرة ، أصبحت إلبيرة اليوم قرية صغيرة . إلى آخر القرن العاشر الميلادى كانت الناحية كلها تسمى إلبيرة ، أو كورة إلبيرة ، وكانت من أعظم كور (مديريات) الأندلس الإسلامى . خلال القرن الخامس الهجرى — الحادى عشر الميلادى — عندما تلاشى السلطان المركزى وتقاسم الأندلس عشرات الرؤساء والمستبدين أصبحت للحصون المنيعه أهمية كبرى ، لأن المدن القائمة فى السهول كانت فرائس المغيرين . لهذا انتقلت الأهمية من إلبيرة القائمة فى السهل إلى غرناطة القائمة على سفح الجبل تحميها القلعة الحمراء على قمته .

ولكن تاريخ الحمراء التى نرى بقاياها اليوم لا يبدأ إلا بعد سقوط قرطبة سنة ١٢٣٦ . هذا الحادث روع أفئدة عرب الأندلس . حاول الكثيرون منهم إيقاف الخطر الداهم دون جدوى ، فأسرع بعضهم إلى مواضع حصينة واعتصموا بها . من هؤلاء محمد بن نصر بن الأحمر . كان فارساً شهماً بعيد النظر . أسرع برجاله فاحتل حصن غرناطة القديم — الذى كان يسمى القصبه القديمة ، أو الحمراء القديمة — وأحكم أسوارها وبنى على الأسوار أبراجاً حصينة عالية منها برج الحراسة (تورى دى لا فيلا) الباقى إلى اليوم ، وبنى لنفسه قصرأ فى المكان الذى يقوم فيه قصر شر لكان اليوم . سميت مبانيه بالقصبه الجديدة .

استطاع الرجل بمهارته أن ينشئ مملكة تشمل كل الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة جنوب نهر الوادى الكبير . بنى عشرات الحصون على طول حدود المملكة من قادمس فى الغرب إلى المريّة فى الشرق . إلى هذه المنطقة المحصنة وفد العرب من البلاد التى استولى عليها الإسبان ألوفاً بعد ألوفاً ، حاملين معهم خلاصة حضارة الأندلس .

تلك هى مملكة غرناطة التى ظلت تقاوم — وحدها — أربع ممالك إسبانية من ١٢٣٨ إلى ١٤٩٢ ؛ سترى أسباب الانهيار فيما يلى من الحديث .

نعود إلى باب الرمان ، لعلك لاحظت أن ذلك الاسم ترجمة للفظ جُرّانادا . المنطقة كلها مشهورة بالرمان . لا بد أن بلداً صغيراً بهذا الاسم كان موجوداً من قديم الزمان . لا زالت الرمانة شارة غرناطة . .

بعد باب الرمان ننتقل مباشرة إلى منطقة تذكرك بجبال سويسرا : خضرة وغابات وجو رقيق . المنحدر عنيف بعض الشيء ، ولكنك لا تشعر بتعب . هذه الغابات لم ينشئها العرب ، لأن قواعد الأمن في تلك العصور كانت تحرم غرس غابات حول الحصون حتى لا يحتجى فيها الأعداء . كانت أرضاً مكشوفة لاستعراض العسكر تسمى السبيكة . .

إذا التفت إلى يسارك وأنت صاعد رأيت أسوار قصبة الحمراء تطل عليك ، بعد قليل تصل إلى ميدان صغير .

على يسارك تجد باباً عربياً ضخماً ، ذلك هو باب الشريعة ، هذا هو مدخل الحمراء اليوم .

والشريعة هنا ليست الشريعة بمعناها المعروف ، وإنما هي أقرب إلى معنى الشارع . وباب الشريعة — على هذا — معناه : الباب الذى يشرع أو يفضى إلى الطريق ، الباب الخارجى . لا علاقة له بالقضاء ، وترجمته باسم « پويرتا دى لاخوسيتيا » ترجمة خاطئة .

هنا نقف قليلاً قبل أن ندخل الحمراء . .

إنك فى الغالب تصل مع آخر ساعات النهار ، أو لعلك لا تستقر فى غرناطة إلا مع الليل . . ولا تستطيع زيارة القصور إلا مع الصباح .

وهذه الليلة التى تقضيها فى غرناطة ، قبل زيارة الأثر العربى العظيم ، تأذن لك فى أن تتأمل من شرفة أحد الفنادق الجميلة القائمة أعلى التل « بقاع » غرناطة وسهولها . . هذه الرياض التى تمتد أمام بصرك فى ظلام الليل وقد شملها سكون الأبد . .

فى موقفك هذا وقف سلاطين غرناطة وقوادهم وأهل الحراسة والحرب
يتأملون هذه الأرض المباركة يستولى عليها العدو شبراً شبراً فى قسوة القدر ...
كل يوم يتقدم خطوات ويستولى على بلدة أو قرية ...
تحت بصرك ، ميدان من ميادين الجهاد والأبطال . عند الأفق ترى خط
الحدود الذى وقف عنده رجالنا يقاتلون . .

لقد سقط خط الوادى الكبير — كما رأيت — فيما بين ١٢٣٠ و ١٢٥٠ .
فى هذه السنوات العشرين التى أعقبت تصدع دولة الموحدين ضاعت بلنسية
ومرسية ودانية وجيان وقرطبة وإشبيلية . .
عشرون سنة سوداء كان الأندلس خلالها دون دولة تقريباً . . .

مدن كبرى لها فى تاريخ الحضارة العربية والعالم مجلدات ، وقفت فى
العراء أمام حرب صليبية يقوم بها ملوك وراء كل منهم ألوف الفرسان
مدرعين بالحديد الثقيل . .

ومن وراء جبال البُرت (البرانس) أقبل ألوف آخرون من المحاربين
الصليبيين تدفعهم البابوية وتؤجج النار فى قلوبهم . .

ومن وراء البحر أقبلت أساطيل الجمهوريات الإيطالية : جنوة وبيزا
وأمالقى مشحونة برجال حريصين على ألا تفوتهم الغنيمة الباردة . .

هؤلاء جميعاً أقبلوا يهاجمون مدناً أراد القدر المحزن أن تقف فى تلك
الأيام دون حماية . .

ومع ذلك ، فقد دافع أهل هذه البلاد واستبسلوا . وقف أهل قرطبة
وأهل جيان وأهل إشبيلية وبلنسية ومرسية . . بل أهل الجزائر الشرقية
— المعروفة بالبليار — يدافعون . وماذا يستطيع المدينون المسلمون من أهل
الحرف أو رجال العلم والتجار وأوساط الناس ؟ ومع ذلك فقد ناضلوا
ودافعوا ما أمكنهم ، ولم يستسلموا إلا بعد أن تلاشى آخر أمل فى الثبات . .

استسلموا مجاهدين أشرفاً ، على عهود أخذوها من ملوك كان كل منهم
يقود جيشاً جراراً ...

وبعد التسليم ؟
لا عهود ولا موثيق ...

لم يكن العصر عصر موثيق بين غالب ومغلوب ...
ورحم الله أجدادنا أصحاب موسى وطارق وعبد العزيز بن موسى ..
ما قطعوا على أنفسهم عهداً لبلد استسلم لهم إلا رعوه وحفظوه ...
وما دخل في ذمتهم إنسان إلا حفظوه وصانوه في أهله وماله ودينه ،
وظل إنساناً له كرامة الإنسان ..

* * *

هذا ما فعلناه ...

وذلك ما فعلوه ...

لا نقولها شاكين ، فإن الحر لا يعرف الشكوى ، إنه يستقبل مكروه
الأيام بقلب ثابت كالصخر وعين لا تعرف الدموع ..
ونحن بنو الدنيا نحارب في ميادينها ، لا يزدهينا نصر ولا تؤنسنا هزيمة ..
ورحم الله شاعرنا الذي قال :

بنى لى المجد آباء كرام ورثنا مجدهم باعاً فباعاً
وهذبى الإباء ، ففات طيرنى وكلُّ بعدٍ يجرى ما استطاعا

وإنما وقفت بك هذه الوقفة ونحن على أبواب الحمراء ، لكيلا يقع في
خاطرنا أننا غلبنا عن رخاوة أو خوف أو « استنامة للترف » كما يجرى في
بعض الأذهان ...

لقد فقدنا خط الوادى الكبير حوالى سنة ١٢٥٠ ..

ولم يبق لنا بعد ذلك إلا ركن صغير في الطرف الجنوبي مركزه غرناطة ،
ويحده من الشمال مجرى نهر شينيل ...

ثُمَّن مساحة شبه الجزيرة . . .

هذه المساحة فتحها طارق بن زياد في أسبوعين ، واحتاج الإسبان لينتزعوها منا إلى قرنين ونصف . .

لم يأخذوا منها شبراً إلا بعد معركة وقتلى من الجانبين . .

فكيف يقال إن الذين أبلوا هذا البلاء قوم ضعفاء استولى عليهم الترف وأنهم قواهم الفساد ؟ . .

الذى حدث هو أن الحظ خاننا في الأندلس . خلال هذين القرنين ونصف القرن لم يظهر رجل واحد جامع لصفات الزعامة والقيادة والسياسة والتدبير . . رجل من أولئك العشرات الذين كثروا خلال القرون الأربعة الأولى ، أو رجل من طراز القادة الذين جمعوا لواء المسلمين والعرب في المشرق بعد نكبة الغزو الصليبي ، رجل من طراز ملككشاه وألب أرسلان وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين . . .

في تلك العصور كان كل شيء يتوقف على القادة والزعماء . .

ومنذ أن انتثر عقد الخلافة القرطبية لم يُطالع الأندلس رجلاً اكتملت له الصفات التي تطلبها الخطر الشديد المتزايد . . .

ما ظهر قائد إلا وكان له عيب — أو عيوب — تقف به عن مواجهة الظروف . .

إذا كان ذكياً واسع العقل وجدناه تافه الطموح سيئ الأساليب ، كالمعتضد بن عباد . . .

وإذا كان سياسياً وجدناه أنانياً لا يفكر في غير نفسه ، كالمستعين بن هُود . . .

وإذا كان شجاعاً أريباً وجدناه قلبه خالياً من المثل الأعلى ، كمحمد بن سعد بن مرْدَنِيش . . .

وإذا كان بطلا مغواراً لا يهاب عدواً وجدناه متسرعاً قليل التروى ،
مثل محمد بن يوسف بن هود . . .
سوء حظ !

* * *

وهناك سوء حظ أنكى من بخل الأيام . . .
هو الخلاف والشقاق . . .

في هذه السنوات كلها ما اجتمع قائدان إلا اختلفا ، وما استقام الأمر
لرجل إلا أكل الحسد نفوس الآخرين . . .
معظم جهدهم انصرف إلى حرب بعضهم بعضاً . . .
لعنة حلت واستقرت في القلوب . .

فإن كان لي رجاء وأنت على أبواب آخر معازل العروبة في شبه الجزيرة
فهو أن تدعو الله مخلصاً أن يصفى قلبك لإخوانك ، وأن يطهرك من الحسد
للإخوة في العروبة والأوطان ، وأن يبرئك من الأنانية والنظر إلى ما فيه
خيرك وحدك . .

أجل . وادع الله أن يجمع قومنا على الحب . ويؤلف قلوبهم على المودة ،
وأن يظلمهم براية الوحدة . .
وكفى ما ضاع . . .

وهذه المأساة التي نتجول بين فصولها إنما كتبها الحقد والحسد . . .
وما أحسب أنك — بعد الذي رأيت وسترى — سترضى أن يكون لك
موضع بين الحاقدين الحاسدين : المبغضين للإخوان ، المنكرين عليهم نعم الأيام ..
هذه هي العظة الكبرى التي أرجو أن تخرج بها من ذلك التجوال . .
إن وعيناها فالغد كله إشراق وآمال . . .

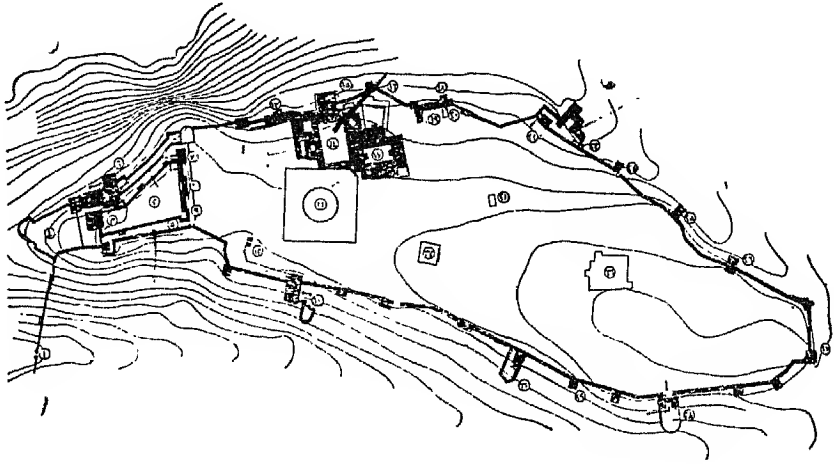
وإن نسيناها فالغد كله مأساة كهذه التي تملأ قلبك بعد أن رأيت
الذي كان . . .

هذه الآثار يراها غيرنا ليستمتع ويطرب ، وهو يتعجب وهو يراها كيف ضاع الذين بنوها ومضوا مع أمس الدابر .

أما نحن فنراها لتنعظ ونعتبر . ما زرتها مرة إلا وقع في خاطري أن الله سبحانه أبقاها لحكمة عنده ، أبقاها لنرى من خلالها ما ضيعناه . أبقاها لكي يقول الواحد منا لنفسه : هذا هو الخطام فكيف كان السفين ؟ هذه هي البقية فكيف كان الكل ؟ وهذا الكل ضيعه أجدادى غفر الله لهم ، ضيعوه لأن قلوبهم خلت من التآخي والتعاطف ، لأنهم نسوا أن المجد لا يقوم على شر أبداً ، إنما يقوم على الخير والحب والتضحية والإيثار .

ضيعوه لأن قلوبهم خلت من المثل الأعلى ، نسوا أن الأوطان لا تُحمى إلا إذا كان أهلها صفاء كالبناء المرصوص .. ضيعوه ثم أقبلوا ببيكونه ، وهذه الدنيا لم تخلق لمن يبكي . خلقت لمن يقف مناضلاً عن أرضه وعقيدته وإخوانه ، خلقت لمن غنى قلبه بالحب وتعلقت نفسه بالخير .

والوطنية والدين حب وخير ...



منظر عام يمثل القصة وأبراجها والمباني التي بداخلها ، ما بقى منها وما زال وما بنى فيها بعد أيام العرب . وهذه القصة هي التي تسمى اليوم حصون الحمراء وقصورها ، وهي تقوم على قمة التل الأحمر يحيط بها سور تقوم عليه الأبراج ، ومعظمها باق إلى اليوم . الطرف الأيسر من هذه المنشآت هو القسم العسكري من مباني الحمراء ، ويسمى الآن بالقصة . وإلى جنوب القصة على سفح التل كانت تقوم حدائق ، لا زال بعضها باقياً إلى اليوم . وفي الموضع الذي كانت فيه هذه الحدائق يمر الطريق الصاعد إلى الحمراء اليوم ، وعند قاعدة التل كان يقوم فحص السبيكة ، وكان مزارع وحدائق ، وهو اليوم جزء من مدينة غرناطة تقوم فيه المساكن . وإلى الشمال الشرقي من القصة تقوم حدائق جنة العريف . وقد بينا أسماء الأبراج ، وقلما يراها الزائرون ، رغم أهميتها المهارية . (نقلا عن ليوبولدو توريس بالباس) .

١ - أبراج الحمراء (توريس بيرميخاس) .

٢ - ميدان السلاح داخل القصة

٣ - برج الحراسة (تورى دى لافيللا)

٤ - تحصينات

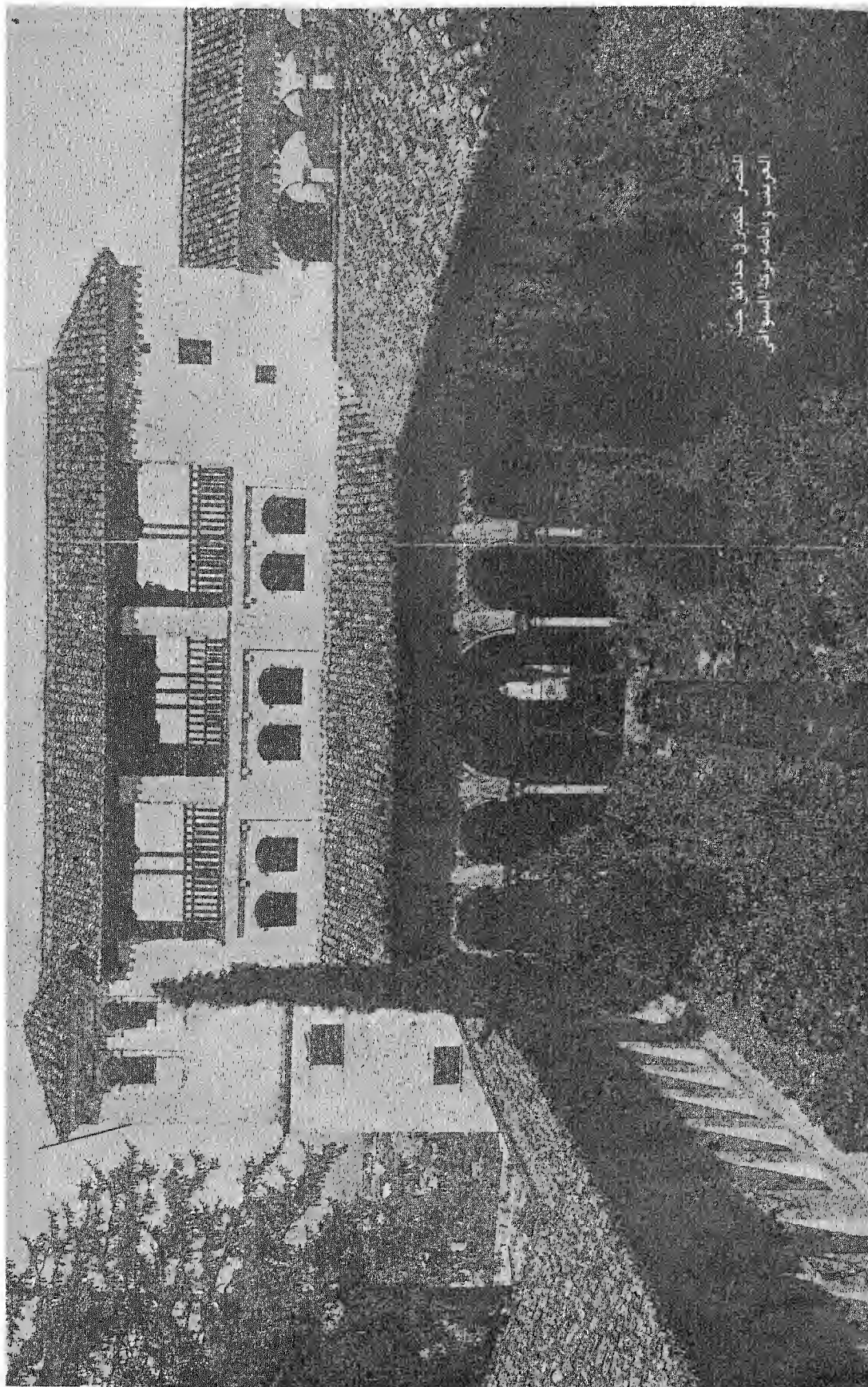
٥ - الدروب (أداربس)

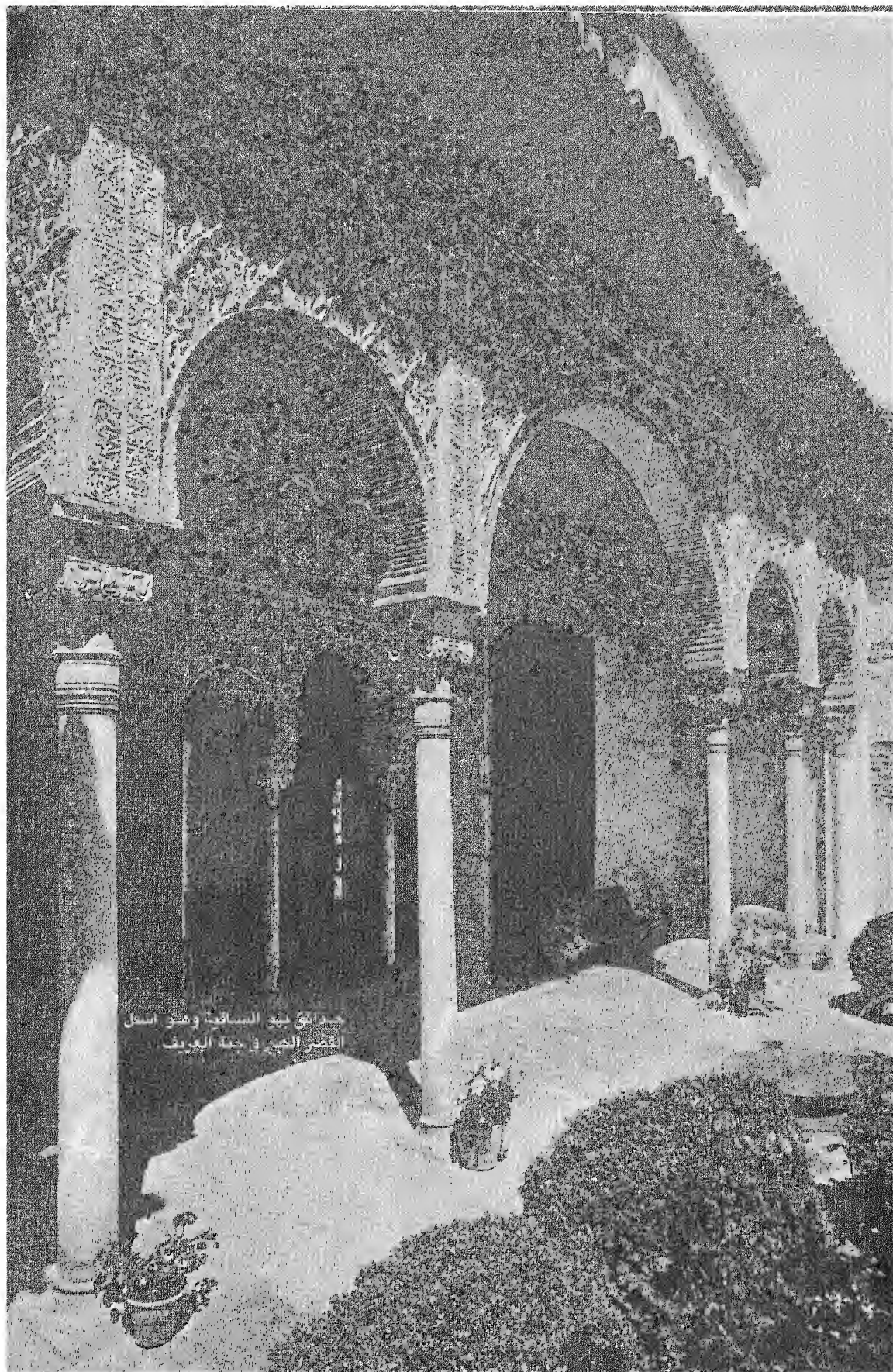
٦ - باب السلاح

٧ - برج التكريم (تورى دى أوميناخ)

٨ - البرج المهديم (تورى كيرادا)

- ٩- برج الدراق (تورى دى أدارجيرو . والدراق صانع الدراقات ، وهى تروس من الجلد)
- ١٠- باب الشريعة
- ١١- قصر كارلوس الخامس
- ١٢- الباب المسمى بباب النبيذ
- ١٣- برج ماتشوكا
- ١٤- بهو قمارش
- ١٥- برج قمارش
- ١٦- برج متزين الملكة (بينادور دى لارينا)
- ١٧- بهو السباع
- ١٨- برج النساء (تورى دى لاس داماس)
- ١٩- البرطل
- ٢٠- مصلى
- ٢١- أطلال قصر كونت تنديا
- ٢٢- برج القمم (تورى دى لوس پيكوس)
- ٢٣- باب الحديد
- ٢٤- برج القنديل
- ٢٥- برج الأسيرة
- ٢٦- برج الأميرات (تورى دى لاس إنفانتاس)
- ٢٧- برج الماء
- ٢٨- برج الطباق السبع (تورى دى سييتى سويلوس)
- ٢٩- برج الطليعة (تورى دى لا أنالابا)
- ٣٠- برج الريموس (تورى دى لاس كاييثاس)
- ٣١- نزل سان فرانثيسكو (كان قبل ذلك ديراً بنفس الاسم)
- ٣٢- الحمام





وَلَا غَالِبَ إِلَّا اللَّهُ ..

إذا كان محمد بن نصر بن الأحمر مؤسس الدولة النصرية هو الذى بدأ بإنشاء الحمراء ابتداءً من سنة ١٢٣٨، فإن معظم مبانيها القائمة إلى اليوم، ومعظم السحر الفنى الذى يتجلى فيها، يرجع الفضل فيه إلى السلطان أبى الحجاج يوسف ابن أبى الوليد إسماعيل بن فرج (٧٣٣ - ٧٥٥ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤) سابع السلاطين من بنى نصر. لقد كان ملكاً فناناً شاعراً، أضفى من شعره وفنه على مبانيه ومباني أسلافه، فكان ما ترى من البهاء...

وأبو الحجاج يوسف هذا هو الذى بنى باب الشريعة الذى نقف أمامه.. بوابة عربية هائلة ارتفاعها خمسة عشر متراً، كانت الباب الرئيسى الذى يدخل منه رجال الدولة وأهل الحاجات من الناس. الشريعة هنا معناها الشارع لا الشرع. لا محل - كما قلنا - لترجمته بمعنى «باب العدالة» أو باب العدل (پويرتا دى لايخوستيثيا) لأن هذا الباب لم يكن يؤدى مباشرة إلى الجامع (وهو مجلس القضاء أو المحكمة) وإنما هو يؤدى إلى وسط مباني الحمراء، إلى الميدان الواقع بين القسم العسكرى من مبانيها (الأبراج والمحارس) والقسم المدنى (المساكن والحدائق وإدارات الدولة وما إلى ذلك).

من ممر جانبي نصل إلى بوابة أخرى تسمى اليوم باب النبذ. اسم حديث

طبعاً، من غير المعقول أن يطلق المسلمون هذا الاسم على باب من أبواب مدينتهم . . .

السبب في ذلك الخطأ الشنيع يرجع إلى خطأ في القراءة. فقد كان الأندلسيون يسمون هذا الباب باب الحمرة فجاء رجل وقرأه: باب الخمرة والخمرة هي النبذ.

كثير جداً من الأسماء التي تطلق اليوم على أجزاء من الحمراء أسماء حديثة. بعضها أيضاً عامي ابتكره ناس أو أدلاء لا يعرفون عن الحمراء شيئاً، وذلك أمر كثير الحدوث فيما يتصل بالآثار: يضع لها العوام أسماء تتفق مع تصورهم ثم تصبح هذه الأسماء أعلاماً تسجل في الكتب، كما نقول نحن: «تمثال شيخ البلد»، أو «مصطبة فرعون» أو «أبو الهول»، وما إلى ذلك . . .

نصل إلى ميدان فسيح يسمى ميدان الجب (الإلخبي)، أي ميدان صهريج الماء. الصهريج لا زال باقياً، نجده في نهاية الميدان تحت الأرض. حولوه إلى «بوفيه» للماء، الوحيد من نوعه في العالم. لو شئت أضافوا إليه شيئاً من السكر وقليلاً من شراب الينسون.

على يميننا نجد مبنى حديثاً، ذلك هو قصر شارل الخامس. أراد بعض حاشيته أن يتقرب إليه فزعم أنه سيبنى له قصراً أجمل من قصور العرب. هدموا جانباً عظيماً من قصور الحمراء وأقاموا بناءهم. دخله الملك وألقى نظرة ثم خرج، ولم يعد. . كان على حق. التحفة التي أنشأوها لم تكن إلا ميدان مصارعة ثيران. وقف البناء عند الدور الأرضي وجزء من الدور الثاني. يستعملون جزءاً منه إدارة للحمراء، من هنا تأخذ تذكرك لزيارة القصور. .

على يسارك تجد القصبة: مجموعة من الحصون والأبراج تقوم على حافة الجبل، كل قطعة منها آية من آيات الهندسة العسكرية. هذا هو القسم الحربي من مباني الحمراء. .

فالحمراء لم تكن قصوراً فحسب، وإنما كانت قصوراً وحصوناً ودواوين. وهي لهذا تنقسم بوضوح إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول هو الذي تراه على يسارك إذا دخلت، إنه يسمى القصبه. القصبه في نظام تخطيط المدن الإسلامية جزء من البلد يختارونه دائماً على مرتفع وينشئون فيه حصناً داخل أسوار البلد. في هذا الحصن يقيم الجند والقادة ويخزن السلاح والذخيرة وزاد احتياطي من الحبوب وعلف الخيل. إذا اقتحم عدو أسوار البلد لجأ أهله إلى القصبه - أي الحصن - واستمر الجند في الدفاع. لا تجد في المغرب والأندلس بلداً دون قصبه.

والقسم الثاني من الحمراء خاص بالمباني العامة: مجالس المشاورات، وقاعات جلوس السلطان، واستقبال الضيوف، والجامع، وما إلى ذلك. . .
والقسم الثالث متصل بهذا، وهو القسم الخاص: دور السلطان وأهله وخدمه وحرمة. . .

بين القصبه والمباني العامة والخاصة يفصل ميدان الجب.
وبين المنشآت العامة ودور السلطان يفصل بهو قمارش.

ولا تقتصر الأبراج والتحصينات في الحمراء على القصبه، لأن الحمراء في مجموعها كانت حصناً، ومن ثم فإن الأبراج تقوم على كل قسم فيه. بعد أن تفرغ من زيارة الباقي من قصور الحمراء ستجد مجموعة أخرى من الأبراج.

والباقي من قصور الحمراء يطلق عليه اليوم في جملة «القصر العربي»، ونحن ندخل إليه من ممر صغير إلى جانب قصر شارل الخامس. ممر أشبه بالمنزل يؤدي بك بعد دهليز قصير إلى أول ما تلقاه اليوم من قاعات الحمراء، قاعة المشور.

لم يكن أهل غرناطة يدخلون من هنا، لأن القاعة المعروفة الآن بالمشور كانت وسط سلسلة طويلة من القاعات والأبهاء. كانوا يدخلون من باب في آخر ميدان الجب، فإذا دخلوا منه أفضوا إلى بهو واسع مهجور

يسمى اليوم بهو ماثشوكا. ماثشوكا هذا كان المعلم المكلف بأعمال النجارة في قصر شارل الخامس. استعمل البهو مخزناً لأخشابه فهدمه، ونسب إليه. إليه أيضاً ينسب برج لا زال قائماً عند حافة البهو.

قبل هذا البهو كان يوجد مسجد صغير لا زالت آثاره باقية، لا بد أن المعلم ماثشوكا قضى عليه هو الآخر.

بعد ذلك نصل إلى المشور. هنا يبدأ لقائنا مع الباقي من فن الحمراء .

والمشور مبنى - أو جزء من مبنى ، كما هو الحال في الحمراء - لا يخلو منه قصر ملكي في المغرب.

إنه قاعة - أو قاعات - كانت تخصص أول الأمر لاجتماع السلطان برعيته لينظر في ظلاماتهم، ثم أصبح بعد ذلك يخصص لاجتماع السلطان بوزرائه ورجال دولته.

مَشَوْر الحمراء كان مخصصاً لاجتماع السلاطين برعاياهم، ويذكر ابن فضل الله العُمري - وهو معاصر لبني الأحمر، إذ عاش وكتب في القرن الرابع عشر الميلادي - أن السلطان كان يقعد للناس فيه يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وكان يحضر هذا المجلس معه أولاده ونفر من قرابته ورجال حاشيته. وقد تم إنشاء هذه القاعة سنة ١٣٦٥، بهذا تشهد أبيات لابن زَمْرَك شاعر الحمراء. نظمها مهنثاً للسلطان محمد الغني بالله بالفراغ منها، إنها من أجل ما نظم شعراؤنا في وصف المباني والمنشآت.

إنها تتناول الحمراء كلها، وأنت جدير بأن تقرأها كلها، فقد أتانا بنصها شهاب الدين أحمد بن محمد المُقَرِّي في كتابه المبدع «أزهار الرياض» (ج ٢ ص ٦٥ وما يليها). أبيات كثيرة من هذه القصيدة تجدها منقوشة على جدر الحمراء وأعمدتها، ومطلعها:

سَلِ الأفق بالزهر الكواكب حالياً فإني قد أودعته شرح حالياً
وأبياته التي يصف فيها قاعة المشور هي هذه، أوردها لأنها الوصف

الوحيد الباقي بين أيدينا لهذه القاعة الفريدة كما كانت عندما فرغت من
انشائها يد الفنان :

به البهو قد حاز البهاء، وقد غدا	به القصرُ آفاقَ السماء مباهيا
وكم حُلة جلَّلتَه بحلَّيها	من الوُشَى تُنسى السابريُّ اليمانيا
وكم من قسَى في ذراه ترفَّعت	على عَمَدٍ بالنور باتت حواليا
فتحسَّبُها الأفلاكُ دارت قسيُّها	تُظلُّ عمودُ الصبح إذ لاح باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة	فطارت بها الأمثال تجري سواريا
به المرمر المجلو قد شَفَّ نُورُه	فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالفها	على عِظم الأجرام منها لآليا

وإذن فقد كانت في سقف هذه القاعة قبة تقوم على عمد من المرمر في
وسطها. وكانت هذه القبة تقوم على قسَى - أي أقواس صغيرة - تزينها
شبابيك من الزجاج الملون، إذا نفذ منها الضوء خيل للإنسان أنها لآلىء .

هذه القبة قد زالت الآن ، لأن الذين استولوا على الحمراء أرادوا أن
يحولوا هذه القاعة إلى كنيسة صغيرة أو مصلى، فأزالوا القبة وسدوا فتحتها،
ووضعوا منصة معترضة مرفوعة على عمد ليقف القس فوقها، وأزالوا كل
الرَّليج (القاشاني) الجميل الذي كان يغطي الحائط الأيمن إلى ارتفاع نحو
متر، ثم أزالوا كل النقوش التي كانت تزين ذلك الحائط، وتبينوا بعد ذلك
أن المكان لا يصلح للمصلى، فتركوا القاعة على هذه الهيئة الشائثة. وفي
تاريخ متأخر وضعوا رَنك (شارة) شارل الخامس على الحائط الأيمن، وفتحوا
نوافذ كبيرة تطل على ما يعرف الآن ببهو ماثُوكا.

ولا زالت الناحية اليسرى من هذا المشور كما هي ، وهي وبعض
السقف هما كل ما بقي من هيئتها الأولى.

وفي الممر الذي تخترقه في طريقك إلى المشور، على اليمين محراب
جميل بارع الزخرفة، هو بقية مسجد صغير كان يقوم في ذلك الموضع .

ومن المشور تفضى إلى قاعة صغيرة تسمى اليوم القاعة المذهبة (كوارتو دورادو) ، ويمكن الدخول أيضاً إلى هذه القاعة من مدخل صغير على اليمين قبل أن تدخل المشور .

ومدخل هذه القاعة غاية فى الجمال ، فهو يتألف من بوابة زخرفية بالغة الرقة تقوم على عمودين من الرخام ، ويلى هذه البوابة باب القاعة تزيينه من أعلى باكيتان توأمتان كأنهما مشربيتان أنيقتان من الجص المحرم ، وزخارف هذا الباب منقوشة بالذهب ، ومن هنا جاءت تسمية القاعة المذهبة .

وهذه القاعة المذهبة تؤدي بك إلى بهو مكشوف يسمى البهو المذهب ، وليس فيه من الذهب شىء ، وإنما هو أشبه بقاقل بين ما مررنا به من أجزاء القصر وما يليها ، وتلك ميزة من ميزات عمارة الحمراء : بعد كل مجموعة من الغرف والأبهاء يقوم بهو مكشوف ، لأن الهواء والشمس وزرقة السماء جزء من التكوين الفنى للحمراء . .

هذا البهو فقد الكثير من زينتته وجمالته : جدرانها الآن عارية من يمين ومن شمال ، النافورة التى كانت تزيينه نقل معظمها إلى حديقة دار عائشة (داراشا) التى سراها بعد قليل .

لم يبق من هندسته القديمة إلا مدخل قاعة قمارش الذى تراه أمامك . إنه مدخل عظيم يذكرك بمدخل قصر إشبيلية . يطول بنا الأمر لو أخذنا فى وصفه قطعة قطعة ، فها هو أمامك بياضه الصغيرين وجداره المتسع الذى عرف الفنان كيف يحيله إلى معرض للنقوش والزخارف من كل هيئة . فوق كل من البابين ترى شرفة من عقدين زخرفيين صغيرين يقومان على أعمدة رفيعة من الرخام . وأعلاه شمس (أى مظلة) عظيم من الخشب .

من بابى هذا المدخل تفضى إلى غرفة صغيرة تسمى غرفة قمارش .
غرفة مثقلة بالزخارف ، نموذج لما سيتكرر منذ الآن أمام بصرك فى الحمراء . . أمام هذا الحشد الهائل من الزخارف — الشبهة بالدنتلا — التى

تريح العين وتتعب الفكر ، تشعر وكأن أفكارك تتلاحق في سرعة . تصبح
هي الأخرى دنتلا . . .

بعد ذلك تصل إلى علم من أعلام الفن الأندلسي ، بل العالمي : بهو
قمارش . .

للمرة الأولى في تاريخ علم الجمال يوفق البشر إلى تنسيق رائع من :
الرخام ، والحجر ، والجبس ، والخشب ، والماء ، والخضرة ، والزهور ،
والسمك ، والشعر . . .

هذه كلها تتجمع في يد الفنان الخالق فينشئ وحدة جمالية فريدة في
بابها ، قاس الفنان كل شيء فيها وقدره بمقدار . .

البهو مستطيل ينتهي كل من طرفيه بسبعة عقود غاية في الرقة والخفة ،
هذه العقود تقوم على عمد رقيقة من المرمر . .

العقود القبلية (الجنوبية) تحمل طابقتين صغيرين : الأول منهما له نوافذ
بسيطة تحمل عقوداً من الخشب الملبس بالجبس أرق من الأولى .

تحتل وسط الفناء كله بركة مستطيلة كأنها مرآة يسبح فيها سمك الزينة ،
على جانبيها — من اليمين ومن الشمال — صفان من شجيرات الريحان .

وتزين جدار الوجهة الشمالية أبيات من شعر ابن زمرك من قصيدة قالها
لمناسبة المولد النبوي الكريم والفراغ من إنشاء هذا الفناء . . كان ذلك سنة
١٣٦٩ أيام السلطان محمد الغني بالله . .

ينبغي أن تتأمل هذا البهو عندما يكون خالياً من الناس ، مع الصباح
الباكر مثلاً ، فقد أنشئ ليخلو فيه السلطان إلى نفسه أو إلى وزرائه ورجال
دولته . نعم إن هذا البهو هو الفاصل بين القسم العام من مباني الحمراء وقسمها
الخاص ، ولكن هذا الجزء العام نفسه لم يكن مباحاً لكل الناس ، إنه مكان
خلوة أيضاً . خلوة للتفكير والتدبير ، وهذا التألق الذي تراه هدفه التسمية
عن النفس ، إنه إطار فني تطمئن إليه الروح ويصفو معه الخيال .

هنا تختلف قصور الحمراء عن مثيلاتها من القصور الملكية التي تعتبر آثاراً تاريخية وفنية . قصور قرساي مثلاً أنشئت ليتباهى بها أصحابها على الناس . أنشئت لتبهر عقول الزائرين . أما قصور الحمراء فلم تنشأ إلا لأصحابها . لم يكن المقصود أن تصبح معارض في أيامهم أو متاحف من بعدهم . إنها كصورة رسمها فنان لنفسه ، فيها ذلك الإخلاص الذي يكون بين المرء ونفسه والصفاء الذي يلتمسه الإنسان بعيداً عن الناس .. هذه القصور أنشأها خمسة أو ستة من السلاطين ، أضاف كل منهم شيئاً يوافق مزاجه . كل شيء هنا مفصل على مقياس رجل واحد .

الأعمدة والأقواس صغيرة رقيقة كأنها لنماذج مصغرة لا للمباني نفسها . لهذا تبدو الحمراء في أجمل صورها على « الكارت پوستال » . المادة التي صنعت منها هي أيضاً رقيقة هشة ، معظمها خشب وجبس وقاشاني . لم يحدث أن صاغ الإنسان هذا الجمال كله من مواد بهذا الرخص . في قرساي مثلاً يرجع معظم الجمال إلى الذهب والفضة والرخام والبلور والكريستال والأخشاب الغالية .

أضاف العصر الحديث أشياء كثيرة إلى الحمراء لجعل منها شيئاً سياحياً . عندما تفتح أبواب الحافلات لتصب عشرات السائحين ليجوسوا في هذه المخادع تموت الحمراء : ينخيل إليك والناس يروحون ويحيئون ويلتقطون الصور أنك في مسرح ، وهذه مناظر على القماش . عندما تتأمل بهو قمارش وترى ظلال الأعمدة في الماء ينخيل إليك أنها محمولة على الهواء ، هذا هو جو الشعر الذي أراده الفنان . لهذا ينبغي أن تكون هناك وحدك . .

تحت الأقواس البحرية (الشمالية) باب تنفذ منه إلى بهو صغير يسمى بهو الباركا ، أي بهو القارب . هذا اسم حديث ، لأن سقف هذا بهو احترق سنة ١٨٩٠ فسقفوه بشيء في هيئة القارب المقلوب . ما يقوله الأدلاء من أن اسم « الباركا » مشتق من « البركة » العربية غير صحيح . في هذا بهو تجد من الزخارف الهندسية ما يحتاج تأمله لأيام متوالية . .

من هنا تنفذ إلى قاعة قمارش ، تسمى أيضاً قاعة السفراء . قمارش جمع إسباني للفظ قُمْرِيَّة ، وهي المنور الصغير المزين بالزجاج الملون . الاسم العربي للقاعة إذن : قاعة القمریات . لا تدري أين تستقر عينك : الجدران ، كلها نقوش رائعة من أعلى إلى أسفل ، وحدات زخرفية صغيرة متماسك بعضها مع بعض في تناسق شجي . أنشودة حلوة من الألوان والخطوط والدوائر والمثلثات . الشرفات واسعة ، حافاتها أقواس أصغر ، أعلى القاعة كله شرفات صغيرة جميلة : تلك هي القمریات . أنت الآن تحت برج من أكبر أبراج الحمراء ، برج قمارش . تحت القمریات ترى شريطاً من الكتابة كله دعاء متكرر لمنشيء القاعة : عز لمولانا السلطان المجاهد أبي الحجاج يوسف . .

من هنا ينبغي أن تمضي إلى حمام الحمراء . إنه لا يتبع ذلك القسم العام من مباني الحمراء ، ولكن أيسر طريق إليه الآن يأخذ من هذه الناحية . الحمامات جزء من حياة العربي . قصور فرساي كلها ليس فيها حمام واحد . لويس الرابع عشر لم يستحم في حياته إلا مرة واحدة ، أقسم بعدها لا غسل جسده أبداً !

هذه أجمل حمامات يمكن أن تتصورها . يقص عليك الأدلاء عجباً : يقولون لك مثلاً أن الاستراحة المؤدية إلى الحمام كانت مخصصة لرقص النساء ، وأن موسيقيين ضريرين كانوا يعزفون في الشرفة العليا . لا تصدق ذلك . هذه استراحة . رائعة حقاً ، ولكنها لا تخرج عن كونها استراحة . بعد أن يخرج السلطان من الحمام الساخن يجلس هنا ساعة قبل أن يخرج . الحمام نفسه تحفة : ماء ساخن وماء بارد ، هناك ماسورة تبعث في الجو عطر المسك ، هناك بانيو صغير وبانيو كبير . ماذا اخترع العصر الحديث زيادة على ذلك ؟ . .

من هنا نمضي إلى بهو السباع . .

ليس في أبهاء الحمراء ما هو أجمل منه ولا أشهر . صورته معروفة في الدنيا كلها انه كوجه أبي الهول . إنه صغير رقيق حتى ليخيل إليك أنه بني

ليعيش يوماً وليلة . البهو صغير ، ولكن الفنان عرف كيف يخيل لك أنه فسح : أعمدة رقيقة تحمل أقواساً أرق على الجوانب ، في الطرفين أخرج المعمارى خيلتين تقومان على أعمدة رقيقة كأنها أشجار شابة . كل ذلك محمل بالزخارف الجصية الملونة .

تحت البواكى مخادع أشهرها مخدع بنى سراج ، يقابله مخدع الأختين . المخدعان آيتان فنيتان . الجمال الذى فيهما لا يوصف ، يقولون لك إن السلطان قتل بنى سراج جميعاً فى تلك القاعة وجرى دمهم إلى الفناء ، ويشيرون إلى بقعة وسط حوض الماء ويقولون : وهذا هو الدم ! أساطير ردها خصومنا ورددها متعصبون من أمثال شاتوبريان . .

وتختلف قاعة الأختين عن قاعة بنى سراج ، فإن الأولى أشبه بشرفة واسعة تشرف على الحديقة ، والثانية (قاعة بنى سراج) غرفة مقفلة أصلح ما تكون للنوم . وبالفعل فإن سجالها يتبدى لك كاملاً إذا أنت استلقيت على ظهرك ونظرت إلى السقف . هنا يخيل إليك أنك تنظر إلى فص خاتم من داخله . .

أما قاعة الأختين فتحيط بها الشرفات . الشرفة الرئيسية يسمونها منظره داراشا ، أو لينداراشا . الكلمة الأولى يقولون إنها تحريف لدار عائشة ، والثانية لعين دار عائشة . عين هنا معناها المنظره ، المكان الذى ينظر منه الإنسان . كانوا فى الأندلس ينطقون عائشة : عاشة . من هى عاشة هذه ؟ أظنها أيضاً أسطورة . على أى حال كل مخادع الحمراء تحس فيها بظلال المرأة . هذه القصور كلها تكلمها النساء . إنها علب جميلة لحفظ الجواهر . .

نحن نرى الحمراء عارية : لا أثاث ولا سكان . كلما وقفت فى قاعة بنى سراج أو فى قاعة الأختين خيل إلى أننى داخل صندوق مجوهرات أو علبه حلوى . فى أحيان أخرى أحس أننى قد اقتحمت مخدعاً على صاحبه ، وأننى لهذا ينبغى أن أبادر بالخروج . يستولى على هذا التوقير الذى نشعر به

— معاشر العرب — لحرّم الناس ، فهذه مخادع نوم ومجالس راحة لم ينحدر ببال صاحبها أنها ستكون في يوم ما مكاناً عاماً .

المخادع خالية ، ولكن الخيال يكمل الصورة : هنا كانت وسائل ومساند تدور مع الجدران . هذه الأرض كانت تغطيها السجاجيد ، وهنا — عند الشرفات التي تطل على الحديقة — كانت أرائك . إذا أنعمت عينيك أحسست وكأن الحياة تدب فيما حولك : نساء الحريم غاديات رائحات ، همسن الرقيق يملأ جوانب القاعة ، ويتصاعد نحو هذا السقف المثلث بالزخرفة ويضيع هناك كما يضيع كل همس . ويسود الصمت . .

الصمت هو الساكن الوحيد هنا . صمت رهيب يزيده خريف الماء عمقاً ورهبة . الماء ينبعث من نافورة في وسط البهو تستند إلى اثني عشر سبعم من الحجر تجم الماء من أفواهاها . هذه السباع هي أقل ما في هذه القطعة الفنية جمالا ، ولكنها أشهر ما فيها . الشهرة لا تتمشى دائماً مع الحقيقة والجمال . . في الوجهة القبلية تجد قاعة الملوك ، إنها أشبه بدهليز . قف في أحد طرفها لترى جمالها : أقواسها وبواباتها تتوالى أمامك مثقلة بالزينة .

شيء آخر يميز هذه القاعة : تصاوير في السقف ، تصاوير ملونة على الجلد داخل إطارات تمثل صوراً من الحياة في القصر . واحدة منها تمثل عشرة رجال جالسين في ملابس عربية غرناطية فاخرة . يقولون إنهم ملوك ، من هنا جاء اسم القاعة . من طريقة التصوير يستنتجون أن المصور إيطالي ، وأنه قام بهذا العمل خلال الثلاثين سنة الأخيرة من تاريخ غرناطة العربية .

قبل أن نخرج إلى الحدائق لا بد أن نزور السجن . .

بضع درجات تهبط بها إلى ما تحت القصور . دفعة واحدة تجد نفسك في عالم السدود والقيود . ظلام ورطوبة وأقبية لا ينفذ الضوء إليها إلا بشق النفس .

هذا هو الوجه الثاني من الحياة في الحمراء . هناك لم يكن إلا صورتان

للحياة : إما أن يكون الإنسان سلطاناً أو سجيناً ، بين هذين لا يوجد وسط ،
إما الجنة كلها أو الجحيم كله . لهذا كان النزاع على السلطان قاسياً مريراً .
لنخرج من السجن ، فإن مجرد زيارته لا تسر النفوس . .

* * *

بعد بهو السباع ببضعة ممرات نخرج إلى الحدائق والرياض .
لم تكن هذه كلها في الأصل حدائق أو رياضاً . كانت هناك أجنحة
أخرى تهدمت . كانت المباني تمتد حتى جنة العريف ، وهي أمامك في
أعلى التل .

على يسارك تجد خيمة لطيفة تسمى البرطال : خيمة باوعة الجبال تقوم على
خمسة أقواس ، أمامها بركة مستطيلة تنعكس فيها صورة البرطل كأنها مرآة ،
شرفات البرطل تطل على غرناطة كلها ، من هنا تستطيع أن تتأمل البلد
أمامك من بعيد ترى التل الذى يقوم عليه حى البيازين .

والبرطل لفظ اسباني معرب انه Portal أي البوابة أو الباب .
إلى جانب البرطل مسجد أو مصلى صغير، آية في الجمال . إنه مسجد
لرجل واحد . .

الحدائق التي تحيط بك روعة في هندسة البساتين : إنها درجات بعضها
فوق بعض ، تنسيك ما عسى أن تكون قد سمعته عن حدائق بابل المعلقة . .
في طرف سلسلة المباني هناك برجان : برج الأسيرة ، برج الأميرات .
الدور الأول من كل منهما أشبه بقاعة استقبال كلها جمال وفتنة . فوق ذلك
يقوم البرج .

نتنقل إلى رائعة أخرى من روائع الفن العربي الغرناطي : حدائق جنة
العريف . .

إنها تمثل لك فلسفة العرب في الحدائق في أجمل صورها ، فإن للحدائق
طرزاً وفلسفات تنبع من نظرة أهلها إلى الحياة . .

الحديقة الفرنسية (فرساي ، تريانون ، الميزون ، التويلري) قطع للزينة أقيمت لتبهر العين : زهور وأشجار مهندسة مرتبة مختلفة الألوان . . الحديقة اليابانية تجمع لك كل مناظر الطبيعة في أصغر مساحة : شلال ، قنطرة خشبية ، تل ، مجرى ماء . . كل شيء صغير في حجم الكارت پوستال . . .

الحديقة الإنجليزية مرج أخضر في وسطه البيت . إنها حديقة للسكن . من هنا جاء طراز المدن المسمى بالجاردن سيتي .

أما الحديقة العربية فهي خلوة ومعتزل : أسوار عالية وأشجار باسقة تفصل الحديقة عن تيار الحياة . خلف هذه الأسوار يجلس صاحب الحديقة خالياً بأهله أو وحده يتأمل جمال صنع الله أو يتحدث مع صديق . الماء جزء لا يتجزأ من الحديقة . خريز الماء يجعل الصمت أعمق . صفحة الماء تعكس صورة السماء .

حداائق جنة العريف تصور ذلك كله أروع تصوير . . تصل إليها عن طريق يسير بين صفين من الأشجار الباسقة ، هذا الطريق يبعد بينك وبين الحياة شيئاً فشيئاً . ثم تصل إلى الحديقة نفسها : ممرات ومماش وخمائل ذات بوابات كلها من ورق الشجر . أحواض الزهر موزعة توزيعاً رائعاً . بين هذه الخمائل مقاعد لتجلس وتتأمل . نافورات الماء في كل مكان ، وخريزها تسمعه من كل اتجاه . إلى جانب سيمفونية الحضرة وألوان الزهر ، هناك سيمفونية الماء .

نصل إلى ما يسمى بالقصر الكبير . إنه خميعة عربية من دور واحد بنى عليها ملوك الإيبان دوراً ثانياً . الخميعة درة من الزينة والزخرف . تخرج منها فترى شيئاً عجيباً . نافورة لطيفة ذات حوض مستدير ، ثم بركة طويلة مستطيلة . من الجانبين ينبعث الماء ليصب في البركة بتقدير عجيب . الماء يبدو وكأنه أقواس نصر رقيقة تتألق تحت أشعة الشمس . على الجانبين زهور مختلفة الألوان خلفها صفان من أشجار الحور الصغيرة . هنا يتمثل لك في

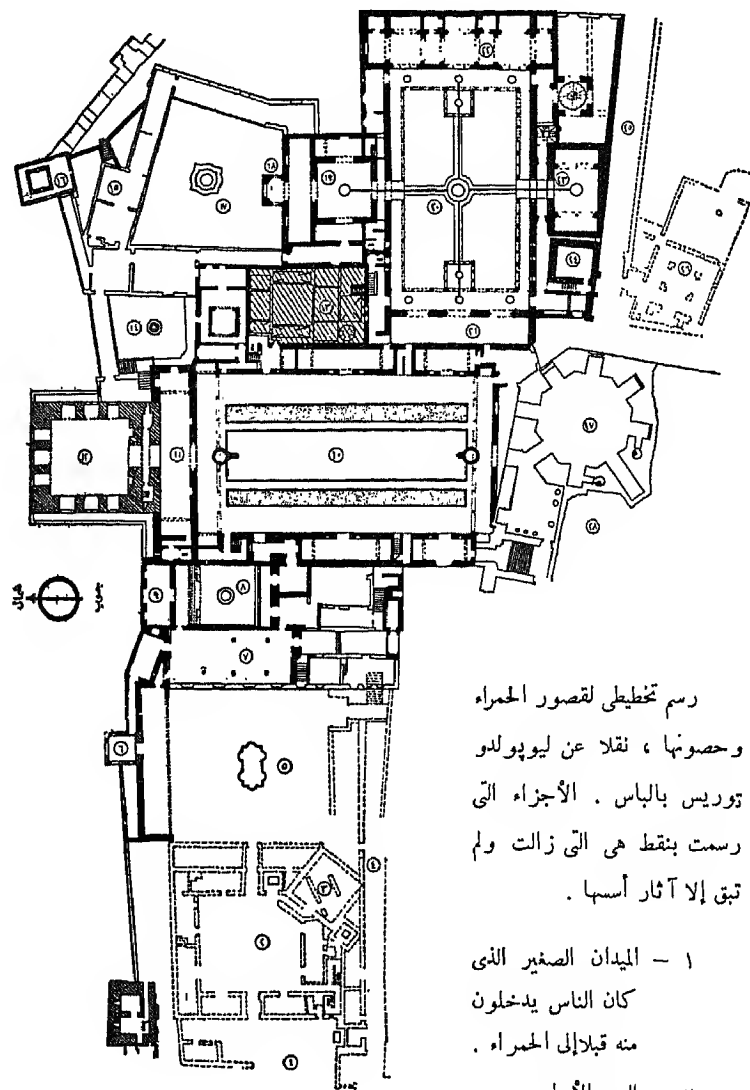
أجلى صورة إبداع الفنان العربي في الجمع بين الخضرة والماء والزهر. عطر
الريحان يملاً الجو، خريير الماء يملاً الأسماع. تلك هي الجنة، جنة العريف
وغير العريف. .

في نهاية ذلك الممر الزهري المائي تجد الحميلة الثانية، إنها تشرف على
الحمراء ومن ورائها غرناطة. من هنا تراها كلها. . .
في ناحية أخرى - على اليمين - تجد سلماً عجيباً أجرى الفنان الماء على
جانبه وفي وسطه: مكان الموضع الذي تضع يدك عليه من الدربزين قناة
ماء. .

هذا الماء كله ينحدر من جبل الثلج، سَيْرَانِيفادا. .
لم يحدث أن استعمل الإنسان الماء كعنصر زخرفي على هذه الصورة. .
لم يحدث أن وصل إلى هذا السحر من الخضرة والزهر والنافورات. .
ولكنه الذهن العربي والإحساس العربي. .
هذا كله صَنَعَهُ الفنان والمهندس والعالم والشاعر. .
وضيعة الملوك. .
ولا غالب إلا الله. .

هذه العبارة شارة بنى نصر، كتبوها في كل صورة يتخيلها العقل:
على كل شبر من البناء، على كل درع، على كل سيف، على كل ثوب. . .
لأنها لحن طويل يتردد في كل ركن من أركان الحمراء، يتجاوب صدها
في كل زاوية. .

كانوا يقولونها إذا انتصروا، تواضعاً لله. . . .
وكانوا يقولونها إذا انهزموا، أملًا في نصر قريب. . . .
قالوها يوم أنشأوا حصون الحمراء وأمنوا فيها على العروبة والإسلام. .
وقالوها عندما غلبوا على أمرهم وأسلموا الحمراء وغرناطة. .
ولا غالب إلا الله. .



رسم تخطيطي لقصور الحمراء
وحصونها ، نقلا عن ليوبولدو
توريس بالباس . الأجزاء التي
رسمت بنقط هي التي زالت ولم
تبق إلا آثار أسسها .

١ - الميدان الصغير الذي

كان الناس يدخلون

منه قبل إلى الحمراء .

٢ - البهو الأول .

٣ - أطلال جامع الحمراء .

٤ - شارع مهاد كان يلي الأسوار .

٥ - بهو ماتشوكا .

٦ - برج ماتشوكا .

- ٧ - المشور ، وهو أولى القاعات الباقية الآن .
- ٨ - بهو القاعة المذهبة .
- ٩ - القاعة المذهبة .
- ١٠ - بهو قمارش أو بهو الريحان .
- ١١ - قاعة الباركا (القارب) .
- ١٢ - قاعة قمارش .
- ١٣ - الحمام .
- ١٤ - بهو المشربة (لاريخا) .
- ١٥ - الجناح الذى بنى لكارلوس الخامس (شرلكان) .
- ١٦ - برج متزين الملكة (بينادور دى لارينا) .
- ١٧ - حديقة دار عائشة (داراشا) .
- ١٨ - منظره دار عائشة (ميرادور دى داراشا) .
- ١٩ - قاعة الأختين .
- ٢٠ - بهو السباع .
- ٢١ - قاعة المقرنصات (سالادى لوس موكارايس) .
- ٢٢ - قاعة ملوك العرب .
- ٢٣ - قاعة بنى سراج .
- ٢٤ - الجب .
- ٢٥ - الفصيل (فوسو) .
- ٢٦ - الروضة .
- ٢٧ - مصلى قصر كارلوس الخامس .
- ٢٨ - قصر كارلوس الخامس .

مُفْتَرَق الزَّمان

بعد الحمراء وجنة العريف يشعر الإنسان أنه اكتفى . .
هذا القدر الكبير الذى استوعبه من الفن والجمال يحتاج إلى أسابيع كثيرة
حتى تتمثله النفس والروح ، ونحن لا نزور هذه المعالم لنقول إننا زرناها ،
بل لتصير جزءاً من نفوسنا وكياننا .

وهذه المنشآت تبدو صامته ، ولكن صمتها ناطق بليغ يهز النفس هزاً .
كالدمع الذى ينحدر على وجنة المحزون الكتوم ، يهز نفسك على صورة
لا يبلغها المعلن بالصياح المجهش بالبكاء . . .
وما زرناه أقل بكثير مما لم تسعدنا الظروف بلقياء . .

فهذه الجزيرة كلها — من أقصى الشمال عند بَنَسْبَلُونَة ووَشَقَة وتُطِيلَة إلى
الطرف القصى الجنوبي عند جبل طارق وجزيرة طريف والجزيرة الخضراء ،
ومن مَيُورُوقَة فى البحر إلى لشبونة فى البرتغال — هذه الجزيرة كلها موشاة
بآثارنا ، لا تخلو منها مدينة بل قرية . ولكنها من ذلك النوع الحزين من
الآثار : بقايا وأطلال وخرائب تجدها مطمورة تحت البيوت حيناً ، أو معزولة
وحدها فى البرية خارج البلاد أحياناً. نجدها هناك وحدها ، كأنها قطرات دمع
تجمدت على صفحة الأندلس . دموع الزمان على المجد الذى كان . .

إن الأندلسى لم يبك نفسه ولم يعرف الدموع . ظل إلى اليوم الأخير
باسلاً في الميدان، يضرب ويضرب . ما يقال من أن الحضارة أفسدت طباع
أهل الأندلس غير صحيح ، عنصر الرجولة في العربى سليم صاف لا يؤثر
فيه ترف . قد يقبل على النساء ومتاع الحياة ، ولكنه رجل في ميادين الرجال .
قبل أن تستط غرناطة بأيام كان رجالنا في الميدان يحاربون ، كانوا يناضلون
وملوكتهم يفوضون للتسليم . لم يكسب مغلوب احترام الغالب كما كسب
الأندلسى احترام الإسبانى .

إذن كيف ضاع الأندلس ؟ . .

تعال معى . أريد أن ترى بعينيك التاريخ كيف سار . . .

* * *

أنت تذكر حى البيازين الذي يقع على التل المواجه لتل الحمراء . . .
ها نحن نصعد سفحه ونتخلل الدروب بين بيوته حتى ننتهى إلى شرفة
طبيعية كأنها ميدان صغير ، يسمونها بثلاثيتا دى سان نيكولاس (رحبة
القديس نيقولا) .

أمامنا على قمة التل المواجه ترى حصن الحمراء وقصورها . . .
في قاع الوادى يجرى نهر حد آرّه ، كأنه قناة أو ترعة صغيرة . .
هذا النهر المتواضع كان كافياً لتشجيع الطامعين في العرش على الثورة
على السلطان القائم في الحمراء . .
وفى كثير جداً من الحالات كنت تجد سلطاناً هنا وسلطاناً هناك . .
والحرب دائرة . .

وكلما أحس واحد منهما بالضعف أسرع إلى الإسبان وطلب عونهم على
أخيه ، فاشترطوا أن يعطيهم البلد الفلانى أو الأرض الفلانية . .
وفعل خصمه مثله ، وتضيع بلاد وتضيع أرض . .

وإذا لم يكن هنا نائر في البيازين كان في بلد آخر من بلاد مملكة غرناطة :
في مالتقة ، في وادی آش ، في لَوْشَة ، وتدور نفس المأساة . . .
وتضيع أراض وبلاد أخرى . . .

وفي هذه البلاد التي تضيع في المنافسات كان يسكن الألو ف من العرب
الطيبين ، ألو ف من الذين بنوا الحمراء وغير الحمراء . ناموا عرباً مسلمين ،
وباعهم السلطان أو النائر عليه في الليل وأصبحوا ليجدوا أنفسهم وقد حكم
عليهم بأن يكونوا غير عرب ولا مسلمين . لكي يظلوا عرباً كان عليهم أن
يخرجوا من ديارهم بالأهل والولد وما حملت الدابة الهزيلة إلى طرق ملأى
باللصوص والجنود ، كانوا يتخطفونهم ويقتلون الرجال ويبيعون النساء والأطفال ..
يا ولداه ! والجبايرة يتطاحنون : من منهم يلبس التاج ! . .

في أحد الشوارع الضيقة في البيازين وقفت عند نافذة حديدية واسعة .
من ورائها جلست فتيات صغيرات يعملن المفارش المطرزة ، في صبر وأناة
ترتفع الأيدي الصغيرة وتهبط بالإبر على القماش ترسم وتنمق . أثناء العمل ،
وفي شغل عن الناس ، كن يتحدثن ويتنادين : ماريا تيريزا ، ماريا كارمن ،
ماريا بيلار . .

الوجوه سمراء عربية ، نعمة الحديد رقيقة كحديث بلادنا . هنا أيضاً
كانت بنات غرناطة العربيات ينسجن ويطرزن . كانت أسماؤهن إذ ذاك
فاطمة ، وعائشة ، ومريم . دون أن يشعروا ، دون أن تتوقف حركة أيديهن ،
باعهن السلطان ، وأصبحن ماريات . . . رأيتن بالطرحة والجمار عبر
خمس قرون . . .

لا زال حي البيازين عربياً : الشوارع ضيقة ولكنها نظيفة ، البيوت
معظمها متواضع ولكنها بيضاء كالثلج . هنا يبيض الناس بيوتهم بأيديهم كل
أسبوعين . كما تغسل المرأة ثوبها تبيض بيتها ، بفرشاة ذات يد طويلة تراها
تعمل . في كل بلاد الأندلس وقراه ترى هذا المنظر اللطيف .

البيوت هنا كلها عربية الطراز : خلف جدار الباب نجد الفناء الصغير في وسطه النافورة ، قد تجدد حولها أصصاً من زهر الجيرانيوم . على الفناء تطل نوافذ البيت وشرفاته . المجتمع هنا لا زال أندلسياً . لا فرق بين الغنى وجاره الفقير ، كلهم إخوان ، كلهم متساوون كما كانوا على أيام العرب . بيت واحد أحب أن نراه قبل أن نمضى : بيت الجبّاس — أو الجبّيس بالنطق الغرناطي — اليوم يقولون : لا كاسا دل شاييس . .

دار عربية لطيفة يبدو لك بوضوح أن الذى بناها استلهم الحمراء وجنة العريف : نفس العمارة الرقيقة التى تقوم على عمد الرخام والعقود الصغيرة ، نفس الحدائق والأشجار والمياه ، كل ذلك فى صورة مصغرة . هذا المبنى رمموه وأصلحوه وجعلوه مقراً للمدرسة الأبحاث العربية فى غرناطة ، ليس فى الدنيا إطار أجمل من هذا المدرسة من هذا الطراز . . .

* * *

والسلطين سكان القصور والحصون ، ماذا كان حالهم ؟ إنك تتصور أن الذين أنشأوا قصوراً من هذا الطراز كانوا — لا بد — فى هدوء روحى ورخاء نفسى يسمحان لهم بالاستمتاع بهذا الجمال كله ، وإذا كانت ظروف الحرب التى عاشوا فيها لم تأذن لهم فى فرص الاستمتاع فإن هذه القصور والرياض كانت جديرة بأن تملأ نفوسهم راحة وأمناً ونبلاً .. وكيف يفكر فى شرّ رجل يتنقل بين أبهاء الحمراء ورياض جنة العريف ؟ وكيف يمكن أن يتصرّف ساكن هذا الفردوس تصرف الوضيع الحقير ؟ ذلك لا يخطر لك ببال . . .

واكن هذا الذى لا يخطر لك ببال هو الذى حدث وكان . . . فإن هذه القصور لم يسكنها إلا مروّع خائف ، أو قاتل مضرج اليد بالدماء . . .

هذه الأبهاء والقاعات التي تبعث الأمن والنبيل في نفس الجهاد ، لم تنفع هؤلاء التعمساء في شيء . . . شقى الفنان وتعب حتى صاغ درة غالية ، فتناولها الجبار وألقى بها في الوحل . . .

لم يأذن لنفسه في الاستمتاع بأجمل ما في الحياة : صفاء النفس ، وسلامة الضمير ، وسجال الطبيعة ، وعمل الفنان . . . كان مشغولاً عن ذلك بما تصور أنه أهم وأبقى : الملك ، والجاه ، والسلطان . . .

وكلامى هنا لا ينصب على أمير واحد من أمراء غرناطة ، بل على معظمهم ، فقد حلت بأغلبهم لعنة الخوف والقلق ولطمع في السلطان . . . وربما كان لبعضهم شيء من العذر . . .

فإن الظروف التي قامت فيها دولتهم وعاشوا فيها كانت أسوأ ظروف أحاطت بحاكم من حكامنا الماضين . . .

كانت عقدة الخلافة الأندلسية قد انحلت منذ نيف وواثي سنة : في الثاني عشر من ذي الحجة ٤٢٢ (٣٠ نوفمبر ١٠٣١) وقف كبير رجال قرطبة — أبو الحزم بن جمهور — في المسجد الجامع وأعلن نهاية الخلافة الأموية . كان قد يئس من العثور على أموى يستطيع أن يجمع الشمل ويتولى هذا المنصب الخطير بما ينبغي له من حزم وقدر . فند أن قام محمد بن هشام بن عبد الجبار حفيد الناصر ثائراً على عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر في ١٦ جمادى الثانية سنة ٣٩٩ (١٥ فبراير ١٠٠٩) ونادى بنفسه خليفة للأندلس وتلقب المهدي ، منذ ذلك اليوم وأهل قرطبة لم يغمض لهم جفن ولم يطمئن لهم جنب : ثورة تلي ثورة ، وانقلاب يلي انقلاباً ، وخليفة يروح وخليفة يجيء . . .

تسعة خلفاء توالوا في مدى عشرين سنة . بعضهم تولى مرتين وثلاثاً ، لا يكاد الواحد منهم يستقر في كرسيه حتى ينهض له منافس ، وتدور الحرب ويهلك الناس . . .

ومن سوء الحظ أن أحداً منهم لم يتمتع بشيء من خصال القيادة وصفات من تقوم على أكتافهم الدولات . .

وعندما يذكر الإنسان كيف أن جد هؤلاء الخلفاء عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام - المعروف بالداخل - دخل الأندلس وحيداً أو يكاد ، لا يؤيده إلا إيمانه وخلقه ، واستطاع مع ذلك أن يجمع الناس ويقيم الدولة . . عندما يذكر الإنسان ذلك يؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا يقوم على الإيمان والخلق وعزمات الرجال . .

رجل دخل بلداً غريباً عنه ، تفرق أهله في كل سبيل ، لا ينصره إلا نفر من مواليه ، ولا يملك إلا نحو مائتي دينار ، استطاع أن يجمع الشمل ويوحد الصفوف ويعز العروبة والإسلام وينشئ دولة يزهى بها تاريخ الحضارة البشرية كله . . .

ورجال أجلسوا على العرش إجلالاً ، والدولة من حولهم قائمة ثابتة الأركان ، والبلد فسيح فياض بالخيرات ، والناس يعمرون مدنه وحقوقه ملايين بعد ملايين . . .

وكل ما كان يطلب منهم أن يكونوا ذوى عقل وقلب وإيمان . .

ولكن ، لأمر في علم الله ، لم يتعرض للأمر منهم في هذه الفترة الحافلة بالأخطار إلا مساكين قعد بهم عن إدراك المقاصد ضعف العقل والقلب والإيمان . . .

وكانت ظروفهم إلى ذلك قاسية تتطلب رجلاً في عقل معاوية ، وحيلة مروان بن الحكم ، وجرأة أبي جعفر المنصور ، وقلب هارون الرشيد . . وانفرط العقد ، وأصبحت كل ناحية من نواحي الأندلس دولة . .

ولمح الفرصة الأعداء الرابضون في الشمال ، فلم يكذبوا أن بادروا ينتهزونها . .

وسقطت طليطلة وتوابعها سنة ١٠٨٥ ، أى بعد انفراط العقد بخمس وخسين سنة كلها حروب وويلات . .

وانحدر خط الدفاع الإسلامى من وادى دُوَيْرُهُ إلى وادى تاجُهُ إلى واديانة . .

ضاع أكثر من نصف شبه الجزيرة . .

صحيح أن النصف الشمالى كان موزعاً بين مملكتين نصرانيتين وعدد من الإمارات ، ولكن كل واحدة منها كانت وحدة سياسية ذات قوة ونظام ، يقوم على أمرها ملوك وأمراء ذوو بأس وطموح ، من ورائهم صفوف من الكهنة ورجال الدين يشحذون همهم ويدفعونهم إلى الأمام ، ومن وراء هؤلاء جميعاً البابوية تحفز فرسان النصرانية جميعاً على الإسراع إلى شبه الجزيرة للاشتراك في حرب المسلمين . .

وقد تدارك الله عروبة الأندلس وإسلامه في هذه الحنة بجاعة من أعظم من عرف تاريخ الإسلام من المجاهدين المخلصين ، أولئك هم المرابطون يقودهم علم من أعلام الإسلام وبطل من أبطاله هو يوسف بن تاشفين . .
لم يجاهد أحد في المغرب الإسلامى ابتداء من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى كما جاهد المرابطون . .

على أيديهم كسبنا معارك كبرى كانت كفيلة بأن تحسم الخطر وترد طمع الطامعين : الزلّاقة (١٢ رجب ٤٧٩ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦) وأقلّيش (١٦ شوال ٥٠١ / ٣٠ مايو ١١٠٨) وإفراغة (رمضان ٥٢٨ / يونيو ١١٤٣) وغيرها كثير . . وأبطال هذه الأيام الثلاثة الجليلة في تاريخنا هم على الترتيب : يوسف بن تاشفين ، وتميم ابنه ، ثم يحيى بن غانيّة . .

وفى سبيل الدفاع عن الأندلس استشهد من المرابطين نفر من خيرة المجاهدين : محمد بن الحاج ، ومحمد بن عائشة ، ومحمد بن فاطمة ، وأبو بكر ابن تافلويت . .

وبينما كان المرابطون في عنفوان الصراع زياداً عن الأندلس وأميرهم العظيم على بن يوسف يشد ظهورهم ويرمى جبهة الكفاح بالجحفل بعد الجحفل ، إذ بدأت طلائع ثورة الموحدين . وما هو إلا أن توفي على بن يوسف ، حتى احتدم الصراع الذي انتهى بزوال دولة المرابطين ، وقيام دولة الموحدين . .

وقبيل هذا الصراع الحزن ، وفي أثنائه ، ضاعت سَرَ قُسْطَة وإقليمها الواسع الذي كان يشمل حوض إبره كله (٥١٢ - ١١١٨) وانحدرت الجبهة إلى بلنسية وما يليها في الجنوب ، وفي ناحية الغرب ضاعت أقاليم واسعة تضم مدناً جليلة مثل قورية وقُلْمُريّة (كويمبرا في البرتغال) والأشبونة ، وهبطت الجبهة إلى ما بين الوادي الكبير والواديانه . .

وأصبحت قواعد الإسلام الكبرى : بلنسية ومُرسية وجيّا وقرطبة وإشبيلية وبَطْلَيْوُس (باداخوس) وباجه (بيجا ، في البرتغال) مكشوفة أمام الأعداء . . .

وحل الموحدون محل المرابطين في ميدان الشرف . .

وكسبوا انتصارات كبرى باقية على الزمان : مثل الأَرَك (٩ شعبان ١٥٩١ / ١٩ يوليو ١١٩٥) ، بل كادوا يستولون على طليطلة ويحسمون الداء في أيام أبي يوسف يعقوب المنصور الخليفة المجاهد العظيم . .

وبعد وفاة أبي يعقوب المنصور بدأت الكفة تشيل من جديد . .

وعلى أيام ابنه محمد الناصر بدأ الانهيار . .

وكانت هزيمة « العقاب » (لاس نافاس دى تولوزا) في منتصف صفر ٦٠٩ ١٧ يوليو ١٢١٢) .

وبعد محمد الناصر تصدعت دولة الموحدين . .

وفي خلال ٢٠ سنة فيما بين ١٢٣٠ و ١٢٥٠ سقطت تلك العواصم الكبرى كلها . . .

ضاعت قرطبة أم المدائن وقلب الأندلس ودرة الحضارة الأوروبية
خلال العصور الوسطى كلها سنة ٦٣٢ / ١٢٣٦ ..

وبعد سنتين (٦٣٥ / ١٢٣٨) سقطت بلنسية ..

وبعد ثلاث سنوات ضاعت شاطبة ، بلد الشاطبي شيخ الإسكندرية
وملاكمها الحارس ، ودانية بلد أبي عمر الداني من أعظم علماء القراءات في
تاريخ الإسلام ، وجيَّان بلد جمال الدين بن مالك صاحب الألفية (٦٣٩ /
١٢٤١) ..

وبعد سبع سنوات (٦٤٦ / ١٢٤٨) ضاعت إشبيلية عروس مدائن
الأندلس ...

ولم يضع بلد من هذه البلاد إلا بعد قتال مرير وحصار طويل ...

وفي أثناء هذا الانهيار المحزن هلك الألوف بعد الألوف ..

لم يستسلم أهل بلد من هذه البلاد إلا بعد أن بذلوا أقصى ما يستطيعون .
حتى الفقهاء وأهل العلم لم يترددوا في السير لأداء فريضة الجهاد ، واستشهد
منهم في سبيل الله نفر جليل نذكر منهم أبا علي الصديقي وأبا الربيع سليمان بن سالم
وكان عالماً تربت على يديه الأجيال ، وكانت سنة قد تخطت السبعين ، فلم
يقعد به الشيخ عن الخفوف إلى الجهاد ، وظل في المعركة يجمع الصفوف
وينادي المهزمين حتى أكلته السيوف عليه رحمة الله ...

وحاول نفر من المجاهدين أن يدفعوا بصدورهم السيل المتدفق ، فجرفهم
التيار . نذكر منهم محمد بن يوسف بن هود ، وكان بطلاً مقداماً ، ظل
يقطع الأندلس من بلنسية إلى ماردة والسيوف في يده حتى استشهد في قفار
المتشا - التي ذكرناها - على مقربة من حصن صغير كان يعرف بالبسيط ،
ومكان هذا الحصن اليوم بلدة كبيرة لا زالت تحمل اسمه (الباثيتي) قاعدة
مديرية كبيرة من مديريات إسبانيا اليوم ..

وفي أثناء هذا الطوفان جمع محمد بن نصر بن الأحمر ما بقي من المقاتلين

والفرسان واعتصم في غرناطة ، وحصنها وحصن مدائنها ، وظل وبنوه من بعده يجاهدون قرنين ونصف قرن من الزمان .
قد أكون قد كررت هنا بعض ما ذكرته في آنف الصفحات . . .
ولكن الحقيقة التي أريد أن أثبتها تحتاج إلى تكرار وتكرار . . .
وهي أننا لم نخسر الأندلس عن تخاذل أو استنامة للترف ، وإنما فقدناه كما يفقد الجندي الباسل معركة وسلاحه في يده ، تضعيع المعركة ويبقى شرف البطولة والاستشهاد . .

* * *

وعندما قامت دولة بني الأحمر كان الذي بأيدينا من شبه الجزيرة لا يبلغ ثمن مساحتها . . .
وكانت تهددها مملكتان من أقوى ممالك أوروبا إذ ذاك : قشتالة وأرغون ، وإمارتان قويتان هما قطلونية والبرتغال . .
ولم يكن ابن الأحمر ليستطيع البقاء إلا إذا هادن بعض أولئك الأعداء ، فحالف فرناندو الثالث ملك قشتالة وتعهد له بدفع إتاوة قدرها ربع مليون قطعة من الذهب كل عام . .
ومن أول يوم قامت فيه مملكة غرناطة ابتليت بمحنة الشقاق ، كان أشبه بالداء الذي يتمكن ويسرى . وكان يمثله في تاريخ غرناطة أسرتان كبيرتان : بنو اشقيلولة ثم بنو السراج ، وتسمى باسم الأخيرين منهم القاعة التي وصفناها على يمين بهو السباع .
واستمر بلاء هذا الشقاق بين الرؤساء طوال تاريخ غرناطة . . .
ولولا نجدات كانت تصل من المغرب بين الحين والحين لضاعت غرناطة من أمد بعيد .
نجدات استشهد فيها الألوف من عرب ذلك المغرب الباسل . .

وكان موقف بنى الأحمر من هذه النجذات عجبياً : بعد أن ينتصر رجالها على العدو وينقذوا العرش المتهاوى ، يسرع أصحابه بالاتفاق مع ملوك قشتالة للتخلص من إخوانهم الذين أتوا لنجدتهم . .

والمشهد الأخير للصراع حول غرناطة - وهو مشهد دام نحو ٣٠ عاماً - يستحق أن يؤرخ في كتاب ، للعبرة . . لعلنا نعتبر . .

كانت غرناطة قد أصبحت كجسد مريض نهكته الأمراض ، فلا يدرى الطبيب أين يبدأ وأين يعيد . .

هنا تدخل النساء ومؤامرات الحريم ، لتجهز على البقية الباقية من أمل كان يخبو رويداً كضوء شيعه قاربت الفناء . .

فإن السلطان علياً أبا الحسن الغنى بالله لم يكفه ما أصاب المماكة من تمزيق وتقطيع ، لم يكفه أن منافساته مع أخيه الثائر عليه عبدالله الزغل قد جرت الولايات على أهل غرناطة (كان كل منهما يستعين بملوك قشتالة) ، لم يكفه ذلك ، بل رأى أن يضيف إلى متاعبه شيئاً جديداً ، شيئاً قصم ظهر إمبراطوريات كبرى ، فضلاً عن مدينة تحتضر : زوجة شابة بارعة الجمال ، اسمها ثريا ، تسمى بالإسبانية ثريدا . أصلها من أسرة إسبانية نبيلة ، فأبوها هو القائد سانشو خيمينيث دى سوليس . أسرت وهي صغيرة ، وكان اسمها إيزابيلا ، فربيت في قصور الحمراء وأصبح اسمها ثريا . .

وأنجبت ثريا ولدين : سعداً ونصراً . أخذت تعمل على حصر وراثه العرش في أحد ولديها . .

وكانت للسلطان زوجة قديمة : عربية نبيلة . هى عائشة المعروفة بالحره ، ابنة السلطان محمد الأيسر . وكان لها هى الأخرى ولدان ، أبو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف . . .

وتحت سحر الزوجه الشابة ، ثريا الرومية ، أقصى السلطان الشيخ ابنه الشابين عن العرش وسجنهما مع أمهما في برج قمارش . . برج القمريات . .

وفى ذات ليلة تدلت الملكة السجينة من أعلى البرج إلى الأرض ، نحو
سبعين متراً ، على الحبال .. أو على ملاءات الأسيرة .. مع ولديها ، وفر
الثلاثة إلى أنصارهم ..

وعاونهم فى ذلك بنو سراج ..

وبدأ الصراع ، صراع النساء ، وصراع الرجال ..

وفى ظل هذه المآسى كان لا بد أن تأتى النهاية المحتومة ..

وفى ٢ يناير سلم أبو عبدالله محمد مفاتيح الحمراء لفرناندو وإيزابيلا ،
وسار على جواده منكس الرأس ..

وعندما وصل إلى آخر نقطة يستطيع أن يرى منها الحمراء ، وقبل أن
ينحرف به الطريق وتغيب عن عينيه إلى الأبد ، التفت وبكى ...

ذلك هو الموضع الذى يعرف باسم « حسرة العربى » .. إل سوسبيرو
دل مورو ..

رحم الله شوقى ، وصف هذا المشهد كأنما كان يراه :

آخر العهد بالجزيرة كانت	بعد عركٍ من الزمان وضرسٍ
فترها تقول راية جيش	باد بالأمس بين أسر وحبس
ومفاتيحها مقاليد ملك	باعها الوارث المضيعُ ببخس
خرج القوم فى كتائب صُمٌ	عن حفاظ كموكب الدفن خُرس
ركبوا بالبحار نعشاً ، وكانت	تحت آبائهم هى العرش أمس ..

وكم استنجد أهل غرناطة ! كم استصرخوا إخوانهم العرب والمسلمين
فى كل مكان ...

وكان الحل والإنقاذ فى أيديهم ، لو أنهم اتفقوا فيما بينهم .. لو نسى
كل منهم نفسه ، لو ذكر كل منهم أن الأمر يتعلق بمصير شعب وحضارة
وعقيدة .. إذن لنجا الأندلس ..

ولكن كل شيء كان ممكناً ، إلا الاتفاق . . .
كل شيء كان في نظرهم مقبولا ، إلا أن يسلم أحدهم للآخر . .
كلهم أرادوا أن يكونوا ملوكاً . . .
وفي أثناء الصراع ضاعت المملكة . . .
وأصبحوا متسولين مشردين . . .
هل نتعظ ؟ .. هل نتعلم ؟ .. هل نفهم ؟ .. هل نتحد ؟ ..
ادع معي ، فربما استجابت لدعوتنا السماء . . .
يومها أقول لك : لن يغلبنا أحد ! ..

* * *

كان ممن شهدوا تسليم غرناطة كريستوف كولومبوس . .
كان يومها في الأربعين من عمره ، وكان قد أخذ بنصيبه من تراث
العرب . في البندقية وفي لشبونة قرأ بكتب العرب التي تقول إن الأرض
كروية ، وأنتك لو خرجت من غربها وسرت في اتجاه واحد لوصلت إلى
شرقها . إذا كنت تشك في ذلك فخذ - مثلاً - الجزء الوحيد الذي نشر من
كتاب « مسالك الأبصار » لترى فيه كيف كانوا يعرفون أن الأرض كرة
وأن الهند كما تدرك من الشرق تدرك من الغرب . وأكاد أوكد أن كولومبوس
قرأ كتاب شهاب الدين أحمد بن ماجد « الفوائد في أصول علم البحر
والقواعد » ، فقد كان هذا الكتاب مترجماً إلى البرتغالية في يد فاسكو داجاما .
إن ابن ماجد يؤكد عند كلامه عن جزائر الخالدات (كنارياس) أن هناك
أرضاً فيما يلي بحر الظلمات غرباً . .

ومالي أذهب بعيداً وبين يدي قطع من كتاب « المسالك والممالك » لأبي
عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري ، أعظم جغرافي أطلعه الأندلس قبل
الإدريسي ، أقرأ فيها هذه السطور : « وأقيانس البحر المحيط ، لا يُدرى

ما وراءه غرباً إلى أقصى عمران الصين شرقاً ، والشمس إذا غابت في أقصى الصين طلعت في الجزائر (الخالدات) ، وبالعكس . . .

وهذه ، ولا زيادة ، هي الفكرة التي جعلت من كولومبوس ما هو في تاريخ البشر . وكأنما أخذ أبو عبيد البكري بيده ، وقاده إلى ما وقع عليه من كشف عظيم . وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون أبو عبيد من أبناء ولبة (أويلبا اليوم) على أميال قليلة من « الرابطة » (لارابيدا) وهو الدير الذي لجأ كولومبوس إلى أحباره ، لكي ييسروا له مقابلة فرناندو وإيزابيلا ؛ ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور في إشبيلية ، البلد الذي عاش فيه كولومبوس زمناً ، وتعلم من أهله وعلماؤه وبحارته الشيء الكثير . بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبوس إلى العالم الجديد من ميناء سان لوقر ، أقرب بلد إلى ولبة ، والمسافة بينهما بضعة كيلو مترات (*) .

لهذا كان كولومبوس واثقاً من نفسه : ترك ابنه ديجو في رعاية رهبان دير « الرابطة » (لارابيدا) ، وأقبل في رفقة رئيس الدير — خوان بيريث — الذي رتب له مقابلة مع الملكة إيزابيلا . من موضعه في آخر الصفوف رأى فرسان قشتالة يدخلون الحمراء . . . وبعد أيام قابل الملكة . . .

وبعد سبعة أشهر أبحر يبحث عن الهند . كان أسطوله يتكون من ثلاث سفن : لاينشا ، لانينيا ، سانتا ماريا . عدد البحارة ٨٨ ، شيء قليل بالنسبة للكشف العظيم . لكن كان مع كولومبوس ما هو أهم من ذلك ، كان معه عليم العرب . العرب الذين فقدوا غرناطة ، نورهم كشف الطريق نحو عالم جديد . . .

مفترق زمان . . .

(*) انظر بحثنا « الجغرافية والجنرافيون في الأندلس » ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٧ و ٨ سني ١٩٥٩ - ١٩٦٠ ص ١٣٤ .

لو تأخر سقوط غرناطة سنة واحدة ، لكان لنا نصيب فى العالم الجديد !
ولو تقدم خروج كولومبوس سنة واحدة ، لشغلوا عنا وربما بقيت
غرناطة ! ..
ولكن ، هكذا قدر فكان ...

* * *

والذين غلبوا ، ماذا كان مصيرهم ؟ ..
الاتفاقات والعهود مزقت ، ومُسخ العرب مسحاً فى سنوات ..
ولا يرضى ربك عن الناكث ولا الخائن ، وعهود الرجال ينبغى أن
تكون أساساً لأعمالهم ..
أراد فرناندو وإيزابيلا أن يثبتا قواعد الملك الذى بنياه . لم يهبهما الله
ولداً ، فزوجا بناتهما للملوك وأمرأه .
من هؤلاء واحدة تسمى « خوانا » ، تزوجت أميراً يسمى فيليب الجميل
أمير برغندية ووارث مكسيميليان الأول لإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة
ورأس أسرة الهابسبورج ..
وبعد موت إيزابيلا أصبحت خوانا وريثة عرش إسبانيا ، وزوجها وريث
عرش الهابسبورج . أصبح التاجان مملكة واحدة ..
كانت علائم الجنون قد بدأت على خوانا فى سن مبكرة ، وكانت قد
عشقت زوجها عشقاً مبرحاً ، ولكنه انصرف عنها ، فأخذ عقلها يخف
رويداً رويداً ..

ثم مات فيليب الجميل ، فجنت تماماً . حنطت جسده وأخذته معها فى
تابوت ، ومضت تجوس به إسبانيا من الشمال إلى الجنوب . كانت لا تسير
إلا فى الليل ، وعلى وجهها قناع . وساءت حالها ، فقرر أبوها أن يحول بينها
وبين هذا التجوال . فحبسها مع نعش فيليب الجميل فى قصر تورديسياس .

هناك قضت بقية حياتها ، سبعة وأربعين عاماً . . هذه المسكينة التي ورثت الملك الدامي كفتّرت عما صنعه أبواها . هذه السنوات كلها كانت تجلس على البلاط في وسط الحجرة ، وحولها أطباق الطعام الذي لا تمسه إلا قليلاً . اسمها في التاريخ خوانا المجنونة (خوانا لالوكا) . .

وكانوا قد أخذوا منها ابنها كارلوس وأرسلوه إلى الفلاندرز (بلجيكا) ليتربى هناك . وعندما بلغ سن الرشد أتى ليتربع على عرش إسبانيا غريباً عنها ، لا يتكلم لغتها ، ومعه حاشية من الأجانب الفلمنكيين .

أصبح على العرش رجل أجنبي هو كارلوس الخامس (شراكان) . انتقل التاج إلى رأس الهابسبورج . .

حارب الإسبان وفتحوا لملك الغير . . .

وهذا أيضاً كان مفترق زمان . . .

خيرة أبناء إسبانيا مضوا يطلبون الذهب وراء البحار .

وتاج إسبانيا انتقل إلى سليل مكسميليان . . .

ولله في تقديره شان أى شان . . .

نَبْضُ الْأَنْدَلُسِ

الأندلس — من دون بقاع الأرض — كتوم لا يفضى بسرّه إلى المسافر المعجل ، ولا يحس بنبضه إلا من عاش فيه وسار في طرقه ونزل في قراه ، وتحدث إلى ناسه وشاركهم الطعام والشراب ، وقاسمهم هذا السمر الطويل الذي يحسنونه كما لا يحسنه غيرهم من الناس . هنا ، وفي أثناء الحديث الطويل ، يتخلله من بعيد صوت مغنٍّ جاشٍ صوته فانطلق يغرد ، أو فتاة أحست نشوة بين صواحبها فقامت ترقص على وقع التصفيق رقصاً عنيفاً ، تترامى إلى أذنك دقات قدميها ، وهي تلف وتدور في براءة الشباب وروحه الصافية الجميلة . . . خلال هذا كله تحس نبض الأندلس ، وتسمع صوته الحزين الذي يأتيك كأنه صدى مئات السنين . .

وإذا كنت قد قرأت شيئاً عن أندلسنا العربي الشهيد ، أو وعت ذاكرتك أطرافاً من أشعار المعتمد بن عباد أو صاحبه أبي بكر بن عمار أو معاصريهما أحمد بن عبد الملك بن شهيد وأبي بكر بن زيدون وابن دراج القسطلي ومن إليهم ممن جعلوا أيامهم قصائد ولياليهم مقطعات ، فإنك — ولو كان مخفوظك من شعرهم أضغاث ذكريات — ستشعر وكأنك تعيش معهم ، تصغي إلى أحاديثهم وتأخذ منهم وتعطي ، لأن الأندلس من تلك البلاد التي لا يتبدد

الزمان فيها ولا يبلى ، ويتصل فيها الماضي بالحاضر والأمس بالغد على نحو يتلاشى معه معنى الزمان .

وليس بعجيب أن يشتهر أهل الأندلس في الدنيا كلها بأنهم لا يعترفون بالوقت أو يقيمون له وزناً ، فإذا قال قائلهم إنه ملائكة غداً ، فليس من الضروري أن يكون هذا الغد هو يومك التالي ، بل هو أى غد ، وكلها غدوات آتيات فقيم التدقيق والحساب ؟ وكلمة « ماينا » (أى غداً) في لسان الأندلسي تحمل معنى الإرجاء إلى أجل ممدود بطول الحياة ، والدنيا لم تخلق في يوم ، وكان الله مع الصابرين . .

ولقد خرجت من قرطبة ذات يوم بعد الزوال بقليل ووجهتي غرناطة ، فلما وصلنا جيتان أصاب السيارة ما عطل حركتها ، وكان معي نفر من القرطبيين ؛ فأرسلنا في طلب من يصلحها ولجأنا إلى مشرب عند مدخل البلد .

وكنت أول جلوسى متعجلاً لا أنفك أسأل عن إصلاح السيارة ، ورفاقى يطمئنوني وقد أخذهم الحديث ، وأرسلت بصرى إلى الطريق الذى أتينا منه ، وهو منعرجات ومخارم في جبال ، وأشجار الزيتون في خضرتها الداكنة تتسلق التلال ذات التربة الحمراء صفوفاً بعد صفوف ، وإذا بالوقت يمضى دون أن أشعر . .

ورجعت مع السنين القهقرى ، فكأنما كنت أسمع صوتي يحيى بن حكم الغزال الشاعر وجمال الدين بن مالك صاحب الألفية — وكلاهما من جيان — يتراميان إلى من وراء العصور . .

وأحسست وكأننى أعيش في ذلك البلد أيام كان عربياً ، والناس ينحدرون من بين أشجار الزيتون نحو الوادى ليأخذوا طريقهم على الدرب الذى أنظر إليه ، ثم يمضى كل منهم إلى بلد ميمّا حول جيان : أبدة وبساسة وحصن اللوز وبسطة وشوذر وما إليها ، وهم يتساءلون عن آخر الأنباء من قرطبة بلد الخلفاء ، أو يتندرون بما وعت أذهانهم من ملّح أهلها ، أو

يتحدثون عن فقهاء بلادهم وما آتاهم الله من علم بالقرآن والحديث وأيام العرب وغير ذلك من الأحاديث التي تتألف منها حياة الناس ، ثم يخفون عن بصرى في معارج الطريق . .

ويهبط ضوء الغروب على تلك الربى ، وتكتسى أشجار الزيتون لوناً فضياً ، فأذكر كيف وصف مانويل ماتشادو الشاعر المحدث جيان بأنها فضية ، ويخيل إلى أنني أسمع صوت جعاعة من الشبان يغنون على نقر الكاستانييتاس تلك المقطوعة الخالدة :

« ثلاث سمرات

شغلن قلبي ، من جيان :

عائشة ، وفاطمة ، ومريم . . .

ثلاث سمرات بالغات الجمال ،

ذهبن ليجنين الزيتون ،

فوجدنه قد جنى . . . »

وشيئاً فشيئاً تهبط شملة الليل ، وتختفي في أطوائها فضة الزيتون وحمرة التلال ، ويختفي الطريق . وأنهمض ، ما أشك في أن السيارة أصاححت ، فإذا بصحبي يضحكون ويقولون : أصاححك الله ! إن الميكانيكي لم يأت بعد . . غداً . . مانينا ! . .

ونمنا ليلتنا ، وأتى الميكانيكي مع الضحى ، واجتهد مع السيارة المضربة بقدر ما واثاه علمه ، وجاءت ساعة الغداء ، فوضعوا بين أيدينا خروفاً مشوياً انقض عليه الميكانيكي في نهم لطيف ، ولم يرفع يده إلا بعد أن استقر ربه في جوفه ، ثم أفرغ عليه زجاجة من الببند ، واسترخى بعد ذلك واستوسن ، والسيارة راقدة أمامنا كأنها مريض لا رجاء فيه . .

وبينما كنت أسرع نحو محطة سكة الحديد لأدرك القطار ، سمعت واحداً من أصحابنا يقول : ماله معجل هكذا ؟ فقال صاحبه : لعل وراءه ما يعجله

... وكان آخر ما سمعت : مهما كان ... بيننا وبين غد ساعات الليل . .
هل طارت الدنيا ؟ .. مانينا ! ..

» « :

لهذا ، فلكى تحس بالأندلس ، لا بد أن تقطع إحدى الطرق الطويلة المؤدية من قلبه قرطبة إلى أى قاعدة من قواعده — الجزيرة الخضراء ، مالقة ، إستيجة ، رندة ، شريش ، وادى آش ... أى واحدة من هذه — تقطعها على هيئة ، فتقف عند كل قرية أو منعرج يودى إلى قرية أو بلد ، وتقضى يوماً هنا وليلة هناك تحدث الناس وتسمر معهم ، وتصيب من طعامهم . كما كان أجدادنا يرحلون فى هذه النواحي على ظهور الخيل أو البغال ، وكما مروا ببلدة صلوا فى جامعها ، وسعوا لرؤية فقيها وهو يقرأ درسه فى الجامع والتلاميذ حوله ينصتون ويقيّدون ، فإذا هبط الليل صلوا المغرب والعشاء فى حيث انتهى بهم المسير ، ثم قصدوا فندق البلد وحطوا رحالهم ، وانصرفوا إلى هذا الحديث الريفى . الممتع الذى تقصر معه ساعات الليل ، ثم أراحوا جنوبهم على الفراش إلى الصباح . .

فإذا رأيت أن تقوم برحلة من هذه فسنختار الطريق من قادس إلى مالقة ، وإنما اخترته لأننا نمر فى أثناءه بقلب الأندلس حقاً ، ونقف بعدد لا حصر له من البلاد والقرى والحصون ، كلها كانت عربية خالصة ، أطلعت من العباقر فى كل ميدان علماء يزدان بمؤلفاتهم تراثا الفكرى والروحى ، وشهدت من أحداث تاريخ الأندلس ما يملأ مجلدات .

بعض هذه الأحداث مسعد مفرح ، من أيام الفتح العربى إلى العصر الذهبى أيام عبد الرحمن الناصر ، أعظم خلفاء الجناح الغربى لدولة الإسلام ، وابنه الحكم المستنصر ، أعلم من تربيع على كرسى الخلافة فى تاريخنا ، فقد حول قصره — دون مبالغة — إلى جامعة تزدهم بأهل العلم والأدب فى كل فن ، ومكتبة عامة تضاهى بعدد كتبها ونظامها وعدد المتردين عليها أعظم المكتبات العامة فى عصرنا .

وبعضها مخزن مؤلم ، شهد حلقات الاحتضار الطويل الذى عاناه الأندلس من بداية القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى - حتى كانت النهاية التى أرادها وارث الأرض ومن عليها أوائل القرن التاسع الهجرى وأواخر الخامس عشر الميلادى . . .

ونبدأ من قادس : مدينة ساحرة تقوم على طرف ذراع ضيق من الأرض طوله اثنا عشر كيلو متراً ، تمضى فيه والبحر عن شمالك ويمينك كأنك فى سفينة ولست على طريق ، حتى إذا انتهيت إلى البلد وجدت درة بيضاء تتألق بين زرقة البحر وزرقة السماء ؛ هنا أنشأ الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط دار صناعة - أو ترسانة كما نقول اليوم - ليبنى فيها أسطولاً يحمى شواطئه .

وعلى مقربة منها إلى الشمال - على الساحل - تجد ميناء سان لوقر الذى خرجت منه السفن الثلاث التى تكون منها أسطول كريستوف كولومبوس - أو كولون ، كما يقولون هناك - ليصل إلى الهند عن طريق الغرب ، فيصادف فى طريقه العالم الجديد ، ويبدأ فى تاريخ الدنيا كلها عصر جديد .

وبعد كيلو مترات قليلة نجد وكبة ، وهى بلد كاتب من أعظم كتابنا فى القرن الخامس وهو أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة .

وغير بعيد منها يصب نهر صغير يعرف بالنهر الأحمر ، فى مدخله جزيرة صغيرة تسمى شلطيّش ، هى مسقط رأس أعظم جغرافى أطلعه الغرب الإسلامى - قبل الإدريسى - وهو أبو عبيد البكرى الذى قرر فى كتابه العظيم « المسالك والممالك » أنك إذا خرجت من أوروبا فى اتجاه الغرب وصلت إلى الصين ، وأن الشمس إذا غربت فى أوروبا أشرقت فى النصف الثانى من كرة الأرض .

وشلطيّش جزيرة صغيرة راقدة عند ملتقى النهر الأحمر بنهر أوديل ، يشرب أهلها من ماء يُحمل إليهم من الشاطئ المقابل .

وطريقنا من قادس يمر بشريّش ، وهو بلد جميل اشتهر فى عصور

الإسلام بنوع لطيف من الجبن وبفطائر بالجبن كانوا يسمونها بالحجبتات ،
واشتهر بعدنا بالنبيذ المنسوب إليه ، يسمونه في إسبانيا باسمها : « خيريث » ،
وفي العالم كله بصورته الإنجليزية : « تشيرى » . .

ونمر في طريقنا ببحيرة ضحلة واسعة يسمونها « بحيرة لاخاندا » ، وهو
تحريف للفظ العربى « الخندق » . وهنا ، على ضفة نهر صغير يخرج من
البحيرة إلى البحر كانت الموقعة الكبرى التى فتحت لنا أبواب إسبانيا ،
وبطلها - كما هو معروف - طارق بن زياد . .

ونصل إلى الجزيرة الخضراء ، أو الجزيرة ، ولا زالت تسمى إلى اليوم
بهذا الاسم : « الحيثيراس » ، وهى اليوم بلد صغير ، ولكن صفحاته فى
تاريخنا طويلة لا تنتهى : فقد كان استيلاء طارق عليها أول الفتح ، وكان
سقوطها فى يد ألفونسو الحادى عشر سنة ١٣٤٤ أول النهاية لتاريخ غرناطة ،
ولم تسقط إلا بعد معركة دامية هى موقعة طريف التى قطعت الأمل فى كل
عون يصل من المغرب العربى إلى بقية الأندلس العربى الرابضة فى غرناطة . .

ومن الجزيرة الخضراء ترى جبل طارق : صخرة هائلة كأنها ظهر فيل
ضخم وسط الماء لا يصلها بالبر إلا شريط ضيق ، صخرة لا زالت تحمل اسم
طارقنا العظيم ، استولى الإسبان عليها منا ، ولم تدم فى أيديهم ، فقد تحارب
اثنان من ملوكهم ، فتقدمت إنجلترا تعين أحدهما على الآخر ، واستأذنت
فى أن ينزل جندها فى جبل طارق . . .

ولم ينتصر الملك الذى أتوا لعونه ، ومضى ومضت أيامه ، وظلوا هم
- على عهدهم - يزعمون أن هذه الصخرة صخرتهم . وقد حولوها إلى معقل
لا يرام ، ونقبوا الجبل ، وبنوا فى داخله المستودعات والممرات ، بل فيه
مستشفى كبير ، وأصعدوا المصاعد الكهربائية فى أنفاق لتصل إلى مواقع
المدافع .

وأنت اليوم تزور هذه الصخرة وبلدها فكأنك فى بلد سياحى : فيه

الفنادق والمطاعم والديكاكين من كل صنف يملك معظمها الهنود ، وفي الطريق إلى أعلى الصخرة تمر ببقايا حصن يسمونه الحصن العربي ، ويقولون إن بانيه هو طارق العظيم ، طيب الله ثراه . .

وعلى طول الطريق تستوقف نظرك البلاد الأندلسية بطابعها المعروف : منازل بيض سقوفها حمراء ، تتراصُ صفوفاً على المرتفعات كأنها لآلئٌ ماثورة في الأرض ، حتى إذا وصلت إلى بلد يسمى سان بيدرو بدأ الطريق إلى رُنْدَة . . .

وليس هناك طريق يقص من تاريخ الأندلس ما يقصه الطريق من سان بيدرو إلى رُنْدَة . إنه طريق رهيب بين جبال متهددة ، تشعر وأنت تمضي فيه بالخوف ، فقد كان على طول تاريخه مأوى للثائرين وقطاع الطريق . ولقد يتعجب الإنسان وهو يقرأ في حوليات الأندلس عن ثورة عمر بن حفصون ، وعجز أمراء قرطبة عن القضاء عليه على قرب معاقله من دار الخلافة ، وإكثك إذا وقفت في ذلك الطريق وتلفت حولك انقطع العجب ، فهذه جبال ووهاد ومنعرجات ومنحنيات ، لو اختبأ فيها اليوم قاطع طريق فلا سبيل إلى إدراكه ، فكيف وقد كان جند الخلافة ورجال أمنها يقطعون هذه الفيافي والمهامه على الظهر والقدم ؟

ولقد كانت هذه المناهات مجالات لفرسان من العرب حفزتهم الحمية على رفض الطاعة ، فضوا — كأنهم فرسان من عصر الجاهلية — يحاربون ويقولون الشعر ويتغزلون ، وقد حفظت لنا الكتب أخبارهم وأشعارهم : سَوَّار بن حمدون القيسي وسعيد بن سليمان بن جُودى وأضحى بن محمد الحمداني وغيرهم . ولقد قال واحد منهم — سعيد بن جودى — وهو يجرى بحصانه في هذه البطاح مخاطباً عبدالله أمير قرطبة :

قل لعبدالله يحدُّدُ في الحرب نَجَمَ الثائر في وادي القصب
يا بني مروان خلوا مَلِكنا إنما الملك لأبناء العرب

وما زال يغامر ويقول الشعر حتى مات أسيراً . . .

وفي أثناء الطريق إلى رندة تستوقف نظرك لافتات تشير إلى مواضع بلاد صغيرة خافية بين الجبال ، تؤدي إليها طرق أصغر من هذه وأشد خطورة : لارودا (الروضة) ، الجودوناليس (القطنيات) ، أركوس (أركش) ، بناهافيس (ابن حفص) ، بنا أوجان (ابن يوجان) ، بنا داوود (بنو داوود) ، حتى تصل أخيراً إلى رندة .

ورندة - أي المستديرة - بلد عجيب يقوم على قنة جبل ، منازل معلقة على حافة الهاوية تعليقاً ، فكأنما بنيت لتكون حصناً ، فلا عجب أن كانت مدار صراع طويل بين الإمارة القرطبية والخارجين عليها ، وفي عصر الطوائف استهلك الملك الشاعر المعتضد بن عباد في الاستيلاء عليها ، فلما صارت في يده قال شعراً أوله :

لقد حُصِّلَتِ يا رندة وصرتِ لمُلكنا عُنُقدة
وأخذ الناس يحفظها وترديدها كأنها نشيد قومي .

وأنت تشعر فيها أنك في بلد عربي ، بلد يشبه بلاد مغربنا العربي في منازل وهيئته وسحن أهله ، وحبذا لو قضيت ليلة فيه ، لتجلس في أحد المقاهي المطلة من شاهق على نهر صغير يتلوى تحت قدميك بمئات الأمتار ، والخائق الذي يجري فيه هذا النهر يسمى «التاخو» ، نفس الاسم الذي يطلق على نهر تاجه الكبير ، مهر طليطلة ، ومعناه هنا «الخائق» . .

وفي سهرتك في ليلة من ليالي الصيف - حين يرق الهواء في ذلك المرتفع ويمضى السَّمَار يتجاذبون أطراف حديث لا ينتهى ، وهم يشربون نوعاً من النبيذ يقولون لك إنه أحسن نبيذ في الدنيا ، ويأكلون شرائح من لحم مقدد لا تمضغه إلا أسنان نمر قوى - تحملك الذكريات على جناحها خلال الماضي العربي ، أيام كانت رندة هذه بلداً عربياً إسلامياً ، تزينه المساجد ومآذنها السامقة أيام كان شعراء رندة وأدباؤها - من أمثال أخيل بن إدريس

الرندى وحبالص - يعقدون ندواتهم في مثل مجلسك هذا ، والدنيا من حولهم
نجير ، والخليفة في قرطبة يظل الناس بأمنه ورعايته ، والناس لا يشكون في
أنه مهما حدث فإن بلدهم هذا سيظل عربياً آمناً إلى يوم يبعثون ، وكيف
يسقط معقل كهذا « تعمم بالسحاب وتوشح بالأنهار العذاب » كما يقول الشاعر
القلق الجوال إبراهيم بن وزمر الحيجارى ؟

ولكن هذا الحصن الأشم استسلم هو الآخر ! ومضى آخر شعراء رندة
صالح بن شريف الرندى يرثيها ، ويرثى الأندلس كله بهذه الأبيات التي
أحسبك تحفظ مطلعها على الأقل ، ومن منا لا يحفظ قوله :

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ	فلا يُغَرَّ بطيب العيش لإنسانُ
هي الأمور - كما شاهدتها - دولُ	من سره زمن ساءت أزمانُ
وهذه الدار لا تبقى على أحدٍ	ولا يدوم على حال لها شأنُ

إلى أن يقول هذه الأبيات الخالدة :

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له	هوى له أحدٌ وانهدَّ تهْلانُ
فاسأل بالنسية ما شأن مرسيةٍ	وأين شاطبةُ أم أين جيانُ
وأين قرطبة ، دار العلوم ، فكم	من عالم قد سما فيها له شأنُ
وأين حمصٌ ، وما تحويه من نزهٍ	ونهرها العذب فياض وملآنُ
قواعد كن أركان البلاد ، فما	عسى البقاء ، إذا لم تبق أركانُ

وماذا بقى بعد ذلك في رندة من آثار العرب ؟

لا شيء !

هناك دار مشهورة يزورها كل السائحين تسمى دار الملك المغربي (كاسا
دل رى مورو) يقولون لك إن رجلاً يسمى أبا مالك (بوميليك) توج فيها
ملكاً على رندة والجزيرة الخضراء . .

ولم أعرف من هو أبو مالك هذا ، وإن كان يغلب على ظني أنه واحد
من أولئك العشرات من الغاصبين — كباراً وصغاراً — الذين تقاسموا تراث
الخلافة القرطبية العظيم ، وعبثوا به ما شاء لهم العبث . . .
وكيف سقطت رندة ؟

كما يسقط البطل في ميدان الجهاد ، بعد أن سقطت قرطبة بمائتين
 وخمسين سنة . . .
عمر كامل يكاد يعدل عمر الإمارة القرطبية نفسها . . .

* * *

وقد وقفت بك طويلاً عند رندة ، لأنها واحدة من تلك المدن التي تحبس
فيها إلى اليوم نبض الأندلس العربي الذاهب . . .
فذلك الجزء من شبه الجزيرة الواقع بين الوادي الكبير والبحر المتوسط
وجزاء من المحيط الأطلسي كان القلب النابض لهذا القطر العربي الكبير ،
لا تكاد تقطع فيه كيلو متراً إلا وتلقى مدينة أو قرية لها في تاريخنا السياسي
والفكري صفحات بعد صفحات . . .

شمال رندة تجد ثلاث مدن أخرجت عشرات الشعراء والكتاب والفقهاء
والعلماء : مَرَّشَانَة (اليوم : مرشينة) وأَشُونَة (اليوم : أسونة) ومَوْرُور
(اليوم : مورون) .

وإلى شمالها الشرقى — في الطريق إلى غرناطة — تمر بأنطكيرة (أنطيكيرا)
وأرشدونة (أرشيدونا) ولوشة (لوشا) ، ثلاث مدائن وقف عندها لسان
الدين بن الخطيب فأطال الوقوف ، وتحدث عنها فأطال الحديث ، وذكر من
أدبائها وشعرائها ما يملأ كتاباً ، وهو نفسه من واحدة منها ، فقد ولد في
لوشة .

وإلى جنوبها الشرقى — على شاطئ البحر — تجد مالقة ، مالقة المغنية
(مالاجا كانتادورا) كما يقول الشاعر مانويل ماتشادو ، أي المدينة التي

تغنى ، فهى اليوم — كما كانت أيام العرب — مدينة المرح والغناء ، مدينة
الهوى والشباب . . .

فى أيام الأمراء والخلفاء كانت بلد الطرب والشعر والغناء . . .

وبعد ذهاب الخلافة خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ،
الحادى عشر الميلادى ، عرفت مالقة من الحن والرزايا ما لم يعرفه بلد آخر
من بلاد الجنوب : حروباً وثورات وانتهاك حرمة وسلباً ونهباً ، وخضعت
لحكام ما كانت لترضى بهم خدماً فيها أيام العز والخلافة . . . وسبحان الذى
يعز من يشاء ويذل من يشاء . . .

وشرق صوتها الصداح بالدمع والبكاء . . .

ورأى ميناء مالقة ألوف السفن ترحل أسبوعاً بعد أسبوع حاملة المهاجرين
من أهل الأندلس طالبين النجاة من ويلات الحرب والأسر والإرغام على
ترك الدين ، هارين إلى الأمان فى بلاد المغرب العربى الكريم ، وربما هاجر
بعضهم إلى المشرق : إلى مصر والشام والعراق . . إلى نفس البلاد التى أقبل
منها أجدادهم الفاتحون قبل ذلك بسبعة قرون أو ثمانية . . .

وقصة سقوط مالقة وخروجها نهائياً من بلاد العروبة مأساة من المآسى . .

كانت مالقة هى الميناء الكبير الأخير الذى بقى فى أيدي المسلمين . .

كانت جزءاً من مملكة غرناطة ، ولكن هذه المملكة الصغيرة كانت نهياً
للداء الأكبر الذى قرر مصير الأندلس : داء الخلاف والأحقاد . .

كان سلطان غرناطة رجلاً ضعيفاً أقرب إلى الإسبان منه إلى العرب :
كانت أمه إسبانية نصرانية الأصل تسمى ثريا ، وكان قد قضى عاماً عند
فرناندو وإيزابيلا أسيراً . . ثم عاد ليحكم غرناطة تابعاً ذليلاً يؤدى الجزية ،
ويدين بالطاعة ، ذلك هو أبو عبدالله محمد بن أبى الحسن الذى أراد له الحظ
السيئ أن يكون ضياع آخر معاقل الإسلام الأندلسى على يديه . . .

وكانت رعيته لا تثق فيه ، وطوال سنوات حكمه الأخيرة كانت الشائعات

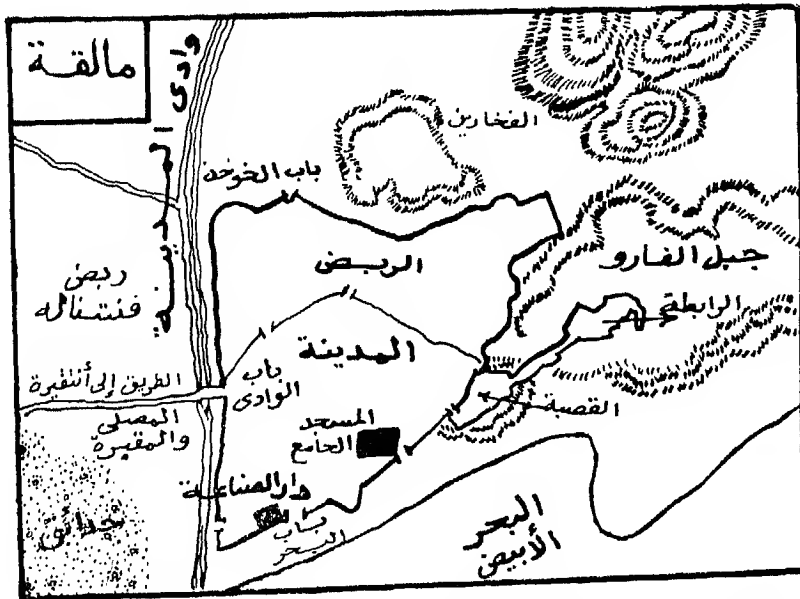
تملأ الجو في غرناطة ومالقة ووادي آش (جواديكس) وما بقي من بلاد الأندلس ، بأن أبا عبدالله قد اتفق مع النصارى على تسليم غرناطة لهم على أن يحفظوه في نفسه وماله وولده . . .

وكان الإسبان يسخرون منه ، كانوا يسمونه الملك الصغير (إل رى
نشيكو) ، وكانوا يطلقون عليه اسم بوابدِيل (أى أبو عبدالله) . . .

وفي الطريق من غرناطة إلى مالقة يقف بك القطار عند بلدة تسمى بوباديا - تحريف عن العربية : « أبو عبدالله » - لا زالت تحمل اسمه . . .

وما دام هذا الملك الصغير قد عاهد العدو على الطاعة والجزية فقد تصدى للقضاء على كل شهم في بلاده ينادى بمناجزة الأعداء . . .

وفي نفس الوقت لم يكن هذا التعاقد في نظر فرناندو وإيزابيلا إلا وسيلة لكسب الوقت والاستيلاء على المعاقل الإسلامية الأخيرة دون عناء . . .



مالقة العربية . يلاحظ أن بقايا الأسوار العربية بعيدة عن البحر ، وأن البلد نفسه كان يطل على البحر مباشرة ، بدليل وجود دار الصناعة (الترساة) إلى جوار باب البحر .

وكانت مالقة هي الباب الأخير الذى بقى مفتوحاً بين بقية الأندلس
الإسلامى والمغرب الإسلامى ..

وفى جمادى الأولى ٨٩٢ / مايو ١٤٨٧ فاجأ فرناندو حصن بلكش (يسمى
اليوم : فيليث — مالاجا) درع مالقة وحاميها ، واستولى عليه ...
وأصبحت مالقة مهددة بالخطر الحقيق ...

واستعد أهلها لمعركتهم الأخيرة . كان يقودهم محمد الزغل ، وهو أمير
صغير كان يحكم وادى آش خارجاً عن طاعة أبى عبدالله ومنافساً له . . وأرسل
محمد الزغل يستنجد بملوك المغرب والمشرق ، ومن بينهم سلطان مصر الأشرف
قايتباى ...

وكان البلد يمحج بالفرسان والمقاتلين موجاً ، يقودهم فارس شجاع يسمى
حامداً الثغرى مع قطعة باسلة من فرسان قبيلة غمارة المغربية . واستمر الدفاع
شهرين متوالين ، حتى لم يبق عند أهل البلد ما يقيم أودهم . . وتساقط المئات
من أهلها صرعى ، أكلت أكثرهم السيوف وأتى على البقية الإعياء والجوع
والوباء ...

وأبو عبدالله — الملك الصغير — قابض لا يحرك ساكناً ، قانع بحماية
الأعداء ...

وفى أواخر شعبان ٨٩٢ / ١٨ أغسطس ١٤٨٧ سقطت مالقة . .
واعتبر أهلها كلهم أسرى . . كان على من يريد الخروج من الأندلس
منهم أن يفتدى نفسه . .

ونخيم على البلد الخراب ...

وإلى سنة ١٨٧٠ — أى بعد أربعة قرون — كانت مالقة لا تزال فُريضة
صغيرة تتألف من بضعة بيوت وكنيسة ومراكب صيادى سمك ...
ولكن الروح دبّت فيها فى أيامنا هذه . . عادت تتألق وتغنى فى نطاق
الانتعاش الشامل الذى تنعم به إسبانيا اليوم . .

أصبحت مدينة السياحة الأولى ، وسمى الساحل الذى تقع عليه ساحل الشمس (لاكوستادل سول) وهو جنة السائحين وطالبي الشمس والبحر والنسيم . . .

وعلى طول الطريق من مالقة إلى الجزيرة الخضراء تقوم اليوم مصايف ومشات رائعة الجمال فيها الفنادق والرياض والملاعب للكبار والصغار : توريمولينوس ، فوينخيرولا (اسمها عند العرب سُهَيْل) ، مربلة (ماربييا) وأسطبونة (إستيديونا) وغيرها كثير . . .

ومطار مالقة آية في الجمال ، مطار وسط حديقة ، تقصده لتأخذ طائرة تحملك إلى أى ركن من أركان الدنيا ، أو لتقضى في مقهاه ساعة بين الزهر والخضرة والموسيقى ، وساحات الجو أمامك تحط وتشيل . . .

* * *

وكل المواضع التى تمر بها في هذا الركن من شبه الجزيرة مواضع عربية : أسماؤها عربية ، وجوه أهلها عربية ، والأغاني التى تسمعها عربية اللحن والنشيد ، وإذا كنت ذاهباً إلى هناك فلا تنس أن تسمر ليلة مع المغنين والمنشدين . . ستسمع مقطعات صغيرة أشبه بالمواويل يسمونها الساييتا (صائتة) وأخرى يسمونها السجيريا أو السجيدياً . . وهى مصغر كلمتنا العربية : الصغيرة . . .

هنا ، ورغم القرون التى مضت ، تشعر بقلب الأندلس يخفق حياً رتيباً كما كان . . .

لأن الناس يموتون . . أما الحضارات فلا تموت . .

وحضارتنا في الأندلس حضارة خالدة ، حضارة قامت على العلم والفن وشهامة الرجال . . .

وفى تلك البلاد : المدينة وقلعة جزولة (لألكالادى لوس جاذوليس) ومدينة شذونة (مدينا سيدونيا) وبرنس (بورنوس) والزهاء (ثاهارا)

وغيرها كثير لا تجد بيتاً إلا وهو عربى الطراز ، ولا تسمع نغماً إلا وهو موال
عربى ، وهنا وهناك ترى بقية من حصن عربى أو قنطرة عربية . . .

وقرب بلدة الزهراء بالذات وقفت طويلاً عند قنطرة صغيرة عربية
تقوم على قوس واحد، وخلفها أقاموا قنطرة حديثة بالأسمنت المسلح تقوم
على أربعة أقواس . . .

قنطرتنا العربية عمرها لا يقل عن خمسة قرون أو ستة، ولا زالت قائمة
يعبر الناس عليها نهيراً صغيراً يسمى وادى لك (جوادا ليثى) وهو - كغيره
من صغار أنهار إسبانيا - جاف معظم العام . . .

ولكنه كان ، يوم وقفت على قنطرتة، لا يزال يحمل سوراً من الماء . . .
وهبت نسمة منعشة، وتموج الماء القليل . . .

ومن بعيد ترمى إلى سمعى نشيد راعٍ يغنى سائتاً . . . كان يقول فى لهجته
الأندلسية الجميلة :

« كل الأمهات

لهن أشجان . .

ولكن شجنك أنت أثقل مما يحملن ..

لأنك تحملين بين يديك

ابنك الحبيب ،

مقيد القدمين واليدين . .

كأنه خائن ! . . . »

الموال يخاطب السيدة العذراء، ولكنه - من بعيد - كأنه يخاطب مألقة . .

فإن كل بلاد الدنيا لا تخلو من الأشجان ، ولكن شجن مألقة إنما هو

حداد طويل . .

فعلى كتفها تحط ذكريات المجد الذى ضاع ، ذلك المجد العربى الذى

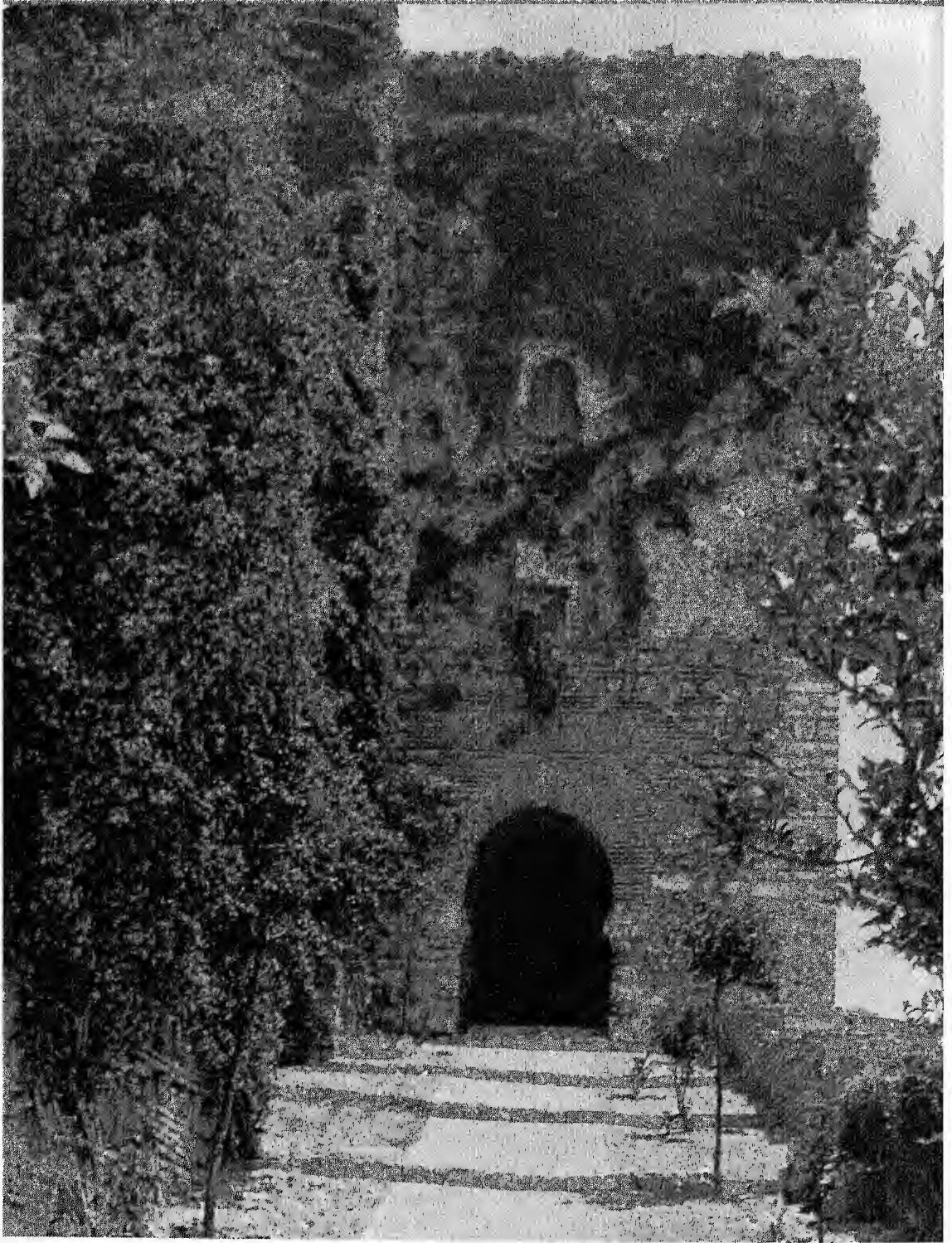
طاردوه وتعقبوه . . كأنه خيانة أو عار ! . .

ولو سرت من مائة مساحلاً إلى الشرق في اتجاه المرية ، ثم إلى الشمال الشرقى في اتجاه دانية ، لمررت في الطريق بمدن فريدة في بابها جبالاً وإبداعاً . فأنت تمر أولاً ببينزلانية (يسمونها اليوم : فينتاس دِ بيزيلانية) بليدة صغيرة كأنها جوهرة ، كانت على أيماننا تقع على البحر ، ولكنها تراجعت اليوم إلى الداخل شيئاً .

ثم المُنكَب (يسمونها اليوم : المونيكار) وهى الفرضة الصغيرة التى نزل بها عبد الرحمن بن معاوية الداخل قادماً من المشرق ثم من الشمال الإفريقى ، ومنها طلع نجم الدولة الأموية على الأندلس . إنها درة من درر الشاطئ الشرقى الإشباني اليوم ، شاطئها رملى جميل تطل عليه الجبال العالية ، وحولها دور ريفية أندلسية من ذلك الطراز الذى يسمى كورتيوخو ، وهو ما يقابل الدّوّار فى المصطلح المصرى . بيت ريفى صرف يتحدث بالنعمة والرخاء تقوم حوله مزرعة صغيرة ومربى للدواجن والماشية . هذه الكورتيوخوس هى طابع الريف الأندلسى المميز ، والكثير مما يقوم حول المُنكَب اشتراه إنجليز وفرنسيون وألمان وإسكنديناويون ليقيموا فيها عمرهم كله . وبعد قليل تصل إلى شكوبيشية (يسمونها : شكوبرينيا) وهى بلد أبى على الشكوبيين من أعظم النحويين فى تاريخنا ، ومنظر هذا البلد عجب من العجب : بساط من الخضرة الزاهية فى وسطه جبل ، وعلى قمة الجبل وسفحه تقوم البليدة بيضاء ناصعة تتوجها السقوف الحمراء .

ثم دلاية (يسمونها : دالياس) وهو اسم زهرة ذائعة فى الدنيا كلها ، وكنا أول من أدخلها إلى أوربا ، وهى موطن أحمد بن عمر بن أنس العُدري الدلاي من فطاحل جغرافيينا .

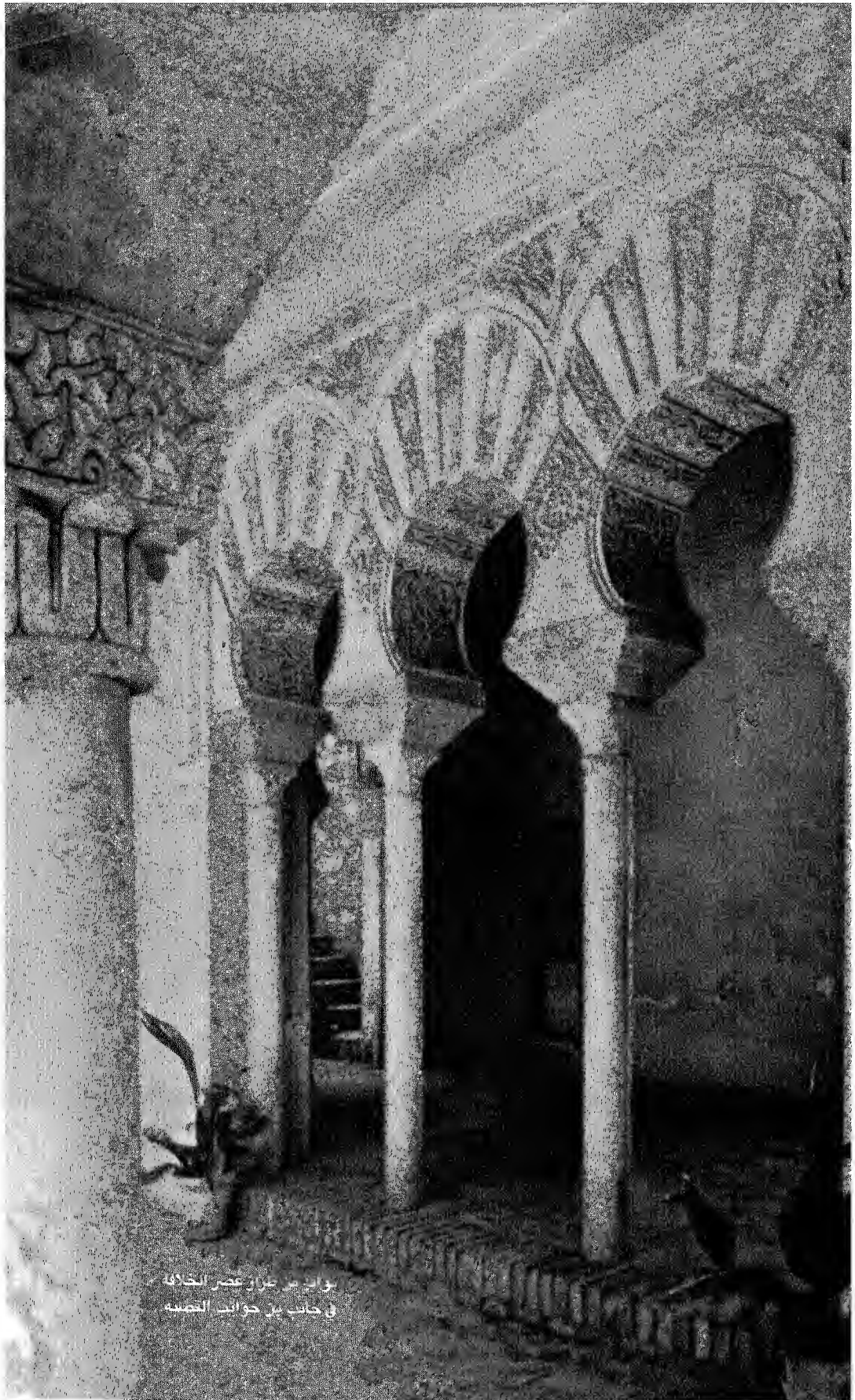
وهكذا حتى المرية ، ومن هذه حتى مرسية وبلنسية : بلاد هى صفحات من تاريخنا ، وهى اليوم روضات ومنتجعات لطلاب الراحة ومتع البحر والهواء والشمس والبعد عن المشاغل . وهذا الجزء بالذات هو الحقيق بأن يسمى ساحل الشمس ، من كل مكان فيه تطل عليك جبال البُشارت التى حدثتك عنها .



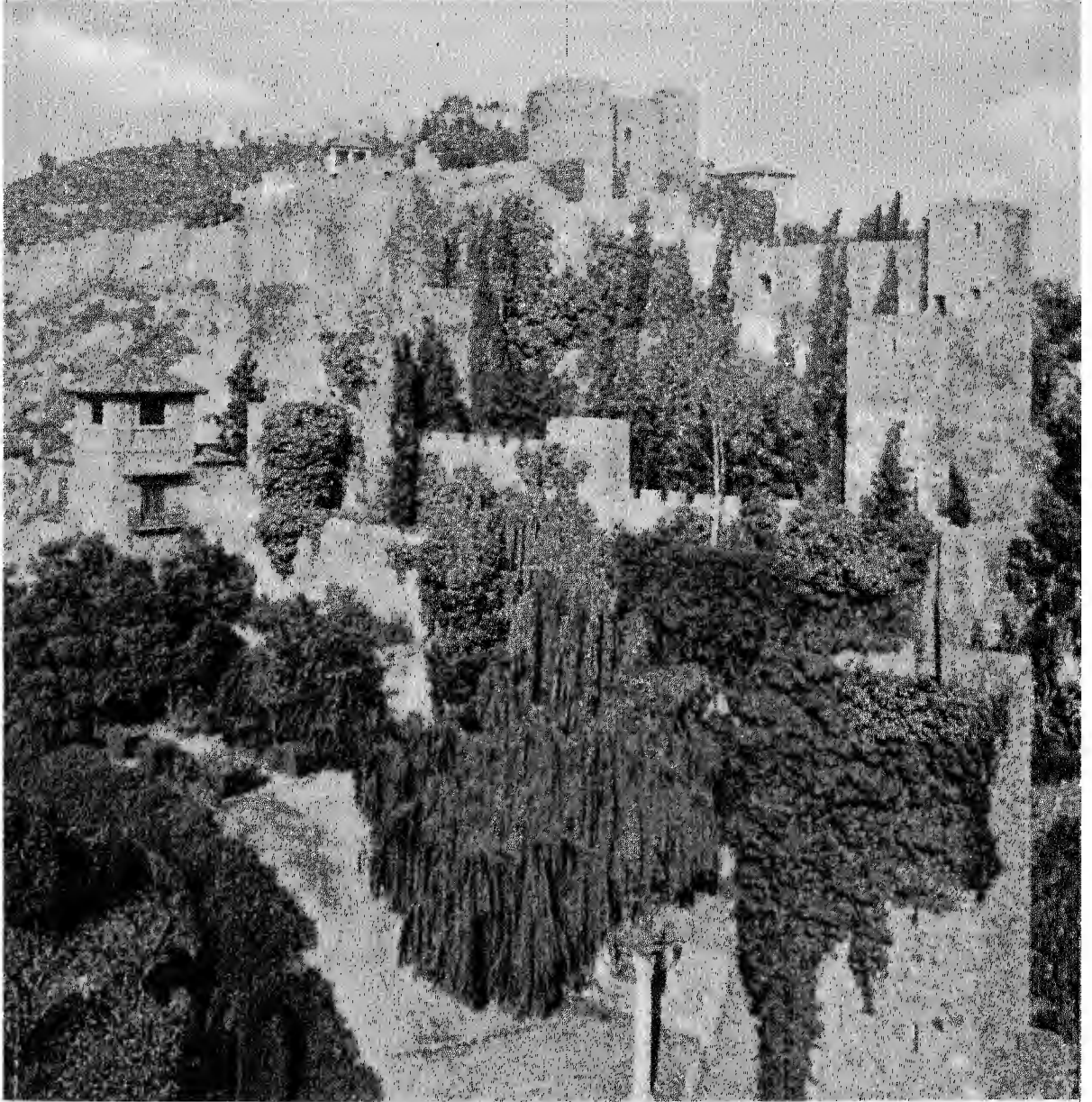
لا تنسى إذا مررت بمالقة أن تزور قصبتها أي حصنها الإسلامي الذي بُني على سفح جبل
الغارو، إنك تصعد على الجبل إلى مرامي القصبه على درج يسير الانحدار كهذا الذي تراه
هنا. في أعلى التل يقوم قصر جميل.

بنو جندل بن ابتاء القحطري الذي يقيم في
علا القصبة





بواب من حزام عصر الخلفاء
في جانب بئر حواء العنصره



جبل الفارو الذي تقوم عليه القصة وقد انشأوا هناك قلعة بعد
العصور الإسلامية تسمى حصن جبل الفارو تراها في هذه الصورة.

الجناح الكسير : شرق الأندلس

بعد أن تفرغ من زيارة الجنوب لا بد لك من جولة في شرق الأندلس ،
أو شرق إسبانيا . هذا الساحل الطويل الذي يطل به شبه الجزيرة على المغرب
والبحر الأبيض المتوسط . .

إنه عامر بالمدن والبلاد . عامر بالحياة والمزارع والخيرات ، وهو دون
شك أحفل نواحي شبه الجزيرة — بعد الجنوب — بالتاريخ وعبر التاريخ .

هذه المدن التي تراها اليوم تزين ذلك الساحل وما يابه من سهول ومزارع
ورباض وحقول كانت مجالات عاش فيها أجدادنا قروناً بعد قرون . ومدائن
أشرقت على العالم بنور العلم جيلاً بعد جيل . ومسارح لأهل الشعر والنثر
ورثنا عن أهلها دواوين بعد دواوين . .

وإذا أحصيت ما كان فيها من عمائر ومساجد وقصور وحصون وقلاع
وموان ودور صناعة ، لأربى على ما كان منها في الجنوب ، لأن الأرض
هنا . . في مجموعها — أخصب وأغنى بموارد الأرزاق . ومرافئ الساحل من
المريّة إلى طرّة كؤونة كانت مراكز كبرى لتجارة البحر والبر ، وكانت مراسيها
عامرة بالسفن من كل نوع ، تقطع البحر الأبيض إلى مرافئ المغرب ومصر
والشام وآسبة الصغرى وجزائر البحر وبلاد الروم والفرنج ، تروح محملة
بمصنوعات الأندلس وحاصلاته وتغدو حافلة بطرف الشرق وخيراته ،

وتنصبُ ثمرات هذا النشاط التجارى الحافل خيراً عميماً على أهل شرق الأندلس وبنى عمومهم فى نواحيه كلها . .

لا غرابة إذن فى أن تكون مدائن شرق الأندلس على أيامنا أغنى بلاده جميعاً ، وأن يكون تجاره ذوى أموال عريضة وثروات ذهبت فى صفحات الكتب أمثالا ، ومن ذلك أن رجلا من أهل دانية استضاف المنصور بن أبى عامر وجيشه كله ، وكانوا عشرات الألوف ما بين جندى وضابط ومعمارى وصانع وموكل بالسلاح والذخيرة والمؤونة ، أقاموا أربعة عشر يوماً ينفق عليهم هذا الرجل من ماله العريض دون تكلف أو مشقة . .

وكان الناس يضربون المثل بجمال بيوت المرية ودانية ومُرسية وبلنسية ، ويتحدثون عما فيها من فاخر الرياش وبديع التحف ، وما يزين حدائقها من شجر وزهر وريحان . .

وقد اختط العرب الكثير من هذه المدن والموانى ووضعوا لها أسماءها التى تسمى بها إلى اليوم ، فالمرية لفظ عربى صرف معناه الناظر المرتفع الذى يقام على شاطئ البحر ليقم فيه حراس يرقبون الشواطئ حذراً من غزاة البحر الذين نسميهم القرصان ، وهو لغة فى « المرئية » أى التى تُرى من بعيد .

وشبيه بذلك ميناء صغير إلى جوار مالقة يسمى اليوم الموشية ، وهى الموشية أى المحلاة أو المزينة .

ومرسية أيضاً لفظ عربى ، أصله المُرسيّة ، لغة فى المرساة ، أى التى أرسيت قواعدها ، وهذه الصيغة تشبه قولنا فى مصر : المُنشِية ، والمراد المنشأة أو المنشاة . . .

ولى جنوبى بلنسية ميناء نهري قرب مصب نهر شُقُر (خوكار) يسمى اليوم أَلْثِيرَا ، وهى الجزيرة أو جزيرة شقر ، وكانت على أيامنا ميناء عظيماً ومصرّاً زاهراً ، ومنها شاعرنا المجيد أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة ، ويلقب لهذا بالجزيرى أو الشقرى ، ولا بد أنك قرأت له شيئاً من روضياته التى

تحدث عن رياض شرق الأندلس وزهوره ومغانيه ، ولا غرابة لهذا في أن يسمى بالجنّان . .

وغير ذلك كثير . .

أما بقية بلاد شرق الأندلس، فقد وجدناها حين دخلناها قرى أو مجرد محارس وحصون ، فجعلناها مدناً زاهرة كانت على أيامنا من أزهر مراكز العمران في الدنيا . فبلنسية كانت فرضة صغيرة تسمى فالنسيا ، ودانية لم يكن فيها يوم دخلناها إلا معبد للإلهة ديانا ، ولقننت كانت معسكراً للرومان بعض الوقت ، فانظر كيف جعلنا منها مدناً وموانى عامرة أحيينا بها ذلك الساحل الشرقى ، وكان قبلنا صامتاً خاملاً يسميه الإغريق والرومان من بعدهم ساحل الأرانب . .

بل أنشأنا على هذا الساحل أول جمهورية تجارية في العصور الوسطى . .
فإلى الشمال قليلا من المرية الحالية تجد بلداً صغيراً يسمى اليوم « بتشينا » . .
بتشينا هذه أصلها العربى بَجَانَه ، وكان العرب ينطقون مثل هذا الاسم بالإمالة ، فيقولون : بَجِينَة ، ومن هنا جاء اسم « بتشينا » . . .
وبجانة اليوم قرية صغيرة على عشرة كيلومترات شمالى المرية ، ولكنها كانت طوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين شيئاً عظيماً في عالم التجارة والملاحة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، بل كان نشوؤها حدثاً من الأحداث الكبرى في تاريخ العصور الوسطى ، فقد كانت أول جمهورية تجارية بحرية عرفتها أوروبا .

ولعلك تعرف أن الجمهوريات التجارية البحرية أصبحت فيما بعد من مفاخر أوروبا وعمد قوتها ، وكلها أنشأتها سجاجات من التجار وأهل البحر : تختار الجماعة موقعا على الشاطئ يصلح مرفأ ويتفقون مع الملك أو الشريف صاحب السلطان في الناحية على أن يدعمهم ينشئون ميناءً ودارصناعة (ما نسميه نحن اليوم ترسانة ، واللفظ العربى « دار الصناعة » هو الذى دخل فى اللغات

الأوروبية : أرسينال) و يقيمون حول ذلك كله سوراً تأمن وراءه مدينتهم وأموالهم في مقابل إتاوة معينة يدفعونها للملك أو الشريف . هكذا نشأت البندقية (من اللفظ اللاتيني بِنْدِيكْتَا أى المباركة ، ومنه أيضاً جاء اسمها الأوروبي فينسيا) و جنوة و بيزا (بالعربية بيشة ، وإليها تنسب فناجين القهوة المعروفة عندنا بالبیشه) وأمالقوى وغيرها . .

وهكذا أيضاً نشأت بجانة على الساحل الشرقى للأندلس : جماعة من التجار وأهل البحر ممن كانوا يشتغلون بالتجارة بين إسبانيا وشواطئ المغرب رأوا أن نشاطهم في حاجة إلى تنظيم وأموالهم في حاجة إلى حماية ، فأنشأوا من أنفسهم اتحاداً واشتركوا في إنشاء مدينة صغيرة إلى جانب مدينة تينيس على شاطئ الجزائر وسموها تنس الجديدة (٢٦٢ / ٨٧٥) ، وبعد بضع سنوات استقرت بجاعة أخرى منهم في مرفأ وهران ومدنته ونظمته وجعلت منه ميناء بحرياً عظيماً (٢٩٠ / ٩٠٢) . وفعلوا مثل ذلك في مواضع أخرى من الشاطئ المغربى ، فظهرت موان عظيمة مثل بجاية وبونة ومرسى الدجاج ، وكثر المال في أيدي أولئك التجار ، واحتاجوا إلى مركز لهم في وطنهم الأندلس ، فاختاروا الخليج الذى تقع على مقربة منه بلدة بجانة وأنشأوا مرفأ صغيراً أقاموا له ناظوراً على البحر سمي مريّة بجانة عند مصب نهر صغير يسمى اليوم أندرش ، وكان إذ ذاك يسمى وادى بجانة ، ثم عرف الموقع بعد ذلك باسم المرية فقط .

وكانت هذه الناحية إقطاعاً واسعاً بيد جماعة من العرب اليمنيين ، تركته لهم الإمارة القرطبية على أن يقوموا بحماية السواحل من غزاة البحر ، ولهذا كانت الناحية تعرف بأرئش اليمن أى إقطاعهم . وقد عرف التجار كيف يعقدون اتفاقاً مع أولئك العرب يعطيهم الحق في إنشاء مدينة مسورة يحكمونها بأنفسهم دون أن يتدخل في أمرهم أحد ، وأقرت الإمارة القرطبية ذلك ، وأيدت جمهورية التجار وحقوقها ، بل تصدت لحمايتها عندما وقع الخلاف بينها وبين جيرانها الذين طمعوا في خيراتها .

وأزهت بجانة ومرية بجانة وتمدنتا وأصبحتا أكبر منطقة تجارية على الشاطئ الأندلسي ، وأنشأ التجار لأنفسهم حكومة محلية جمهورية فعلا ، أى يتولى السلطات فيها مجلس من التجار وأصحاب السفن وأهل البحر يرأسه واحد منهم ، واشتهر من أولئك الرؤساء عبد الرازق بن عيسى ، توسع البلد فى عهده واشترى التجار ما حول بجانة من أرض وأنشأوا فيها قرى عرفت كلها بوفرة المحاصيل .

وغنى الناس ، وتنهبوا إلى أن إقليمهم يضم عيّن ذواتى ماء معدنى يصفه الأطباء للمرضى فيفقدون للإقامة إلى جوارهما ، فأنشأوا الفنادق للمستشفيات كما تفعل البلديات اليوم ، فتوافد الناس إلى بجانة المركز التجارى السياحى الطبى الكبير ، وأنشأ التجار فى بلدتهم مسجداً جامعاً على نمط مسجد قرطبة الجامع ، « بناه عمر بن أسود ، وفيه قبو على قبة فيها أحد عشر حنية ، منصوبة على أربعة عشر عموداً ، فنقش أعاليه بنقوش عجيبة ، وبغربي القبو ثلاثة بلاطات أوسع من الشرقية على عمد صخر ، وفي الصحن بئر عذبة . وكان بمدينة بجانة أحد عشر حماماً ، وطُرُز حُرير ، ومتاجر رابحة . . » (*)

ولم يقتصر نشاط تلك الجمهورية على المتاجرة مع بلاد الإسلام ، بل كانت لها علاقات متصلة بالإمارات النصرانية ، لا تنفك السفن رائحة إليها غادية منها . وكان البسجانيون يرسلون مندوبين تجاريين يشبهون القناصل الذين كانت الجمهوريات التجارية الإيطالية ترسلهم إلى شتى البلاد فيقيمون فيها ممثلين لجمهورياتهم ومصالحها .

وبلغ ازدهار بجانة أوجه على أيام الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وقد أعجب الناصر بالمرية وعمرانها ، فنقل إليها قاعدة كورة المرية وأنشأ فيها عمائر ومنشآت كثيرة ، وأصبح البلد من ذلك الحين أكبر موانئ الأندلس الشرقية ، وانتقلت الأهمية من بجانة إليها .

هذا قليل يندلك على الكثير ، أردنا أن ندل به على عمران هذا الساحل

(*) الروض المطار ، ص ٣٨ .

وما كان من ازدهاره على أيامنا ، ولو وقفنا عند كل بلد من بلاده من حصن المُنكَب (المونيكار) شمالى مالتقة إلى طَرطُوشة على أبواب إمارة قطلونية لاحتجنا إلى فصول طوال ، ولكنى أقف بك عند مظهر آخر من مظاهر التمدن والعمران التي أدخلناها على ذلك الساحل الشرقي .

* * *

تعتبر منطقة بلنسية اليوم أخصب نواحي إسبانيا كلها وأوفرها محصولات ، ومعظم ما تصدره إسبانيا من البرتقال وما يتصل به من الموالح تخرجه أرض مديرية بلنسية وما يجاورها جنوباً مثل مُرسية وما يصاقها شمالاً وشرقاً من مديريات قسطليون وتيروال وكُونكة والبسيط ، فهذه النواحي كلها مزارع متصلة وحقول فسيحة ، كلها تروى بالقنوات ، ومديرية بلنسية نفسها والقسم الشمالى من مرسية والجنوبى من قسطليون تغطيها شبكة من القنوات تشبه ما نراه في دلتا النيل .

ولإذا نظرت إلى هذه النواحي في مصور جغرافى رأيت أنهاراً كثيرة تنبع من سلسلة جبال تمتد من الشمال إلى الجنوب تسمى بالسلسلة الأيبيرية ، تكملها إلى الجنوب جبال تعرف بجبال شقورة .

وهذه الأنهار قصيرة متشابهة وتكاد تكون متوازية ، أولها في الشمال نهر ميخاريس ، وهو لفظ عربى هو « مجرى » مجموعاً جمعاً إسبانياً بإضافة السين إليه . وعلى مصبه مدينة تسمى اليوم المازورة ، وهو لفظ عربى أيضاً : المعصرة . ويليه إلى الجنوب أكبر هذه الأنهار ويسمى اليوم الثورثيا ، وكان على أيامنا يسمى نهر بلنسية ، لأن هذا البلد يقع على مصبه ، وإلى جنوبه يقع نهر خوكار وهو اسم عربى أصله شُمر ، وهكذا حتى نصل إلى نهر سيجورا وهو عربى كذلك : شقورة ، وعليه تقع مرسية .

فلو تأملت أسماء المواضع التي تلقاك هناك لدهشت لعروبها الباقية إلى اليوم ، ويكفى أن نذكر مما حول بلنسية : بنى قاسم ، بنى قارلّه ، الكُدية ،

البيضاء ، الدموس ، الزناتة ، الزهيرة ، الأقواس ، العسكر ، البعل ،
الوريق ، البريج ، البريد ، أبو إسحاق ، القصر ، القيسية ، القلبي ، الضيعة ،
العدوة ، الفخار ، الخراصين ، الغار . . وغير ذلك كثير جداً ، حتى
ليخيل إليك أنك في قطر عربي .

وهذا إن دل على شيء فعلى أن العرب أنشأوا هذه المواضع كلها ، ولو
قد كانت موجودة قبلهم لبقيت أسماؤها الأولى ، وإن أخذت صورة عربية ،
لأن أسماء الأماكن لا تتغير إلا في النادر ، وكل ما يمكن أن يحدث لها هو أن
تعرب هيئتها وجرسها ، كما ترى في أسماء مديريات الوجه القبلي في مصر ،
فكلها - عدا واحدة - غير عربية ، ولكنها صبت في قالب العربي ،
فألفناها ولم نعد نفكر في أصولها ، والمهم أنها عربية على لساننا وفي إحساسنا .

وتعزى هذه العروبة الظاهرة في هذا القسم الشرقى إلى أن العرب هم الذين
عمروه ومدنوه ، وقد نزلته منهم قبائل يمنية كثيرة ، واليمانية في كل بلد نزلوه
على أيام الفتح أو بعده كانوا أهل معرفة بالزراعة والرعى ؛ ما نزلوا موضعاً
سهلاً قريب موارد الماء إلا اختلطوا بأهله واندرجوا في غمارهم وزرعوا وحفروا
العيون والقنوات وطبقوا ما توارثوه من أعصر اليمن القديمة من علم بهذه
الشؤون وخبرة فيها ، فحفروا في شرق الأندلس شبكة واسعة من القنوات
وأوصلت هذه الأنهر بعضها ببعض ، ونقبوا عن عيون الماء وفجروها .

ومن الظواهر المائية في هذه المنطقة أن بعض مساليل الماء المنحدرة من
الجبال تفيض تحت الأرض وتجري أنهاراً جوفية ، وقد يطفر الماء على سطح
الأرض إذا صادف وادياً منخفض القاع . وقد عمد العرب عندما صادفوا
هذه الأنهار الجوفية التي تنفجر في قيعان الأودية إلى توسيع هذه القيعان حتى
تصبح حوضاً فسيحاً يمتلئ بالماء ، فتكون منه بحيرة تغتذى بهذا الماء الجوفى .
ولى جنوبى بلنسية بالذات تجد الآن بحيرة رحبة من هذا النوع تسمى إلى
اليوم البفسيرة (البحيرة) ، أخرج العرب منها القنوات ورفعوا إليها الماء
بالنواعير فاستحال ما حولها إلى جنة خضراء وارفة الظلال

ولا زالت كل مصطلحات الرى والسقى فى هذه النواحي عربية إلى الآن ، فيقولون للقناة أو الترعة أثيكيا وهى الساقية ، وكذا كان العرب يسمون الترعة ، أما ما نسميه نحن فى مصر بالساقية فلا زال يحمل اسم الناعورة العربى محرفاً : لانُوريا ، وهم يسمون الترعة الصغيرة لاكانيا وهى القناة ، والضبعة لا زالت تسمى لا ألديا ، وجُب الماء لا زال يسمى الخيسى ، والقرية تسمى لا ألكيريا .

والعرب هم الذين أدخلوا فى الأندلس زراعة الأرز والزيتون والبرتقال والليمون وقصب السكر والقطن واللوبياء والمشمش والخوخ والكثيرى وغيرها كثير . ونستطيع أن نقول إنه باستثناء القمح والعنب ، لا نجد نباتاً رئيسياً إلا وقد دخل الجزيرة على يد العرب ، ولا زالت أسماء معظم هذه المحصولات وما يتفرع منها عربية ، بل لا زالوا يستعملون أسماءها العربية فى حين انصرفنا نحن عنها فى بعض الحالات ، فنحن مثلاً نقول : « برتقال » وهم يقولون : « نارانخا » .. ونارنخا هى النارنجة ، فارسى معرب ، وهو الاسم الذى كان أجدادنا يطلقونه على تلك الفاكهة . أما لفظ « برتقال » فقد استوردناه نحن فيما بعد ، وهو مشتق من « پورتوس كالوس » وهو الاسم القديم لبلدة پورتو أو پورتو فى البرتغال ، ومنه جاء اسم ذلك القطر والفاكهة التى أتت منه .

وعن طريق الأندلس انتقل الكثير من هذه المزروعات بأسمائه إلى أوروبا ، كالبرتقال الذى يسمى هناك بصيغ مختلفة مشتقة من نارنج (أورانج) والقطن والمشمش الذى يسميه الإسبان البرقوق (الباريكوك) ومنه جاء لفظ أپريكوت ، وغير ذلك كثير .

ولم ينهض بلد عربى بالزراعة من حرفة إلى فن بمثل ما فعل أهل الأندلس ، ولا يقتصر هذا على نباتات المحاصيل والشجريات بل شمل الأعشاب وهى النباتات ذات الخواص الطبية والزهور ، وللأندلس فى تاريخنا العلمى من النباتيين والعشابين والزهارين من يعدون من مفاخر التاريخ الحضارى كله ، كأبى جعفر أحمد بن محمد بن السيد الغافقى وأبى العباس أحمد بن محمد

الملقب بابن الرومية الإشبيلي وضياء الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن البيطار المالقي ، وغيرهم كثيرون .

أما الزهور فلم يكن في العصور الوسطى أعرف بها من الأندلسيين ، ولم يقتصر العلم بها وتمييز بعضها عن بعض على أهل العلم والاختصاص ، بل كانت جزءاً من الثقافة العامة للشعب ، وكانوا يسمونها الأنوار ، جمع نَوَار ، وبين أيدي المشتغلين بالأدب كتاب لطيف لأبي الوليد إسماعيل الحميري سماه « البديع في وصف الربيع » ألفه فيما قاله شعراء الأندلس في الزهور ، وذكر فيه أسماء ٣٢ زهرة ، وما أظن أن أحداً منا يستطيع أن يذكر عشرة أسماء عربية لعشر زهرات . .

ومن أغرب ما بقي من نُظم العرب المتصلة بالرى والماء في بلنسية ما يعرف إلى اليوم بمحكمة الماء (تريبونال دى لاس أجوس) وتعقد إلى اليوم على باب الكاتدرائية في الساعة الثانية عشرة ظهر كل خميس ، فتجاس على باب الكنيسة هيئة هذه المحكمة ، وتتألف من نفر من الخبراء بشئون الرى ، كل منهم يمثل ناحية من نواحي مديرية بلنسية ، ويرأسها مندوب من الحكومة . فإذا دقت الساعة نهض رجل في ملابس سوداء خاصة يقوم بمهمة حاجب المحكمة فينادى أصحاب الظلامات أن يتقدموا بظلاماتهم ، فيبدأون بحسب نواحيهم ، فتستمع لهم هيئة المحكمة ، ثم تتداول ، ثم يتلو الرئيس الحكم ، وهو حكم ملزم واجب النفاذ ولا يقبل المناقشة أو الاستئناف . والقضايا كلها قضايا رى وتوزيع مياه : رجل يقول إن جاره فتح سد ترعته قبل مواعده المحدد له في التقسيم ، وآخر يتهم جاراً له بأنه وسع فتحة السدّة ليحصل على ماء أكثر ، وثالث يقول إن جيرانه فتحوا ترعة صغيرة (يسمونها سارقة) ليحصل على ماء ليس من حقه ، وهكذا . . .

وزوار بلنسية من السائحين يحرصون أشد الحرص على شهود هذه المحكمة الطريفة ، حاسبين أنها تقليد إسباني صرف ، وهى في الواقع تقليد عربي استنه

العرب أول ما نزلوا إقليم بلنسية ، فكان القاضي يجلس لسماع شكاوى الزراع فيما يتصل بالماء وتوزيعه صباح يوم الخميس على باب الجامع ، لأن الكثيرين من المتقاضين كانوا غير مسلمين ممن لا يدخلون المسجد ، فيقعد لهم القاضي على بابه حتى يصلوا إليه ؛ وقد كان مسجد بلنسية الجامع يقوم في نفس موضع هذه الكنيسة .

* * *

وفي ميناء بلنسية نرى سفناً كثيرة معظمها آت من بلاد شمال أوروبا : السويد والنرويج والدانيمركة وهولاندا وإنجلترا ، كلها مخصصة لحمل البرتقال والليمون . هذه السفن آتت لتتنقل إلى بلاد الشمال شيئاً من شمس الجنوب وقد صاغتها قدرة الخالق كرات ذهبية هي البرتقال والليمون . إن بلنسية تصدر منها ملايين الصناديق كل سنة ، وغرفتها التجارية توقع عقوداً تحتكر بها الكثير من أسواق الشمال . لم أر من الغرف التجارية في الدنيا غرفة هي أنشط من هذه ، ودارها التي أنشأتها وسط البلد ، وتسمى « الأثينيو ميركانتيل » جديرة منك بزيارة . إنها دار ثقافة وتجارة ، دار نشاط وعمل وتسلية ، تضم مقاهي ومطعماً ومعارض للفن وقاعات للمسرح والمحاضرات وغرفاً للاجتماعات ومكتبة عظيمة ..

ومن بلنسية تستطيع أن تعبر البحر إلى مَيُورُقة . إنها أكبر الجزر التي يتألف منها الأرخبيل المسمى بالبليار ، والعرب يسمونها الجزائر الشرقية ، وأكبرها هذه الجزيرة ثم مَنُورُقة ثم يابسة (إيبيثا) . مجموعة من الجزر ساجية بين أمواج البحر وكل منها كأنها جنة صغيرة تظفر فيها بما شئت من رياض وجبال وشطآن رائعة الجمال ونسائم تبعث في النفس الحياة ..

جزيرة ميورقة اليوم متزه من متزهات أوروبا ، وحركة السياحة فيها تستوقف النظر ، ومطارها الصغير يكاد يكون من أعمر مطارات أوروبا بالحركة ، والطائرات تقبل إليه من كل عواصم أوروبا مباشرة .

هذه الجزائر كانت لنا في يوم من الأيام ، أول من غزاها عبدالله بن موسى بن نصير سنة ٩٠ / ٧٠٨ أى قبل فتح الأندلس بثلاث سنوات ، ثم نسيناها زمناً حتى تنبه عبد الرحمن الأوسط إلى أهميتها لحماية شواطئ الأندلس الشرقية ، فأرسل إليها أسطولاً من ثلاثمائة سفينة سنة ٢٣٤ / ٨٤٨ - ٨٤٩ ضمها إلى دولته . وبعد ذلك بست وخمسين سنة ، أى سنة ٢٩١ / ٩٠٣ ، مر بجزيرة ميورقة رجل من أهل دانية يسمى عصام الخولاني ، كان في طريقه إلى الحج ، وألجأته العواصف إلى شواطئها ، ف قضى فيها وقتاً أنفق في التجول في نواحيها ، فتبينت له أهميتها وثروتها . ثم مضى فأدى الفريضة ، وعاد إلى الأندلس ، فمضى إلى الأمير عبدالله ، وبسط له الأمر . ثم جمع نفراً من المجاهدين المتطوعين وعبر البحر إلى الجزائر الشرقية وأتم فتحها ، وأنشأ فيها نظاماً إسلامياً ، وأقام المساجد . وأقره الأمير عبد الرحمن على حكمها ، فظل عشر سنوات ، وخلفه ابنه عبدالله بن عصام الخولاني إلى سنة ٣٥٠ / ٩٦١ حيث ذهب إلى الحجاز ليحج ، فلما وصل إلى الأراضى المقدسة آثر الاعتزال هناك تاركاً الملك لمن أراد .

وتوافد المسلمون على تلك الجزر فعمروها ، حتى إذا كانت سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ (بعد زوال الخلافة القرطبية) نهض إليها مجاهد العامري ، وكان أول أمره أميراً صغيراً استبد بناحية دانية ، ومن هناك تطلع إلى تلك الجزر التي كانت أشبه بجناح بعيد منسى من دولة الإسلام في الأندلس ، فعبّر إليها واستقر بها وضمها إلى عمله . واجتذبه البحر وشجعه ما لقي من التوفيق ، فأنشأ أسطولاً أصبح من أقوى أساطيل البحر الأبيض خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، وبهذا الأسطول غزا سرّدانية ، واشتبك في صراع مرير مع الجمهوريات الإيطالية التي كانت تسيطر على مياه الخوض الغربي لهذا البحر .

وأدى به الصراع إلى أن ينزل بأسطوله على شاطئ إيطاليا قرب روما ، فأغار على ضواحيها ، ثم عاد إلى سرّدانية وقد تألبت قوى النصرانية كلها

ضده ، ونهضت نحوه ، ودارت بينها وبينه معركة عنيفة هُزم فيها ووقع ابنه على أسيراً . فتخلّى عن سردانية ، وعاد إلى ميورقة ، ثم إلى دانية ، ومات بعد قليل . أما ابنه على فقد ظل في الأسر عشرين سنة ، ثم فُك سراحه ، فعاد وتولى حكم دانية والجزائر الشرقية وتلقب بإقبال الدولة .

وفي أيام المرابطين استقر في هذه الجزر فارس محارب له في تاريخ الجهاد صفحات مشرقة ، هو يحيى بن غانية المسوّفى ، وخلفه عليها أبنائه ، وقد اختلفوا مع الموحيدين وثار بينهم صراع عنيف لم ينته إلا أواخر القرن الثاني عشر الميلادى أيام محمد الناصر رابع خلفاء الموحيدين . ومن أسف أن هذا الصراع شغل بنى غانية عن ميورقة ، فصرّفوا جهدهم في قتال الموحيدين في تونس والجزائر .

وقد سقطت الجزر الشرقية قبل أن تسقط بلنسية ، نهض إليها خائمه الأول ملك أرغون ، وكان إذ ذاك شاباً جاوزت سنه العشرين بقليل ، فغزا هذه الجزائر وأخرجها من دار الإسلام ، وتكفل القساوسة وفرسان الاسبتيارية الذين كانوا معه بمحو ما وجدوه فيها من معالم العروبة والإسلام (٦٣٠ / ١٢٣٢) .

ولكن الجزائر ظلت عربية إلى ما بعد ذلك بزمان طويل ، فإلى القرن الخامس عشر كان معظم أسماء المواضع لا زال عربياً ، وإلى الآن ، ورغم ما اشتهر به القَطْلُونيون الذين استولوا على الجزيرة من عصبية دينية جنسية ، لا زال الكثير من هذه المعالم عربياً . ففي مدينة پالما قاعدة ميورقة تجد قصر المدينة ، ولا شك أنه كان حصناً عربياً ، تدل على ذلك أسواره وواجهته وبوابته والعقود العربية بداخله . وهو يقوم مواجهاً للكاتدرائية ، وتقوم في الموضع الذى كان فيه المسجد الجامع .

وكانت أسوار البلد العربى تتصل بهذا القصر الكبير ، ولا زال جزء منها باقياً على حاله وراء الكاتدرائية من ناحية البحر . وإذا وقفت عند هذا الجزء

الباقى رأيت على مقربة منك ساحة واسعة خلف الكنيسة تسمى اليوم: الميرادور
أى الناظور ، ومن جانب من هذا الناظور فوق ربوة عالية ترى البلد تحمها
وعلى سفحها ، ويتردد فى خاطرك بيتان من الشعر قالهما شاعرنا الأندلسى ابن
النبّانة الدانى يصف ذلك البلد الذى تراه :

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس
فكان أزهار الرياض مدامة وكان ساحات الديار كوؤوس

فإذا أردت أن تستعيد ذكريات ميورقة العربية فامض إلى داخل البلد ،
مخلفاً الشارع الرئيسى (شارع بورن) إلى يسارك ، فتفضى إلى شوارع وأزقة
لا زالت تحمل طابع العصور الوسطى . ومن بين هذه الشوارع واحد يسمى
شارع المديّنة إذا سرت فيه قليلاً رأيت عقداً عربياً ضخماً كأنه قنطرة فوق
الطريق .

وفى هذا الشارع متحف أثرى سموه باسم رايغوندو لوليؤو الفيلسوف
المتصوف المعروف ، وهو ميورقى ، وهو من تلاميذ الثقافة العربية ، وإن
كان قد استعمل ما تعلمه منا لمحاربة الإسلام . فقد درس العربية وأنقنها وفتن
بالصوفى الأندلسى محيى الدين بن عربى وقرأ كل ما كتبه ، وقبس منه بكلتا
يديه ، وألف كتباً فى الرد على الإسلام ، ورحل إلى المغرب ليُبشّر بالمسيحية ،
وهناك خالط العباد والزهاد ، ثم عاد إلى بلده دون أن ينصّر مسلماً واحداً .

وفى تجوالك فى نواحي الجزيرة ترى ، وأنت فى طريقك إلى بلدة
ماناكور ، أشجار زيتون يقال إنها أقدم أشجار زيتون على وجه الأرض ،
حتى ليزعمون لك أن بعضها عمره ألف سنة ... لا شك أن بعض هذه الأشجار
من غرس أبدينا ، غرسناها ومضيّنا ، وبقيت شاهداً علينا ...

وفى طريق العودة يمرون بك بوادى موسى (قال دى موسى) لتصل إلى
قصر يحمل ذكريات يعرفها من يدرسون تاريخ الأدب فى القرن الماضى ،
ففى هذا القصر عاش بضعة أشهر الموسيقى المعروف فريدريش شوبان .

كان السل قد ثقل عليه ، فنصحوه بأن يسرع إلى ميورقة يلتمس في شمسها دواءً لصدوره . وأقبل وفي صحبته الكاتبة جورج صاند . وكان سيئ الحظ ، فما طلعت الشمس طوال الأشهر التي قضاها هناك إلا لماماً ، وتوالى هطول المطر ، فزادت علته ، وظل ينتظر البيانو الذي أرسلوه إليه من باريس ، فلم يصل إلا بعد أن رحل . وقد وصفت جورج صاند ذلك كله في كتاب لطيف سمته الرحلة الميورقية . .

* * *

ولكنك إذا بحثت عن آثارنا المعمارية في بلنسية لم تجد إلا أطلالا وبقايا ومعالم لا تكاد تستبين ، بل إن الآثار العربية في تلك الناحية التي أنشأ العرب عمرانها أقل بكثير مما نجد في مدن لم يكن لنا فيها مثل ذلك العمل الكبير ، مثل أبيله وشقوبية وما يليها إلى الشمال . وأنت تدهش لهذا ، وقد يتبادر إلى ذهنك الشك فيما حدثناك به من عروبة شرق الأندلس ، ولكن لذلك أسباباً كثيرة أهمها ثلاثة :

الأول أن شرق الأندلس تعرض ابتداءً من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، الحادى عشر الميلادى ، لأعنف هجمات الإسبان المنحدرين من الشمال والشمال الغربى . وقبل أن يعبر المرابطون إلى الأندلس سنة ٤٧٨/ ١٠٨٦ عاث في هذه الناحية فارس مغامر من أقصى وأعنى من ابتلى بهم الأندلس من المحاربين يسمى رودريجو دياث دى بيبار - ويعرف عادة باسم السيد القمبيطور (الكامبيادور) - جمع حوله ألوفاً من قطاع الطرق وشذاذ الآفاق ومضى يعيث في شرق الأندلس فساداً ، وصب عذابه على بلنسية وإقليمها حتى دمرها تدميراً ذريعاً . حاصر بلنسية حصاراً رهيباً ، وقسا على أهلها قسوة لم تعرف الحرب بين الإسلام والنصرانية في أى ناحية لها مثيلاً ، حتى كان يحرق الناس أحياءً أو يلقي بهم إلى الكلاب الضارية تنهش لحومهم وهم أحياء ، ثم اقتحم بلنسية وأذاق أهلها من الويل ما تقشعر

له الأبدان ، حتى لقد أحرق قاضى البلد ونفراً من شيوخه أحياء ، ودامت هذه الحنة نحو خمس عشرة سنة ، فلم تخف حدثها إلا بعد موت السيد وتمكن المرابطين من استرجاع سرقسطة وحماية شرق الأندلس فترة من الزمان . وبعد أن سقطت سرقسطة نهائياً سنة ١١١٨/٥١٢ تفتحت أبواب شرق الأندلس وأصبح ميداناً للغارات والنهب والحروب ، فهدمت بلاده وقراه وقتل من أهله ألوف وهرب منهم ألوف . واستمر الحال على ذلك قرناً من الزمان تحولت فيه هذه النواحي ومدائنها إلى خراب ، فلما استولى عليها النصارى كانت حطاماً وأطلالا .

والسبب الثانى هو أن الذين تولوا حرب المسلمين فى هذه النواحي وانتزعوها من أيديهم (عدا مرسية وما يليها جنوباً) كانوا ملوك أرغون وأمراء قطلونية وجاعات كثيرة من الفرنسيين والمغامرين من شتى نواحي أوروبا ، وهؤلاء جميعاً كانوا يحاربون حرب تدمير وإبادة دون رحمة أو هوادة ، وكلما وقع فى يدهم بلد بادروا بإزالة كل أثر للمسلمين فيه، من مسجد أو قصر أو حام أو حصن ، فلم يسلم من هذا المصير إلا أطلال لا تكاد تذكر .

والسبب الثالث أنه رغم ذلك بقيت فى هذه النواحي جاعات عربية إسلامية كبيرة فى جميع مدنه من أقصى الشمال عند لاردة ووشقة إلى أقصى الجنوب عند دانية ، وهؤلاء - كغيرهم ممن استغلب النصارى بلادهم وأخضعوهم لحكمهم - كانوا يسمون بالموريسكيين (جمع موريسكو وهو تصغير مؤر أو مغربى أو عربى أو مسلم عموماً) وكانوا موضعاً لأعنف إجراءات التنصير بالعنف ومحاكم التحقيق ، حتى كان الاشتباه فى أن رجلاً يخفى صحيفة مكتوبة بالعربية مبرراً كافياً لإهلاكه هو وأهله، ثم أخرج من بقى منهم بقرار عام بطرد الموريسكيين من إسبانيا أصدره فيليب الثالث فى ٢٢ سبتمبر ١٦٠٦ ، وكانت نتيجة ذلك أن تلاشى ما كان قد بقى هناك للمسلمين من آثار ...

* * *

لهذا لن تجد في شرق الأندلس كله — من المرية فصاعداً — إلا أطلالا خافية كأنها تستحي من الزمان، وربما كان أكبر ما بقي هناك قصبة المرية، وهي أطلال حصن فسيح يقع شمالي المدينة على حافة جبل عال يسمى جبل غادر، وهو منسوب إلى خيران العامري الذي استبد بالمرية بعد انقراط عقد الخلافة وحكمها من سنة ١٠١٢ إلى ١٠٢٨ .

وأطلال هذه القصبة تحدثك عما كانت عليه أيام بانها .. وأنت تراها إذا أقبلت من بعيد، فترى شيئاً هائلاً كأنه سور مدينة فسيحة تلاشت مبانيها ولم يبق غير لإطارها، وهو منظر يبعث في النفس حسرة وشيئاً من روع عميق ..

طول كل ضلع من أضلاع هذا السور ٥٣٠ متراً، تقوم على أركانه وفي أثنائه الأبراج، وهو مبنى على ثلاث درجات .

وهذا القسم من القصبة الذي يواجهك وأنت مقبل من المدينة بناء جديد أقامه فرناندو وإيزابيلا ليكون حصناً قائماً بذاته، فهو ليس من آثارنا وإن أشبهها ...

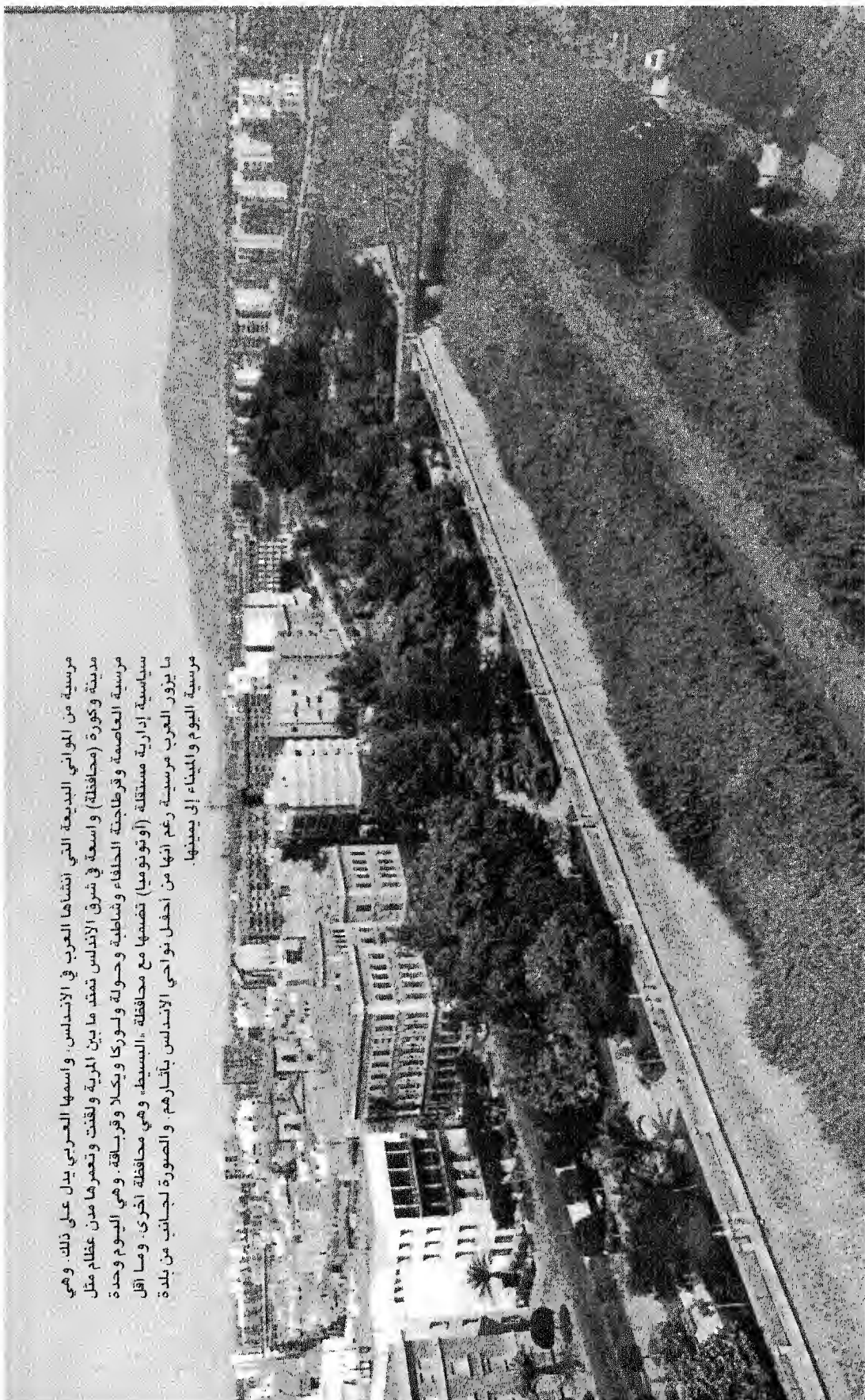
والشعور الذي يستولى على النفس إذا أفضى الإنسان داخل هذه الأسوار أنه في عالم الموتى، فقد زرعوا أشجاراً ونسقوا حديقة ذات أزهار تبدو لك في ظلال الصمت الشامل كأنها وضعت تحية للذاهبين .

وهذه القصبة تذكرك بقصبة مالقة، إلا أن هذه الأخيرة خرائب بالمعنى الصحيح إلا عدة بوابات عربية على هيئة حدوة الحصان .

وفي مرسية التي حدثناك عنها لا تكاد تجد شيئاً يذكرك بماضيها العربي، فيما خلا دروبا وشوارع ضيقة تذكرك ببعض قصبات المدن المغربية .

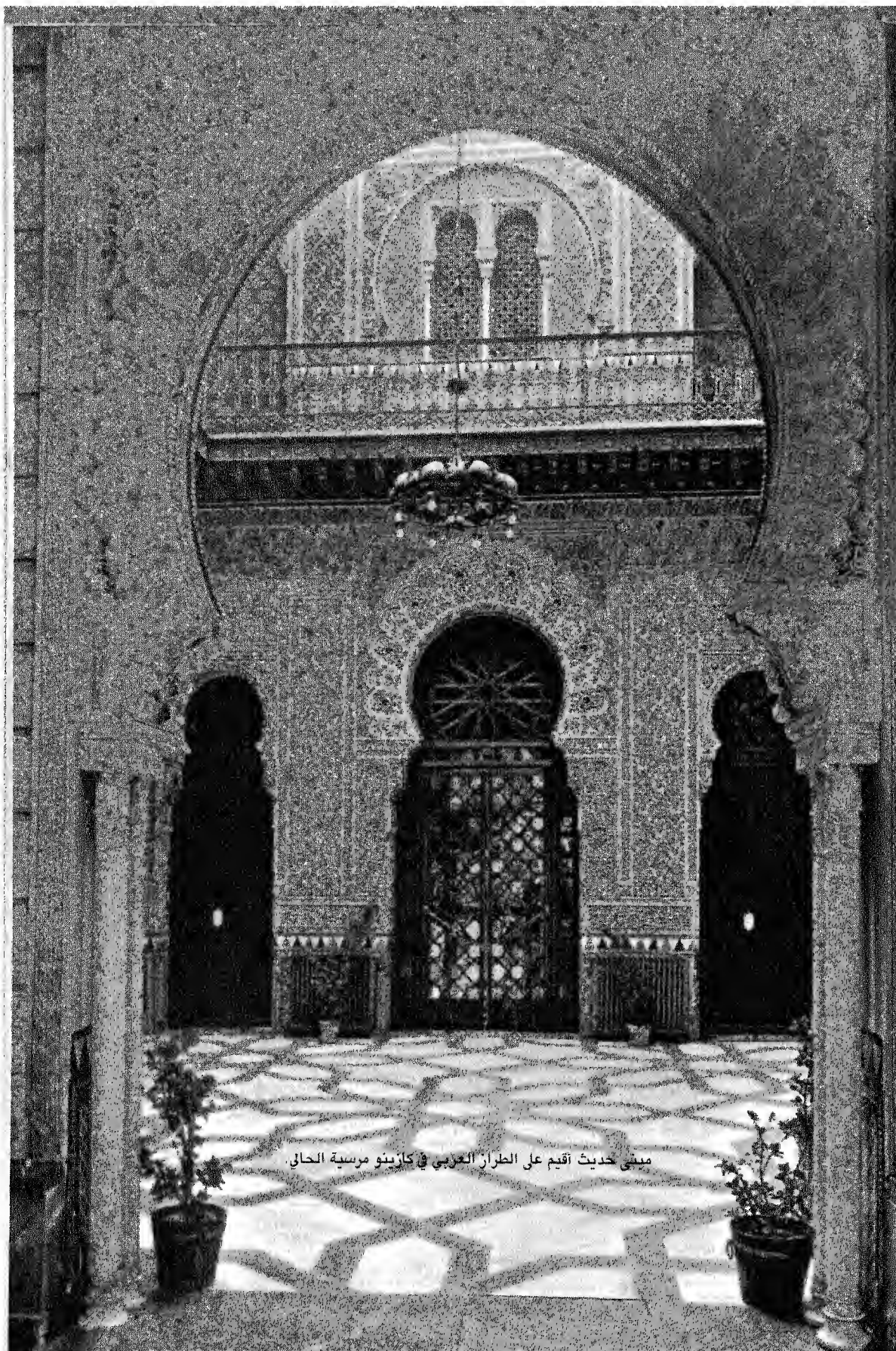
ومن بلنسييتنا لم يبق شيء ذو بال . أمامك مدينة حديثة تشبه في مجموعها موافى البحر الأبيض الأوروبي، ولكنك — لأمر ما — تشعر من حين إلى حين أنك في الإسكندرية . نفس الوجوه والأصوات والشوارع والميادين،

مرسية من الموالي البيعة التي انشأها العرب في الاندلس. واسمها العربي يدل على ذلك. وهي مدينة وكورة (محافظة) واسعة في شرق الاندلس تمتد ما بين المرية ولقنت وتعمرها مدن عظام مثل مرسية العاصمة، وقرطاجنة الحلفاء وشاطبة وحولة ولوركا ويكلا وقربلة، وهي اليوم وحدة سياسية إدارية مستقلة (أوتونوميا) تضمها مع محافظة البسيط، وهي محافظة أخرى. وما أقل ما يروى العرب مرسية رغم أنها من أحفل نواحي الاندلس بأبنائهم. والصورة لجانب من بلدة مرسية اليوم والميناء إلى يمينها.





القطرة القديمة التي كانت تصل ميناء مرسية العربي القديم بالمدينة العربية
التي اتسعت. والآن أصبحت الميناء ضخمة كأيها بلد قائم بذاته، وكذلك
المدينة الداخلية.



مبنى حديث أقيم على الطراز العربي في كازينو مرسية الحالي.

مما شهدته بطلون من اهل مصر في ايامها الاولى
فحصت من اعمدة الغرب على يد اهل مصر عند احتلال



حتى ليخيل إليك أنك إذا تطلعت إلى البلد وأنت على شاطئ البحر رأيت
جامع أبي العباس المرسى . .

كأنما روحه لا زالت تحوم على مسقط رأسه ، وإن ثوى جسده بعيداً
على الطرف الثانى من البحر المتوسط . .
ونستمر فى رحلتنا حتى فصل إلى سرقسطة . .

وسرقسطة فى تاريخنا الفكرى شىء عظيم ، جامعها وضع أساسه الصحابى
حنش بن عبدالله الصنعانى ، وقد أخرجت علماء وشعراء وأدباء وفلاسفة
أشهرهم أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة . .

وكانت سرقسطة وإقليمها (حوض نهر إبره) من أحفل نواحي الأندلس
بالعروبة والإسلام ، وكان أهلها ذوى بسالة وحزم وجراءة ، استطاعوا وهم
على أبواب دار الحرب ، بل داخلها ، أن يصونوا قطرهم ويحتفظوا بعاصمتهم
ما يزيد على أربعة قرون كلها حروب ووقائع . .

ولم يبق من آثارنا فيها إلا جزء من قصر الجعفرية ، وهو من بناء أبي
جعفر أحمد بن هود الملقب بالملتدر بالله من ملوك الطوائف ، وكان أقوى
هؤلاء الملوك وأوسعهم ذكراً بعد المعتمد بن عباد ، وكان أقدرهم على مغالبة
شدائد عصره الفياض بالأسى ، وأجرئهم وأثبتهم فى مواجهة الضغط النصرانى
ولا بد أن هذا القصر كان آية من آيات الجمال المعمارى أيام صاحبه ، فقد
كان يسمى بقصر السرور ، وللشعراء فى التغنى بجماله قصائد وقصائد . .

وهو قصر وحصن فى آن واحد ، وربما كان الحصن الوحيد من نوعه
فى العالم ، لأنه لا يقوم على جبل أو ربوة وإنما فى طرف البلد من غربيه ،
وهو مستطيل الهيئة ، طوله ٨٠ متراً وعرضه ٦٨ .

وقد جددوا القاعة الكبرى فى القصر على النظام الذى ساروا عليه فى
تجديد قصر الزهراء ، جمعوا ما عثروا عليه من الأعمدة ورؤوسها وأقواسها
وأعادوا بناءه عن علم وفن جديرين بالإعجاب ، فبدت القاعة فى جمالها ورونقها

وأعمدتها وأقواسها كما كانت في القرن الحادى عشر . والسقف وحده آية من آيات الجمال . . .

وأنت حينما نظرت وجدت شيئاً ترتاح إليه العين ويشرح الصدر ، أعمدة غاية فى الرقة ذات رؤوس جمعت كل بديع من الحلية والزينة ، وأقواساً جميلة يبدو بوضوح أنها تقليد لأقواس مسجد قرطبة الجامع . .

وفى القصر بقايا مسجد يذكره محرابه بمحراب مسجد قرطبة أيضاً ، وإن كان الذين زينوه أسرفوا فى زخرفته حتى ليعسر أن تقرأ ما عليه من بقايا كتاباته ، كأنما تعمد الفنان تعقيدها حتى تخفى فحواها عن الناظرين . .

ولا زالت قطع كثيرة من مخلفات هذا القصر فى متحفى سرقسطة ومدير الأثرين ، وقد أعادوا تركيب بعض هذه القطع فى هذين المتحفين ، والبوابة المثقلة بالزخارف فى متحف مدريد آية من آيات الفن العربى الأصيل .

وكاتدرائية سرقسطة من أشهر كنائس إسبانيا وأعظمها قداسة . إنها كنيسة ضخمة تقوم على ضفة نهر إبره ، قبابها الكثيرة تبدوا لك من بعيد وكأنها أبراج الكريملين ، وهى معمّدة باسم عذراء العمود « نويسترا سينيورا دل بيلار » حامية الجنس الإسبانى فى كل مكان . إنها ذات قداسة عظمى فى كل مكان يتكلمون فيه الإسبانية على وجه الأرض . الأعياد الخاصة بعذراء العمود فى سرقسطة فرجة جديرة بأن يُستمتع بها . يقيمون فى صحن الصلاة الأكبر ، وإلى جانب المصّلب المثقل بالزخارف واللوحات وآنية الذهب والفضة شبه مسرح صغير ترى فيه تمثالا صغيراً للعذراء محمولا على يدي قس وسط ضوء باهر مسلط عليه ، والناس يمرون واحداً واحداً يقبلون التمثال فى خشوع . . .

مكان هذه الكنيسة كان يقوم مسجد سرقسطة الجامع . المسجد الذى اختطه الصحابى حنش الصنعانى ، ثم توالى عليه الزيادات والتجديدات حتى أصبح من أعظم مساجد الإسلام . لم يبق من هذا المسجد إلا أثر باهت كأنه

بقايا وشم على ظاهر اليد كما يقول الشاعر الجاهلي : قوس مزدوج يقوم على عمود رخام في الوسط ودعامات حجر في الجانبين . . تراها إذا شئت في سرداب الكنيسة ، أو دورها الأسفل .

كانت سرقسطة على أيامنا قاعدة لقطر كبير يضم كُوراً (مديريات) عديدة ويسمى في مجموعته بالثغر الأعلى ، ويمتد من سفوح جبال البُرت (البرانس) حتى أحواز طَرطوشة جنوبي برشلونة الحالية .

خلال أيام الفتح الأولى توافد العرب على هذه الناحية ، اجتذبهم إليها نهر إِبْرُه بمجره الواسع العريض . لم يحب العرب شيئاً كما أحبوا الأنهار الكبيرة المتدفقة بالماء . نوع من الشوق إلى رؤية الماء يجري إلى غير نهاية كان يجتذب البدوي الذي لم يكن يرى الماء إلا في قاع بئر أو في بركة كأنها مرآة غيبَ المطر . .

اجتذبهم إلى الثغر الأعلى كذلك حب الجهاد والرباط . هنا على أبواب دار الحرب أقامت جماعات من العرب مرابطة مجاهدة ، كأنها درع يقى ما يليها من بلاد العروبة والإسلام .

من هنا أيضاً صدرت الجيوش التي غزت جنوب فرنسا واحتلته قرابة نصف قرن . خلال الخمسين سنة الأولى من تاريخنا في شبه الجزيرة كان حكام الثغر الأعلى يقيمون في أربونة (نَرْبُون) ثم انتقلوا إلى طَرَسُونَة، وهي إلى الشمال الغربي من سرقسطة على مقربة من الضفة اليمنى لنهر إِبْرُه . من سرقسطة وطرسونة انتشروا في الناحية كلها وعمرؤا أرجاءها ، وحولوا ما وجدوه فيها من قرى ومدن صغار إلى مدن كبار ذات رونق وجمال .

أشهر هذه المدن ثلاث : لارِدَة (ليريدا) ووَشْقَة (أويسكا) وتُطِيَة (توديلا) . .

المدينتان الأوليان أصبحت كل منهما اليوم قاعدة مديرية تحمل نفس الاسم . .

الثالثة ، وهى تطيلة ، مركز إدارى فى مديرية نَبْرَة التى نكتبها عادة :
نافار . .

هذه المدن الثلاث ، وخاصة تطيلة ، لا زالت تحتفظ بطابعها العربى :
الشوارع الصغيرة الضيقة المبلطة بالزلط الصغير ، البيوت ذات الوجهات
الكبيرة وراءها الأبهاء فيها النافورات ، السميت الجميل وسمة الوقار التى تميز
الناس أجمعين . هنا وهناك تلمح عيناك قوساً عربياً أو بوابة بيت تذكرك
بأخت لها فى المغرب أو فى القاهرة أو فى دمشق . .

وأسماء القرى والبلاد الصغيرة فى الأرياف حولها تدهشك بعروبة الكثير
منها : أبو فاجيج (أبو حجاج) ، أثريد (السراط) ، ألدوير (الأدوار) ،
الآربا (الأربعاء) ، البالايتو (البلاط الصغير) ، الباريدا (البريد) ،
البلدة ، الفاخارين (الحجارين) ، الفاميرا (الحمراء) . .

لا أنسى يوم ذهبت للاشتراك فى حفل أقاموه فى تطيلة لذكرى عالم من
أبنائها يسمى ميجيل سيرفيت يقولون إنه أول من اكتشف الدورة الدموية . .
والحقيقة أن سيرفيت قرأ ما كتبه عنها طبيبنا العربى على بن النقيس ،
فرعمه لنفسه وادعاه ، وهى حقيقة يسلم بها أهل المعرفة والعلوم . .

وبعد الحفل لقينى رجل بدين يتحدث مظهره عن ثراء وسرور ، ودعانى
إلى بيته . .

ودخلت البيت فإذا هو عربى العمارة والأثاث ، وابتسم التطللى اللطيف
وقال لى : إننى عربى ، جدودى كلهم عرب . أحسست أن البر بأولئك
الجدود يقضى بأن أعيش كما كانوا يعيشون . كانوا أشرافاً ونبلاء محاربين .
إلى القرن السادس عشر ظللنا عرباً مسلمين ، ثم . . . أنت تعرف الباقي . .

هذا الرجل أنفق معظم ماله فى إنشاء هذا البيت . قام برحلة طويلة إلى
المغرب ليشتري الأثاث . . الحمام العربى أنشأه له عريف من تطوان . .

وبينما كنا جالسين على وسائل من الجلد وتحت أقدامنا زربية (سجادة)

مغربية والنوافذ أمامى أقواس عربية يترأى من ورائها شجر البهو وصوت
النافورة فى وسطه ، سيجب الخيال مئات الأميال ومئات السنين إلى الوراء .
شعرت بإحساس عميق من العزة بأننى أنتمى إلى هذه الحضارة وأننى
خادم من خدامها . .

وحضارة تغالب الدهر هذا الغلاب ، وتثبت لمصائب الزمان والقهر
والعنف بهذا العناد ، حضارة أقل ما توصف به هو الخلود . .
نعم ، فإن البقاء والازدهار فى ظلال الدولة والأمن مشكوران ومحمودان ،
وقد عجزت عنهما مع ذلك حضارات . . .

فما بالك بحضارة ثبتت لذلك العسف كله ، وقهرت جحافل الزمان كأنها
بطل عزيز يرهبه الموت ويخشاه ؟ . . تلك ولا شك حضارة فريدة فى بابها
فى التاريخ . .

وكما أثبت هذا الرجل أنه جدير بها ، فكذلك نحن حريون بأن نكون أهلاً
لتراثها المحيد ، وأهلاً لمستقبلها الأجدب بإذن الله . .

كان هذا إحساسى عندما وقفت فى قرية تسمى البتية إلى شمال فيجيراس
بقليل على أبواب ممر من الممرات التى تؤدى من إسبانيا إلى فرنسا عبر جبال
البُرت . .

خيل إلى أننى أرى جحافل الفاتحين من أجدادى ، يقودهم أبطال من
طراز السمح بن مالك الخولانى وعبد الرحمن الغافقى وهم فى طريقهم إلى
ما كانوا يسمونه بالأرض الكبيرة لإتمام الرسالة التى وضعها على أكتافهم
التاريخ : نشر الإسلام والخير ونور العرفان . .

وترحمت على عبد الرحمن الغافقى ومن استشهد معه يوم بلاط الشهداء
فى يوم من أيام رمضان سنة ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢ . .

من هذه القرية التى وقفت فيها إلى موضع موقعة البلاط ، وهو قرية بين
مدينتى تور وبواتييه فى فرنسا تسمى مواسيه لاباتاى ، ٦٠٠ كيلو متر ، قطعها

أولئك الأبطال بدل المرة مرات ، وإذا كانوا قد توقفوا فلم يكن ذلك بسبب معركة البلاط . . إنما كان هذا هو الحد الذي وضعه القضاء . .

والمسافة من دمشق إلى مواسيه لاباتاي نحو ١٠,٠٠٠ كيلو متر . .

وقوم يسرون هذه المسافة على أقدامهم أو على ظهور الخيل والإبل جديرون بالإعجاب على مجرد الوصول . . .

فما بالك وقد اخترقوا هذه المهامه المترامية أبطالا مجاهدين يدعون البشر إلى الدخول في دين الله ؟ . .

رحم الله مؤرخينا ، قالوا إن العرب عندما وصلوا إلى الموضع الذي قرر القدر ألا يتخطوه وجدوا حجراً عليه كتابة تقول : « يا بني إسماعيل ! انتهتم فارجعوا . . »

مدريد وما حولها

بقيت علينا بعد هذا التطواف في جنوب الجزيرة ووسطها وشرقها وشمالها مراحل أخرى كثيرة ، لا بد من قطعها حتى تكتمل في ذهننا صورة الأندلس المحيّد . .

بقى الغرب كله : ما يلي إشبيلية غرباً إلى المحيط ، وبقى الشمال والشمال الشرقي كله ، من منطقة مدريد فصاعداً . .

فأما الغرب — وفيه البرتغال كلها — فقد كان داخلاً في زمام العروبة منذ الفتح إلى أواخر أيام الموحدين ، أى إلى النصف الأول من القرن السادس الهجرى — الثالث عشر الميلادى .

وأما ما يلي مدريد شمالاً وشمالاً بشرق ، فقد كان بلاداً إسلامية إلى ساحل خليج بيسكايه ، ثم انسحب المسلمون إلى شاطئ نهر دويره ، وتخلّوا عن بعض ما يليه جنوباً ، فتحول إلى منطقة خلاء — أو «نومانز لاند» كما يقال — إذا قوى المسلمون ضمّوه إلى بلادهم ، وإذا تراخت أيديهم استغلبه أهل الشمال . .

أى أن هذه المنطقة الواقعة جنوب نهر دويره كانت إلى انتشار الخلافة ميدان صراع بين الإسلام والنصرانية على مصير شبه الجزيرة ، وسرى آثار ذلك عندما نمر بها بعد قليل . . .

وأما ما يلي نهر الدويره شمالا ، فقد ملكه المسلمون كما قلنا على أول أيام الفتح ، ثم تخلوا عنه لبعده السحيق ووعورة الطريق إليه . وفي نصوصنا القديمة يتردد القول بأن المسلمين زهدوا فيه .

وكان في قدر الله أن يكون هذا الزهد مصدر البلاء . . .

لأنه — مهما كانت مساحته التي تركها المسلمون — أصبح مهداً ومأوى لمن أبى الخضوع لهم ، وأضحى مركز المقاومة لسلطانهم هناك ، وفي أمن تام وراء الجبال والوهاد نظم المعتصمون أمرهم ، وأقاموا دويلة لم تلبث أن أصبحت دولة أو دولاً تتناجز المسلمين . .

وعلى طول تاريخ الإسلام في الأندلس تشعر بأن هناك خطراً في الشمال ، خطراً كان من الممكن القضاء عليه وهو في مهده ، فلما اتسع مداه واستقرت دعائمه واشتد عوده أصبح القضاء عليه عسيراً . . ومنذ قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ / ٧٥٦ أصبح وجود إسبانيّتين : إسلامية ونصرانية ، حقيقة مقررة يسلم بها أمراء قرطبة وخلفاؤها ، ويجهدون في انتقاء الشر وتلافى الخطر قدر الإمكان . .

وفي أيام عبد الرحمن الناصر وصل الجانبان إلى اتفاق معقول ، كان من الممكن أن تستمر الأمور عليه لو أن الذين جاءوا بعد عبد الرحمن حافظوا على تراثه وسنته ، وأدركوا حقيقة وضع الأندلس الإسلامي تجاه الخطر الشمالى الذى غدا أشبه بهييار الثلج : يهدد بالانقضاء فى لحظة زمان . .

وستبين أثناء رحلتك إلى الشمال والشمال الغربى حقيقة غابت عن الكثيرين ممن درسوا تاريخ الأندلس : أن الربع الشمالى الغربى من شبه الجزيرة أغنى نواحيها جميعاً وأوفرها خيرات . .

فأنت إذا سرت إلى الشمال من مدريد اختفت تلك الأراضى القاحلة التى قطعها فى ساعات بعد ساعات وأنت منحدر نحو الجنوب ، وحلت محلها

خضرة دائمة تقريباً، تمتد على طول طريقك حتى خليج بسكايه . هناك لن تجد غير المراعى والحقول والغابات .

والمطر الشحيح فى بقية شبه الجزيرة تجده هنا وافراً حيثما ذهبت ، وكلما صعدت نحو الشمال زاد المطر ، وزادت الخضرة تبعاً لذلك . حتى إذا وصلت قرب ساحل بسكايه، أو أفضيت إلى جليلقيّة (جالثيا) وجدت نفسك فى بلاد هى أقرب ما تكون إلى سويسرا وألمانيا وهولندا وفرة ماء وخضرة حقول ...

وفى العصور التى نتحدث عنها كانت هذه النواحي عامرة بحيوان الصيد: الغزلان من كل صنف والأرانب البرية وما إليها ...

وسواحل هذه النواحي من أغنى سواحل إسبانيا بالأسماك ، وأهلها لهذا من أمهر صيادى السمك فى العالم كله ...

وهناك أيضاً توجد أعظم مناجم إسبانيا وأغناها بالحديد والفحم ...

ومعنى هذا أن ربع الجزيرة هذا يعدل من حيث الثروة وإمكانيات الحياة أكثر مما تعدل المنطقة الشاسعة الممتدة بعرض الجزيرة من خط عرض مدريد إلى خط عرض قرطبة ، باستثناء ناحية بلنسية ..

ومعناه أيضاً أن الذين يملكون هذه النواحي يملكون من ثروة شبه الجزيرة أكثر من الربع بكثير ، بل يملكون حوالى النصف ...

أضف إلى هذا أن صعوبة الظروف الطبيعية هناك ، والاضطرار إلى العيش فى الجبال وعلى المرتفعات ، فى جو بارد يصل إلى ما تحت الصفر معظم الشتاء فى نواح مثل سورية (سوريا) وبرغش ولجرونيو وأبيطولك، كل هذا من شأنه أن يشد العضل والعصب ، ويقوى الجسد ويعوده على مصاعب الحياة ومضائك القتال :

لا غرابة إذن أن نجد أهل هذه النواحي — رغم توالى الغزوات عليهم —

لا تنكسر عزيمتهم أو يملون من البدء من جديد : كلما أقبلت جيوش قرطبة هربوا إلى الجبال ، فإذا انصرفت عادوا إلى الوديان . .
وسرى عند سيرنا في آثار الفاتحين كيف كانت هذه العوامل كلها إلى جانب خصومهم ، وكيف أعانتهم على الثبات والاستمرار . .

* * *

عرف الناصر — بما وهبه الله من فهم سياسى بعيد وحس إنسانى عظيم — أن أهل هذه البلاد الشمالية يظلون خطراً ماثلاً ما دام الخوف من قرطبة ودولتها يملأ قلوبهم ، وأن هذا الخوف لو نزع لأنموا على أنفسهم وعاشوا مع جيرانهم أهل الوسط والجنوب والشمال الشرقى في أمان وسلام .
وبالفعل . . أمّتهم وعاهدتهم ، وجعلهم يشعرون أن الخلافة القرطبية ليست عدواً لهم بل هى صديق ، وأن رسالتها أن تحفظ السلام والتوازن في شبه الجزيرة ، وأنهم متى احتاجوا للعالم أو الطبيب أو الناصح وجدوه في قرطبة . .

وهكذا كان خلال السنوات العشر الأخيرة من حكمه السعيد الطويل .
أصبحت قرطبة ملجأهم : ما اختلف اثنان منهم إلا أقبلوا إلى عبد الرحمن ليعقد بينهما الصلح ، وما مرض أحد منهم إلا خف إلى قرطبة يلتمس الطب والدواء . .

وعند ما توفى عبد الرحمن الناصر سنة ٩٦١ كان شبه الجزيرة كله يسوده الأمان والسلام .

واستمر هذا على أيام ابنه الحكم المستنصر .

وفي أيام ابن هذا الأخير ، هشام المؤيد ، استبد بالأمر محمد بن أبى عامر المنصور ، وكان رجلاً واسع الذكاء بعيد الطموح عنيف الأساليب .

كان من رأيه القضاء النهائى على تلك الممالك جميعاً ، فشن عليها كلها حرباً لا هوادة فيها ، ودرج — خلال قرابة ربع القرن الذى سيطر فيه على

مصائر الخلافة — على القيام بحملتين في العام ، وبدأ فحول منطقة الخلاء جنوبى نهر دويره إلى منطقة إسلامية صرفة : ثبت أقدام الإسلام فيما كان بأيدي المسلمين منها مثل شقوبية وأبيلة (أفيلة) وسلمنة، وأعاد تحصين خط الحدود المعروف بالثغر الأوسط في الوسط والثغر الأدنى في الغرب ، وعلى يده تحولت مدينة سالم (مدينائيلي) وبلد الوليد (فايادوليد) وسمورة (ثامورا) وفازو (فيزيو ، في البرتغال) إلى حصون إسلامية كبرى مشحونة بالقوات والأسلحة والعتاد .

ونقل جماعات من المسلمين إلى هذه النواحي كلها وأقرهم فيها ، ومنح رجالها معاونات مالية حتى يطمئن بهم المقام . .

ومن هذه المراكز شن الحروب على أرغون من ناحية وعلى مملكة ليون من ناحية أخرى، فاحتل بنبلونة (پامپيلونا) وبرغش (بورجوس) وليون، ووصل بغاراته إلى ساحل خليج بسكايه ، فاحتل أبيض (أوفييدو) ولك (لوجو) وكرنه (كورونيا) وشتن ياقب (سنتياجو) .

وفي ناحية الشمال الشرقى غزا قطلونية واحتل برشلونة ، وألغى وجود إمارة قشتالة فاضطر أمراؤها إلى الهرب إلى الشمال .

وعندما توفي المنصور سنة ١٠٠٢ كانت كل هذه الإمارات والممالك في حالة دفاع عن الرمي الأخير . . كان من بقى من محاربيها قد اعتصمو بالجبال . .

ومثل هذه السياسة لا يمكن أن توفى ثمارها إلا إذا استمرت أجيالا بعد أجيال . .

وقد حاول ابنه عبد الملك المظفر أن يسير على آثاره ، ووالى الغزو طوال السنوات السبع التى حكمها .

وبعد عبد الملك المظفر لم يأت رجل يستطيع أن يسير بهذا العمل العسير . .

فلم يكد يخف الضغط حتى وقع الانفجار ، وانحدر الهاربون من جبالهم وانطلقوا نحو الجنوب ينهزون الفرصة السانحة . في خلال سنوات قليلة استعادوا كل ما كان قد فتحه المنصور . .

وأتيحت لهم الفرصة للانتقام ، فأخذوا يزحفون نحو الجنوب يحفزهم حقد شديد . .

وأتاح لهم ملوك الطوائف — بما كان بينهم من خلاف — فرصة إدراك الثأر كما يحبون . .

وعندما سقطت طليطلة سنة ١٠٨٥ في يد ألفونسو السادس تصدع بناء الأندلس كله ، وبدأ الانحسار المستمر على ما وصفناه . .

* * *

هذه النواحي كلها اشترك في فتحها طارق وموسى وابنه عبد العزيز . .

فإن الحملة الأولى قادها طارق بن زياد ، وقد سارت من الجنوب إلى الشمال في خط مستقيم تقريباً حتى استولت على طليطلة وأزالت دولة القوط .

وبعد طليطلة استمر طارق في اتجاه شمالي شرقي حتى بلغ الكلا دي إينارس — تسميها مراجعنا قلعة عبد السلام — وهناك أتاه أمر من رئيسه موسى بأن يعود إلى طليطلة وينتظره هناك .

وسار موسى من الجنوب إلى إشبيلية ، ثم فتح الغرب ، فاستولى على باجة ويابرة ثم على ماردة بعد قتال وحصار طويلين .

وكان لذريق قد نجا من موقعة وادي لكه ولجأ إلى حصون قرب ماردة ، وهناك تقدم لقتال موسى ، فانهزم وقتل .

ومن ماردة تقدم موسى فاحتل طليطلة (تالافيرا دي لارينا) جنوب غربي طليطلة ، وهناك لقيه طارق وأسلم إليه القيادة .

ثم سارا معاً ففتحا سرقسطة ، وسارا شمالاً بغرب مع نهر إبرة ، ففتحا

تَلَهَّرَةً ثُمَّ يَتَّبِلُونَهُ ثُمَّ أَمَايَهُ ثُمَّ أَشْتَرَقَةَ (أستورجا) ، ثُمَّ لُكْ (لوجو) ،
ثُمَّ أَبِيط (أوفيدو) ثُمَّ خَيْخُون ، فَأَتَمَّا هَذَا فَتَحَ الْجَزِيرَةَ ، وَتَرَكَ حَامِيَةَ
تَرْبَ خَيْخُونِ وَعَادَا إِلَى طَلِيظِلَّةٍ وَمِنْهَا إِلَى الْمَشْرِقِ .

وَجَاءَ بَعْدَهُمَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى فَأَتَمَّ فَتْحَ مَا بَقِيَ فِي شَرْقِ الْجَزِيرَةِ
وَعَرَبَهَا ، وَاسْتَوَلَى عَلَى لَبْلَةِ (نَيْبِلَا) وَيَابُرَةِ (إِيْفُورَا) وَشَنْتَرِينَ
(سَانْتَارِيم) ، فِي الْبَرْتَغَالِ .

وَلِهَذَا فَلَمَّا سَنَقُومُ بِرَحْلَتَيْنِ : تَبْدَأُ الْأُولَى مِنْ مَدْرِيدَ إِلَى الشَّامِ وَالشَّامِ
الْغَرْبِيِّ ، وَمِنْ هُنَاكَ — مِنْ إِسْبِيلِيَّةٍ — نَنْحَدِرُ إِلَى الْبَرْتَغَالِ فَتَقْطَعُهَا مِنْ شَمَالٍ
لِلْجَنُوبِ .

* * *

نَبْدَأُ مِنْ مَدْرِيدَ مِنْ جَدِيدٍ . .

وَقَدْ حَدَّثْنَاكَ فِي الصَّفَحَاتِ الْأُولَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ عَنْ نَشْأَةِ اسْمِ مَدْرِيدَ
وَكَيْفَ أَنَّ الْعَرَبَ عَمَرُوا مَنَظِقَتَهَا وَأَنْشَأُوا فِيهَا مَجَارِيَ مِيَاهٍ تَأْخُذُ مِنْ نَهْرِ
الْمُنْثَانَارِيسِ الَّذِي يَنْبَعُ مِنْ جِبَالِ وَادِي الرَّمْلَةِ شَمَالَ شَرْقِ مَدْرِيدَ ، وَأَنْهَارٍ مِمَّاثِلَةٍ
أُخْرَى مِثْلَ وَادِي الرَّمْلَةِ (جَوَادَارَامَا) وَنَهْرِ خَارَامَا وَنَهْرِ وَادِي الْحِجَارَةِ
(جَوَادَا لَاخَارَا) وَنَهْرِ الْبَلَاعَةِ (الْبَالَا) وَغَيْرِهَا . .

واعتبر العرب هذه المنطقة منطقة عسكرية أنشأوا فيها سلسلة من الحصون
تقوى قلعة مدريد وتحمي ما وراءها .

ولهذا فأنت تجد في هذه المنطقة مجموعة كبرى من آثار الحصون
العربية ، بعضها يحتفظ بأسمائه العربية محرفة تحريفاً شديداً مثل بُوخَارَابَال
(بَرْج الرِّبْضِ) وَتُورِي دِي آبْنِ كَرِيسْبِينِ (بَرْج ابْنِ كَرِيسْبِينِ) وَسَالْمِيدِينَا
(فَحْصُ الْمَدِينَةِ) وَتُومُوشَا (تُورِي مُوسَى ، بَرْج مُوسَى) ، وَبَعْضُهَا أَخَذَ
أَسْمَاءَ جَدِيدَةً بَعْدَ اسْتِيلَاءِ الْإِسْبَانِ عَلَى الْمَنَظِقَةِ مِثْلَ تُورِي كُوَادَرَادَا (الْبَرْجِ
الْمَرْبَعِ) وَتُورِي سَافِينِيَانِ (بَرْجِ سَافِينِيَانِ) وَتُورِي بُولِينِيَا وَغَيْرِهَا كَثِيرٌ .

وَكَانَ الْحَصْنُ الْكَبِيرُ فِي مَجْرِيطَ نَفْسَهَا يَسْمَى قَصْرَ مَدْرِيدَ . وَ « الْقَصْر »

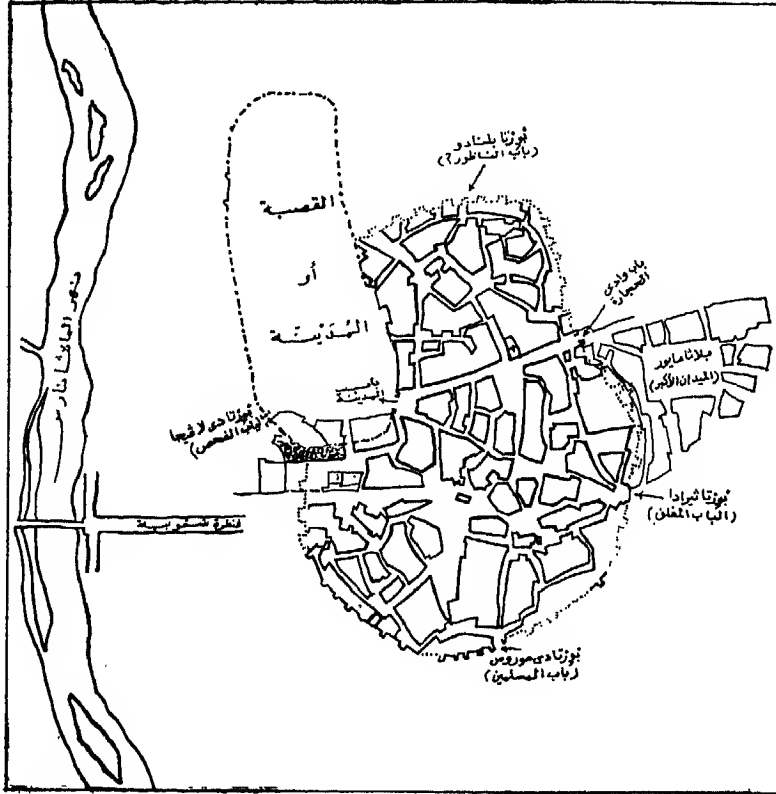
لفظ لاتيني معرب من « كاسترا » ومعناه القلعة ، وكانت تطلق أيام الرومان على القلعة الكبيرة التي تضم بيت الحاكم العسكري ومساكن جنده ، فكانت قلعة وقصراً في آن واحد . وقد احتفظ اللفظ في المغرب والأندلس بهذا المعنى المزدوج للفظ ، فإذا قيل « قصر مجريط » أريد به الحصن الواسع الكبير وما يضمه سوره من بيت الحاكم ومساكن الجنود والموظفين ؛ وإذا قيل القصر الكبير (في المغرب) فالمراد الحصن وما يلحق به من مدينة . وبهذا المعنى دخل اللفظ في اللغة الإسبانية « ألكاثار » .

فإذا أردت أن تعرف أين يقع قصر مجريط العربي فهو في جنوب المدينة الحالية ، كان يقع قرب نهر المثاناريس في مقابل القنطرة التي تسمى اليوم قنطرة شقوبية (بويتى دى سيجوبيا) وتمتد المباني حوله في شبه دائرة تصل إلى حدود ميدان الأوبرا وميدان پويرتا دل سول الحاليين . وقد وُجدت آثار سور الحصن العربي في هذه النواحي ، ووجدت أيضاً قطع منه قرب مايعرف الآن بميدان إسبانيا .

وعلى أيام العرب نشأ خارج الأسوار إلى الشمال والشرق ربض — أى ضاحية واسعة — عرفت باسم المُدَيِّنة (مصغر مدينة) ، ثم سورا جزاءً منه وسموه القصبة . وبعد خروج البلد من أيدي المسلمين وسعوا سور مجريط الأصلي حتى جعلوه يشمل المدينة والقصبة ، ولهذا فقد ظل هذا الجزء من البلد يسمى إلى آخر القرن السابع عشر بالمدينة أو القصبة . ولدينا خريطة لمدرید رسمها پدرو تيخيرا سنة ١٦٥٦ يظهر عليها السور وأبوابه وبعض أسمائها عربية : ففي الجنوب پويرتا دى موروس (باب العرب) ، وفي الشرق پويرتا دى لا فيجا (باب البقاع) ، وفي الشرق پويرتا دى لا المودينا (باب المُدَيِّنة) وپويرتا دى جواد لاخارا (باب وادى الحجارة) وغيرها .

وكانت مجريط إلى أيام عبد الرحمن الناصر مجرد حصن كبير تحيط به مساكن للحامية ومساكن لمن سكن إلى جوارهم من الناس ، فلما جاء الناصر

وأعاد تنظيم التحصينات التي تقى الأندلس شر الغارات من الشمال ، أعاد بناء كل حصون الثغرين الأعلى والأوسط ، فكان مما بناه حصن مدريد ، وأنشأ



خريطة لمدريد رسمها پدرو تيخيرا سنة ١٦٥٦ أيام كانت معالم مجريط العربية لازالت باقية . يلاحظ موضع الأسوار العربية وأبوابها وكيف كانت تتصل بالقصبة التي تسمى أيضاً بالمدينة . تستطيع أن تحدد موقع المدينة العربية إذا لاحظت أن الميدان الكبير (پلائامايور) لا زال في نفس موضعه إلى الآن .
(نقلا عن كتاب « تاريخ اسم مدريد » لخايمه أوليفرآسين)

السور العظيم الذي ذكرنا حدوده ليضم البلد وسكانه ، ويُنظن أيضاً أنه هو الذي بنى قصبة المدينة . وفي سنة ٩٢٩ نسمع عن أول حاكم عربي للبلد وهو عبدالله بن محمد بن عبدالله ، من رجال الناصر . ومن أشهر حكام مدريد

بعد ذلك أحمد بن عبدالله بن يحيى الليثي ، وقد تولى حكمها مرتين وتوفي سنة ٩٣٩ ميلادية شهيداً وهو عائد من رد غارة نصرانية ، وهو حفيد الفقيه الأندلسي المعروف يحيى بن يحيى الليثي .

وقد خرجت مدريد من أيدي المسلمين سنة ١٠٨٣ ، إذ استولى عليها ألفونسو السادس قبل أن يستولى على طليطلة بسنتين ، ولكنه لم يصرف إليها أى عناية ، وإنما اكتفى بتعيين حاكم لها نزل في قصر الحاكم العربي . وفي سنة ١٤٧٧ نزل فيها فرناندو وإيزابيلا وأقاما في نفس القصر بعد تجديده وتوسيعه .

واعتبرت مدريد بعد ذلك ضاحية ينتجعها الملوك من عاصمتهم القريبة طليطلة للترويح عن النفس والصيد .

وطليطلة كما سترى بلد محدود المساحة ، فهو يقوم في منحى شبه دائري على مجرى نهر تاجه ، ولا يستطيع الامتداد منه إلى ما يليه إلا إذا أنشئت سلسلة من القناطر على النهر . فلما اتسعت الدولة الإسبانية أيام شارل الخامس (كارلوس الأول في سلسلة ملوك إسبانيا) ثم أيام ابنه فيليب الثاني ضاقت العاصمة بمطالب الدولة ، فرأى هذا الأخير أن ينقل العاصمة ومقر الملك إلى مدريد سنة ١٥٦١ ، فهى في منبسط فسيح من الأرض يسمح بالامتداد والاتساع .

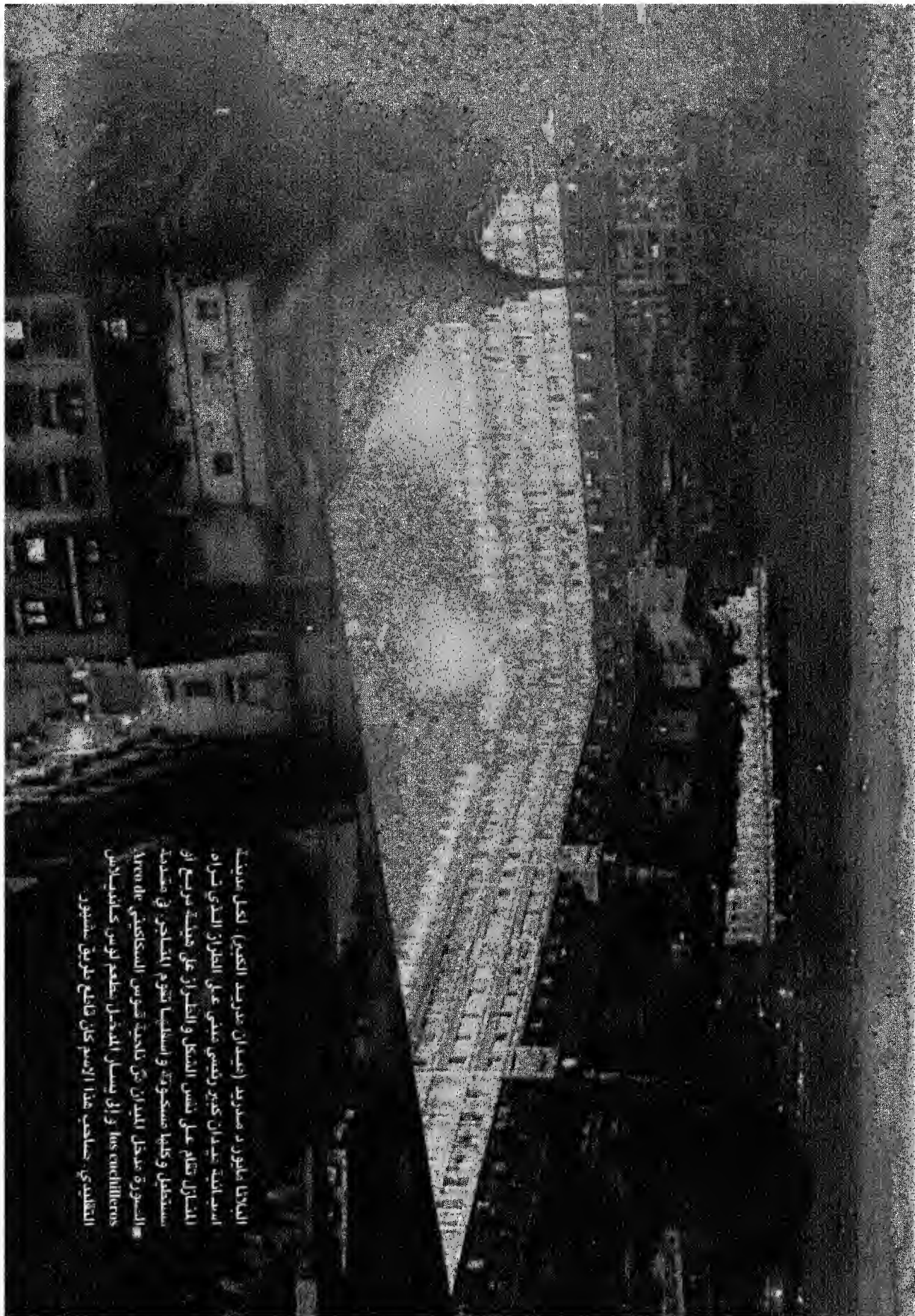
لهذا هُدم القصر القديم ، وأنشئ مكانه قصر جديد ، وقطعت أشجار كثيرة ليخلو المكان للأبنية الجديدة وقصور الأشراف ورجال الدولة ودواوينها . وفي سنة ١٥٧١ أخذت هيئتها التي ظلت عليها إلى آخر القرن الثامن عشر ، فقد احتفل فيليب الثاني في تنظيم عاصمته والإسراع ببناء قصورها ليستقبل فيها زوجته الثالثة إيزابيلا دى قالوا .

وأول ملك إسباني ولد وتوج في مدريد هو فيليب الثالث ابن فيليب الثاني ، وكان تتويجه سنة ١٥٩٨ .

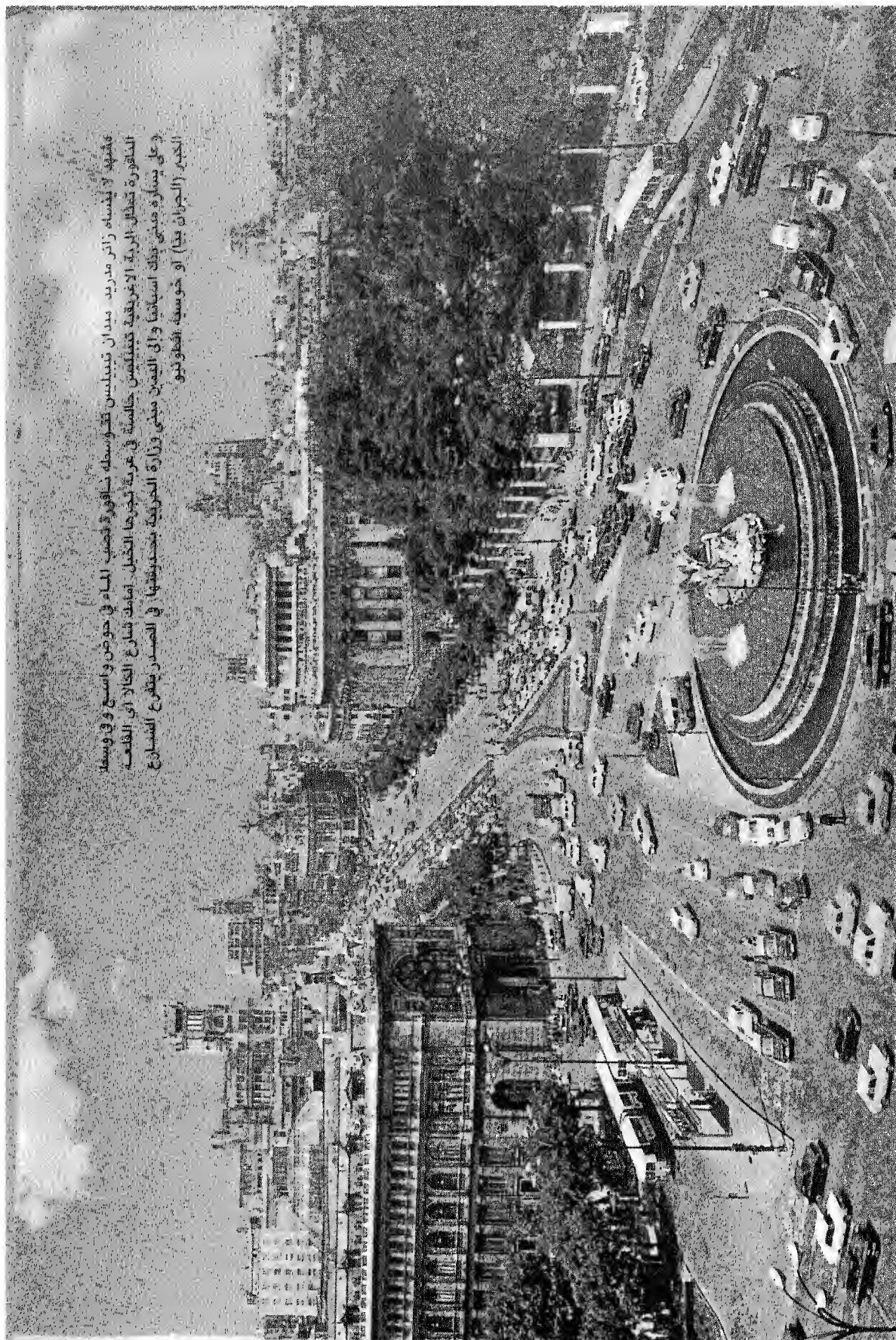


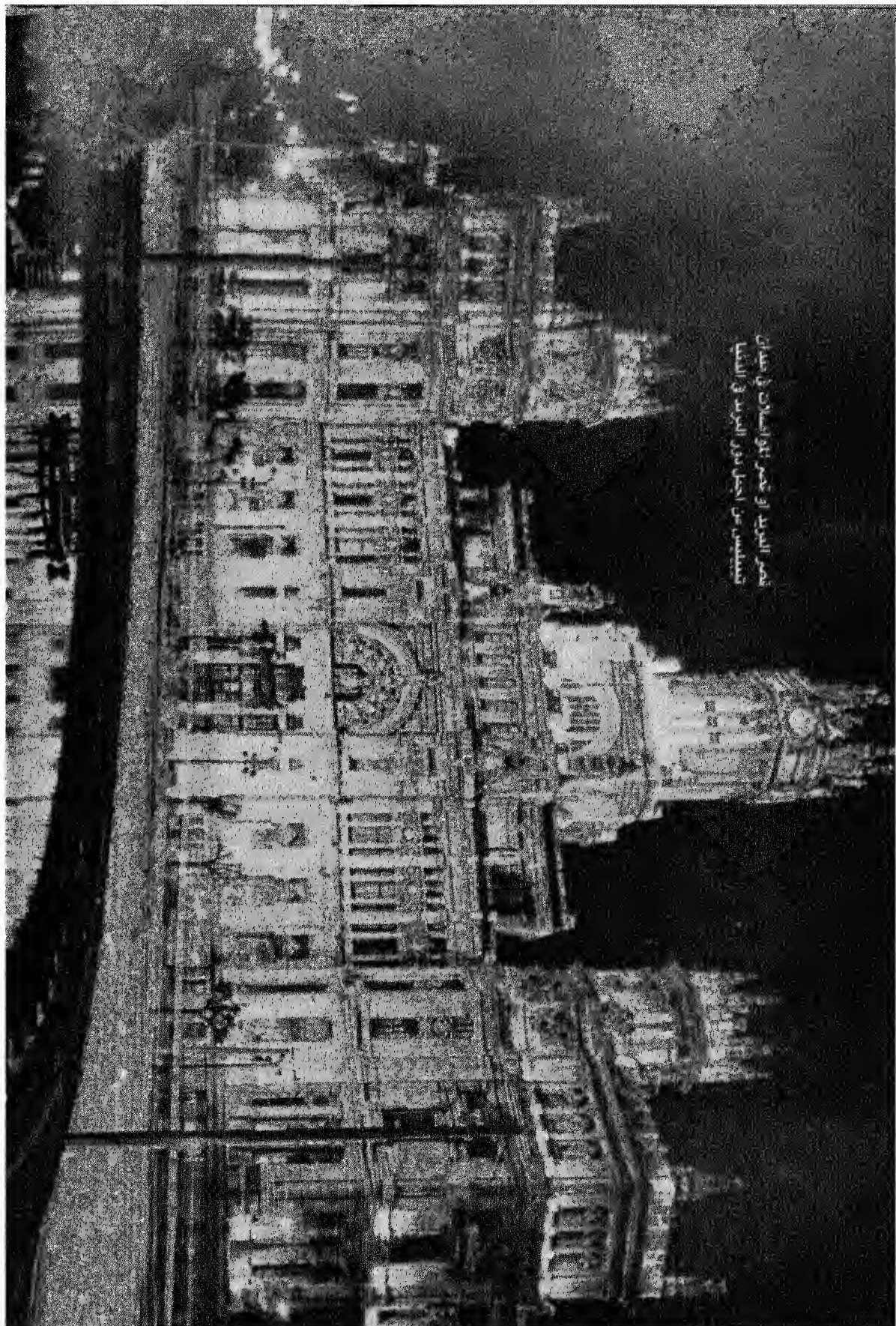
ميدان اسبانيا (بلاثا داسبانيا)
نموذج رائع من نماذج عمارة المدن
وتجميلها. في وسط الميدان مجموعة
نحتية فريدة من نوعها في أوروبا
يتقدمها الدون كيخوته على فرسته
روتينانتي وخلفه سانشو بانزا على
حماره. المبنى إلى اليسار يسمى برج
اسبانيا (توري دي اسبانيا) وفي
الصدر فندق البلازا.

الغلايا بلورد مديرد (يعدان مديرد العير) لكل مدينة
اسم ابيه يمدان مديرد رئيسي مديري على الطراز الذي يراه
المشاركون تكم على نفس الشكل والطراز على هيئة مربع او
مستطيل ولها مسكوبة واسطفا اهور المتاحور في مدينة
السورة مدخل الميدان بين طاحنة قوس السكاكيني Arreth
los cruchilleros و اتي يسدل المدخل بطعم لوس كامبيلاس
الطافيني صاحب هذا الاسم كان طالع طريق شهور

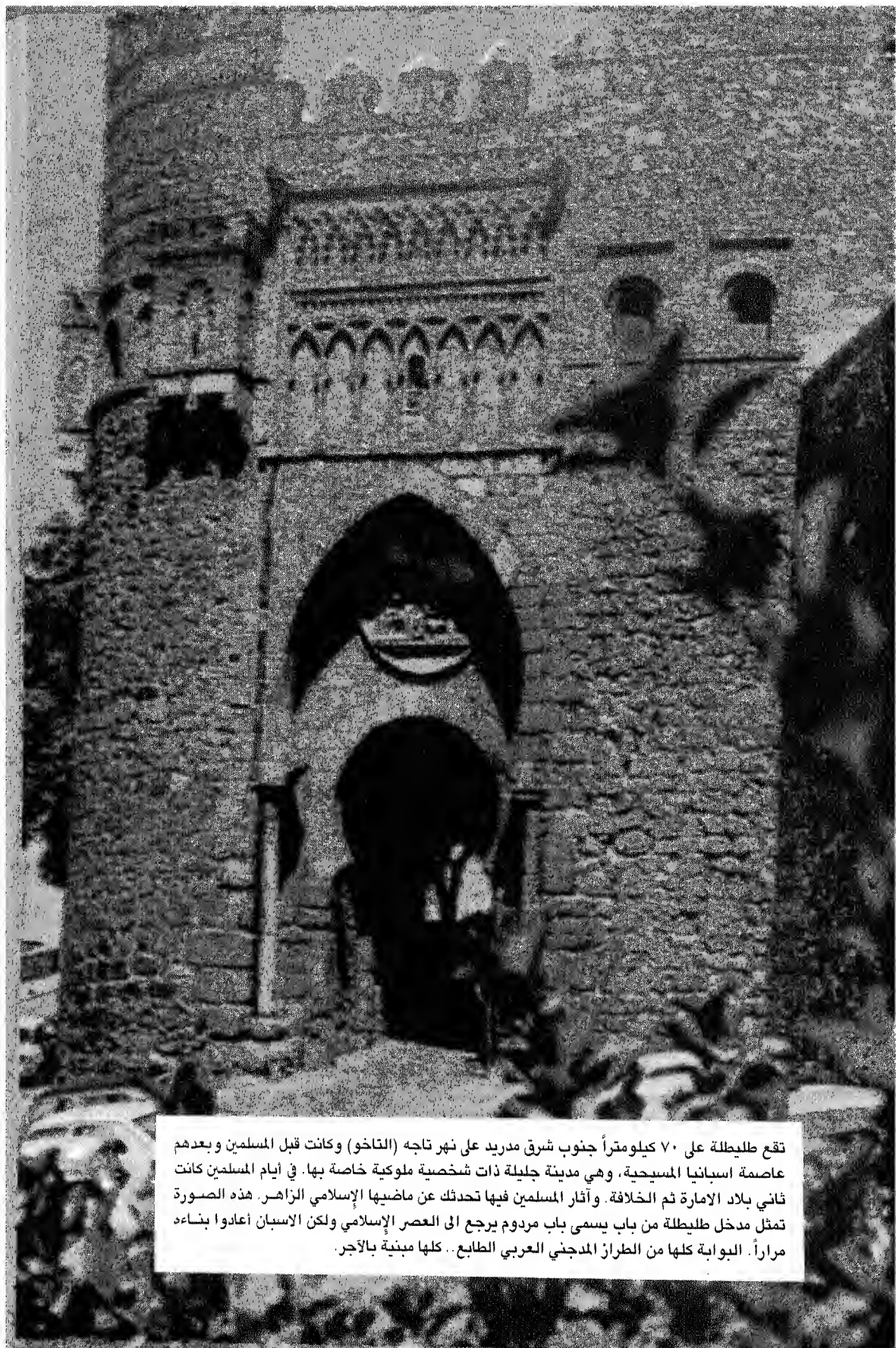


مقعد لا يقسمه رائد مدير مدان تيناس تقوسطه نافورة نصب الماء في حوض واسع و في وسط
النافورة تحلل البرية الاخرى تفتتح كالمس في عربة تجرها الخيل. امامك شارع التلال الى القلعة
وعلى يسارك مبنى ذلك استاديا والى اليمين مبنى وزارة الحربية بمسديتها في المصدر يشرق الشوارع
الكبر الجران بيتا او حوسبة الطوبو

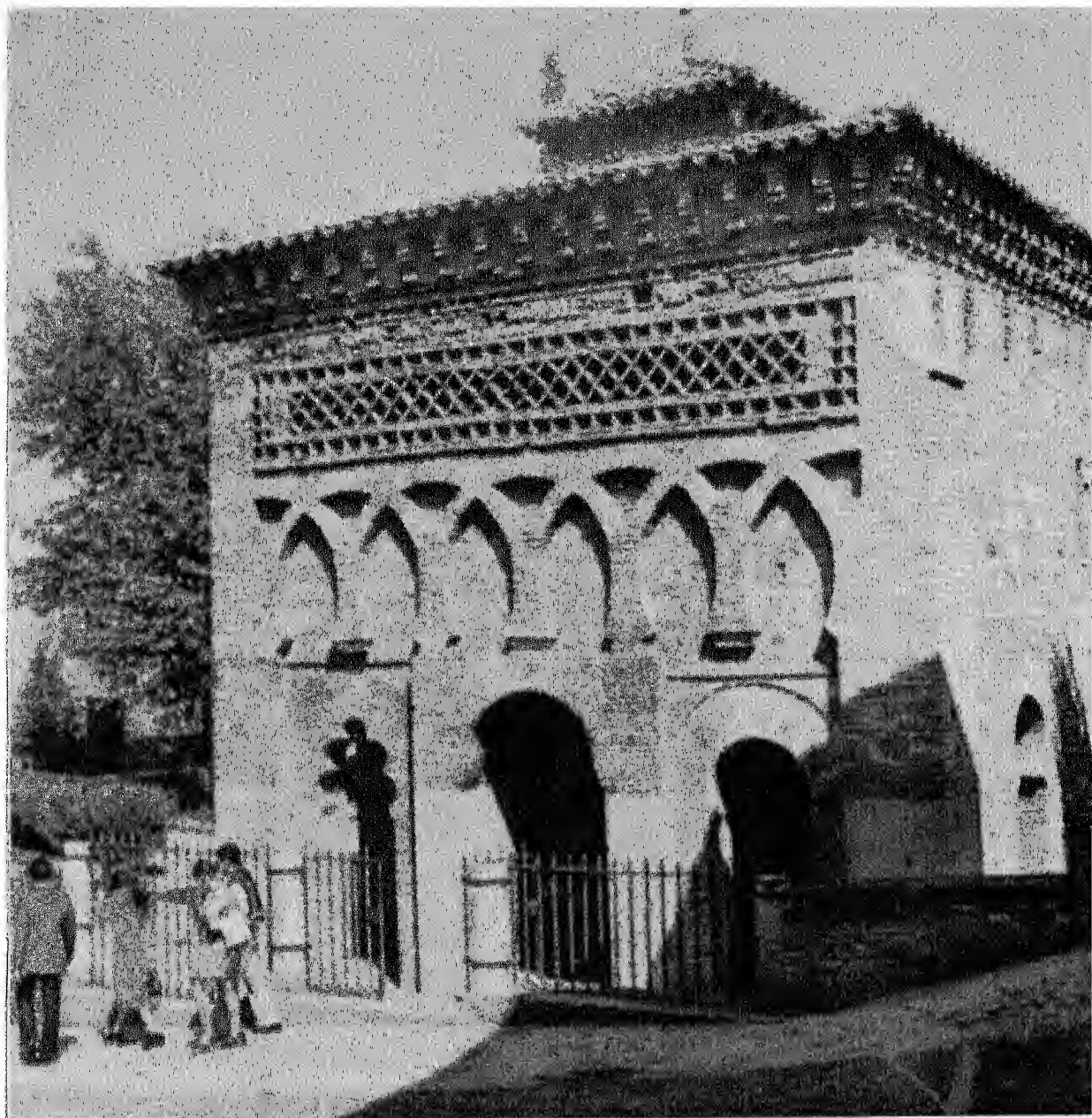




مبنى القصر أو قصر القلاية في دمشق
التي هي من احسن اثار العرب في الدنيا

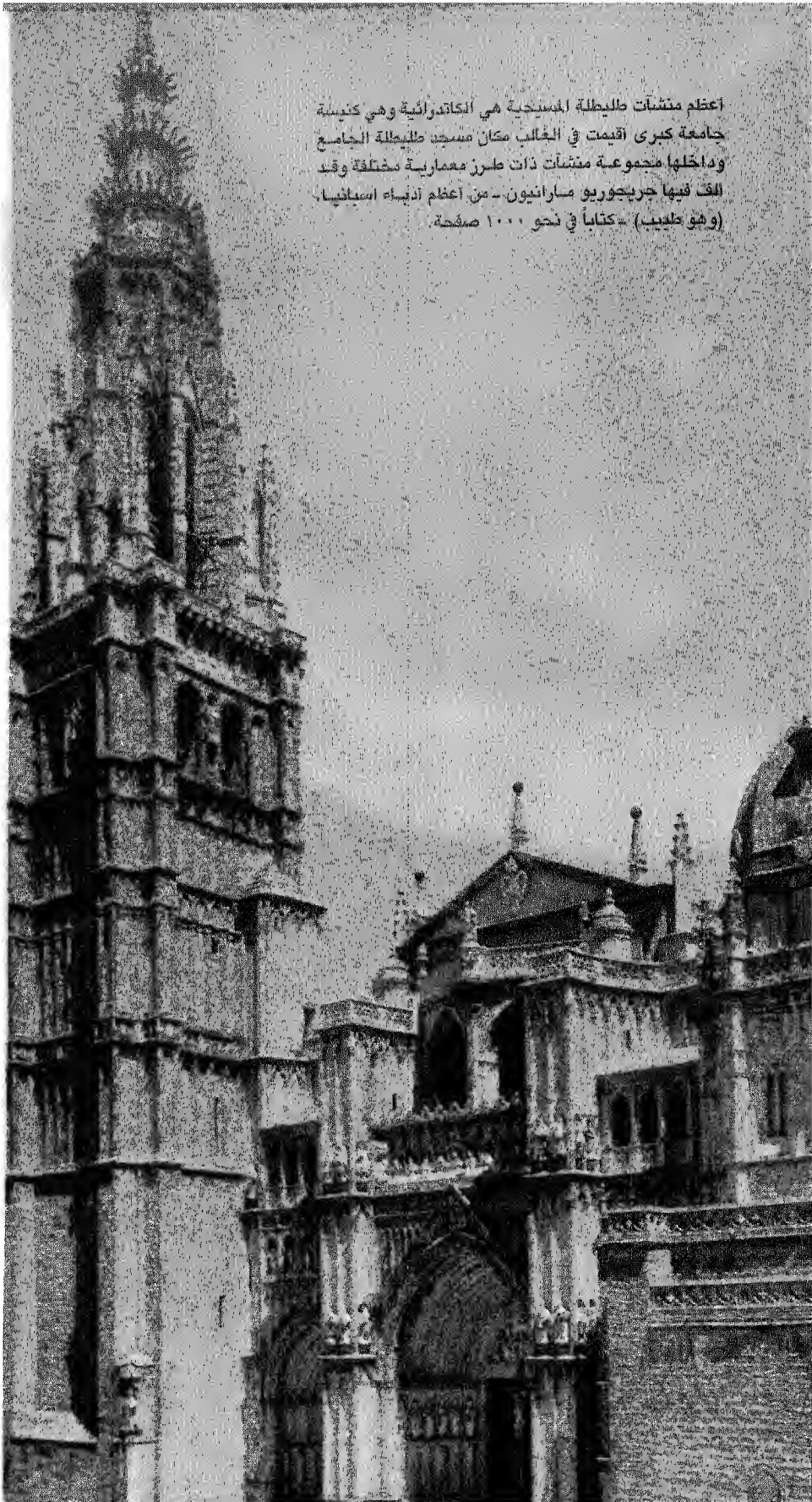


تقع طليطلة على ٧٠ كيلومتراً جنوب شرق مدريد على نهر تاجه (القاخو) وكانت قبل المسلمين وبعدهم عاصمة اسبانيا المسيحية، وهي مدينة جلييلة ذات شخصية ملوكية خاصة بها. في أيام المسلمين كانت ثاني بلاد الامارة ثم الخلافة. وأثار المسلمين فيها تحدثك عن ماضيها الإسلامي الزاهر. هذه الصورة تمثل مدخل طليطلة من باب يسمى باب مردوم يرجع الى العصر الإسلامي ولكن الاسبان أعادوا بناءه مراراً. البوابة كلها من الطراز المدجني العربي الطابع... كلها مبنية بالآجر.



مصلی بیر مردوم إلى جوار الباب الذي يحمل هذا الاسم. إنه مسجد صغير من طراز
الخلافة بني لكي يؤدي حرس البوابة فيه صلواتهم. خارج المبنى كله من الأجر. الداخل
مسجد صغير من تسع بلاطات. بعد المسلمين حولوه إلى كنيسة تحمل اسم كريستو دي
لا لوث (مسيح النور) ثم ترك الآن أثراً خالياً.

أعظم منشآت طليطلة المسيحية هي الكاتدرائية وهي كنيسة
جامعة كبرى أقيمت في الغالب مكان مسجد طليطلة الجامع
ودخلها مجموعة منشآت ذات طرز معمارية مختلفة وقد
الف فيها جرجوريو ميرانيون - من أعظم أديباء إسبانيا -
(وهو طليبي) - كتاباً في نحو ١٠٠٠ صفحة.





بيعة يهودية ترجع إلى أيام المسلمين . وهي مبنية على الطراز الإسلامي في عصر الخلافة .
حولها النصرى بعد ذلك إلى كنيسة تسمى سانتا ماريا لا بلانكا بسبب بياض داخلها .

وفى عهد فيليب الثالث هذا أنشئ ميدان مدريد الكبير (بلاثا مايور) غير بعيد من موضع الجانب الغربى للسور العربى ، ومكانه اليوم حيث يمر الشارع التاريخى المعروف بـ «أركو دى كوتشيروس» (عقد تجار السلاح) ولم يسكنها فيليب الثالث بصفة دائمة إلا بعد ١٦٢١ .

وبعد هذا العام بخمس سنوات (١٦٢٦) توفى فى مدريد أعظم أديب أطلعت له إسبانيا فى تاريخها : ميغيل ثيرفانتس سافدرا مؤلف القصة الدائنة الصيت «الدون كيخوته» .

* * *

وعلى ٧٥ كيلو متراً جنوب غربى مدريد تقوم طليطلة على نهر تاجه . وتقع طليطلة فى منحى عنيف من النهر ، فكأنها شبه جزيرة لا تتصل بالأرض إلا من ناحية واحدة . وشبه الجزيرة هذا مجموعة من التلال تسهل حايثها وإقامة القلاع عليها ، ولهذا فقد اتخذها القوط عاصمة لهم . ولها تاريخ أسطورى طويل حتى يزعمون أن آدم أبا البشر هو الذى بناها . وقد فتح طارق بن زياد طليطلة فى ذى القعدة ٩٢ / سبتمبر ٧١١ ، ولم يطل مقامه فيها ، بل مضى فى اتجاه شمالى شرقى حتى وصل قلعة إينارس ثم عاد إلى طليطلة مع حلول الشتاء لينتظر موسى بن نصير ، الذى أقبل فى صيف العام التالى .

ونظن أن طارقاً أنشأ مسجد طليطلة خلال هذه الشهور ، ويقال إنه اتخذها فى موضع الكنيسة الجامعة القديمة ، وإن كنا نستبعد ذلك . والقول بأن المسلمين كانوا كلما دخلوا بلداً فى الأندلس حولوا كنيسة الجامعة إلى مسجد جامع دعوى لا أساس لها من الصحة ، اخترعها نفر من المؤرخين المحدثين ، لكى يستندوا إلى ذلك الزعم فى تبرير ما فعله الإسبان بعد ذلك من تحويل المساجد الجامعة إلى كاتدرائيات .

نقول هذا لأننا لم نر المسلمين فى الشام أو مصر يفعلون هذا بما وجدوه

من المساجد ، بل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه تخشى أن يصلى فى كنيسة بيت المقدس حتى لا يجعل لمن يأتى بعده حجة فى الاستيلاء عليها . ثم ما الذى يحوج المسلمين إلى تحويل الكنائس إلى مساجد ، والفرق بين عمارة هذه وتلك بعيد ، ومساجد الإسلام بسيطة فى تكوينها لا تحتاج إلى جهد كبير فى إقامتها ، والأرض كانت أمامهم فضاء ينشئون فيه ما يريدون ؟

المهم لدينا أن مسجد طليطلة الجامع كان يقوم فى الموضع الذى تقوم فيه اليوم كاتدرائية طليطلة .

وللجغرافيين العرب كلام طويل فى طليطلة على أيامنا ، وكلهم يتحدثون عن بساطتها وأنهارها وحدائقها ووفرة خيراتها ، وحصانة موقعها ، وكلهم يتحدثون عن مناجم الحديد والنحاس القريبة منها ، ولهذا كانت على أيامنا شهيرة بصنع الأسلحة المرفهة ، وما زالت شهرتها بذلك إلى اليوم ، وفى إسبانيا كلها يبيعونك تحفاً من مصنوعات حديد طليطلة ونحاسها .

ولا زالت طليطلة تحتفظ إلى اليوم بالطابع الذى خلفناها عليه أيام خرجت من أيدينا فى صيف سنة ١٠٨٥ : شوارعها الضيقة النظيفة ، أرضها المبلطة بقطع الحجر الصغيرة ، وبواباتها العربية الخالصة ، وأشهرها بوابة الشمس (بويرتا دل سول) ثم قطع كثيرة من سورها القديم .

أما عن آثارنا فيها فهى فى مجموعها أطلال مبان ومساجد ، وبضعة أقواس وعقود وكنيسة صغيرة كان أصلها جامعاً ، وقطع من السور وجزء من القنطرة المشهورة على نهر تاجه وبعض أقباء تكتشف بين الحين والحين تحت بيوت قائمة ..

وقنطرة طليطلة التى تعبر عليها وأنت قادم من مدريد قديمة من أيام القوط ، ولكن العرب هم الذين أعادوا بناءها مراراً عديدة ، آخرها أيام المنصور بن أبى عامر فى سنة ٩٩٧ وكان الذى أشرف على بنائها حاكم البلد خلف بن محمد العامرى ، بناها على قوس واحد .

أما الأبواب العربية لسور طليطلة فأبقاها إلى الآن وأحفظها لشكله باب شقرّة ، ويسمى الآن پويرتا دى ييساجرا ، وهو بوابة رائعة تقوم تحت برج مربع حصين . والبوابة مبنية بالحجر الصلد ، تقوم فى الجانبين على دعامين من حجر ثم ترتفع دائرية ، وإن كانت هيئتها على شكل حدوة حصان بسبب بروزين من الحجر عند نهاية الدعامتين وأول القوس .

وتشد هذه البوابة بوابة خارجية أوسع وأعلى تقوم على ثلاثة أقواس متجاوزة ، الأوسط منها أكبر من الجانبين ، وهذان بدورهما أصمان — أى مسدودان — ويقوم الأوسط على دعامين من حجر فوقهما عمودان صغيران من الرخام يرتكز عليهما القوس .

أما البرج فوق البوابة فبناء مربع ضخّم ، فيه حجرة واسعة يرى الإنسان نوافذها من خارج ، وكانت تلك الحجرة مقاماً للعجد والحرس ، وعلى جانبي البوابة قطع من السور ، وعلى اليمين أحد المحارس التى كانت تتمخله ، والمحارس أبراج صغيرة كانت تقام على مسافات متساوية من السور ، لتزيده قوة ولتأذن للمحاربين بالدفاع .

والأثر العربى الكبير الثانى مسجدٌ حُوّل إلى كنيسة يحمل اليوم اسم كريستو دى لا لوث (مسيح النور) ، ولا نعرف كيف كان يسمى على أيامنا ، ولكن نقشاً فيه يقول إن بناءه تم فى المحرم سنة ٣٩٠ / ديسمبر ٩٩٩ وأن بانيه يسمى موسى بن على .

ومسجد موسى بن على هذا مسجد صغير لا يزيد طول ضلعه على ثمانية أمتار ، وفى جنوبه بروز المحراب ، وكان مربعاً من خارجه فى الأصل ، فلما حولوا المسجد إلى كنيسة بنوا جداراً مستديراً لينشئوا وراءه ما يحتاجه مصلب الكنيسة ومذبحها من غرف صغيرة .

والمسجد فى هيئته الأولى مربع تقوم كل من واجهاته على ثلاثة عقود ضخمة عالية من الحجر ، بداخل كل منها باب أصغر على هيئة عقد مستدير .

وهذه العقود تحمل فوقها صفاً من النوافذ العربية على هيئة بوابات زخرفية ، ولا شك أنها كانت مغطاة بالزجاج على أيامنا لتفويض النور داخل المسجد ، وقد سد معظمها الآن .

وكانت للمسجد قبة صغيرة تقوم على أربعة أعمدة ضخمة في وسطه ، وقد أزيلت القبة الآن ، ولكن أجزاء السقف حولها مزينة بدعامات من الحجر المتقاطع ، تدلنا على أن قبة كانت تشبه في هيئتها القباب الصغيرة التي رأيناها في جامع قرطبة .

فإذا أفضيت إلى داخل المسجد وجدت صحناً صغيراً في وسطه الأعمدة الأربعة التي أشرت إليها .

وهذا المسجد ، الذي تفضى إليه الآن عن طريق شوارع ضيقة ، نموذج للمساجد الإسلامية الصغيرة في الأندلس ، ومن هنا فإن أهميته عظيمة لمورخ العمارة الأندلسية ، رغم ما أدخل عليه من تحويرات ليصبح كنيسة مسيحية .

أما بقية المساجد الإسلامية فقد زالت ، ولم يبق ما ينم عليها إلا قطع من نوافذ أو عقود أو أقباء نجدها في كنائس مثل كنيسة عذراء بيت لحم (نويسترا سنيورا دي بيلين) ودير شنتفقي (سانتافي) ودير القديس لورنزو (سان لورنزو) وكنيسة السلفادور .

وقصة المسجد الذي تقوم مكانه هذه الكنيسة الأخيرة عبرة جديرة بالذكرى ، ونحن في هذا الكتاب في عالم كله عبر وذكريات . .

فقد بُني هذا المسجد خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر ، إذ أننا وجدنا نقشاً في الجزء الباقي منه يقول إن بلاطته الوسطى قد تم إنشاؤها سنة ١٠٤١ من أموال الأعباس .

ثم سقطت طليطلة بعد إنشائه بخمسة وأربعين عاماً واستسلم مسلموها لسلطان الغالبين الذين انتزعوا منهم مساجدهم ، فلم يبقوا لهم إلا القليل منها ، ومن بينها ذلك المسجد الصغير . كانوا يسمّون المُدَجَّجِينَ ، أي المسلمين الذين

دُجِّنوا ولم يغادروا أوطانهم ، حاسبين أن الغالبين يدعون لهم القليل الذى تركوه .

ولكن ظنونهم كذبتهم ، فقد مضى هؤلاء يستولون على مساجدهم الصغيرة الباقية ويحولونها إلى كنائس .

وفى سنة ١١٥٩ أخذوا منهم هذا الجامع الصغير الذى نتحدث عنه وحولوه إلى كنيسة باسم السلفادور . ويبدو أنه كان قد تهدم فى معظم أجزائه ، فهدموه وبنوا مكانه كنيسة جديدة بنفس الاسم .

ولكنهم أبقوا على قطعة منه كانت أقواسها وأعمدتها سليمة ، ولم يستطيعوا تضمينها الكنيسة ، فتركت كما هى خارجها ، فأقام عليها بعضهم داراً ملاصقة للكنيسة ، وهذا هو الذى وجدناه .

وهذا الجزء عبارة عن بلاطتين تتألفان من أربعة أقواس على هيئة حدود الحصان تقوم على أعمدة رومانية الرؤوس .

وقد وجدت هذه البلاطات متداعية ، فعنوا بترميمها والحفاظ عليها .

وقد تبين من دراسة كنيسة السلفادور أن المسجد الأصيل كان يتألف من خمس بلاطات طول الواحدة منها ١٨ متراً وعرضها أربعة أمتار .

وعندما انتزع من أولئك المسلمين مسجدهم ، اجتهدوا حتى أنشأوا لأنفسهم مسجداً آخر أصغر ، أنشأوه فى حى تجارى كان يسكنه مهاجرون من الفرنسيين استقروا فى البلد بعد سقوطه ، ويبدو أنهم فرغوا من إنشائه سنة ١٢٠٢ ، وظل معروفاً باسم «مسجد المسلمين» حتى القرن السادس عشر ، ثم أخذ منهم ، أو هم تلاشوا نتيجة للتعقب ومحاكم التحقيق ، وتحول إلى مسكن لطائفة من الرهبان الذين يتنكرون أن يعيشوا حياتهم كلها لا يرون أحداً ولا يراهم أحد ، ويوضع لهم الطعام والشراب فى شباك يدور ليُدخل إليهم ما يريدون إدخاله ويخرج ما يريدون إخراجَه . . وهذا الشباك يسمى «تورنوريًا»، ولهذا فقد عرف هذا المبنى باسم «كاسا دى لاس تورنورياس» ..

ولا زال هذا البيت قائماً إلى اليوم . وهو بهو متسع إذا تأملته من داخل
تبين أن جامع حقاً ، مسجد يتجه نحو القبلة ، يقوم على أقواس واسعة
تحمل فوقها - قرب السقف - نوافذ صغيرة في هيئة الأقواس .

وهذا المسجد أنشئ في أطلال مسجد آخر قديم من أيام الخلافة ، فإن
طرازه يدل بوضوح على أنه أندلسي خليفى .

رحم الله أولئك المساكين الذين استمسكوا بدينهم ، رغم كل شيء ،
حتى زالوا من الوجود . .

وفي متحف طليطلة قطع شتى من العمارة الإسلامية ، معظمها رؤوس
أعمدة خليفية الطراز . وهناك أيضاً بقايا صهاريج حمامات ، منها واحد إلى
جوار ما يعرف بالبئر المر (بوئو أمارجو) هو عبارة عن قبو من الطوب
يقوم على أقواس وأعمدة .

ونخرج من القبو إلى النور ، لنأخذ طريقنا مرة أخرى إلى قلب البلد . إنه
ميدان متوسط الاتساع يبدو لك وكأنه قائم على نشز من الأرض . اسمه
عربي : « ثوكودوير » ، تحريف لعبارة « سوق الدواب » . . لم تتغير وظيفته
على مر العصور ، فهو يستعمل اليوم موقفاً للحافلات . هنا أيضاً كان الناس
يكترون الدواب أو يشترونها . كانت هى وسيلة المواصلات إذ ذاك . كان
الأندلسيون يفضلون البغال على غيرها من دواب الحمل والركوب . كانوا
يترفعون عن ركوب الحمير . دهش السائح الأندلسي على بن سعيد عندما
دخل القاهرة ووجد أن عليه التوم من قضاة وعلماء وسراة يركبون الحمير .
عندما وصل إلى باب زويلة وجد خارجه مئات من الحمير تنتظر من يوترها .
اكثرى واحداً ليذهب به إلى القلعة . كان يظن أن الحمير دواب كسلى
لا تسر إلا على مهل ، فما راعه إلا والحمار ينطلق به كأنه فرس أصيل ، فوقع
على الأرض - وكان يحسب نفسه فارساً ! - وقام يسب ويلعن . لقد انتقمت
منه الحمير وعلمته أن يتهدب في الحديث عنها . .

من سوق الدواب نمضى فى شارع طويل ينحدر بنا انحداراً شديداً حتى نصل إلى ميدان الكاتدرائية . إنها شىء هائل لا تدرى أوله من آخره . ليست كنيسة واحدة بل كنائس . قد تكون من أضخم كنائس الدنيا ، ولكنها ليست من أجملها . لا تقارن بكاتدرائيات إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا . تنقصها الوحدة الفنية التى تبهر العين فى كاتدرائية مثل « الدوم » فى كولونيا .

هذا البناء الضخم يقوم مكان مسجد طليطلة الجامع . ظل هذا الجامع قائماً ١٤٢ سنة بعد سقوط البلد سنة ١٠٨٥ . حولوه إلى كنيسة فى ربيع الأول سنة ١١٠٤/نوفمبر ، أى بعد استيلائهم عليه بأثنتين وعشرين سنة ونيف ، وقد حفظ لنا ابن بسام فى كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » مشهد تحويله ، قال : « ... وحديثى من شهد طواغيته (أى رجال ألفونسو السادس الذى استولى على طليطلة) تبتدره فى يوم أعمى البصائر والأبصار منظره ، وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامى آخر من صدر عنه ، واعتمده فى ذلك اليوم ليتزود منه ، وقد أطاف به (أى بالشيخ المغامى) مرده عفاريت ، وسرعان طواغيته ، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فكلموا قالوا : عَجَل ! أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ، فما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقرب ، وبكى عليه ملياً وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد إليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد ... »

وفى سنة ١٢٢٧/٦٢٥ أمر الملك فرناندو الثالث بهدم الجامع والشروع فى بناء الكاتدرائية مكانه . ويبدو أنه لم يهدم كله ، بل رمم وعدل ولم يتم البناء إلا سنة ١٤٩٣ .

وقد أضاف الملوك بعد ذلك أجنحة ومصليات إليه ، حتى غدت الكنيسة مجموعة ضخمة من الأبنية تعرض طراز العارة الإسبانية النصرانية من أواخر القرن الخامس عشر إلى منتصف التاسع عشر . ويعنينا من ذلك كله لإفريز يدور حول قاعدة القبة الوسطى رسموا عليه قصة حصار غرناطة والاستيلاء عليها ، وهذا الإفريز عال لا تكاد العين تبين ما فيه ، خاصة والضوء قليل

داخل هذه الكنائس ، ولكنك لو أنعمت التأمل رأيت مشاهد الحمراء وأبراجها والملكين فرناندو وإيزابيلا على جواديهما ونفراً من فرسان المسلمين على رؤوسهم العمام . .

ولم سنة ١٦٩١ كانت تلك الكنيسة محتفظة بهيئة الجامع الذي حلت محله ، فقد زار طليطلة في ذلك العام محمد بن عبد الوهاب سفير سلطان المغرب للتفاهم مع الإسبان بشأن تبادل الأسرى ، وزار الكنيسة وتحدث عنها حديثه عن مسجد ، وقال : « ومسجدها الجامع من عجائب الدنيا ، إذ هو مسجد كبير كله من الحجارة الصلبة القريبة الشبه بالرخام ، وسقفه مقبوء من الحجارة (يريد أن عليه قبة) وهي في غاية ارتفاع السمك ، وعلوه في الجو ، وسواريه في غاية الضخامة والصناعة العجيبة والنقوش . وقد أحدث النصراني في هذا المسجد من جوانبه زيادة في الوسط بشبابيك من نحاس أصفر ، وفيها من تصاويرهم وصلبانهم ، وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركان (أرغن) التي يضربون بها وقت صلواتهم ، مع الكتب التي يقرأونها في الصلوات ، شيء كثير . . » .

وبعد ذلك بأربع وسبعين سنة (سنة ١٧٦٥) زار طليطلة سفير مغربي آخر هو الغزال الفاسي ، وألم بالكنيسة ووصفها بأنها جامع ، قال إنه من أعظم جوامع الدنيا . وقال أيضاً إنه رأى في المدينة مقبرة للمسلمين ، وعليها ساريات من الرخام فيها أساء وتواريخ وفاة بعض أكابر المسلمين . وفي يومنا هذا لم يبق من ذلك كله شيء . .

بقيت علينا زيارة لقصر طليطلة الشهير المعروف باسم « إل الكاثار دى توليدو » . .

التاريخ القديم لهذا القصر غير معروف ، فيقال إنه كان حصناً كبيراً أيام الرومان ، ثم جددته ملوك القوط ، وأعاد بناءه حكام المسلمين ، وهو يقوم على صخرة عالية تطل على نهر تاجه مقابل القنطرة التي ذكرناها . وتذكر مراجعنا أن الحكم الربضي ، ثالث أمراء بني أمية في الأندلس ،

أنشأ في وسط طليطلة حصناً عظيماً ليطمئن إلى أن أهلها لن يعودوا إلى الثورة عليه ، وقد بنى هذا الحصن سنة ١٨١ / ٧٩٧ ، ولكننا لا نعتقد أنه كان يقوم في موقع القصر الذي نعينه هنا .

أما هذا القصر فكان على أيام المسلمين حصناً ومقراً للحاكم ، ثم سكنه ملوك الإسبان بعد استيلائهم على البلد واتخذوه قصراً لهم ، وجدده وتأنق في زخرفته الملكان فرناندو وإيزابيلا ، وسكنه بعد ذلك كارلوس الأول (شركان) وفيليب الثاني بعده حتى نقل العاصمة ومقر إقامته إلى مدريد .

وفي أيام محنة ديوان التحقيق استعمل هذا القصر سجنًا للمتهمين في عقائدهم . وبعد ذلك تحول إلى معسكر للجنود ، وفي أثناء الحرب الأهلية الإسبانية طار ذكره في الدنيا ، لأن قائده الجنرال ماسكاردو رفض الاستسلام لقوات الشيوعيين التي كانت تحاصره ، فقبضوا على ابنه ، وهددوه بقتله إذا لم يسلم الحصن . فطلب أن يتحدث إلى ابنه ، وتحدث معه بالتليفون فودعه ، ثم أعلن أنه لن يستسلم ، وأنهم يستطيعون قتل ولده إذا أرادوا . وقتلوه ! وظل الحصن صامداً حتى خلصته القوات الوطنية بعد سبعين يوماً .

* * *

وقبل أن تغادر طليطلة وإقليمها لا بد من زيارة إلى ضاحية الإسكوريال وديرها الطائر الصيت .

هذا الدير قرر بناءه فيليب الثاني ملك إسبانيا في العاشر من يوليو ١٥٥٧ ، في اليوم الذي بلغه فيه نبأ انتصار جيوشه على جيوش فرنسا في موقعة سان كاتان . ويقال إنه قال يومئذ : أريد أن أبني قصراً لله وكوخاً لي . .

وكان فيليب الثاني رجلاً متديناً جداً ، عاش حياته كأنه راهب ، يضطهد بقايا المسلمين في بلاده ويحارب البروتستانت خارجها . كان رجلاً حزيناً لا يلبس غير السواد ، ويقال إنه لم يتسم مرة في حياته .

استغرق إنشاء هذا المبنى الضخم أربعين سنة ، وقد اختار لإنشائه قرية الإسكوريال ، ضاحية على ٤٥ كيلو متراً شمال غربى مدريد ، تقوم على

سفح جبل وادى الرملة ، على ارتفاع نحو ١٠٠٠ متر ، ولهذا فإن جوها فى الصيف رقيق لطيف ، وهى مصطاف أهل مدريد ، تحيط بها الخضرة ويطل عليها الجبل تغطيه المراعى والأشجار

والدير عبارة عن كنيسة عظيمة ذات صحن بالغ الارتفاع رائع الهندسة ، يمتاز بخطوطه المستقيمة الواضحة ، وبالضوء الباهر الذى ينفذ من شبابيك عالية مزينة بالزجاج الملون . ومذبح هذه الكنيسة فى صدرها ، قطعة فنية بديعة مزينة باللوحات والتحف من كل صنف .

وحول الكنيسة يقوم « الكوخ » . . وهو فى الواقع قصر عظيم يتألف من غرف وقاعات متوالية ، كل منها ذات طراز خاص ، وقد زينت جدرانها بقطع من السجاجيد ذات الرسوم (جوبلان) نُقلت مناظرها من لوحات فنانين إسبان مثل إل جيريكو ومُوريسُو وبِلَاسْكِيث ، وليست كلها من عصر فيليب الثانى ، وإنما أضافها الملوك فيما بعد .

وأبسط هذه الغرف غرفة نوم فيليب الثانى ، وهى الجزء الوحيد الذى يذكر الإنسان بالكوخ . غرفة لا ينام فيها إلا رجل متقشف : سرير بسيط جافى الهيئة فى ركن مظلم ، والأرض بلاط أحمر لا يزينه شئ . وتستلقت النظر لعبة كان يتسلى بها : قطعة كبيرة من حديد المغناطيس محفوظة داخل زجاج ، كان يتسلى باختبار قوة جذبها للأشياء ، كما كان أبوه كارلوس الأول (شركان) يتسلى بالبيغاوات المتكلمة وإصلاح الساعات فى معتزله الذى أوى إليه بعد تنازله عن الملك فى دير يُوسْتِيَه فى أشد نواحي إسبانيا قحلا وهى أسترامادورا ، أو المفازة كما كان جغرافيونا يسمونها . .

وفى نهاية هذه القاعات دهليز طويل رسموا على جداره منظر موقعة دارت بين المسلمين والنصارى ، وهو أضخم رسم لموقعة من هذا النوع رأيته فى الدنيا ، تستطيع أن تقضى ساعة تتأمل نظام الجيش وملابس الجنود ما بين مسلمين ونصارى ، وهو منظر فريد فى بابه بالنسبة لمن يهتمهم أن يروا كيف كانت المعارك بيننا وبينهم تلور . .

والجزء الذى يهيك من هذا المبنى الضخم هو المكتبة . تجد الطريق إليها على يمين المدخل قبل أن تفضى إلى الكنيسة . إنها مكتبة عظيمة تضم آلاف الكتب والمخطوطات ما بين لاتينية ويونانية وإسبانية ولغات أوروبية أخرى ، وفيها كذلك نحو ٢٠٠٠ مخطوط عربى .

هذه المخطوطات ليست من بقايا كتب أهل الأندلس ، فهذه كلها قد أحرقت وقضى عليها . أما هذه المخطوطات فهى جزء من مكتبة مولاي زيدان من سلاطين المغرب . كانت بينه وبين الإسبان حرب ، وكان يريد أن ينقل مكتبته وذخائره من سلا إلى طنجة ، فأرسلها فى سفن فى البحر ، ووقعت السفن فى يد الإسبان فاستولوا على ما فيها ومنها هذه الكتب ، فأودعوا مكتبة دير الإسكوريال . كانت نحو أربعة آلاف مجلد ، ثم قام حريق فأتى على نصفها ، ولم يبق إلا هذه .

ولم تبدأ العناية بهذه المجموعة الفريدة من المخطوطات إلا من أوائل هذا القرن . كان قد اشتغل بفهرستها راهب لبنانى مارونى وفد على إسبانيا وعاش فى دير الإسكوريال فى القرن الثامن عشر ، اسمه ميخائيل الغزيرى ، ويكتبونه : ميغيل كازيرى . كان عالماً محققاً ، قام بدراسة هذه المخطوطات وعمل لها فهرساً لاتينياً أورد فى ثناياه قطعاً كثيرة من النصوص . عمله هذا من أحسن الأعمال العلمية التى قام بها إخواننا اللبنايون ، وفهرسه لا زال مرجعاً محترماً من مراجع تاريخ الأندلس .

وشهرة هذه المخطوطات أعظم من حقيقتها . فهى نحو الألفين ، منها نحو ١٩٠٠ مفهرسة فهرسة حديثة وافية ، والباقي لا زال أوراقاً وقطعاً متناثرة غير مفهرسة ، حفظوها بعناية فى ملفات من الورق المقوى ، وقد درسنا ما فيها دراسة دقيقة .

من هذه المخطوطات نحو ١٥٠٠ فى علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه والقراءات والأدب والتاريخ ، معظمها نسخ مكررة لمخطوطات توجد فى خزائن أخرى فى الشرق والغرب . الأربعمئة الباقية فى الفلسفة والطب

والرياضيات والجغرافية والنبات وما إليها من العلوم ، تلك هي المجموعة الفريدة حقاً . ولا يكاد يعنى بها علماءنا ، عنايتهم كلها متجهة إلى ما يسهل نشره من الأدب والتاريخ ، أما كتب العلوم فتحتاج إلى عناية خاصة ومعرفة بموضوعاتها ، وقلما يفرغ علماءنا لهذه المخطوطات نظراً لما تتطلبه دراستها من مشقة .

ويدير هذه المكتبة الآباء الأوغسطينيون ، وهم فرقة مسيحية منسوبة إلى القديس أوغسطين . وقد ورث رهبان هذه الفرقة العناية بالعلم والكتب ، ولهذا فإن عنايتهم بمخطوطاتنا طيبة مشكورة ، وهم — كرهبان مكتبة الفاتيكان — من أكرم الرهبان خلقاً وأكثرهم حرصاً على خدمة العلم وأهله ، وما زار المكتبة عالم عربي إلا لقي منهم كل مودة . وبعضهم يجيدون العربية ، ولهم في تاريخنا الثقافي مباحث ودراسات ينشرونها في مجلة دورية يصدرونها باسم « مدينة الله » (ثيوداد دي ديوس) . سموها باسم الكتاب المعروف للقديس أوغسطين ، وهي من المراجع العلمية التي يعتمد عليها .

وإلى جوار قاعة المطالعة معرض لنوادير المخطوطات ، ترى فيه نسخاً من القرآن الكريم جميلة الخط والزينة ، ومخطوطاً مصوراً بالألوان في علم الحيوان ، وآخر من كليلة ودمنة مصوراً تصويراً جميلاً .

والدير يقع إلى يمين الكنيسة ، وهو دير عظيم منسوب إلى القديس لورنزو . وهو يطل على الحدائق الواسعة الواقعة خلف القصر ، وفي جانب من هذه الحدائق تجدد مدفن الملوك : قبو واسع تحت الأرض تصل إليه عن طريق سلم منحدر طويل ، هناك ترى توابيت الملوك قد رصت في صفوف بعضها فوق بعض .

وفي طريق عودتك إلى مدريد قد تمر — إذا شئت — بالضريح الهائل المسمى « وادي الشهداء » (فايي دي لوس كابيدوس) وهو يقوم في بقعة صخرية جافية تسمى كويلجا موروس . هنا دار قتال طويل عنيف أثناء الحرب الأهلية الإسبانية . بعد أن انتهت الحرب قرر رئيس إسبانيا الجنرال

« فرانتيسكو فرانكو باهاموند » أن ينشئ في ذلك الموضع كنيسة كبرى وضريحاً لشهداء الحرب . استمر بناء الكنيسة والضريح عشرين سنة ، ولم يفرغ إلا سنة ١٩٥٩ . هذا أضخم ضريح بنى في القرن العشرين . يقوم في لحف صخرة هائلة صماء . نقبوا الصخرة وأنشأوا فيها صحن الكنيسة الذى تصل إليه عن طريق بهو طويل مبطن بالرخام . فوق الصخرة أقاموا صليبا هائلا ارتفاعه فى الجو نحو ١٠٠ متر . الصليب مجوف من داخله تصعد جزءاً منه بمصعد كهربائى . ذراعا الصليب يقال إن فيها مكتبة ، وليس هذا بصحيح ، فليس هناك كتب أو مكتبة ، حدثنا بذلك صاحبنا الراهب العلامة القرايلى خوستو بيريث دى أوريل ، راعى الكنيسة الملحق بهذا الضريح واسمها سانتا كروث دى لوس كايدس .

والى الشمال الشرقى من مدريد — على ٢٥,٥ كيلومتراً منها — تقوم بلدة ألكالا دى إينارس ، أى قلعة إينارس التى ذكرناها أكثر من مرة ، وهى بلد صغير لا زال يحتفظ بطابع العصور الوسطى فى الكثير من أجزائه . هذا البلد كان حصناً رومانياً قديماً يسمى كومبلوتوم ، وهو يقع على ضفة نهر يسمى إينارس ، وعندما استولى العرب على طليطلة فرأسقفاها ونفر من كبار القساوسة فى اتجاه سرقسطة ، فأدركهم العرب فى كومبلوتوم هذه ، وكان معهم الكثير من ذخائر كنيسة طليطلة من بينها مذبح الكنيسة ، وكان منضدة ثمينة مزينة بفخار الجواهر ، حتى خال العرب أنها كلها من الزبرجد الأخضر ، وحسبوا مائدة ، ونسبوا إلى سليمان عليه السلام ، فسُمى الموضع مدينة المائدة . وفى أيام الأمير محمد شرع المسلمون فى إقامة الحصون على الطريق المؤدى من طليطلة إلى وادى نهر إيره ، فعرف الطريق كله باسم وادى الحجارة ، والحجارة هنا جمع حَجَر بمعنى الحصن أو القلعة ، كما يقال حَجَر النَّسْر فى شمال المغرب الأقصى والمراد به قلعة النسْر . وعلى ٥٥ كيلومتراً فى نفس الطريق أنشأوا حصناً نشأت حوله مدينة عرفت باسم مدينة وادى الحجارة وتسمى اليوم جوادا لاخارا ، ويمتد خط الحصون إلى

سَجُونُوسَة (سِيَجُونُوسَا) ومدينة سالم (مِدِينَاثِيلِي) ثم دير الحَجَر (مُونَاستِيرِيُو دِلَاس بِيِيدِرَاس) ثم قلعة أيوب (كَالَاتَايُود) ثم سرقسطة .
وقد سميت مدينة المائدة بعد ذلك بقلعة عبد السلام ، وذهب بعضهم إلى أن لفظ إينارس - ويُكتب هِنَارِس - تحريف بالقلب للفظ أَنهَارِس ، أى أنه جمع غير عربى للجمع العربى لكلمة نهر ، ولكننا لا نطمئن إلى مثل هذا التخريج . ومثل ذلك ما يقال من أن إقليم نَهْرَة محرف من نَهْرَة بمعنى إقليم الأنهار ، وهو فرض ظاهر التكلف .

وقلعة إينارس بلد صغير سكانه حوالى ١٨٠٠٠ نسمة معظم أبنيته الجديدة بالروية كنائس ، ومباني الجامعة القديمة التى أنشأها الكاردينال ثيسنيروس فى القرن الخامس عشر ، ولا زالت قائمة إلى اليوم ، تعطلت الدراسة فيها زمناً ، ولكنها عادت فانتظمت فى سلك الجامعات الكنسية . وقد زرنا من كلياتها كلية الفلسفة وكلية اللاهوت ، وأنشئ من بعض مبانيها معهد من معاهد الإدارة . وأمام المبنى الرئيسى للجامعة القديمة يقوم تمثال ميغيل دى ثيرفانتس سافندرا . وواجهة المبنى قطعة فنية جديدة بالتأمل ، فهى مزينة بتماثيل غاية فى الرقة والجمال ، ويرى فى أعلاها رَتَلُكَ شِرلُكَان .

ولعل أطرف ما فى قلعة إينارس نُزُلُ طلاب الجامعة القديم ، فقد حافظوا على رسمه ورموه ، وقاعة الطعام فيه مطعم فريد فى هيئته ونظامه ، إذ لا زال محافظاً على طابع مطاعم الطلاب فى جامعات العصور الوسطى ويسمونه اليوم « لا أوستيريَا دل إستودِيَانْتِ » .

ومن أقدم كنائس البلد وأجملها كنيسة القديس إِلْدِفُونْسُو ، وهذه الصيغة من اسم ألفونسو هى القديمة التى أخذ العرب عنها الصورة التقليدية للاسم عندهم : الاذفونش .

“ “ “

طال بنا الوقوف عند مدريد وما حولها . .

فلنرجئ رحلتنا إلى الشمال والغرب إلى الفصل التالى . .

الشمال: أرض الجبال والاشجار والاساطير

والآن أمامنا المرحلتان الأخيرتان : رحلة الشمال والشمال الغربي ، ثم رحلة الغرب .

الأولى نبدأها من مدريد حتى نصل إلى المحيط الأطلسي في الطرف الشمالي الغربي من شبه الجزيرة عند رأس فينيستري أي رأس الظلام أو الظلمات - وكان العرب يسمونه رأس كنيسة الغراب - ثم ننحدر إلى الجنوب فنقطع البرتغال من شمال الجنوب ، وندخل إسبانيا مرة أخرى عند وُلْبَة (أوبليّا) قرب إشبيلية . .

كان ينبغي أن نفصل عن مدريد ونتجه شمالا بشرق ، في نفس الطريق الذي سار فيه موسى وطارق مارّين بقلعة إنارس فوادي الحجارة (جوادا لانخارا) فحمّة أرغون (لا ألامّة دِ أرجون) فقلعة أيوب (كالاتايبود) ففنية دونيا جودينا (لا ألونيا دِ دونيا جودينا) فسرقسطة ، ثم نسير مع نهر إبرّه في اتجاه منابعه ، ثم ندخل أرغون ونمر بينبّلونة (پامپيلونا) فلوجرونسيو حتى نصل إلى برغش ؛ ولكن أحدا لا يسير في هذا الطريق اليوم .

كان العرب يسيرون فيه في الماضي ليتحاشوا سلسلة الجبال الوسطى التي تقسم شبه الجزيرة في خط مائل من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ابتداءً

من حوض إبره حتى بَطْلَيْوُس (باداخوس) قرب حدود البرتغال . أما اليوم وقد شقت الممرات والأنفاق في هذه الجبال فإن سكة الحديد وطرق السيارات تخترق هذه الجبال وتتجه في خط عمودي تقريباً إلى برغش ، أو تسير شمالاً بغرب عبر جبال وادى الرملة حتى تصل إلى شَقُوبِيَّة (سيجوييا) . وسنسلك نحن هذا الطريق الثانى حتى نرى بلاداً لها أهمية تاريخية بالنسبة لنا ، ونحن في آثار موسى وطارق دائماً ، لأننا سنلتقى بالجيش العربى الفاتح عند ليون آتياً من الشرق .

المنطقة التى نقطعها من مدريد إلى شَقُوبِيَّة من أجمل مناطق إسبانيا . إنها منطقة جبال خضراء . منطقة عسيرة لكثرة مرتفعاتها ، ولكنتنا نمضى في طريق سيارات جميل معبد يأذن لنا في الاستمتاع بجمال الطبيعة دون أن نقاسى وعث الطريق .

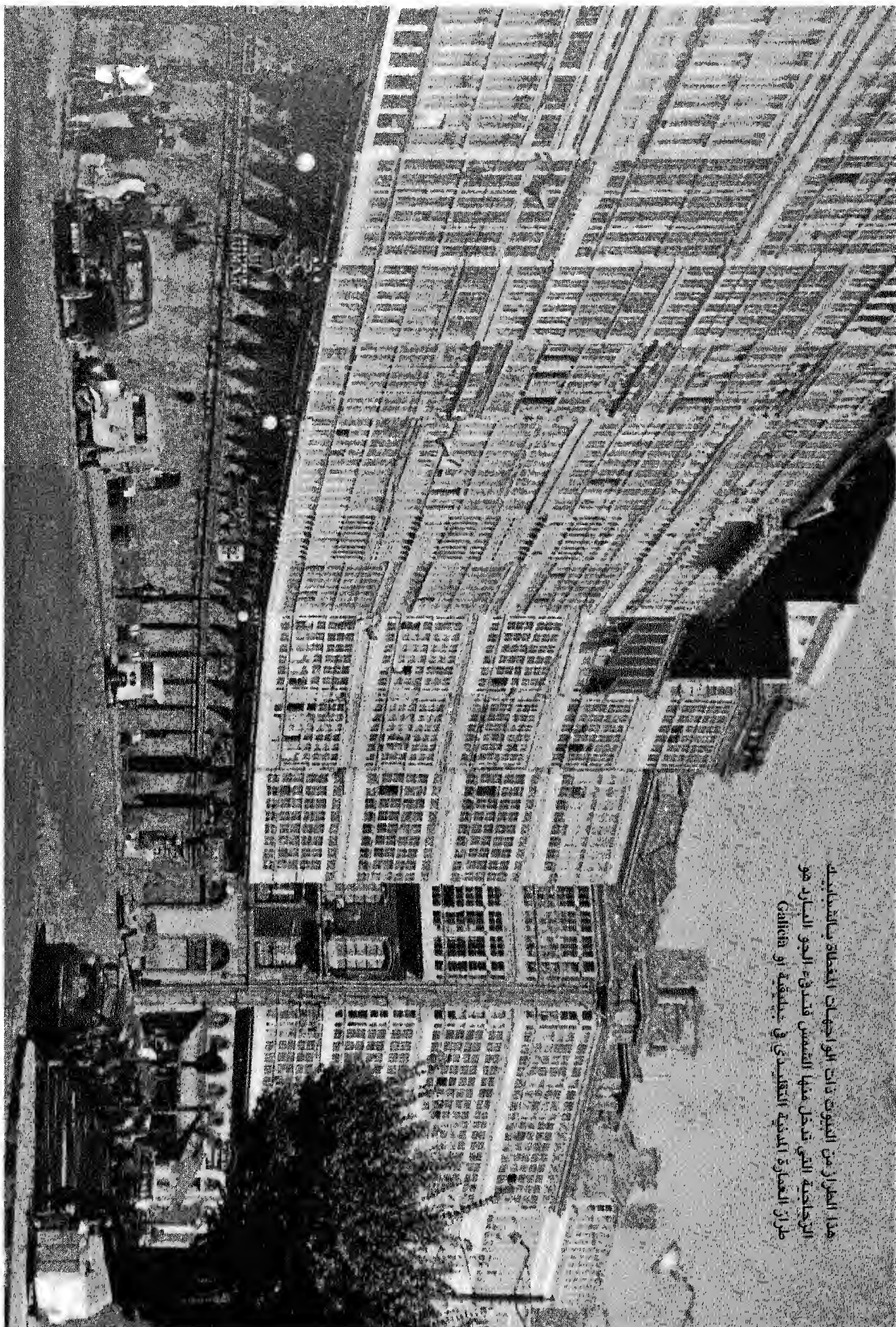
إذا تأملت الجبال المهيّلة عن يمين وشمال ، والمضايق التى نجتازها ، تصورت الصعوبة التى كان العرب يقاسونها في المرات القليلة التى أخذوا فيها هذا الطريق إلى دار الحرب .

لنذكر كذلك أن هذه المنطقة كلها كانت أيام العرب مغطاة بالغابات ، والعرب لم يستريحوا لمناطق الغابات أبداً ، لا هم سكنوها ولا اطمأنوا إلى المسير فيها . كانوا يخشون الكمائن التى ترصدهم مستكنة خلف الشجر ، والعرب كانوا ينفرون من العدو المستتر . كانوا يرحبون بالعدو الذى يواجههم بصدره في الأرض المكشوفة حتى يكون لهم مجال للكر والفر ، أى الانقضاض على العدو في قطع صغيرة من الخيل تخرق صفوفه وتدور ثم تعود إلى مواقعها الأولى لتهم مرة أخرى . هذه الضربات المتلاحقة كانت تحطم صفوف العدو وتفتح الثغرات للرّجالة .

في طريقنا إلى شقوبية نمر ببلد يسمى فالديجليسياس (وادى الكنائس) . هذا هو حد إقليم قشتالة الجديدة (كاستيلاً لانيوفا) . إن إسبانيا مقسمة

جبلقية الأرض الصخرية البعيدة التي
أنجبت الملوك والنساء الجميلات

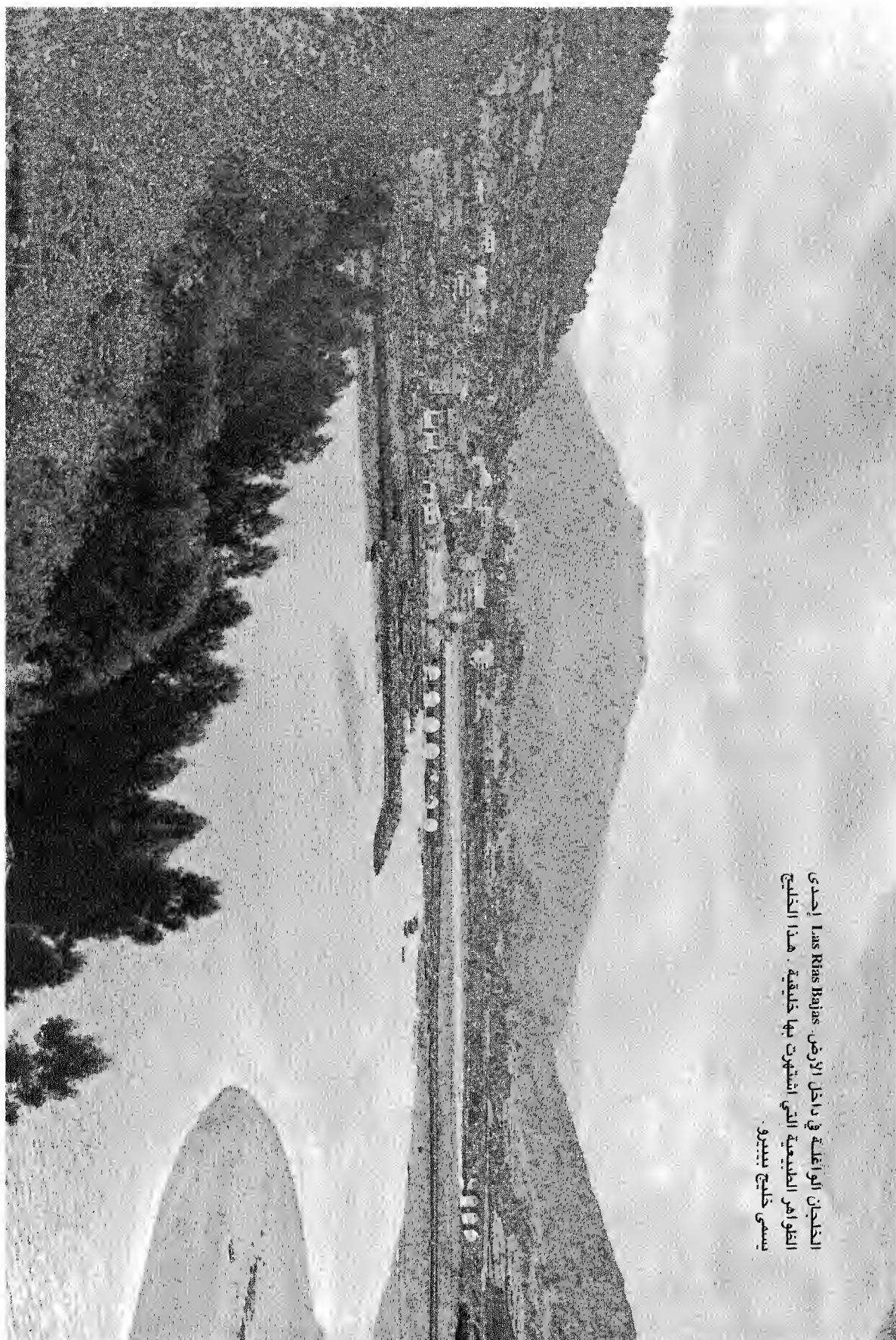




هذا الطراز من الموديلات ذات الواجهات المصممة بالأساليب
الرجاحة التي تدخل فيها الشمس فتنوع الجو السار هو
طراز العمارة الحديثة المتفرد في منطقة أو كاليفورنيا



ومع ذلك فقد زحفت إلى هنا نخالاتنا العربية وقامت وحدها
في بلاد البرد والمطر وواحدة منها تحتمي بتمثال في الروض.



الخانان (أو أقاليم) في داخل الأرض. Las Rias Majas إحدى
الأنوار الطبيعية التي اشتهرت بها خليفة. هذا الخليج
يسمى خليج بيتيرو.

إلى أقاليم واسعة، كل إقليم يضم عدداً من المديريات كما نقول نحن في مصر:
الوجه البحرى والوجه القبلى .

بعد ذلك ندخل فى قشتالة القديمة (كاستيلاً لا فييخا) وهى إقليم واسع
يضم مديريات بُرغُش وسُوريّة وشَقُوبِيّة وأبِلّة .

قشتالة القديمة هى مهد مملكة قشتالة القديمة . نشأت إمارة صغيرة أيام
عبد الرحمن الناصر ، أنشأها أمير صغير مغامر يسمى فرنان جنزالث ، ثم
تطورت حتى صارت مملكة عاصمتها برغش .

فى أيام المنصور بن أبى عامر كان العداء شديداً بين قشتالة القديمة هذه
ومملكة ليون ، فدخلت قشتالة فى طاعة المنصور لتستطيع مقاومة ليون .
كان المنصور يعرف أنها تهادنه خداعاً ، ففضى عليها كما قضى على ليون .
بعد موت المنصور قام فرناندو الأول ملك ليون بتوحيدهما ، أصبحت المملكة
تسمى مملكة قشتالة وليون معاً . عندما استولى ألفونسو السادس على طليطلة
وملك أراضيها الواسعة التى كانت تصل إلى حدود بلنسية سميت المنطقة
الجديدة قشتالة الجديدة ، وأصبحت أغنى مناطق المملكة ، وانتقلت العاصمة
من ليون إلى طليطلة .

قشتالة لفظ لاتينى : كاستيلاً ، معناه القلعة . كان العرب يسمون قشتالة
القديمة « القلاع » ، يسمونها أيضاً قَشْنِيْلَة وربما سموها قَصْطَلَة .

من بعيد تراءى لنا شقوبية (سيجوبيا) وكأنها حصن كبير فوق جبل
مرتفع . عندما نقرب منها نتبين أنها مدينتان ، اليمنى منهما أعلى من اليسرى ،
بينهما واد متسع هو اليوم الميدان الرئيسى للبلد .

بين المدينتين سقاية ماء هائلة تذكرك بسقاية « السبع سواقى » فى مدخل
« مصر القديمة » جنوبى القاهرة . هذه السقايات تُنشأ لتحمل الماء إلى البلاد
والقلاع العالية ، تبدأ عند شط النهر ، حيث يرفع الناس الماء إلى أعلاها
بالسواقى أو بالذلاء ويصبونه فى مجرى فوق السقاية فيجرى إلى البلد .

سقاية « السبع سواقي » أنشئت لتوصل ماء النيل إلى القلعة — أو قلعة الجبل كما كانت تسمى أيام المماليك — وسقاية شقوبية أنشئت لتحمل الماء من النهر البارد (ريو فريو) أحد فروع نهر دويره، إلى مدينة شقوبية . إنها سقاية رومانية هائلة . أضخم عمل هندسي روماني من نوعه في الدنيا . أنشأها الإمبراطور تراجان . قناطرها حجرية ضخمة مزدوجة ، صف فوق صف . يقال إن مهندس مسجد قرطبة الجامع استوحاها لإقامة العقود المزدوجة في الجامع ، وقد سبق أن استبعدنا إمكان ذلك .

شقوبية كانت دائماً في منطقة الفراغ بين إسبانيا الشمالية وإسبانيا الإسلامية . تداولتها أيدي المسلمين والنصارى أكثر من مرة ، ولكنها كانت دائماً مستقرّاً لجالية إسلامية عظيمة . تجد بقايا سورها إذا وقفت في الميدان ونظرت إلى المدينة اليمنى على المرتفع . تستطيع الصعود إلى هذا السور بواسطة سلم حجري ضخم . المنازل ملاصقة للقطع الباقية من السور حتى لتكاد تخفيها . وجود قطع السور في هذا الموضع يدل على أن شقوبية العربية قامت فوق الجبل مكان شقوبية الرومانية . ذلك طبيعي ، فقد كانت شقوبية حتى العصر الحديث حصناً .

نصعد إلى البلد بواسطة طريق صاعد كأنه سفح جبل . عندما نصل إليه نرى السهول التي تلى وادي الرملة شمالاً بغرب منبسطة أمامنا مروجاً خضراء . هنا ندرك الأهمية العسكرية لهذا البلد .

آخر من ثبت أقدام المسلمين في شقوبية كان المنصور بن أبي عامر . بعد موته استولى عليها النصارى . رغم ذلك ظلت الجماعة الإسلامية فيها قوية متماسكة حتى آخر القرن السادس عشر . كان أفرادها قد نسوا اللغة العربية لطول انقطاعهم عن بلاد المسلمين ، وأصبحوا يتكلمون لغة إسبانية تخالطها ألفاظ عربية . آخر شيخ لمسجد شقوبية سمعنا عنه اسمه عيسى بن جابر أي عيسى بن جابر ، وقد ألف لإخوانه المسلمين مختصراً في الفقه جعل عنوانه

« بَرَبِيرِيَّه سُنِّي » أى مختصر فى السنة . إنه باللغة الإسبانية مكتوبة بحروف عربية ، ويعرف بـ « الكتاب الشقوبى » . إنه ألطف كتاب فى الفقه الإسلامى ، تجد حديثاً وافياً عنه فى كتابنا « تاريخ الفكر الأندلسى » .

إذا سرت فى طريقك حتى نهاية البلد وجدت أمامك حصناً ضخماً يسمونه قصر شقوبية (ألكاثار دى سيجوبيا) نعتقد أن هذا هو مكان الحصن العربى القديم . البناء الذى تراه حديث يرجع إلى القرن السابع عشر ، وذلك ظاهر . إنه نموذج لقلاع هذا العصر فى إسبانيا . يستخدمونه الآن كلية عسكرية .

إلى جنوب غربى شقوبية نجد أبله (أفيللا) وهى تشبهها إلى حد بعيد إنها مدينة متوسطة الحجم تشتهر بأسوارها الضخمة التى تعتبر أجمل ما بقى من نوعها فى إسبانيا . هذه الأسوار التى تراها حديثة ولكنها قامت على آثار الأسوار العربية .

غير هذه الأسوار لا تجد فى أبله شيئاً عربياً . المسجد الجامع لم يكن فى الموضع الذى تقوم فيه اليوم الكاتدرائية ، وإنما مكان دير سانتا ماريا دى جراثيا .

إلى غرب شقوبية ، على ٩٩ كيلو متراً منها ، نجد سَلَمَنْقَة . مدينة فريدة فى بأنها تقوم على ضفة نهر تَورْمِس العريض . لا يوصف هذا البلد إلا بأنه مدينة ثقافة ، الجامعة هى مركز الحياة فى هذا البلد . كلياتها ومعاهدها تملأ البلد كله . الشوارع غاصة بالطلاب جماعات جماعات . الطلاب يأتون إليها من نواحي العالم كله ، فهنا يتعلم الناس الإسبانية على أصولها . يرتبط اسم البلد من أوائل هذا القرن باسم ميغيل أونامونو الفيلسوف المعروف . تمثاله يجده قرب الكاتدرائية .

أجمل ما فى البلد ميدانه الكبير (پلاتا مايور) . ميدان فسيح مربع تقوم حوله مبان من هيئة واحدة . فى كل بلد إسباني تجد ميداناً كبيراً تحيط به

البواكى من كل ناحية ، أجمل هذه الميادين ميدان سَلَمَنْقَة . بعد
المغرب ترى الناس يتزهون تحت البواكى . .
الكنائس فى سلمنقة لا حصر لها ، حيثما نظرت رأيت كنيسة .

* * *

ونعود إلى شَقُوبِيَّة لنواصل السير إلى الشمال . .
على ٦٦ كيلو متراً شمالها فى خط مستقيم نجد بلد الوليد (قايّا دوليد) .
لا نعرف من هو الوليد الذى سمى البلد باسمه ، يغلب أن الاسم منسوب
إلى قبيلة كانت تسمى بنى الوليد كما نسبت مدينة سالم إلى بنى سالم .
وبلد الوليد مدينة عامرة واسعة تقع وسط سهل فسيح ، لهذا اختارها
ملوك إسبانيا عاصمة لمدة قصيرة قبل استقرارهم فى مدريد .
لم تمكث بلد الوليد فى يد المسلمين طويلا . كان آخر من استردها
المنصور بن أبى عامر ، ثم ضاعت بعد وفاته .
بعد بلد الوليد يتفرع الطريق فرعين : أحدهما يذهب إلى بُرْغُش وفيتوريا
وسان سباستيان وسانتاندر ، والآخر يتجه نحو ليون .
وليون اليوم بلدة صغيرة ، بل ربما كانت أصغر عواصم المديريات
فى إسبانيا الآن ، والداخل إليها لا يشعر أنه فى عاصمة ، فالبلدة صغيرة
ريفية الطابع لا يستوقف النظر فيها إلا كنيستها الجميلة ، خاصة وأن الإنسان يصل
إليها عن طريق بلد الوليد أو برغش ، وكلتاها عاصمتان كبيرتان ، وهما أحدث
منها ، ولكن ظروفهما خطت بهما إلى الأمام بقدر ما تأخرت الظروف بليون .
فأما بلد الوليد فقد كانت العاصمة الفعلية للملك إسبانيا عندما ضاقت بهم
طليطلة وتطلّعوا إلى بلد يسمح وضعه الجغرافى بالاتساع لمطالب عاصمة
كبيرة .
وأما بُرْغُش فقد كانت عاصمة إسبانيا خلال الحرب الأهلية الأخيرة

(١٩٣٣ - ١٩٣٦) حتى تمكنت قوات الخنير اليسيمو (القاعد الأعلى) فرانتيسكو فرانكو باهاموندا من الاستيلاء على مدريد في ١٨ يونيو ١٩٣٦ .
وهذان البلدان هما عاصمتا السهل الفسيح المحصور بين سلسلة جبال وادي
الرملة (جواداراما) من الجنوب وسلسلة الجبال الكتنبية (كوردبير
كانتابريكا) من الشمال ، وهو سهل فسيح يضم معظم إقليم قشتالة القديمة
الذي ذكرناه .

منذ أن غادرنا بلد الوليد ونحن شمال نهر دويره . المسافة من مدريد إلى
ليون ٣٠٠ كيلو متر ، ومن قرطبة إلى هنا ٧٥٤ . لقد عبرنا الهضبة الوسطى
كلها بجبالها التي لا تنتهى . الأرض من حولك سهل منبسّط متموج كأنه مياه
بحر ، ولكن ارتفاع هذا السهل عن سطح البحر يتراوح بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠
متر . هذه أعلى سهول في أوروبا كلها . الأنهار ومجاري المياه كثيرة .

نحن نعبّر ها الآن دون أن نحس بفضل القناطر الحديثة ، ولكن جيوش
العرب كانت تقطعها على القدم أو على الخيل والبغال ، وكلما وصلوا نهراً
أو مجرى ماء كان لا بد أن يبحثوا عن مخاضة ، أى مكان ضحل من مجرى
النهر لتعبّر الدواب خوضاً في الماء . عند هذه المخاضات كان الأعداء ينتظرون
دائماً ، كانوا يستترون بأشجار الغابات لينقضوا إذا سنحت فرصة . كانت
هناك دائماً في جيوش المسلمين فرق متخصصة في فتح الطرق وتوسيع
مخارم الجبال بالمعاول .

فكر الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط - لكى يتحاشى ذلك الطريق
الوعر - في أن يخرج الجيش كله على مراكب الأسطول من لشبونة ، ويبحر
شمالاً ثم شرقاً حتى يرسو عند خيخون . وجرب ذلك مرة ، ولكن العواصف
ووعورة السواحل حطمت الأسطول قبل وصوله .

لكى يسيطر العرب على هذه النواحي كان لا بد أن تكون عاصمتهم
طليطلة ، أما قرطبة فبعيدة جداً . لكى يقطع الجيش الغازى نحو ٨٠٠ كيلو

متر كان لا بد له من شهرين ونصف شهر على الأقل . كانوا ينهضون للغزو من أوائل مايو فلا يصلون إلى نواحي ليون إلا في منتصف يوليو . كانوا يحسبون حساب العودة أيضاً ، لأنهم إذا تأخروا إلى أواخر سبتمبر سقطت الثلوج وانسدت مخارم الجبال وأصبحت العودة شقاء عظيماً .

لهذا كان لا بد أن يشرعوا في العودة من منتصف أغسطس ، أى أن مقامهم في هذه النواحي كان لا يمكن أن يزيد عن شهر . وماذا يمكن أن يصنعوا في شهر ؟

ضربات سريعة هنا وهناك . .

وكان الأهالي يعرفون ذلك ، فكانوا يزرعون شعيرهم مبكراً ، ويحصدونه قبل منتصف يوليو ، ويرتفعون بماشيتهم ومحاصيلهم إلى أعالي الجبال حيث لا يدركهم أحد .

لم يكن العرب ليجدوا في المدن إلا حاميات تعتصم بالحصون ومعها مؤونة الشهر والشهرين ، والوقت لا يتسع لحصارها ، ثم يعود الجيش أدراجه في خط طويل يسير على مهل ، الطليعة تسبق الجيش بحوالى كيلو متر ، والساقة — أى مؤخرة الجيش ، وفيها المؤن وأدوات الحرب — تتأخر عن القلب كيلو متراً آخر .

ليس أسهل من الانقضاض على أجزاء الجيش المتفرقة المتباعدة . كان الأعداء يهجمون في قطع صغيرة من الخيل تضرب وتفر بسرعة إلى المخاض ، هذا ما نسميه نحن بحرب العصابات . الإسبان والروس هم الذين ابتكروا هذا الأسلوب من الحرب ، اسمه في اللغات كلها إسباني : «جيريلا» وتُنطق جِريَّا (الحرب الصغيرة) . .

في أيام الفتح الأولى خلف العرب حاميات وجاعات مستوطنة في هذه النواحي كلها ، إلى الآن يوجد حتى في أقصى الشمال والشمال الغربى قرى تحمل أسماء عربية . بعد أن عادت الجيوش شعرت الجماعات الإسلامية هناك

أنها منقطعة عن أخواتها تماماً . كان لابد أن تعتمد على نفسها إذا أرادت أن تعيش ، فإن الموت يطرق بأسرع مما تأتي النجيدات .

هذه الجماعات انسحب الكثير منها قبل قيام الإمارة القرطبية سنة ١٣٨ / ٧٥٦ ، الباقي منها كان لا بد أن يختلط بالناس هناك ويجد وسيلة للعيش معهم ، والكثرة تذيب القلة في كيانها . ظلت هذه الجماعات مسلمة ، ولكنها تكلمت الإسبانية واندرجت في الغار . حدث مثل هذا أيضاً في الطرف الشرقي الأقصى لمملكة الإسلام : على أوائل أيام الإسلام كانت الجماعات العربية التي استقرت في أقصى شرقي فارس عربية اللسان ، على أيام المعتصم كانت تتكلم الفارسية والتركية .

* * *

ونعود إلى ليون . .

تقع ليون عند ممر في سلسلة الجبال الكنترية ، وإلى وقوعها هناك ترجع أهميتها التاريخية ، فقد كانت أول بلد كبير احتله ملوك أشتريس (أستورياس) عندما اجتمعت قواهم وتشجعوا وعبروا هذه الجبال منتهزين فرصة انسحاب الكثيرين من المسلمين من هذه النواحي قبيل قيام الإمارة القرطبية على يد عبد الرحمن الداخل سنة ٧٥٦ .

وبعد أن تغادر ليون تلمس بنفسك الصعوبة التي تحملها الفاتحون العرب في اجتياز هذه النواحي . وصل موسى بن نصير وطارق بن زياد معاً إلى قرب لِيُون حوالى شوال سنة ٩٥ / يوليو ٧١٤ . ليس للمدينة ذكر في أخبار الفتوح ، لأن الأهمية كانت إذ ذاك لبلد آخر إلى غربه اسمه أشتُرْقَة (أستورجا) . ولا بد أن ليون كانت قائمة : لأن تاريخها واسمها يرجعان إلى أيام الرومان ، ولكن يبدو أنها لم تكن إذ ذاك إلا معسكراً قديماً مهجوراً . ومن أشتُرْقَة اتجه موسى بن نصير وحده شمالاً بغرب فاخترق الممر المعروف اليوم بممر بِخَارِس حتى وصل إلى أبيض (أوفييدو) .

وهذا الممر هو أطول ممرات الجبال في إسبانيا وأعسرها على العبور ، ولا زالت السيارات إلى اليوم تعاني من مسلكه الضيق وارتفاعه ، فإنها لا بد أن تصعد إلى ارتفاع ١٣٦٤ متراً ثم تنحدر مرة أخرى لتفضى إلى السهل الشمالى ، ولا يخفف من متاعب هذا العبور إلا جبال مناظر الطبيعة التي تمر بها ، فهذه كلها جبال خضراء تغطيها الحشائش والأشجار من كل صنف ، وعلى سفوح الجبال وبين الأشجار ترى القرى الصغيرة كأنها معلقة بين الأشجار .

وفى انحدارك من الجبل خارجاً من الممر تمر بمدينة ما أظن أنك شهدت مثلها فى تجوالك داخل إسبانيا وخارجها ، هى مدينة مييرس . تقوم على شريط ضيق على جانبي الممر : صف أو صفان من البيوت من كل ناحية على امتداد بضعة كيلومترات ، وعندما يضيق الممر حتى ينعدم الشريط الأرضى تتوقف المدينة ، ثم تعود إلى الاتصال من جديد بعد أن تظن أنك قد خلفتها وراءك . وبعد منعرج بين الجبال تعبر قنطرة لتجد المدينة قد انتقلت بجملتها من اليسار إلى اليمين ، ويتسع لها المجال قليلا فيتسع عرضها ، ثم تضيق مرة أخرى ولا تعود إلا صفاً من البيوت .

وعلى طول هذه المدينة الغربية ترى أكوام الفحم كأنها التلال ، وترى السيارات الضخمة غادية رائحة ، لأن هذه المنطقة من أغنى نواحي إسبانيا بالفحم ، ومناجمه هى التى أنشأت مدينة مييرس ، وهى التى نهضت بأبيض (أوفييدو) - التى تلقاها عندما تفرغ من الجبال - من قرية صغيرة إلى مدينة صناعية كبرى .

وفى أوفييدو تشعر وكأنك انتقلت إلى بلد آخر : تنتهى الأراضي الجذباء والوعور والجبال وتفضى إلى سهل منفسح كله خضرة وأشجار ، ولا يكاد المطر يتوقف فيه . هنا مهد إسبانيا النصرانية ، فإن الفاتح العربى بعد أن اخترق هذه الجبال واحتل أوفييدو اتجه إلى أقصى المدن التى كانت قائمة هناك ،

وهي مدينة خبيخون ، وهناك خلف حامية عسكرية أقام عليها قائداً وعاد أدراجه .

وقد كان في هذه الحامية كفاية لو أن حوادث التاريخ تجرى على ما يقدر الناس ، فإن هذه الناحية بدت للعرب إذ ذاك وكأنها آخر الدنيا ، وخاصة بعد العناء الذي تحملوه في الوصول إليها .

وقد كان العرب يعلمون أن فلولا من القوط وأهل البلاد قد اعتصموا في هذه البطاح ، ولكن أولئك المعتصمين بدوا لهم إذ ذاك أقل من أن يثيروا خوفاً ، حتى قدروهم بثلاثين رجلاً وامرأة ، ثم إن خوف هؤلاء من العرب دفعهم إلى الإيغال في الهرب منهم ، فأبعدوا في التراجع ناحية الشرق حتى وصلوا إلى جبال عالية كلها مضائق ومخائق ومغارات ، وهي الجبال المعروفة باسم قمم أوروبا (بيكوس دى أويروبا) وهي مجموعة من المرتفعات العالية تطل عليها ثلاث قمم عالية ترتفع ناهضة في الجو كأنها رؤوس أبراج .

في هذا الركن القصي اطمأنوا ، وتجمعوا حول بلدة صغيرة تعرف باسم كنجاس دى أونيس جعلوها عاصمة لهم ، فإذا تقدم العرب نحوهم أسرعوا إلى الجبال فلم يدركهم أحد . وتقع كنجاس على ٦٦ كيلو متراً شرق أوفييدو ، وهي اليوم بلد سياحي صغير يذكر ببلاد ألمانيا وسويسرا ، والطريق إليه جميل تقطعه السيارة في رفق ، ولكنه كان خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي مغطى بغابات وأحراش ، ولم يكن الناس يقطعونه إلا على خوف وبمشقة .

وابتداء من كنجاس دى أونيس تبدأ منطقة الجبال التي حدثناك عنها ، فتمر في طرق جبلية كثيرة المنعرجات حتى تنتهي إلى نقطة التقاء جبال قمم أوروبا ، فتجد نفسك وكأنك داخل حصن ، فالجبال تحيط بك من كل جانب كأنها أسوار ، وقمم أوروبا الثلاث تطل عليك كأنها أبراج . وفي حصن هذه الجبال تجد منفسحاً صغيراً كأنه ركن منزل في روضة

يانعة ، فالخضرة على يمينك وشمالك ، والأشجار قائمة زاهرة في حيثما نظرت ، والماء ينحدر من الجبال في شلالات صغيرة ، وعشرات من الناس رجالاً ونساءً يسرون في اتجاه الجبل في خشوع وهيبه ، شأن المقبل على حرم مقدس ، وترفع بصرك إلى حيث تتجه أنظارهم فترى مغارة واسعة المدخل قد أنشأوا فيها كنيسة معلقة على الجبل . .

تلك هي كنيسة كوفادونجا ، قدس من أقداس إسبانيا ومزار من أجمل مزاراتها ، وهؤلاء الذين يسرون نحوها حجاج أقبلوا من بعيد للزيارة أو للوفاء بنذور ، ومن ثم فإن الكثيرين منهم يقبلون من كنجاس سائرين على أقدامهم حفاة ، فإذا وقعت أبصارهم على الكنيسة ركع بعضهم وسار على ركبتيه وفاءً بنذره حتى يصل إلى السلم المؤدى إلى الكنيسة .

وتصعد السلم فإذا أنت في مدخل المغارة الواسع ، وقد أقاموا مصلى صغيراً في الفسحة الصغيرة التي يفضى إليها الصاعد ، ثم تمر بفجوة في الصخر أقاموا فيها ضريحاً لأول أمراءهم « يلايو » - والعرب يسمونه بلاى - فإذا انتهيت من الممر وجدت فسحة أخرى أقاموا في ركنها مذبحاً للصلاة ومدوا المقاعد للمصلين ، وإلى يسار المذبح بنوا دويرة صغيرة لسكنى القس الموكل بهذين المصلين . وفي أقصى اليمين ، فيما بقى من المغارة ، أنشأوا ديراً صغيراً (إرميتاً) حفروا الصخر لكي يستوفوه عمقاً . وخلف ذلك كله ، في قاع الغار ، جدول يجري ماؤه ثم ينحدر من شلال صغير إلى بركة عند قاعدة الجبل . .

هذه المغارة والموضع المحيط بها يسميان كوفادونجا ، وهو اسم مركب من لفظين : كوفاً - أو كويثا - أى مغارة ، وأونجا وهو اسم الموضع في القديم . وسر قداسة مغارة أونجا هذه أسطورة قديمة تقول إن الجماعة النصرانية التي اعتصمت في تلك الناحية جهدت في أن تحافظ على استقلالها ورد الحماية العربية عن دخول أراضيها ، فلما أراد أحد قواد هذه الحماية - تسميه المراجع

النصرانية الكُماماً (والغالب أنه تحريف لعلقمة) — اقتحام تلك الناحية تصدى له زعيم الجماعة النصرانية ، ويسمى بلای ، فهزمه عند هذه المغارة .

ولم يهزمه — زعموا — إلا بمعجزة ، إذ أن السيدة العذراء ظهرت من الغار وجعلت ترد سهام العرب عليهم ، فهلك معظمهم ، وأما الباقيون فأسرعوا يدورون حول الصخرة . فلما صاروا في الناحية الأخرى ، عند قرية تسمى لُيَيْيَانَا ، ظهرت العذراء مرة أخرى وأهالت عليهم الصخر فهلكوا .

وتلك هي معركة كوفادونجو التي تعتبر في كتب التاريخ الإسباني بدءاً لما يسمى بحركة إعادة الفتح (الريكونكيستا) أي استرداد أراضي شبه الجزيرة من العرب . ويذهبون إلى أن الموقعة كانت سنة ٧٥٠ أو ٧٥١ ميلادية (١٣٣ هجرية) . وبعدها تقدم بلای فأخرج العرب من خيخُون ووردهم إلى ما وراء الجبال ، وحصّن الناحية ، وجعلها إمارة تحمل اسم الإقليم ، أي إمارة أشتريس (أستورياس) التي أصبحت مملكة فيما بعد .

ثم خلفه ابنه « فافِلة » ، حتى إذا كانت أنام أميرها ألفونسو الأول استطاع أن يستولى على ليون ويتخذ لقب الملك ويمد حدود مملكة أشتريس إلى الأراضي الواقعة بين نهري المِنيُو والدُويرُ .

وقد ذكر مؤرخونا العرب « بلای » وقيامه على العرب ، ولكنهم لم يذكروا له نصراً عليهم ، وإنما قالوا إنه أول من نهض بأمر نصارى أشتريس وثبت قواعد دولتهم وأنشأ ملكهم ، وهذه حقيقة مقررة في كتب التاريخ جميعاً . ونسب إليه العرب صخرة كوفادونجا ، فسموها صخرة بلای .

وأنت إذا وقفت عند قاعدة الصخرة وتأملت المغارة وما حولها تبين أن ليس من الضروري أن تكون قد وقعت هناك موقعة أصلاً ، لأن الجو هناك خليق بأن يبعث الخيال وينشئ الأساطير . ولا بد أنه كان هناك قتال كثير بين العرب وأهل هذه الناحية ، ومن خلال هذا القتال نشأت أسطورة كوفادونجا وجرت بها ألسنة الناس ، وأثبتها مؤرخو تلك المملكة على أنها

تاريخ . وفي تلك العصور — بل وإلى أيامنا هذه — لا زال الحد الفاصل بين الأسطورة والتاريخ غير واضح ، ولا يخفى أن لفظ « أسطورة » العربي إنما هو معرب عن لفظ إستوريا اليوناني ، وأصل معناه الحكاية أو القصة ، ثم أصبح معناه التاريخ . . .

وليس في الدنيا هيئة كالكنيسة الكاثوليكية « تُخرج » الأماكن وتنسقها حتى تبدو وكأنها لوحات . فما من موضع في بلاد الكاثوليكية يصلح لإنشاء كنيسة أو مصلى أو لنصب صليب إلا عرف الأخبار كيف يهندسون ما ينشئون على نحو يتفق تماماً مع البيئة المحيطة به والغرض المقصود منه .

وقد رأيت ما صنعوا من هذه المغارة ، وبعد قليل سترى ما صنعوا بأسطورة شنت ياقب وما أنشأوا هناك من كنيسة هائلة تجتذب قلوب الكاثوليك اجتذاباً ، وسترى أيضاً ، عندما ننتقل إلى البرتغال ، كيف انتفعوا بأسطورة « عذراء فاطمة » وأنشأوا في قريتها محجاً عجيب الهندسة والتنسيق . ولهم من هذه المنشآت أمثلة بعد أمثلة في نواحي أوروبا كلها ، ولست بحاجة إلى الإشارة إلى هندسة كنيسة القديس بطرس وساحة الأعمدة أمامها في روما ، أو كنيسة القديس مرقس وساحتها في البندقية ، وروائع الكنائس في فلورنسا ، وغير ذلك كثير .

ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية تدرك ما للمظاهر والشكيلات من أثر في النفوس ، ومن ثم فإن رجالها لا ينشئون كنائس ومصليات وإنما « يُخرجون » مناظر وأشكالاً ، ويستعملون كل عناصر الإخراج الفني من عمارة وألوان وأشكال وملابس ذات ألوان وموسيقى وأنغام وطقوس مرسومة بإتقان صادرة عن تفكير وتصور وخيال بعيد المطارح ، وربما كان ذلك ضرورة من ضروراتها ، فإن أساس العقيدة فيها الإيمان بالمعجزات والحوارق والأسرار (ميسيريوس) ، وهذه كلها في حاجة إلى تجسيم وتجسيد حتى تقرب من النفوس والأرواح .

* * *

وهذه الناحية كلها تسمى أشتريس أو أستورياس ، وهى مديرية واسعة عاصمتها أوفشيدو ، وإلى شرقها تقوم مديرية سنتاندر وعاصمتها تحمل نفس الاسم ، وإلى الشرق من سنتاندر يقع إقليم الباسك أو الباسكو ، والعرب يسمونه البشكونس ، ويضم حالياً ثلاث مديريات : بشكايّة وقاعدتها بلباو ، وجويوثكوا وقاعدتها سان سباستيان ، وألبّه وقاعدتها فيتوريا ، وتسمى الولايات الثلاث بإقليم الفاسكونجاداس ، وهو يمتد إلى فرنسا وراء حدود إسبانيا شمالى جبال البُرت فيما يعرف بإقليم الباسك الفرنسى .

وأنت تشعر فى هذه المديريات كلها كأنك فى سويسرا أو ألمانيا : مناظر الطبيعة والحضرة ووفرة المياه والأنهار وأشكال القرى وطرز البيوت وعمارة الكنائس ، كل ذلك يبدو لك وكأنه امتداد لأوروبا عبر جبال البُرت ثم على طول ساحل كنتبرية حتى تصل إلى جليقية فى أقصى الغرب .

والسبب فى ذلك — علاوة على تشابه الظروف الطبيعية — أن هذه الناحية الشمالية من إسبانيا تحصرها من الجنوب جبال كنتبرية وتكاد تغزلها عن بقية شبه الجزيرة ، ثم تصلها ممرات جبال البُرت بجنوب أوروبا .

وخلال عصور سيطرة الإسلام على بقية شبه الجزيرة تلفت هذه النواحي إلى بلاد النصرانية تقتبس منها مظاهر حضارتها وقوام عمرائها ، وبينما كان بقية شبه الجزيرة — عدا إقليم برشلونة — يولى وجهه شطر الشرق العربى ويدخل فى نطاقه الحضارى ، اتجهت هذه النواحي شطر أوروبا ودخلت فى نطاقها الحضارى ، فكان الجبال الكنتبرية فاصل حضارى وجغرافى فى آن واحد .

أضف إلى ذلك أن الناحية كلها تكاد تكون أغنى نواحي شبه الجزيرة ، فالأرض خصبة وافرة الزروع ، والأمطار غزيرة على مدار العام ، وأشجار الأخشاب لا يخلو منها موضع . وهذه الجبال غنية بالفحم ، وقد رأيت بعضها

عند ميسيرس ، والكثير منها حول سنتاندر وبلباو ، وهناك أيضاً مناجم الحديد شمالى خيخون عند بلدة أبيليس . والفحم والحديد إذا اجتمعا في موضع كهذا نشأت الصناعة ونبت معها الرخاء والتقدم ، ومن هنا فإننا نجد هذه المناطق أعظم مناطق الصناعة الإسبانية ، والمصانع تمتد على مرمى البصر من سان سباستيان إلى حدود إقليم جليقية في أقصى الغرب . وفي أبيليس ، شمالى خيخون ، أقام الإسبان أعظم مصاهر الحديد والصلب ومصانعهما ، وهى مصانع جديرة بالزيارة .

وكل ما تراه في هذه المدن جميعاً ينم عن تقدم بعيد ورخاء وارف : مدن ذات مبان سامقة شاهقة ، وقرى عامرة تتحدث بيوتها بالخير والنعمة ، وطرق كثيرة متقنة التخطيط والتنسيق ، وسكك حديدية تجرى في السهل حيناً وعلى قناطر تروع النفس بعلوها حيناً آخر . حتى الجرائد التي تصدر هناك ضخمة غزيرة المادة مثل صحف أى بلد أوروبى غنى ، وإنه لما يستوقف نظرك أنك تخرج من بلد كأنه قرية صغيرة هو ليون ، تصدر فيه جريدة صغيرة إقليمية الهيئة والمادة هى « إل دياريو دليون » فلا تعبر ممر بخارس حتى تجد نفسك في أوڤيدو في بلد صناعى حديث كأنه في ألمانيا أو سويسرا ، تصدر فيه جريدة ضخمة من عشرين ورقة هى « ريخيون » ، تحمل إليك أخبار الدنيا ومادة ثقافية غزيرة .

ويسايرك هذا الجو المشرق في اتجاهك إلى الغرب في إقليم جليقية (جاليثيا) ، وهو الركن الشمالى من شبه الجزيرة ، وهو يضم أربع مديريات تحمل كل منها اسم عاصمتها ، وهى : لوجو (يسميها العرب لك) ، وكورونيا (يسميها العرب كُرنة) ، وأورينسى وبونثيدرا ، وليس لهما اسمان في جغرافيتنا العربية .

وهى في مجموعها ولايات بحرية شواطئها كثيرة الفُرص والخلجان العميقة التى تشبه فيوردات الرويج ، وأهلها يعيشون على الزراعة وتربية الماشية

وصيد السمك وبناء السفن . وأكبر دور صناعة السفن هناك في بلدة الفروول إلى شمال كورونيا، وهي مسقط رأس الخنثريسيمو (أي القائد الأعلى) فرانثيسكو فرانكو باهامونيد قائد الثورة على الشيوعية في إسبانيا فيما بين سنتي ١٩٣٣ و١٩٣٦ وهو دون شك من أكبر بناء إسبانيا في العصور الحديثة، ولهذا فهي تسمى اليوم فيرول دل كاوديو (فيرول الزعيم)، وكان أبوه ضابطاً بحرياً.

وتستوقف نظرك هناك كثرة الأنهار ومجاري المياه، والأنهار هناك - على صغرها - ليست وديان حجارة أورمل كما في وسط إسبانيا وجنوبها وإنما هي أنهار متدفقة بالماء والخير. ومدينة كورونيا عاصمة مديرية كورونيا نموذج لبلاد جليقية كلها، فهي قائمة على رأس ممتد في البحر والماء يحيط بها من ثلاث جهات، تسترعى نظرك فيها واجهات البيوت المطلة على البحر وخلجانه، تبدو لك من بعيد وكأنها رخام أبيض.

وإلى جنوبي مديرية كورونيا تقع مديرية فيجو وتمتد إلى حدود البرتغال، والفاصل بين إسبانيا والبرتغال هناك مجرى نهر النيو، والمدخل إلى البرتغال من هناك عند مدينة ثوى، وهي مشهورة في تاريخنا باسم راهب كتب مدونة صغيرة عن تاريخ إسبانيا على أيامنا سماها «تاريخ العالم» هو لوقا التودي، طالما أضعنا الوقت في تحقيق دعاواه. وبعد ثوى بقليل تعبر قنطرة حديدية جميلة، في وسطها تماماً تقرأ لافتة صغيرة تنبهك إلى أنك تنتقل عندها من إسبانيا إلى البرتغال.

بيد أن أشهر بلاد جليقية في الدنيا هي سنتياجودي كومبوستيلا في مديرية كورونيا.

تناقل أهل هذه الناحية من قديم الزمن أسطورة تقول إن يعقوب الخواري كان جوالاً مبشراً بالمسيحية لا يكل عن المسير: كان قد نذر الله أن يسير في تجواله إلى أقصى المعمور، فيقال إنه دخل إسبانيا قادماً من غالة - وهي فرنسا - وسار حتى بلغ ساحل المحيط، وهناك مات ودفن في موضع لم يعرف.

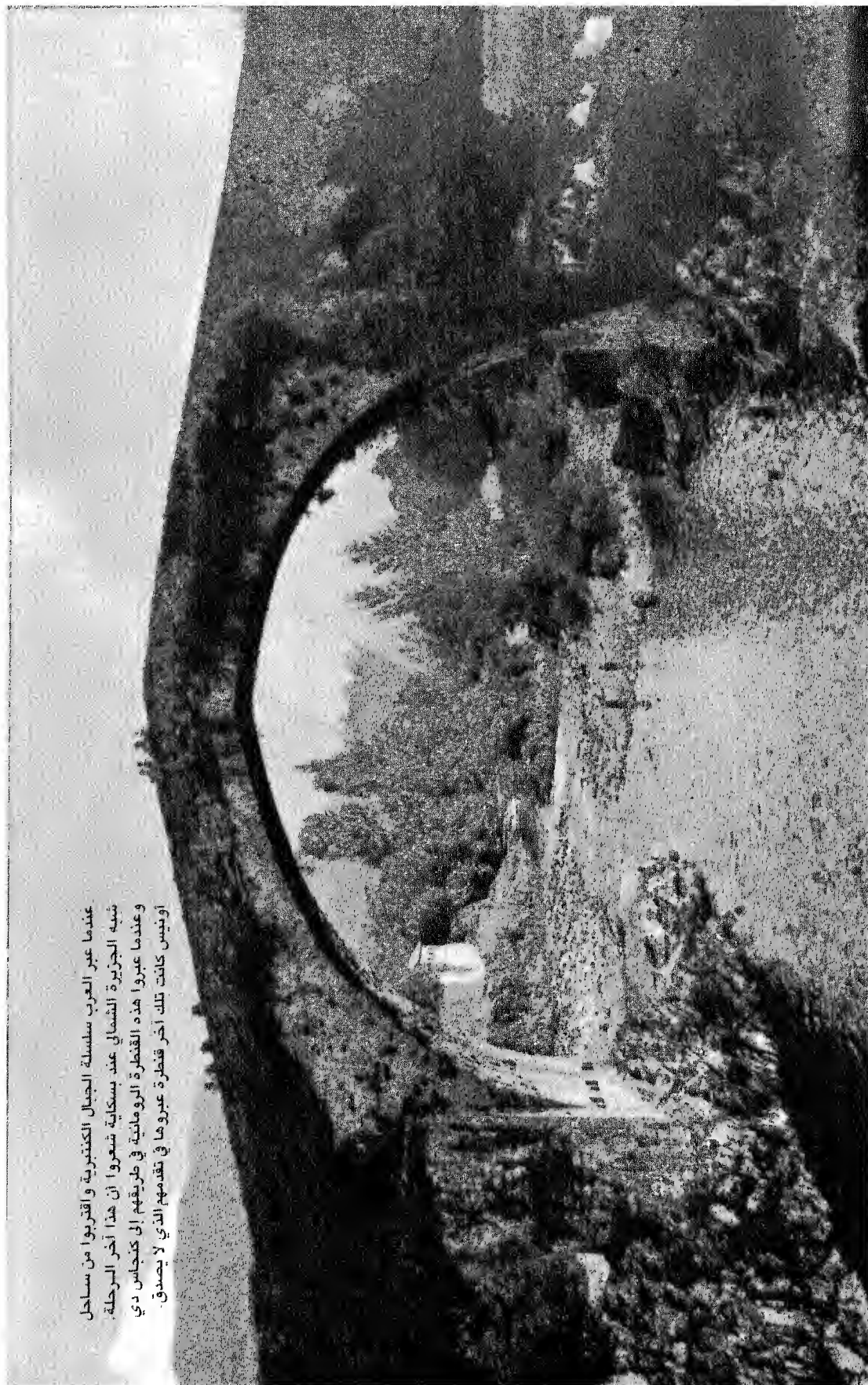
وهناك من يقول إن هيرود ملك اليهود قتله في فلسطين ، فحمل تلاميذه جثته وعبروا البحر ، وتقاذفت الرياح سفينتهم حتى خرجت بها إلى المحيط ، ثم انجرفت بها حتى استقرت عند شاطئ جليقية عند كُرْنَة (كورونيا) وهناك دفن في موضع قريب منها . وفي سنة ٨٣٥ زعم أحد القسس أن نجماً ظهر له في السماء وأن هاتفاً هتف به في نومه أن قبر يعقوب عند موقع هذا النجم على الأرض ، فحضر فعثر على رفات الشهيد ، فاحتفل الناس بذلك احتفالاً عظيماً ، وسمى الموضع مرج النجم (كامبُو سَنِيْلِي) وأنشأوا كنيسة قامت حولها مدينة ، وتلك هي شنت ياقُب (سنتياجو) دِكامبوستيلا أو كومبوستيلا ، قدس من الأقداس المعروفة في عالم المسيحية .

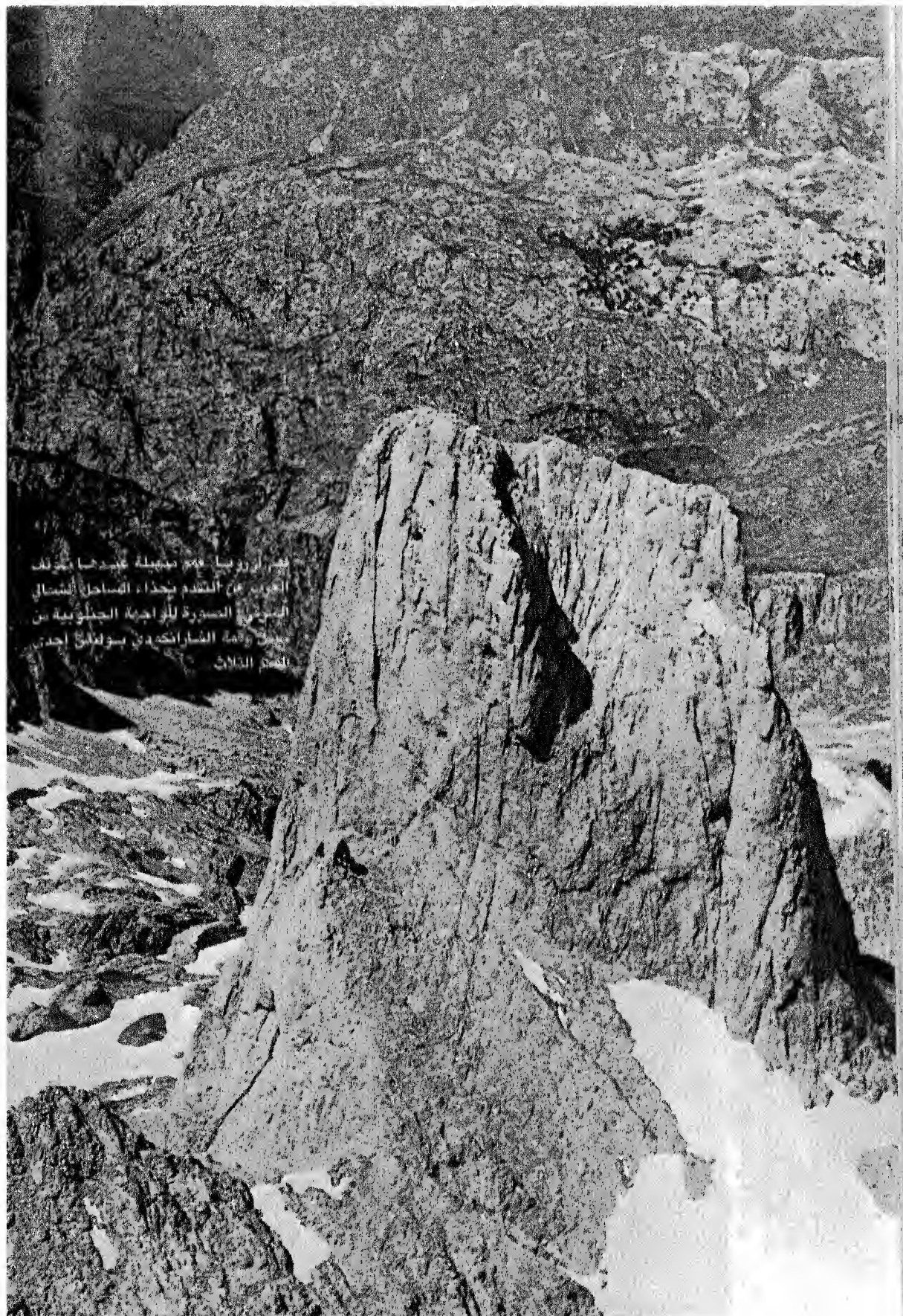
إلى قبر يعقوب في شنت ياقُب وإلى كنيسة بها أخذ الناس طريق الحج من شتى نواحي المسيحية ، ومن جنوب فرنسا بصفة خاصة ، ونشأ طريق حج لم يلبث أن أصبح طريق تجارة وحضارة . وهو يمر من ممرات البُرت (البرانس) الغربية إلى بلدة جاقه (اليوم : خاكا) ، ويسير محاذياً شاطئ بيسْكايه حتى يصل إلى سنتياجو ، وكان على طول العصور الوسطى من أعمار الطرق بالسفّار .

هذه الناحية القاصية كانت في الواقع من أكثر النواحي صلة بأوروبا وعالم المسيحية ، ذلك يفسر لنا اتجاه أهلها إلى أوروبا والغرب ، واعتبارهما أقرب إليهم من قرطبة وعالم الإسلام الأندلسي .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحرب الدائمة بينهم وبين المسلمين أيقظت لإحساسهم الديني باستمرار ، وزادتهم تعلقاً بالمسيحية وغرب أوروبا ، اكتملت لنا الأسباب التي نهضت بإمارة أشتريس وبعثت فيها الحياة ، وجعلتها أكثر من ركن سحيق في شبه الجزيرة . وفي أيام أحد أمراء أشتريس المسمى أرْدُنِيو الأول — بلغت من القوة والاستقرار ما مكن لها من الانتقال إلى ليون واتخاذها عاصمة لها ، وتلقب أرْدُنِيو بلقب الملك ، وقد سميت المملكة أولاً مملكة أشتريس وجليقية وليون ، ثم مملكة ليون فحسب .

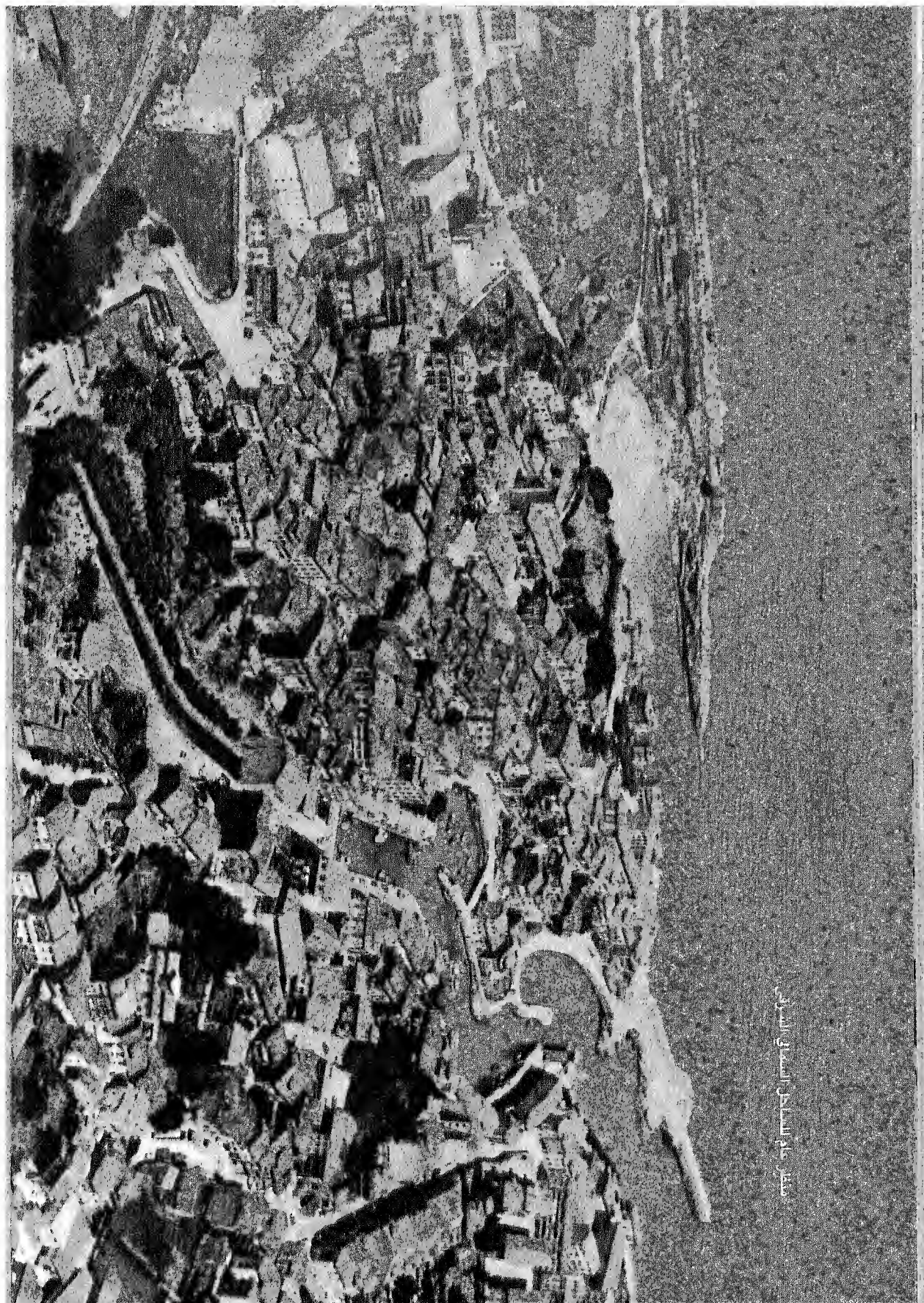
عندما عبر العرب سلسلة الجبال الكنزيرية واقتربوا من ساحل
شبه الجزيرة الشمالي عند بسكايه شعروا أن هذا آخر الرحلة.
وعندما عبروا هذه القنطرة الرومانية في طريقهم إلى كنجاس دي
اوينيس كانت تلك آخر قنطرة عبروها في تقدمهم الذي لا يصدق.





فيما يرى في
البحر من الشرق
البحر من الغرب
البحر من الجنوب
البحر من الشمال
البحر من الشرق
البحر من الغرب
البحر من الجنوب
البحر من الشمال





منظر عام للشارع الرئيسي في بغداد

ذلك هو تاريخ نشوء هذه المملكة ، التي استطاعت بعد تطورات كثيرة أن تتوسع حتى تستولى على قشتالة القديمة فسميت مملكة قشتالة وليون ، ثم مملكة قشتالة فقط ، ثم اتحدت مع مملكة أرغون ، ثم وحدت أجزاء شبه الجزيرة كلها — عدا البرتغال — بعد حرب طويلة مع جيرانها ومع المسلمين .

* * *

وها أنت الآن في هذه المنطقة الحافلة بالتاريخ وعبره . إنها الآن منطقة عامرة بالمدن القديمة اسماً الحديثة شكلاً . فقد تجددت كلها ونفضت عن نفسها غبار التاريخ ، فلم تبق من معالم الماضي إلا الكنائس والآثار ومواضع الذكريات ، وأنت لن تجد فيها الآن من آثار العرب شيئاً ، فقد زالت وأزيلت ، وسواء أكنت في ليون أو أشترقة أو لك أو خيخون أو سنتياجو ، فأنت في بلاد أوروبية زاهرة .

وفي طريق العودة إلى أبيط (أوفييدو) تستوقف نظرك خضرة المراعى والمروج وكثرة الأشجار . هنا تشعر أن هذه المنطقة ليست ماحلة كما تزعم النصوص ، وأنها في الواقع جنة وارفة الظلال . فإذا وصلنا إلى البلد وجدناه بلداً حديثاً باسم تزينة الحدائق والأشجار ، وهو — ككل بلاد هذه الناحية — كثير الكنائس والمزارات ، وكاتدرائيته عظيمة ضخمة من الطراز القوطي المتأخر ، فقد بنيت في القرن الرابع عشر . وإلى شمال أوفييدو على ساحل البحر تجد أكبر وأحدث مصانع الحديد ومصاهره في إسبانيا : مصانع أبليس .

ومن أبيط نتجه غرباً حتى نصل إلى لوجو (لُك) قاعدة مديرية غنية ، ومنها إلى شنت ياقب (سانتياجو) في مديرية كورونيا ، وقد حدثناك عن قداسة كنيسها ومقامها . لم يصل إلى هذا الركن من الفاتحين المسلمين إلا المنصور بن أبي عامر ، وصل إليها في غزوته المشهورة في كتبنا باسم غزاة شنت ياقب في جادى الثانية ٣٨٧ / يولييه ٩٩٧ واقتحمها وهدم أسوارها ،

ووصل إلى قبر الخواري ، فلم يجد إلا راهباً جاثياً يصلي ، فسأله لماذا لم يفِر مع الفارين ، فقال : أونس يا قَب ! فرق له الفاتح الكبير وتركه وأمر رجاله بألا يتعرضوا له ، وأخذ أبواب الكنيسة وحملها معه إلى قرطبة حيث جعلها أبواباً للزيادة التي أضافها إلى مسجدها الجامع .

ولعل أجمل فندق تنزله بإسبانيا هو المعروف بنزل الملكين الكاثوليكين (أوستال دِ لوس ريبيس كاتوليكيوس) في شنت يا قَب . كان أصله منزلاً لفرناندو وإيزابيلا ، ثم أصبح ديراً ، ثم عادوا إليه الآن فجعلوا منه فندقاً سياحياً لا ينزل به أحد إلا تحدث عنه .

وكنائس شنت يا قَب كثيرة متنوعة الطراز ، وأعظمها الكاتدرائية . وهي صرح هائل يعتبر من أضخم الكنائس المسيحية في الدنيا ، وهي من طراز النهضة ذات برجين عظيمين ، بينهما المدخل وهو في ذاته عال كأنه برج ثالث ، وفي سرداب تحت الكنيسة تجد قبر شنت يا قَب .

وفي طريق العودة جنوباً نقف قليلاً عند بُنْتُفِيدْرا ، وهي ميناء كبير ، ثم نتجه شرقاً فنمر بأورنسي ، قاعدة المديرية المنسوبة إليها . ومن هنا يمكن أن نأخذ الطريق إلى البرتغال ، ولكننا نفضل أن نتجه شرقاً بمجنوب حتى نزور بلدة ثامورا ، وهي بلد عتيق مشهور في النصوص العربية باسم سَمُورَة ، وقد تداولته أيدي المسلمين والنصارى زمناً طويلاً حتى سماه العرب سمورة الخراب لكثرة ما خربه هولاء وأولئك ، وآخر من غزاه من المسلمين المنصور بن أبي عامر ، فقد استولى عليه سنة ٣٧١ / ٩٨١ . وسمورة على نهر دُوِيرُه ، وتبعد عن حدود البرتغال بستة وستين كيلومتراً .

البرتغال :خاتمة المطاف

البرتغال من أصغر بلاد أوروبا ، ولكن أهلها من أعنف الأوروبيين وأشدّهم ضراوة وقدرة على ركوب البحر . وخلال القرن السادس عشر ، عندما قبس الأوروبيون صناعة البارود من الصين وصنعوا أسلحته ، كان البرتغاليون ، وهذا السلاح الرهيب بأيديهم ، بلاءً مسلطاً على ما وصلوا إليه من بلاد إفريقية وآسيا ، ما نزلوا موضعاً إلا عثفوا بأهله ونهبوه وأحرقوا مدنهم ، وخاصة إذا كان هذا البلد إسلامياً .

وتاريخ الحرب بين البرتغال والمغرب تاريخ طويل حافل بالمآسي ، ولم يوقف أذاهم عنه ويقطع رجلهم منه إلا هزيمتهم الساحقة في موقعة وادي المخازن على مقربة من العرايش في شمال المغرب في ٤ أغسطس ١٥٧٨ ، فقد قتل منهم في هذه المعركة ٨٠٠٠ رجل من بينهم ملكهم سباستيان . نعم بقيت لهم بضعة مراكز على شاطئ المغرب ، ولكن خطرهم على هذا القطر العربي تلاشى من ذلك الحين .

وقد نشأت البرتغال على أيام المسلمين ، كان الساحل الغربي من شبه الجزيرة يسمى عند الرومان لُوزيتانيا (لُشْدانية في النصوص العربية) وقد استولى عليه المسلمون أول أيام الفتح ، فتح بعضه موسى بن نصير وأتم الفتح ابنه عبد العزيز بن موسى . ثم خرج ما يلي نهر الدُّوِيرَة شمالاً من أيديهم

خلال السنوات التي تلت الفتح كما ذكرنا ، ولكن المسلمين ثبتوا هناك عند نهر دويره . وقد قسموا ما يعرف بالبرتغال إلى كُور (مديريات) هي ، من الشمال إلى الجنوب : قُلْمُرِيَّة (كُوَيْمْبُشْرَا) وشنْتَرِين (سانتاريم) والأشبونة (لِشْبُونَا) وباجة (بيجا) وأكشُونْبَة في أقصى الجنوب . وكانت عناية الأمراء والخلفاء عظيمة بالأشبونة ومينائها ودار الصناعة بها ، فقد كانت مركز الأسطول العربي الذي يحمي سواحلهم الغربية .

وقد ضعف الحكم الإسلامي في هذه النواحي عقب زوال الخلافة القرطبية وقيام ملوك الطوائف ، وكانت هذه الناحية الغربية من أضعف جهات الأندلس الإسلامي نظراً لأن الإمارات الأندلسيتين اللتين قامتتا هناك — وهما بَطْلَيْوْس وإشبيلية — صرفتا جهدهما في الحرب بين بعضهما البعض بدلا من جمع الكلمة لحرب العدو المشترك . وكانت النتيجة أن زحف العدو جنوباً حتى وصل إلى نهر تاجه ، وهدد بلاداً إسلامية كبرى مثل شنْتَرِين والأشبونة وقُلْمُرِيَّة . ويصور لنا أبو الحسن علي بن بسم الشنتريني (وهو من البرتغال) في كتابه «الذخيرة في مياسن أهل الجزيرة» أحوال هذه الناحية في هذه الفترة (النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) أصدق تصوير .

ولولا أن المرابطين تداركوا الأمر بعبورهم إلى الأندلس والتصدي للزحف النصراني لضاعت هذه البلاد من زمن مبكر . وقد أوقف يوسف بن تاشفين هذا الزحف بانتصاره في معركة الزلاقة قرب بطليوس عند حدود البرتغال سنة ٤٧٨ / ١٠٨٦ . وكانت للموحدين عناية خاصة بهذا الجناح الغربي للأندلس ، وقد قضى خليفتهما الثاني أبو يعقوب يوسف وابنه وخليفته أبو يوسف يعقوب المنصور خير سني حياتهم محاولين إنقاذ غرب الأندلس ، وبعد أيام يعقوب المنصور بدأت قواعد الغرب تسقط في شبه تصفية سريعة ابتداءً من سنة ١٢٢٠ .

وقد نشأت البرتغال ولايةً تابعة لمملكة ليُون وقشتالة في النواحي الشمالية

الغربية التي استُغلبت من زمن مبكر ، وكانت تلك النواحي تعرف باسم تيرآى پورتوكاليس ، نسبة إلى ميناء پورتوس كالى المعروف اليوم باسم 'پورتو' ، وكان هذا الاسم يطلق على المنطقة الواقعة بين نهري المينيو ودويره (يسمى في البرتغال : دورو) ، ثم اختصر الاسم إلى پورتوكال أو پورتوجال . وامتد الاسم حتى شمل المنطقة الواقعة بين نهري دورو وتاجه ، ثم من تاجه إلى البحر الأبيض تبعاً لسير الحرب بين المسلمين والنصارى في إسبانيا .

كانت البرتغال من أول القرن العاشر الميلادى كوتية وراثية تابعة لمملكة ليون . ومن أوائل القرن الثانى عشر طمح أكناد البرتغال إلى الاستقلال عن إسبانيا ، وتولى ذلك منهم ألفونسو إنريكي المعروف فى نصوصنا العربية باسم ابن الرقيق (وهو تحريف لابن إنريكي) فقد انتصر على الإسبان وردهم عن بلاده ، وأخذ يتقدم إلى الجنوب موسعاً رقعة بلاده على حساب المسلمين . وفى سنة ١١٤٠ نادى بنفسه ملكاً ، واعترف له ملك ليون وقشتالة بهذا الاستقلال سنة ١١٤٣ . ومن ذلك الحين ، وخلال حروب طويلة مع الإسبان والمسلمين ، استمرت البرتغال فى طريقها وحافظت على حدودها الحالية تقريباً ، رغم نجاح إسبانيا فى القضاء على استقلالها وضمتها إلى أراضيها أكثر من مرة .

وقد يحسب الإنسان أن البرتغال لم تكن إسلامية بالقدر الذى كانت به إسبانيا ، وذلك بسبب قلة الآثار المعمارية التى نجدها هناك . والحقيقة أن المسلمين ظلوا فى جنوب البرتغال حتى أواخر القرن الثالث عشر ، ولكن البرتغاليين ، بعنفهم المعروف ، كانوا لا يستولون على بلد إلا محو آثار المسلمين منه محواً . بيد أن زائر البرتغال اليوم يرى من آثار الفترة الإسلامية شيئاً كثيراً فى عادات الناس وملابسهم وتقاليدهم ، وخاصة فى الجنوب .

* * *

وقفنا بالرحلة عند حدود البرتغال مقبلين من سمورة . .

فلنعبّر الحدود عند بلدة ميراندا على نهر دورو . النهر هنا يجري في سهل ضيق بين المرتفعات ، ونفضى إلى مديرية ترأس اوس مؤنيس (خلف الجبال) ونسير بجذاء نهر دويره حتى مصبه عند بلدة پورتو ، وهنا نلقى أول بلد فيه شئ من الآثار الإسلامية ، فبعض قطع من سوره عربية .

ثم ننحدر إلى الجنوب مخترقين مديرية بيرا ألتا حتى نصل إلى مصب نهر صغير يسمى المونديجو ، ويسميه العرب مُنْدِيق ، وعلى مصبه قَلْمَرِيَّة (كويمبرا) ، وكانت بلدة إسلامية عظيمة تحدث عنها ياقوت والإدريسي ، ولم يبق فيها من آثارنا شئ .

وبعد قلمرية بسبعين كيلومتراً تلتاق بلدة ليريّة ، بلدة جميلة ظاهرة الغنى ككل بلاد البرتغال الواقعة على هذا الطريق ، الذى يشبه أن يكون عموداً فقرياً ينتظم أهم ما فيها من مدن وموان ومظاهر عمران . ولكن ليرية لا زالت تحمل طابع العصور الوسطى فى قلعتها وحصونها ، مثلها فى ذلك مثل قلمرية .

والناحية كلها حافلة بذكرىات التاريخ ، فإلى جانب ما خلفه العرب فيها من آثار ، لا زال الكثير من أسماء البلاد يحمل اسمه العربى ، مثل : الناصرة (نازار) ، البيازيرة (البيازير) ، الحيزرون (الفايزايرو) ، برزيّة (فارزيا) القليعة أو قلعة باصة (الكوباثا) ، الجببترات (الجوباريتا) ، فاطمة (فاتما) . .

وقد شهدت الجببرات أعظم المعارك أثراً فى تاريخ البرتغال ، ففي ١٥ أغسطس سنة ١٣٨٥ التقت جيوش إسبانيا التى أرسلها الملك خوان الأول لتتقضى على استقلال البرتغال ، بجيش برتغالى يؤيده مدد إنجليزى كبير ، وانهزم الإسبان هزيمة ردت مطامعهم عن البرتغال من ذلك الحين ، فثبت استقلال البرتغال بفضل ذلك التأييد الإنجليزى .

ومن ذلك الحين أيضاً أصبحت البرتغال أشبه بحماية إنجليزية ، تسير فى ركاب إنجلترا وتخضع لمشيئتها وتفتح موانئها للأسطول الإنجليزى كأنها موان إنجليزية.

وعندما بدأ التسابق بين إسبانيا والبرتغال في ميدان الكشف الجغرافي - بعد ذلك بقرن ونصف قرن تقريباً - وقفت إنجلترا تؤيد البرتغال ، وأيدها أيضاً في دعواها فيما يعرف اليوم بالبرازيل من بلاد أمريكا الجنوبية . وقد حافظت البرتغال على مستعمرتي أنجولا وموزمبيق ، وهما في الحقيقة مستعمرتان إنجليزيتان ، أبقتهما إنجلترا في يد البرتغال اسماً لتحمي لها مستعمراتها في جنوب إفريقية ووسطها ، حتى تم استقلالهما عن البرتغال في أوائل السبعينات .

وقد خلد البرتغاليون هذا النصر بكنيسة ضخمة قوطية الطراز أقاموها في بلدة باتايا (الموقعة) جنوبي ليريا ، وهي ليست بكنيسة على الحقيقة ولكنها ضريح هائل في هيئة كنيسة ، في إحدى قاعاته يقوم قبر الجندي البرتغالي المجهول .

وإلى شرق باتايا ببضعة كيلومترات تقع قرية فاطمة ، ولم تكن إلى أوائل هذا القرن إلا إحدى القرى الصغيرة في مديرية شنترين (سانتارم) ، ولكن الحظ أراد لها أن تصبح من أشهر مدن الدنيا ومزاراتها الدينية . ففي يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩١٧ كان ثلاثة أطفال يلعبون في موضع قرب البلد يعرف باسم كوفادي إيريا ، وكان أحدهم مريضاً ، فظهرت لهم السيدة العذراء - فيما قالوا - وباركتهم ودعت للمريض بالشفاء ، فشفي في الحال .

وأسرع الأطفال إلى القرية يحملون النبا ، ودهش الناس لهذه العجبية ، وتسارعوا إلى الموضع الذي ظهرت فيه السيدة العذراء ، وأخذ المرضى منهم يتהלون إليها أن تظهر وتمنحهم الشفاء والبركة ، فظهرت لبعضهم في المنام ومنحته الشفاء . واستطار الخبر في نواحي البرتغال ، ثم في نواحي العالم ، فتقاطر الناس إلى « فاطمة » يلتمسون بركات عذرائها كما يتقاطرون على قرية لورْد في جنوب فرنسا .

وأيدت كنيسة البرتغال ذلك ، وما أسرع ما اجتمع الأحبار وأخذوا يدرسون أمثل السبل لتحويل هذا الموضع إلى مزار كاثوليكي . فاعتبروا

المكان الذى قال الأولاد إن السيدة العذراء ظهرت فيه حرماً ، وأقاموا فيه تمثالاً للسيدة العذراء من الذهب الخالص نصبوه على قاعدة عالية ، وبنوا كنيسة عظيمة فى صدر الموضع ، وأحاطوا مساحة شاسعة حوله بمصليات وأعمدة ، حتى أصبح المكان كأنه حرم واسع . وفى الثالث عشر من كل شهر يتجمع الألوف فى الحرم الفسيح حول تمثال السيدة العذراء ، ويقام قداس وتُمنح البركة للمصلين . ثم نشأت إلى غرب الميدان مدينة سياحية لطيفة ، فيها فنادق ومقاهٍ ونُزه شتى .

وإن الإنسان ليملكه العجب حين يتأمل النظام الذى وضعته الكنيسة لحفلات القداس ومنح البركة والشفاء التى تقام فى « فاطمة » فى الثالث عشر من كل شهر ، وخاصة شهرى مايو وأكتوبر .

إنه إخراج فى كامل لا تنقصه إلا عدسة الكاميرا ليصبح فيلماً مشوقاً : فى صدر الكنيسة منصة ذات درجات فرشت بالبط الخمرى ، ومن خلفها ستائر من الخمل الأحمر والأزرق ، وعلى كراسى مذهبة مغطىها أحمر رُماني يجلس أساقفة يرفلون فى طيالس خمرى وعلى رؤوسهم قلانس صغيرة خمرى فى هيئة التيجان ، وفى وسطهم يجلس المطران وفوقه مظلة خمرى أطرافها مزركشة بالذهب . .

وتعزف الأراغن أنغاماً كنسية تخفت شيئاً فشيئاً ليرتفع صوت المطران بالصلاة وقد غمره ضوء مسلط من مصابيح كهربائية ضخمة ، وصوته ينتقل بمكبرات غير منظورة إلى خارج الكنيسة ، ويتردد فى آذان الألوف الذين يغص بهم الميدان الفسيح وأنظارهم مثبتة فى التمثال الذهبى للسيدة البتول .

وعلى يسار الميدان - أمام مصلى صغير - يجلس ١٨ قساً فى طيالس بيضاء مزركشة بالذهب وعلى رؤوسهم تيجان تشبه تاج الوجهين الذى يزين رؤوس القراعنة ، وهم يقومون ويقعدون ويقولون أشياء وفق نظام مرسوم . وبعد هذا المشهد العجيب يبدأ الناس فى الانصراف وكل عليل يتحسس

موضع العلة ليرى إذا كانت قد زالت ، ومن أتى ليدعو لمريض أقعده المرض يسرع إليه ليسأل إن كانت بركة الصلاة قد حلت به وجاءه الشفاء .

واعترفت الكنيسة الكاثوليكية بمعجزة عذراء فاطمة في خطاب وجهه البابا إلى البرتغاليين سنة ١٩٤٢ . وصنع الأحبار صوراً لتمثال عذراء فاطمة ومضوا يطوفون بها في نواحي العالم يمنحون الناس البركة ويجمعون التبرعات باسمها .

وما أغرب أمر التاريخ ! قرية خافية من قرى البرتغال ، تحمل اسم المباركة فاطمة الزهراء عترة سلالة المصطفى صلوات الله عليه ، تتحول ببركة الاسم الشريف إلى مَحَجٍّ ومَشْفَى للناس ! ويصبح أوبرك على البرتغال وأشهر في نواحي الدنيا من أى مكان في ذلك البلد الذى يزعم أهله أن المسلمين لم يخلفوا فيه أثراً !

والبرتغال في مجموعها بلد فقير، رغم ما يملك من كان يملك مستعمرات وما يتسغل من خيرات الآخرين، وكانت قبل أن يتولى أمرها ألفيرو سالازار أفقر بلاد أوروبا وأشدّها تأخراً. وقد تقدمت وتلاشت معظم آثار الفقر فيها خلال السنوات الأخيرة، ولكنك تلمح آثاره في كثرة المتسولين، وتراه رأى العين إذا تجولت في نواحي شرق البرتغال وخاصة ما يعرف منه باسم أستريموت، وهي مديرية تعتبر استمراراً لمنطقة أستريما دورا في إسبانيا، هذا على رغم ما ترى على طول الطريق من الشمال إلى الجنوب من أراض خضراء عامرة بالزرع وغابات متشابكة تمتد على اليمين والشمال. وقد تغير كل شيء في البرتغال بعد موت الطاغية سالازار، فبعد موته بقليل قامت الثورة على الطغيان والاستبداد، ومال الكثيرون من البرتغاليين إلى الشيوعية. ولكن الأمور اعتدلت وقامت دولة الديمقراطية في البلاد. وليس في أوروبا شعب مغلق على نفسه، تستبد به الأنانية، كشعب البرتغال. حتى لغتهم ثقيلة على اللسان لا يستطيع نطقها على صحتها إلا أهلها وسلائلهم في البرازيل. ومن أظهر نتائج ذلك الانطواء تزواج

البرتغاليين فيما بينهم دون أن يختلطوا بأحد، ولحرصهم على ذلك ضعف النسل وشاهت الوجوه، وإنك لتقطع البرتغال من شمال الجنوب فما تصادف عينك وجهاً يشرق فيه شيء من وسامة أو جمال إلا في البادر، وليست هذه بملاحظة من عندي، ولكنها متواردة في كتابات كل من زار هذا البلد.

ونواصل سيرنا حتى شنترين (سانتارم) البلد الذي أنجب لنا ابن بسام الشنتريني الكاتب المؤرخ المعروف، وشنترين حصن منيع خرج من أيدينا سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ وجاؤنا استرداده على يد أبي يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحدين، ولكنه مرض أثناء حصارها، واضطر إلى العودة إلى إشبيلية، فمات في الطريق، وقد بقيت من آثارنا هناك قطع من السور القديم.

وقبل أن نصل إلى لشبونة (الأشبونة، لِسْبُونَا) فلتقى بضاحية من ضواحيها تسمى سينترا (شنترة) على سفح جبل مرتفع، وكانت حصونها مشهورة بمناعتها على أيامنا، ولا زال فيها حصن عربي أندلسي الطراز معروف باسم الحصن العربي (كاستيلو مورو) إلى الآن، وهو يشرف على البلد من أعلى الجبل، ونظن أنه يرجع إلى العصر الموحدى، ولم نر في أطلاله شيئاً ينبيء عن تاريخه، حتى مسجده لم تبق منه إلا خرائب.

وعند قاعدة الجبل مبنى يسمى قصر الحراسة الوطنى (پلايو ناثونال دى فيلا) أنشأه بعد أيامنا على الطراز العربى المُدَجَّجى، ومن هنا مشاهدته الواضحة لقصر إشبيلية في بعض أجزائه.

فإذا وصلنا إلى الأشبونة وجدنا بلداً لا زال قسمه الشرقى يسمى باسم عربى: أَلْقَامَا محرف للفظ الحامّة أو الحَمّة، وهو الموضع الذى توجد فيه عين ماء حارة.

وهذا الحى كما ترى وتشعر عربى صرف.

ولا شك أن أهله كانوا في أوائل القرن الخامس عشر لا يزالون عرباً، وبين ظهرانهم عاش فاسكو دا جاما أكبر ملاح في تاريخ البرتغال..

إنه هو الذى وصل إلى رأس الرجاء الصالح ، ودار حوله وصعد إلى
موزمبيق ثم إلى دار السلام . .

ومن هناك قاده بحارنا العربى أحمد بن ماجد إلى الهند . .
فيما مر بك بيننا فضلنا على كريستوف كولومبوس . .
وهنا ترى فضلنا على قاسكو دا جاما . .

من ناحية أخذنا بيد ملاح إيطالى دخل فى خدمة ملوك إسبانيا ومضينا به
إلى العالم الجديد . .

ومن ناحية أخرى أخذنا بيد ملاح برتغالى ، هو دون شك من سلالتنا ،
ووصلنا به إلى الهند . .

بعلمنا رفعت رايات العصر الحديث ، وعلى نورنا فتحت أبواب الكشف
الجغرافى العظيم . .

ولعلك وأنت تسلك فى شوارع ألفاما الصغيرة تسمع نغماً من ذلك الغناء
البرتغالى الذى اشتهرت به البرتغال فى العالم أجمع . .

إنه غناء حزين هادئ ، يخیل إليك أن منشده يهمس به إلى نفسه وقد
انحنى على القيثارة يبثها أشجانه . .
يسمونه الفادو . .

والفادو تحريف للفظ عربى أنت تعرفه : الحَدُو ، أى الحداء . .

هذا هو حداء بدونا ، عبر البحار والعصور ووصل إلينا فى غلاف
برتغالى . .

فى إسبانيا لا يزالون يتغنون بأنغامنا ، وكل ما تسمعه هناك من الغناء
الأندلسى الذى يسمونه الفلامنكو — بشتى أنواعه — إنما هو غناء أجدادنا
فى أيام مضت كما تمضى كل الأيام . .

وعلى ساحل الأطلسى يرددون حداء أهل بَوادينا . .

ثم يتعجبون إذا تحدثت متحدثنا عن عالمنا الذي يمتد من الخليج إلى المحيط !

ويقوم حي الفاما على ربوة عالية ، وهو يشبه قصبات المدن المغربية بشوارعه الصغيرة الصاعدة الهابطة ، وبيوته ذات الرجبات . وعلى قمة الربوة أطلال الحصن الأندلسي الذي كان يقوم وسط القصبة ، إذا توسطتها خيل إليك أنك بين بعض أبراج الحمراء ، وقد رموا هذه الأطلال وزرعوا أرضها بالخضرة ، فبدت في بعض أجزائها وكأنها جديدة لم تمض عليها هذه الأحقاب .

ومن أسف أن البرتغاليين لم يدرسوا هذه الآثار العربية القائمة في بلادهم — على قلتها — أو لم ينشروا ما درسوه ، إذا كانوا قد فعلوا . ولهذا فإننا لا نستطيع القطع بتاريخ هذا الأثر ، وإن كنت أرجح أنه يرجع إلى عصر الخلافة ، ثم رمم وجدد في العصور التالية على نفس الأسس . فإن العقود مستديرة كعقود طراز الخلافة ، والجدران مصمتة عارية من الزينة ، والبناء كله فيه فحولة وبساطة اختلفتا بعد عصر الخلافة ، ولم تظهر ملامح منهما إلا على أيام الموحدين ، وربما كان الترميم الباقي إلى اليوم من عمل أولئك الأخيرين .

ومن هذا الحصن ترى أجمل منظر للأشبونة ، ولا شك أن الذين أنشأوه على قمة تل الحامّة (الفاما) راعوا ذلك ، فهو حصن وناطور يكشف البحر إلى مسافة بعيدة . وقد كان السور العربي ينحدر من هذا الحصن على سفح الجبل ويستمر في السهل حتى يصل إلى ساحل البحر ، قال ابن عبد المنعم الحميري في « الروض المعطار » : « . . . وهي مدينة قديمة على سيف البحر ، تنكسر أمواجه على سورها ، واسمه قُودِيّة . وسورها رائق البنيان بديع الشان ، وبابها الغربي قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمُد رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وهو أكبر أبوابها . ولها باب غربي أيضاً يسمى باب الخوخة ، مشرف على سَرَحٍ فسيح يشقه جدولاً ماء يصبان في البحر ، ولها

باب قبلي يسمى باب البحر ، تدخل أمواج البحر فيه عند مدَّة ، وترتفع في سورة ثلاث قِيَم (أى قامات) ، وباب شرق يعرف بباب الحِمَّة (الفاما) ، والحمة — على مقربة منه ومن البحر — دِيَمَاس (أى صهريج) ماء حار وماء بارد ، فإذا مد البحر واراها ، وباب شرق أيضاً يعرف بباب المقبرة .

وكانت الأشبونة أيام المسلمين قاعدة كورة عسكرية بحرية يتبعها عدد كبير من المدن مثل المعدن (حالياً : ألبادا) وشينترَة ، وبعد عصر الخلافة سميت منطقتها كلها إقليم البِلَالِطَة ، والغالب أن المراد بذلك إقليم البَلُوط ، وعلى مقربة منها — على نهر تاجه — كان يقوم حصن عظيم يسمى بقصر أبى دانيس (الكائر دو سال) وهو منسوب إلى قائد مَصمودى يسمى عَوِيجَة بن أبى دانس .

وقد كان لهذا الحصن دور عظيم في الدفاع عن هذه الجهة الغربية أيام الموحدين وبعدهم ، وارتبط اسمه باسم أسرة أندلسية من رجال الحرب والسياسة هي أسرة بنى وزير ، وقد تغلب عليها وأخرجها من يد المسلمين نهائياً ألفونسو إنريكي سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ ، ولم يستطع التغلب عليها إلا بمعاونة طائفة من الصليبيين كانت عائدة من بيت المقدس يقودها فارس يسمى أرنولد ديرشوط ، وقد حاول الموحدون استردادها سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ فحاصروها طويلاً ثم ارتدوا عنها .

ومن الأشبونة نتجه إلى يابرة (إيبورا) ، مدينة كبيرة وقاعدة مديرية تحمل نفس الاسم . كانت على أيامنا تابعة لكورة باجة (بيجا) من مدن الغرب الأندلسي إذ ذاك ، وهى اليوم قاعدة مديرية ألينتيخو في البرتغال .

إذا ذكرنا يابره ذكرنا أباً محمد عبد المجيد بن عبدون اليابرى شاعرها الكبير ، وهو صاحب المرثية الطائرة الصيت التى تسمى بالقصيدة العبدونية أو رائية ابن عبدون ، ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاءُ على الأطلال والصوَرِ

وهي مريثة طويلة ألفت الناس عندنا الكتب في شرحها والتعليق عليها ، وكل دارس للأدب العربي يعرف كتاب « سَرَحُ العيون في شرح قصيدة ابن عبدون » لابن نُبَّاتة . في كتب تاريخ الأدب البرتغالي نجد اسم ابن عبدون كعلم من أعلام ذلك التاريخ .

ولعل صدى هذه القصيدة وذكرى ابن عبدون هما السبب فيما أشعر به إذا أقبلت على يابرة ، إنني أقبل عليها عادة من بَطْلَيْئُوس (باداخوذ) في إسبانيا . وبطليوس بلد كان عربياً لحماً ودماً ، نحن بنيناه ومدّناه وعشنا فيه قروناً كثيرة ، وقد زال أهله وزالت مساجده وحماماته وقصوره العربية ، ولكن الروح العربي يحوم فوقه ، كأنه هامة تحوم على قبر عزيز ، لم تبق منه إلا أطلال قصبته ومعالم قليلة أخرى . هذه المدن المتجاورة كلها : بطليوس وماردة وباجة ويابرة تحمل إلى الآن روح العصر الموحدى . كان عصرًا حزينًا قصيرًا في الأندلس ، ما طلعت شمس حتى غربت . بدأ بدءاً رائعاً بانتصار الأرك على يد أبى يوسف يعقوب المنصور في ١٥ جادى الثانية ٥٩١ / ٢٧ مايو ١١٩٥ ، وأذنت شمس بالمغيب بعد ١٧ عاماً قصيرة .

ففى العشرين من المحرم ٦٠٩ / ٢٢ يونيو ١٢١٢ خسر ابنه محمد الناصر يوم العقاب (لاس نافاس دى تولوزا) . بعد ذلك مباشرة بدأت تصفية خط الوادى الكبير . كانت مدائن الغرب أول ما سقط ، اجتمع عليها ألفونسو إنريكي ملك البرتغال ، ثم فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون ، وألوف من الصليبيين الذين انهزموا فى المشرق وحملتهم السفن مع الهزيمة القاصمة إلى بلادهم . وفى طريقهم تسامعوا بالفرائس السهلة فى الأندلس ، فانقضوا فى حق الهزيم الذى ذل أمام القوى ثم وجد فرصة ليعز أمام الضعيف . .

وعندما يخطر بالبال أن صلاح الدين العظيم كان معاصراً لأبى يوسف يعقوب المنصور كبير خلفاء الموحدين ، وأن هذين الاثنين كانا يستطيعان أن يتحدا على العدو المشترك . . عندما يذكر الإنسان ذلك يشعر بحسرة تملأ

النفس على الفرصة التي سنحت وتركناها تطير . لقد سعى لذلك صلاح الدين ، وأرسل سفيراً إلى المنصور يعرض عليه الاشتراك في العمل ، وفتح المنصور خطاب صلاح الدين وقراه . . ثم طواه وردده إلى السفير معترداً عن عدم الاستجابة وقد بان في وجهه الغضب : لقد أخطأ كاتب الخطاب فلم يخاطبه بأمر المؤمنين !

وضاعت فرصة الأبد . . .

هذا كله يدور في ذهني في الطريق من بطلينوس إلى يابرة ، وتلازمني صور هذه القصبة الموحدية الباقية في بطلينوس ، ببرجها الذي يخيّل إليك كأنك في المغرب . إنها بناء واسع تفرقت أجزاؤه كأنما نثرتها يد الزمان ، وأظهر ما يبقّى في الذهن منها ذلك البرج الذي يشبه أن يكون نصباً أقيم للذكرى . وعندما أصل إلى يابرة ألتبس أخاه فلا أجده ، فأنتني أعرف أن الموحدين أنشأوا في بطلينوس وباجه ويابرة ثلاث قصبات متشابهة ، أبراجها على طراز برج الذهب القائم على ضفة الوادي الكبير في إشبيلية . لم يبق في يابرة من آثار القصبة العظيمة إلا قطع من السور خافية بين المنازل ، ويزيد في خفتها أنهم ظلّوها بالجير الأبيض حتى تأخذ هيئة مباني المدينة ، وكلها بيضاء .

* * *

ومن يابرة نمضي إلى أختها باجة (بيجا) . أول ما يخطر على الذکر ونحن داخلون إليها ذكريات ما جرى فيها في فترة القلق أثناء انتقال الغرب الإسلامي من أيدي المرابطين إلى أيدي الموحدين : هرج وخوف من اقتراب العدو ولا مدافع ، ونفّر من نهazy الفرص يجمع كل منهم عدداً من الفرسان حوله ويمضون يذرعون هذه النواحي ، وكل منهم يزعم أنه الأمير ، ولا أمير سواه : مشعبذون يدعون أنهم صوفية مريدون ، بغاث يزعمون أنهم نسور ، وقطاع طريق في ملابس حاة الأمن والقانون . وفي أثناء ذلك يدخل العدو

شترين ، ثم الأشبونة . ويزداد الروح . ثم يعبر أبو يعقوب بجيوشه ، فتقر القلوب في مواضعها ، وعلى أبواب باجه يخرج الشيخ الجليل أبو القاسم ابن الجند يجر سبعين سنة من العلم والجلال ، فيعانق الخليفة الشاب الذي كان في طريقه ليستخلص شترين ، ويقول : أهلاً بحبيبي وحبيب المسلمين . .

وها نحن في باجه ، بلد الفقيه الجليل أبي الوليد الباقي ، هذا الرجل الطيب الذي ذهب إلى المشرق ليدرس دون أن يملك درهماً ، فكان يئجر نفسه بواباً للبيوت ليعيش ويدرس ، ثم عاد إلى الأندلس وقد حمل في صدره العلم كله ، فإذا الأندلس شعلة نار ، وقد انفرد بكل ناحية أمير . فندب نفسه لإصلاح ما بينهم ، فكان لا يتحدث أحداً منهم في الوحدة وضم الصفوف إلا استنقله واستبرد نزعته ! وعكف الرجل آيساً في جامعته يقرئ تلاميذه ويتحسر على ذلك العالم الذي أصابه الجنون . .

وباجه ليست إلا حصناً ، موقعها على الربوة العالية يؤكد ذلك بأفصح بيان . إنها ليست مدينة ، بل قصبة مدينة . شوارعها منحدرات ومصاعد ، ممراتها أزقة ، والجو كله جو حرب ودفاع . وقد بقي من معالم القصبة الأندلسية حصن منيع لا شك أنه جدد مراراً بعدنا . إنه يترج فوق الربوة العالية كأنه تاج ، من هذا الحصن الذي يحمل اليوم من طابع البرتغاليين أكثر مما يحمل من طابع العرب ترى المدينة كلها ومن حولها مروج خضراء عامرة بالخير ، وهنا وهناك تلمح عينك نخلات تتطلع في شيء من استحياء .

ومن باجه جنوباً إلى البحر تمضي في إقليم أندلسي صرف : القرى الصغيرة البيضاء ذات سقوف من القرميد الأحمر ، وجوه الناس سمراء طيبة كوجوه أبناء عمومنا في العدو المغربية ، النساء يأتزن بالسواد وعلى رؤوسهن شيء كأنه الخمار الأسود ، وأشجار الزيتون الفضية توشى التربة الحمراء كأنها جواهر ، وهنا وهناك يطفّر جمحش لطيف كأن شعره قطن أبيض . ذلك هو بلاتيرو ، الجمحش الفضي الذي حصل على جائزة نوبل

للآداب . . فهو بطل القصيدة الماثورة الذائعة الصيت التي كتبها خُوّان رامون خيمينيث ، ونحن الآن في إقليمه ، فقد نشأ وعاش أوائل سنواته في بالئوس دى مَوجِير على مقربة من وِلبَة في إسبانيا ، ونحن منها الآن على خطوات .. وننتهى إلى شِلْب (سِيلْفِش) آخر مراحل هذا المرور السريع بالبرتغال . إنها مدينة تبدو لك من بعيد وكأنها جوهرة بيضاء في زرقة البحر . على مقربة من ذلك البلد ، في قرية تدعى شَنَبُوس نشأت أسرة بنى عباد التي أنجبت المعتمد محمداً أمير إشبيلية الشاعر .

رجل خلُق من الشعر .. وعاش به وله كأنه كان يتنفسه ، ثم وجد نفسه حاكماً عليه أن ينظم ويدبر ويسوس في ظروف تحتاج إلى عبقرية الرشيد لينجو ببلده من المهالك ، فما بالك وقد كان المعتمد أبعد ما يكون عن السياسة وفنون الرئاسة ؟ .. ما سير جيشاً إلا عاد إليه هزيماً ، وما أقام والياً إلا أخطأ الاختيار ، والعدو يشتد عليه من الشمال ويطلبه بالأموال ..

ولكنه عرف كيف يختم حياته ، وفي موقعة الزَّلَاقَة ، إلى جانب يوسف ابن تاشفين حارب واستبسل ، وجرح وسال دمه مكفراً عن ذنوبه ، ثم رأى يوسف بن تاشفين أن يريجه من ذلك العناء كله فنقله وآله إلى أنغمت جنوب غربى مراکش ، وهناك عاش سنوات من الشعر الحزين حتى وافاه القدر المكتوب ..

ولكن ابن شلب الحقيقى هو أبو بكر محمد بن عمار ، شاعر فحل آخر تغنت بقصائده إشبيلية . . رفعه الشعر من معلم صبيان إلى وزير ، فصدح وأنشد ، ثم طمحت نفسه إلى الإمارة — ولم لا ، وقد أصبح الكل أمراء ؟ — فكان في ذلك حتفه . ووقع أخيراً في قبضة صديقه القديم المعتمد ، وسبق مكبولا على بغل من أقصى شرق الأندلس عند مُرْسِيَة حتى إشبيلية .

وتصور هذا الرجل محمولاً على هذه الصورة السوداء ، والموت ينتظره في آخر المطاف ، ثم يتمول شعراً تعجز عن مثله الأذهان الشاعرة الصافية !

رحمك الله وغفر لك أبا بكر ! كلفت نفسك شططاً وحملت ما لا تطيق
ولعب بك الشيطان ، فسالت نفسك على ظبي المطامع !

كانت شلب على أيام الخلافة قاعدة كورة أكشُونِيَّة ، وهى اليوم من
قواعد مديرية الغرب (إل الجارب) فى البرتغال ، ولا زال حصنها المنيع
باقياً إلى اليوم . إنه قلعة هائلة ذات أسوار وبروج تتناول فى السماء كأنها
تحاول أن ترى المغرب ، والبلد عتيق هادئ يبدو عليه الفقر .

ومن شلب نعود أدرأجنا إلى إسبانيا . نمضى مُساحلين ، فنمر ببلدة
فارو ، كانوا يسمونها على أيامنا شَتَتَمَرِيَّة الغرب ، ثم نمر ببلد عربى
آخر هو طَبِيرَة ، ثم ندخل إسبانيا عند أيامونتي ، ومن أيامونتي نصل
إلى ولبة (أويلبَا) ، من هنا تهب علينا سمات إشبيلية . على تسعة
كيلومترات من ولبة تقوم بلدة الرابطة التى حدثناك عنها .

هنا ، عند مشهد من أعظم مشاهد التاريخ ، أحب أن نقف بهذا
الحديث . . .

إن شئت أن تمضى إلى إشبيلية فأنت وشأنك ، أما أنا فسأقف هنا يوماً
وبعض يوم ، وفى هذا الفندق الصغير المطل على البحر سألتبس شيئاً من
راحة ، فإن صور التاريخ تجرى فى ذهنى بأسرع مما تمضى عجالات هذه
السيارة . وليس فى الدنيا أمتع ولا أعود بالفائدة من ساعة نسترجع ذكريات
الماضى خلالها لتتملى عبرها ، وليس أصلح لهذا الاعتبار من ركن هادئ
كهذا الذى نقف عنده . .

لقد قمنا بهذه الرحلة الطويلة لتأمل ونستذكر ونستبصر . .

وهذا الفردوس مفقود إذا لم يكن مجالاً للعبرة والموعظة ، وموعد أى
موعد لمن يذكر أن التاريخ كتاب اليوم والغد . .

والماضى — كما قلنا — لا يموت إلا بالنسبة إلى الأموات !

كشاف

بنو الأحمر: ٣٧، ١٣٢، ١٦١، ١٧٦،
١٩٧، ١٩٨، ١٩٩.
أخيل بن إدريس الرندي: ٢١٢
الأدب الأوروبي: ٢٤
أدرا = عذرة
الإدريسي: ٢٧، ٣٧، ١١٢، ٢٠١،
٣١٤، ٢٠٩
الأدوار (الأدوير)، بلدة: ٢٤٨
الاذفونش: ٢٨٢
أرانخوث: ٣٨، ٣٩
الأربعاء (الآربا)، بلدة: ٢٤٨
أربونة (نربون): ٢٤٧
الأرجنتين: ٤٨
أرسطو: ٦٥
أرش اليمن: ٢٢٨
أرشدونة (أرشيدونا): ١٣٨، ٢١٤
أرغون: ٣٥، ٣٦، ٦٠، ١٩٨،
٢٣٦، ٢٣٩، ٢٥٥، ٢٨٣،
٣٠٩
الأرك، معركة: ٣٥، ٤١، ٤٧،
١٩٦، ٣٢٢
أركش (أركوس): ٣٦، ٢١٢
أرنولد توينبي: ١٣٨
أرنولد دير شوط: ٣٢١
الآزتيك، إمبراطورية: ٤٣
«أزهار الرياض» للمقري: ١٧٦
الاستبارة، فرسان: ٢٣٦
الأسبوع المقدس: ١٣٤
إستجة: ٣٧، ٢٨٨
إستريما دورا: ٣٩، ٤٢، ٤٣، ٢٧٨،
٣١٧

آدم: ٢٦٩
آسيا: ٧٠، ٣١١
آسيا الصغرى: ٢٢٥
الآش: ٥٠
أبذة (أوبدة): ٤٨، ٢٠٦
إبراهيم بن وزمر الحجاري: ٢٧،
١٣٧، ٢١٣
إبره، نهر: ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٦،
١٩٦، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٦
٢٨٤، ٢٨٣، ٢٨١
أبلس: ٣٠٢، ٣٠٩
أبله (أفيللا): ٥٣، ٢٣٨، ٢٥٥،
٢٨٩، ٢٩١
أبيط (أوفيدو): ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٧،
٢٩٥ - ٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٢،
٣٠٩
أثيريد = السراط
«الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن
الخطيب: ١٣٧
أحد السعف: ١٣٤
أحمد بن باسة: ١٢٩
أحمد شوقي، الشاعر: ١١، ٢٠٠
أحمد بن عبدالله بن يحيى الليثي: ٢٦٠
أحمد بن عبد الملك بن شهيد: ٥٦،
٢٠٥
أحمد بن عمر بن أنس العذري الدلائي:
٢٢٠
أحمد بن ماجد: ٢٠١، ٣١٩
أحمد بن المهدي الغزال: ٦٧، ٦٨
أحمد بن نصر، صاحب الشرطة: ٩٥

أقلش، موقعة: ١٩٥
 الأقواس، موضع: ٢٣١
 أكشونة: ٣١٢، ٣٢٦
 ألب أرسلان: ١٦٦
 البائي = البسيط
 ألبة: ٣٠١
 ألبوكيرك: ٤٢
 البيرة: ١٦٢
 ألتوزو، قرية: ٤١
 إل جريكو، فنان: ٢٢٦
 ألتو دوليس = القطنيات، بلدة
 إل ري تشيكو = أبو عبدالله محمد بن أبي
 الحسن
 إل سوسبيرو دل مورو = حصرة العربي
 ألقادو = الحداء
 ألقارو سالازار: ٣١٧
 ألقايزيرو = الحيزرون
 ألقاما = الحاما = الحمة
 ألقاميرا = الحمراء، بلدة
 ألقونسو إنريكي: ٣٢٢، ٣٢١
 ألقونسو الأول: ٢٩٩
 ألقونسو الحادي عشر: ٢١٠
 ألقونسو الثامن: ٤٢، ٤٦، ٤٧
 ألقونسو السادس: ٣٤، ٤٥، ٢٥٦
 ٢٨٩، ٢٧٥، ٢٦٠
 ألقيازير = البيازة
 ألقية ابن مالك: ١٦، ١٩٧، ٢٠٦
 ألكاثر دو سال = قصر أبي دانس
 ألكالا د إينارس = قلعة عبد السلام
 ألكالا دي جواديرو = قلعة وادي إير
 ألكالا دي لوس جاذو ليس = قلعة
 جزولة
 إلكمبيادور = رودريجو دياث دي بيار
 ألكوبائا = القليعة
 ألماندا = المعدن
 ألمانيا: ٥٤، ٢٥٣، ٢٧٥، ٢٩٧
 ٣٠٢، ٣٠١

أستريموث: ٣١٧
 أستورجا = أشرققة
 إستييا = أسطبة
 إستييونا = أسطبونة
 أبو إسحاق، موضع: ٢٣١
 أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة: ٩٤،
 ٢٢٦
 أبو إسحاق اليحصبي الأندوشي: ٥٤
 أسطبونة (إستييونا): ٢١٨
 أسطبة (إستييا): ١٣٨
 الإسكندرية: ٤٤، ١٩٧، ٢٤٠
 الإسكوريال: ٥٣، ٢٧٧ - ٢٨٠
 أسونا = أشونة
 الأشبونة (لشبونة، لسبوا): ١٨٩،
 ١٩٦، ٢٠١، ٢٩٣، ٣١٢
 ٣١٨ - ٣٢١، ٣٢٤
 إشبيلية: ٢٩، ٣٠، ٤٣، ٤٧، ٤٨،
 ٥٤، ٥٨، ٥٩، ١١٣ - ١٤٤
 ١٣٧، ١٣٨، ١٥٩، ١٦٤
 ١٧٨، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٢
 ٢٥١، ٢٥٦، ٢٥٧، ٣١٢
 ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٦
 أشرققة (أستورجا): ٢٥٧، ٢٩٥،
 ٣٠٩
 أشرقريس (أشرقرياس): ٣١، ٢٩٥، ٢٩٩،
 ٣٠١، ٣٠٤
 الأشرف قايتباي: ٢١٧
 بنو أشقيلولة: ١٩٨
 أشونة (أسونة): ١٣٨، ٢١٤
 أضحى بن محمد الهمداني: ٢١١
 الإغريق: ٢٢٧
 أعمات: ٣٢٥
 إفراغة، موقعة: ١٩٥
 إفريقية: ٧٠، ٨١، ٣١١، ٣١٥
 أقيلا = أبلّة
 إل الجارب = الغرب
 الأقصر: ١١٣

أوبدة = أبدة
أوديل، نهر: ٢٠٩
الأورانيوم: ٥٤
أوردينو الأول: ٣٠٤
أوروبا: ٢٤، ٣٣، ٣٧، ٤٨، ٧٠،
١١٣، ١١٦، ١٢٥، ١٦١،
١٩٨، ٢٨٣، ٢٢٠، ٢٢٧،
٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٩٣،
٣٠٠، ٣٠٤، ٣١٧
أورينسي: ٣٠٢، ٣١٠
أورينيا، كونت: ٥٢
أوغسطين، القديس: ٢٨٠
أوفيديو = أبيت
أوكانيا، بلدة: ٣٩، ٤٩
أويشي = وبدة
أويسكا = وشقة
أويلبا = ولبة
أيامونتي، بلد: ٣٢٦
إيبيثا = يابسة
إيرناندو دي تالافيرا، الأب: ٥١
إيزابيل دي فالوا: ٢٦٠
إيطاليا: ٨١، ٨٢، ٢٣٥، ٢٧٥
إيفنى: ١٣٥
إيفورا = يابرة
إيكس آن پروفانس: ٥٠
إيكس لاشابل: ٥٠
إينارس، نهر: ٢٨١

«ب»

باب زويلة: ٢٧٤
البابا: ٣١٧
البابوية: ١٦٤، ١٩٥
باتايا دي الحباريتي: ٣١٤
باجة (رييجا): ١٩٦، ٢٥٦، ٣١٢،
٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣

المريّة: ٣٧، ٥٠، ٥٢، ٦٥، ١٦٢،
٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧،
٢٤٠
ألونسودي أجيلار، قائد: ٥٢
أليكانتي = لقنت
أليتيخو: ٣٢١
أماديوس موتسارت: ٧١
الإمارة الأموية: ٣٢
الإمارة القرطبية: ٢١٢، ٢١٤، ٢٢٨،
٢٩٥
أمازونات: ١٣٥
أمالفي: ١٦٤، ٢٢٨
أمايه: ٢٥٧
أمريكا الجنوبية: ٤٣، ٤٨، ١١٤،
٣١٥
أمريكا الوسطى: ٢٣، ٤٣
بنو أمية: ٣٣، ٣٤، ٦٠، ٨٣، ٩٦،
١٠١، ١٠٩، ١٦١، ٢٧٧
أنا داركو دي موراليس، صاحبة
ثرفانتس: ٤١
أنتيكيرا = أنطكيرة
الأنجرون (لأنخارون)، بلدة: ٥٢
إنجلترا: ٣٩، ٢١٠، ٢٣٤، ٣١٤،
٣١٥
أنجولا: ٣١٥
أنخل جانيثيت: ١٥٧
أندالوثيا: ٢٢، ٣٠
أندرش، نهر: ٢٢٨
الأندلس: ١١
أندوجر = أندوخر = أندوشر
أندوشر: ١٣٨، ٥٤
الأندوشرى = أبو إسحاق اليحصبي
إندونيسيا: ١٣٨
أنطكيرة (أنتيكيرا): ٣٧، ١٣٨، ٢١٤
الأنكا، دولة: ٤٣
الأهرام: ٥٤، ١١٣

١٩٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ،
 ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٩ ، ٣١١ - ٣٢٦
 برج الریض (بوخاربال)، حصن:
 ٢٥٧
 برجة (برخا)، بلدة: ٥٠
 برزية (فارزيا)، بلدة: ٣١٤
 برشانة (بورتشينا)، بلدة: ٥٠
 برشلونة: ٣١ ، ١٢٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ ،
 ٣٠١
 البرطل، بالحمرء: ١٧٠ ، ١٨٤ ،
 برغش: ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٩ ، ٢٩٢
 برغنيدية: ٢٠٣
 برنس (بورنوس)، بلدة: ٢١٨
 البروتستانت: ٢٧٧
 البریج، موضع: ٢٣١
 البرید (ألباریدا)، بلدة: ٢٣١ ، ٢٤٨
 یزلیانة (فتناس د بزیلیانة)، بلدة: ٢٢٠
 ابن بسام = أبو الحسن علي
 بسطة: ٢٠٦
 بسكاية: ٣١ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٤
 البسيط (ألباتيقي): ٤٩ ، ١٩٧
 البشارات (لاس أليوخاراس)، جبال:
 ٥٠ ، ٥٢ ، ٢٢٠
 ابن بشكوال = أبو القاسم بن بشكوال
 البشكونس (الباسك أو الباسكو):
 ٣٠١
 بضره (السلطان) = بدر، وهو پدرو
 القاسي بطرس، القديس: ٨٩ ،
 ١٦١
 بطليوس (بداخوس): ١٦ ، ٤٣ ،
 ١٩٦ ، ٢٨٤ ، ٣١٢ ، ٣٢٢ ،
 ٣٢٣
 البعل، موضع: ٢٣١

ابن باجة = أبو بكر بن الصائع
 الباجي = أبو الوليد الباجي
 باخ = يوهان سباستيان
 باديس بن حبوس: ١٦١
 البارود: ٣١١
 ألباریدا = البرید
 باريس: ١١٠ ، ٢٣٨
 الباسك أو الباسكو = البشكونس
 ألبا = البلاءة
 ألبالاثيو = البلاط الصغير
 بالبوا: ٤٣
 بالمأ: ٢٣٦
 بالوس دي موجير: ٣٢٥
 بايلين: ٤٦ ، ٤٨
 بتشينا: ٢٢٧
 بجانة: ٣٧ ، ٢٢٧ - ٢٢٩
 بجاية: ٢٢٨
 البحر الأبيض المتوسط: ٧٠ ، ١٣٣ ،
 ٣١٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٣١٣
 بحر الظلمات: ٢٠١
 البحر الكاريبي: ٤٦
 بخارس، ممر: ٢٩٥ ، ٣٠٢
 بداخوس = بطليوس
 بدر (السلطان) أو بضره، وهو پدرو
 القاسي: ١١٤ ، ١٣٣
 پدرو تيخيرا: ٢٥٨ ، ٢٥٩
 «البديع في وصف الربيع» للحميري:
 ٢٣٣
 البرابر: ٦٠
 البرازيل: ٣١٥ ، ٣١٧
 البرت (البرانس)، جبال: ١٠ ، ٢٢ ،
 ٣١ ، ١٦٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٤
 البرتغال: ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ،
 ١٢٥ ، ١٣٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦

بغداد: ٥٩، ١٣٨
 البقاع (لاس فيجاس): ٥٤، ١٤٠
 أبو بكر بن تافلويت: ١٩٥
 أبو بكر بن زهر: ١٢٩
 أبو بكر بن زيدون: ٢٠٥
 أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة: ٢٤٥
 أبو بكر بن طفيل: ٥٦، ٦٥
 أبو بكر بن قزمان: ٦٥
 أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة: ٢٠٩
 أبو بكر محمد بن عمار: ٢٧، ٢٠٥، ٣٢٥
 أبو بكر الينافي: ١٢٩
 البكري = أبو عبيد عبدالله
 بلاتيرو: ٣٢٤
 بلاط الشهداء، موقعة: ٢٤٩، ٢٥٠
 البلاط الصغير (ألبالايس)، بلدة: ٢٤٨
 بلاط مغيث: ٦٠
 البلاعة (ألبالا)، نهر: ٢٥٧
 بلاي (يلايو): ٢٩٨، ٢٩٩
 بلباو: ٣٠١، ٣٠٢
 بلجيكا: ٢٠٤
 بلد الوليد (فايادوليد): ٥٣، ٢٥٥
 ٢٩٢، ٢٩٣
 البلدة، قرية: ٢٤٨
 بلش (فيليد مالاجا): ٢١٧
 بلنسية (فالنشيا): ٣٥، ٩٤، ١٢٦
 ١٦٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٣
 ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٠
 ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٨
 ٢٥٣
 البليار = الجزائر الشرقية
 بليك، الشاعر: ٦٦
 بنا أوجان = ابن يوجان، بلدة
 بناهافيس = ابن حفص

بنبلونة: ٢٢، ١٨٩، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٨٣
 بنتشيدرا: ٣٠٢، ٣١٠
 البندقية (فينيسيا): ٢٠١، ٢٢٨، ٣٠٠
 پنسا: ٤٣
 البنية: ٢٤٩
 البنبول، بلدة: ٥٠
 بوابديل = أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن
 بواتيه: ٢٤٩
 بوباديا = أبو عبدالله، بلدة
 بوخاربال = برج الذهب
 البوربون، أسرة: ٣٨
 بورتشينا = برشانة
 پورتو = پورتوس كالي: ٣١٣
 بورنوس = برنس
 پومبي: ٥٦
 بونة: ٢٢٨
 البيازرة (ألفيازور)، بلدة: ٣١٤
 بياسة، بلدة: ٥٢، ٢٠٦
 بيت الجباس، بغرناطة (لاكاسا دل شابيس): ١٩٢
 بيت المقدس: ٤٥، ٢٧٠، ٣٢١
 بيتهوثن = لودفيج فان
 بيثارو = فرانيسكو بيثارو
 بيچا = باجة
 بيرا ألتا: ٣١٤
 بيروت: ١٣٦
 بيزا = بيشة
 البيزنطيون: ٩٣
 بيشة (بيزا): ١٦٤، ٢٢٨
 البضاء، موضع: ٢٣١
 ابن البيطار = ضياء الدين أبو محمد
 بيكوس دي أويروبا = قمم أوروبا
 بيلاسكيث: ١٢٦، ٢٧٨
 بيوس الحادي عشر، البابا: ١٦١

«ت»

تاجه، نهر: ٣٤، ٣٨، ٣٩، ١٩٥،
٢١٢، ٢٦٠، ٢٦٩، ٢٧٠،
٢٧٦، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢١
«تاريخ اسم مدريد» لخائمه
أوليفر آسين: ٢٥٩
«تاريخ العالم» للوقا التودي: ٣٠٣
«تاريخ الفكر الأندلسي» لبالنشيا: ٢٩١
ابن تافلويت = أبو بكر بن تافلويت
تالافيرا دي لارينا = طلبيرة الملكة
التبريزي: ١٣٧
تراچان، الإمبراطور: ٥٦، ٢٩٠
تروتوزا = طرطوشة
ترجالة (تروخيو)، بلد: ٤٢، ٤٣
تروال: ٢٣٠
تريانون، حديقة: ١٨٥
تريونال دي لاس أجوس = محكمة الماء
«التصريف لمن عجز عن التأليف»
للزهرابي: ٦٥
تطوان: ٢٣، ٢٤٨
تطيلة (تودبالا): ٢٢، ١٨٩، ٢٤٧،
٢٤٨
تلمسان: ٢٣
تميم بن يوسف بن تاشفين: ١٩٥
تنس: ٢٣، ٢٢٨
تودبلا = تطيلة
تور: ٢٤٩
تورمس، نهر: ٢٩١
تورمولينوس، بلدة: ٢١٨
توليدو = طليطلة
تونس: ٢٣، ٨١، ١٣٧، ٢٣٦
توى، مدينة: ٣٠٣
التويلري، حديقة: ١٨٥
توينبي = أرنولد توينبي
تيريزا، القديسة: ١٠١، ١٠٤

«ث»

ثاراجوثا = سرقسطة
ثامورا = سمورة
ثريا الرومية: ١٩٨، ٢١٥
الثغر الأدنى: ٢٥٥
الثغر الأعلى: ٣١، ٣٥، ٢٤٧، ٢٥٩
الثغر الأوسط: ٢٥٥، ٢٥٩
الثوريا، نهر: ٢٣٠
ثيرفانتس = ميغيل ثيرفانتس إي سافدرا
ثيسنيروس، الكردينال: ٥١، ٥٢،
٢٨٢
ثيفونتس، قائد: ٥٢
ثيوداد ريال، مدينة: ٤١
ثيسا، قرية: ٤٩

«ج»

جاقة (خاكا): ٣٠٤
جالثيا = جليقية
جبال قرطبة = سيرا د كوردوبا = جبل
العروس
جبل طارق: ٣١، ٣٧، ٣٩، ١٨٩،
٢١٠
جبل العروس: ١٠٩، ١١٠، ١١٢
جبل عون (خبالون)، نهر: ٤٤
جبل المعدن (سييرا مورينا): ٤٢،
٤٤، ٤٦، ٥٣، ٥٤
ابن جبير = أبو الحسين بن جبير
الجبيرات (ألبواريتا)، بلدة: ٣١٤
الجزائر، مدينة: ٢٣، ٣٤، ٢٢٨،
٢٣٦
الجزائر الشرقية (البليار): ٣٧، ١٦٤،
٢٣٤ - ٢٣٨
جزائر بني مزغنا = مدينة الجزائر
الجزر الخالدات (كنارياس): ١٣٥،
١٣٦، ٢٠١، ٢٠٢

٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٣،

جيته: ٢٤

الجيرانيوم، زهر: ١٩٢

جيرلا (الحرب الصغيرة): ٢٩٤

«ح»

الحاجب: ١٠٨

حامد الثغري: ٢١٧

حامد النجيلي: ٢٤

الحامة = الحمة = ألفاما: ٣١٨، ٣٢٠،

٣٢١

حائط إفرنجة (ساحل كتبرية): ٣١

حبلاص، الشاعر: ٢١٣

أبو حجاج (أبو فاجيج)، بلدة: ٢٤٨

أبو الحجاج يوسف بن الأحمر: ١٥،

١٨١، ١٩٩

أبو الحجاج يوسف بن قادم: ٤٧

أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد.

إسماعيل بن فرج: ١٧٣

الحجارين (الفخارين)، بلدة: ٢٤٨

حجر النسر: ٢٨١

الحداء (ألفادو): ٣١٩

حداره (دارو)، نهر: ٣٧، ١٤٠،

١٤١، ١٤٢، ١٩٠

الحرب الأهلية الإسبانية: ٢٧٧،

٢٨١، ٢٩٢

حرب صليبية: ١١٦، ١٦٤

الحرب العالمية الثانية: ١٣٦

ابن حزم = أبو محمد علي

أبو الحزم بن جمهور: ١٩٣

حسرة العربي (إل سوسبيرو دل مورو):

٢٠٠

أبو الحسن (مولهاتين)، قمة: ٥٠

أبو الحسن علي بن بسام الشتريني:

٢٧٥، ٣١٢، ٣١٨

أبو الحسين بن جبير: ١٣٧

الجزيرة = الجزيرة الخضراء

(ألخيتراس): ٣٤، ٣٧، ١٨٩،

٢١٠، ٢١٣، ٢٠٨

جزيرة طريف = طريفة: ٣٧، ١٨٩.

أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد

الغافقي: ٢٣٢

أبو جعفر أحمد بن هود الملقب بالمقتدر

بالله: ٢٤٥

جعفر بن عبد الرحمن، الحاجب: ٩١،

٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٦

أبو جعفر المنصور: ١٩٤

جليقية (جاليشيا): ٣١، ٢٥٣، ٣٠١،

٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤

جمال الدين بن مالك: ١٦، ١٩٧،

٢٠٦

الجمهوريات الإيطالية: ١٦٤، ٢٣٥

جنجاله، موقع: ٥٠

جنة العريف بغرناطة، حدائق: ١٥٩،

١٦٩، ١٨٤ - ١٨٦، ١٨٩،

١٩٢،

جنوة: ١٦٤، ٢٢٨

جواداراما = وادي الرملية

جوادالاخارا = وادي الحجارة

جوادالكانال = وادي القناة، بلدة

جوادالمنيا = وادي المنار، نهر

جوادالشي = وادي لك

جوادالين = وادي العين، نهر

جواديكس = وادي آش، بلدة

الجوانشي: ١٣٦

الجوباريتا = الجبيلات

چورچ صاند: ٢٣٨

چوزيف نابليون: ٤٨

چوزيف هايدن: ٧١

الجوف: ٤٢

جونزالو فرنانديث دي كوردوبا: ٥٢

جيان (خاين): ١٦، ٣٠، ٣٥، ٤٨،

١٣٨، ١٦٤، ١٩٦، ١٩٧،

خاكا = جاقه
 خالد بن هاشم، صاحب الشرطة:
 ٩٥، ٩٢
 خان الخليلي: ١٣٣، ١٥٩
 خاتمه الأول: ٢٣٦
 خاين = جيان
 خبالون = جبل عون، نهر
 الخراصين، موضع: ٢٣١
 خرخل = شرشال
 ابن خفاجة = أبو إسحاق إبراهيم
 الخلافة، الخلفاء، الخليفة: ٣٢، ٣٣،
 ٣٤، ٣٦، ٩٢، ١٠١، ١٠٨،
 ١١١، ١١٥، ١٢٩، ٢٠٨،
 ٢١٥، ٢٤٠، ٢٥١، ٢٥٥،
 ٢٧٤، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٦
 الخلافة الأموية الأندلسية: ٣١، ٣٣،
 ٣٤، ٨٣، ١٠٢، ١٩٣
 الخلافة الأندلسية: ٤٤، ١٩٣
 الخلافة العباسية: ٣٣
 خلافة آل عثمان: ٨٦
 الخلافة الفاطمية: ٣٣
 الخلافة القرطبية: ١٠١، ١٦٦،
 ٢١٤، ٢٣٥، ٢٥٤، ٣١٢
 ابن خلدون: ٤٤
 خلف بن محمد العامري: ٢٧٠
 خلوة، جارية: ٥٨
 الخنراليسمو (القائد الأعلى) = فرانيسكو
 فرانكو باهاموند
 خوان الأول، ملك إسبانيا: ٣١٤
 خوان رامون خيمينيث: ٣٢٥
 خوانا المجنونة (خوانا لالوكا): ١٥٩،
 ٢٠٣، ٢٠٤
 خوكار = شقر
 الخيشيراس = الجزيرة
 خيخون: ٢٥٧، ٢٩٣، ٢٩٧، ٢٩٩،
 ٣٠٢، ٣٠٩

حصن الأكراد: ١٦
 حصن اللوز: ٢٥، ١٩٠
 ابن حفص (بناهافيس)، بلدة: ٢١٢
 «حكايات الحمراء» لواشنطن ايرفينج:
 ١٥٧
 الحكم الربضي بن هشام: ٣٢، ٢٧٧
 الحكم المستنصر بن عبد الرحمن: ٣٣،
 ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨،
 ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥،
 ٩٦، ١٠٢، ١٠٤، ١١٠
 ٢٠٨، ٢٢٩، ٢٥٤
 حلاق إشبيلية: ١١٤
 الحمراء (ألفاميرا)، بلدة: ٢٤٨
 الحمراء، قصور: ١٥، ٢٣، ٢٩،
 ٤٨، ١٣٢، ١٣٩، ١٤٠،
 ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠،
 ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥،
 ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٨٨،
 ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢،
 ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢،
 ٢٧٦، ٣٢٠
 حصن: ٢١٣
 الحمة = ألفاما = الحامة
 حمة أرغون (لا ألامه د أرجون): ٢٨٣
 بنو حمود: ٣٤
 حنش بن عبدالله الصنعائي: ٢٤٥،
 ٢٤٦
 الحوف الشرقي: ٤٢
 ابن حوقل: ٣٧
 حي البيازين بغرناطة: ١٥٨، ١٦١،
 ١٨٤، ١٩٠، ١٩١
 حي بن يقظان: ٦٥
 الحيزرون (ألفايزايرو)، بلدة: ٣١٤
 «خ»
 خاراما، نهر: ٢٥٧

الخيرالدا، منارة: ٢٩، ١٢٧، ١٣٠،
١٣١

خيران العامري: ٢٤٠

«د»

داراشا = دار عائشة

دار عائشة (داراشا) بالحمراء: ١٧٨،
١٨٢، ١٨٨

دارو = حداره، نهر

دالياس = دلابة

دانتى: ٢٤

الدانيمركة: ٢٣٤

دانية: ١٦٤، ١٩٧، ٢٢٦، ٢٢٧،
٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٩

بنو داوود (بناداوود)، بلدة: ٢١٢

أبو داوود يلول بن جلداسن: ١٢٩

ابن دراج القسطلي: ٢٠٥

دلابة (دالياس)، بلدة: ٥٠، ٢٢٠

دمشق: ٣١، ٥٩، ٧٠، ١٣٦،
١٣٨، ٢٤٨، ٢٥٠

دويون، جنرال: ٤٨

دورو = دويره، نهر: ٣١، ٣٣، ٣٦،
١٩٥، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٥

٢٩٣، ٢٩٩، ٣١٠، ٣١١،
٣١٣، ٣١٢

دوس باريوس، بلدة: ٣٩

دولثينيا، صاحبة الدون كيخوته: ٤١

الدولة الأموية: ٩٣، ١٠١، ٢٥٢

الدولة البيزنطية: ٩٣

الدولة الرومانية المقدسة: ٢٠٣

الدولة العامرية: ١٠١

الدولة النصرية: ١٧٣

الدوم، كاتدرائية: ٢٧٥

الدون خوان: ١١٤

الدون كيخوته: ٢١، ٢٤، ٤٠، ٤١،
٢٦٩

دويره = دورو

دي تنديا، الكونت: ٥١، ٥٢، ١٧٠

ديسينيا بيروس، عمر: ٤٥، ٤٦، ٤٧

دي فاليرا: ٤١

ديكارت: ٦٥

الديموس، موضع: ٢٣١

ديوان التحقيق، محاكم التحقيق: ٥١،
٢٣٩، ٢٧٧

«ذ»

«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن
بسام: ٢٧٥، ٣١٢

«ر»

الرابطة (لارابيدا)، بلدة: ٢٠٢، ٣٢٦

رأس الرجاء الصالح: ٣١٩

رأس كنيسة الغراب: ٢٨٣

الراغال = الرحل

رايموندو لوليو: ٢٣٧

رائية ابن عبدون = القصيدة العبدونية

ربض زناتة، بغرناطة: ١٥٨

ربض القاضي، بغرناطة: ١٥٨

ربض المنصور، بغرناطة: ١٥٨

أبو الربيع سليمان بن سالم: ١٩٧

الرحل (الراغال)، بلدة: ١٣٨

«الرحلة الميوقية» لجورج صاند: ٢٣٨

ابن رشد = أبو الوليد بن رشد

الرصيف، بقرطبة: ٥٨، ١٠١، ١٠٨

الرمادي = يوسف بن هارون

رندة: ٢٣، ٥٢، ٢٠٨، ٢١١ - ٢١٤

روبرتس، رسام: ١٥٧

رودريجو ديث دي بيسار = السيد

القميطور (إلكمبادور): ٢٣٨،
٢٣٩

«الروض المعطار» للحميري: ٣٢٠

الروضة (لارودا)، بلدة: ٤٩، ٢١٢
روما: ٢٣٥، ١٦١، ٣٠٠
الرومان: ٥٦، ١٦١، ٢٢٧، ٢٥٨،
٢٧٦، ٢٩٥، ٣١١
رومولوس: ١٦١
ابن الرومية الإشبيلي = أب العباس أحمد
ابن محمد
رويدا = الروضة
الروضة (رويدا)، بلدة: ١٣٨
ابن الريق = ألفونسو إيريكي: ٣١٣
الريكونكيستا: ٢٩٩
رينان: ٦٥

«ز»

«الزفاف الدامي» لفيدريكو جارتيا
لوركا: ١٥٧
الزقاق: ١٠
الزلافة (ساكر اجاس)، موقعة: ٣٤،
٤٣، ١٩٥، ٣١٢، ٣٢٥
الزليج (القاشاني): ١٧٧
ابن زمرك: ١٧٦، ١٧٩
الزناة، موضع: ٢٣١
زقة السبع لوبات في فاس: ١٣٣
ابن زهر = أبو بكر بن زهر
الزهراء، جارية: ١١٠
الزهراء (مدينة أنارا): ١٠٧، ١٠٩،
١١٠، ١١٢، ٢١٨، ٢١٩،
٢٤٥
الزهراوي = أبو القاسم الزهراوي
الزهرة، تمثال: ١١٢
الزهرة، تمثال: ١١٢
الزهرة، موضع: ٢٣١
ابن زيدون = أبو بكر بن زيدون

«س»

السباط: ١٠١، ١٢٩

ساكر اجاس = الزلافة
سالازار = ألفارو سالازار
بنو سالم: ٢٩٢
سالمدينا = فحص المدينة
سان يدرو، بلد: ٢١١
سان سباستيان: ٢٩٢، ٣٠١، ٣٠٢
سان كتنان، موقعة: ٢٧٧
سان لوكار = شنلوقر
سانتا إيلينا، بلد: ٤٦، ٤٧
سانتاريم = شترين
سانتافي = شتفي
سانتا ماريا دي ألاكوس، بلد: ٤١
سانتا ماريا دي ألباراثين = شتمرية
الشرق، بلدة
سانتاندري: ٣٩، ٢٩٢، ٣٠١، ٣٠٢
سانتياجو دي كومبوستيلا = شنت ياقب
سانشو خيمينيث دي سوليس: ١٩٩
سجونسة (سيجونثا): ٢٨٢
السجديا = السجيريا: ٢١٨
بنو سراج: ١٨٢، ١٨٨، ١٩٨، ٢٠٠
السرائ (أثيريد)، بلدة: ٢٤٨
سرح العيون في شرح قصيدة ابن
عبدون «لابن نباتة»: ٣٢٢
سردانية: ٢٣٥، ٢٣٦
سرقسطة (ثاراجوثا): ٢١، ٢٢، ٢٣،
٣٥، ٣٦، ١٩٦، ٢٣٩، ٢٤٥
٢٤٧، ٢٥٦، ٢٨١، ٢٨٣
سعيد بن سليمان بن جودي: ٢١١
سلا: ٢٧٩
سلمنقة: ١٦، ٥٣، ٢٥٥، ٢٩١،
٢٩٢
سلوبرينيا = شلوبينية
سليمان عليه السلام: ٢٨١
السمح بن مالك الخولاني: ٢٤٩
سمورة (ثامورا): ٢٥٥، ٣١٠، ٣١٣
سهيل (فوينخيرولا)، بلدة: ٢١٨
سوارين حمدون القيسي: ٢١١

شذونة (سيدونيا): ٣٦، ٣٧، ٣١٨
 شرشال (خرخل)، بلدة: ٥٠
 شرلكان (الإمبراطور) = شارل الخامس =
 كارلوس الأول: ١٠٥، ١٦١، ١٦٢،
 ١٧٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧،
 ١٨٨، ٢٠٤، ٢٦٠، ٢٧٧،
 ٢٧٨
 شريش الفرسان، بلد: ٤٣، ٢٠٨،
 ٢٠٩
 شفشاون: ٢٣
 شقر (خوکار): ٢٢٦، ٢٣٠
 شقندة: ٥٧
 شقوية (سجوييا): ٥٣، ٢٣٨،
 ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٨٤، ٢٩١، ٢٩٢
 شقورة (سجورا): ٤٤، ٤٩، ٢٣٠
 شلب (سيلقس): ٣٢٥، ٣٢٦
 شلبطرة، موقع: ٥٠
 شلطيش: ٢٠٩
 شلوينية (سلوينا): ٢٢٠
 الشمال الإفريقي: ٣٧، ٢٢٠
 شنبوس: ٣٢٥
 شنت أكرج، بلد: ٤٢
 شنترة (سينترا): ٣١٨، ٣٢١
 شنترين (سانتاريم): ٢٥٧، ٣١٢،
 ٣١٥، ٣١٨، ٣٢٤
 شنتفي (سانتافي): ١٣٩، ١٥٧
 شنتمية الشرق (سانتا ماريا دي
 ألبراثين)، بلدة: ٤٠
 شنتمية الغرب: ٣٢٦
 شنت ياقب (سنتياجو دي كومبوستيلا):
 ٥٣، ٢٥٥، ٣٠٣، ٣١٠
 شنجول = عبد الرحمن بن المنصور محمد
 ابن أبي عامر
 شنلوفر (سان لوكار): ٤٣، ٢٠٢،
 ٢٠٩
 شنيل، نهر: ٣٧، ١٥٧، ١٦٥

سورية (سوريا)، بلدة: ٢٥٣، ٢٨٩
 سوفوكليس: ١٦
 السويد: ٢٣٤
 سويسرا: ٥٤، ١١٣، ١٦٣، ٢٥٣،
 ٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٢
 سيجويا = شقوية
 سيجورا = شقورة
 سيجويتنا = سجونسة
 سيجونة وجيخون: ١٣٧
 السيد القمبيطور = رودريجو ديات دي
 بيار
 سيدونيا = شذونة
 سيلقس = شلب
 سينترا = شنترة
 سينيكا، الفيلسوف: ٦٦
 سيرا د كوردوبا = جبال قرطبة = جبل
 العروس
 سيرا مورينا = جبل المعدن
 سيرا نيفادا، جبال: ٤٩، ٥٠،
 ١٥٨، ١٨٦

«ش»

شاتوبريان: ١٨٢
 شاطبة: ١٩٧، ٢١٣
 الشاطبي: ١٩٧
 الشام: ١٤، ١٦، ٤٥، ٧٠، ١٠٩،
 ٢١٥، ٢٢٥، ٢٦٩
 شاون: ٢٣
 شبلار: ٥٨
 شبه الجزيرة الأيبيرية: ٢٢، ٢٣، ٢٦،
 ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦،
 ٤٨، ٥٤، ٨٥، ١١٦، ١٦٢،
 ١٦٦، ١٦٧، ١٩٥، ١٩٨،
 ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٥، ٢٤٧،
 ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٨٣،
 ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤،
 ٣٠٩، ٣١١

شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ:

١٧٦

ابن شهيد = أحمد بن عبد الملك

شوبان = فريديش شوبان

شوذر: ٢٠٦

شيخ البلد: ١٧٤

شكسبير: ٢٤

«ص»

ابن صاحب الصلاة = أبو مروان بن

صاحب الصلاة

صالح بن شريف الرندي: ٢١٣

الصائنة (السايتا): ٢١٨ - ٢١٩

صخرة بلاى: ٢٩٩

صعصعة بن سلام الشامي: ١٠٣

صفراء، بلدة: ٤٢

صلاح الدين الأيوبي: ١٦٦، ٣٢٣

الصليبيون: ٤٥، ٣٢١، ٣٢٢

الصين: ١٣٦، ٢٠٢، ٢٠٩، ٣١١

«ض»

ضياء الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد

ابن البيطار المالقي: ٢٣٣

الضيعة، موضع: ٢٣١

«ط»

طارق بن زياد: ٣١، ٣٩، ١٦٥،

١٦٦، ٢١٠، ٢١١، ٢٥٦

٢٦٩، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٥

طبرية: ٣٢٦

طرسونة: ٢٤٧

طرطوشة (ترتوزا): ٣١، ٣٥، ٢٣٠

٢٤٧

طركونة: ٢٢٥

طريانة: ١٢٧، ١٢٨

طريف، موقعة: ٢١٠

طريفة = جزيرة طريف

طريق الآلام: ١٣٤

ابن طفيل = أبو بكر بن طفيل

طليبرة (تالافيرا دي لارينا): ٤٣،

٢٥٦

طليطلة (توليدو): ٢٧، ٣٤، ٤٢،

٤٥، ٥٣، ١٩٥، ١٠٦، ٢١٢،

٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٩،

٢٧٧، ٢٨١، ٢٨٩، ٢٩٢،

٢٩٣

طنجة: ٢٧٩

الطوائف: ٣٤، ٣٥، ٣٦، ١٦١،

٢١٢، ٢٤٥، ٢٥٦، ٣١٢

ابن طولون: ١٣٤

أبو الطيب المتنبي: ٤٦، ١٣٧

«ع»

عائشة الحرة: ١٩٩

بنو عباد: ١١٥، ٣٢٥

أبو العباس أحمد بن محمد الملقب بابن

الرومية الإشبيلي: ٢٣٢

أبو العباس المرسي: ٤٤، ٢٤٥.

عباس بن ناصح: ٥٩

عبد الرازق بن عيسى: ٢٢٩

عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط): ٣٢،

٥٦، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٧،

١٠٤، ١٠٨، ١٢٩، ١٣٠،

٢٣٥

عبد الرحمن الداخل = عبد الرحمن بن

معاوية بن هشام

عبد الرحمن بن سعيد العنسي: ١٢٩

عبد الرحمن الغافقي: ٢٤٩

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام

(الداخل): ٣٢، ٥٦، ٥٩،

٧٠، ٧١، ٧٢، ٨١، ٨٢، ٨٥،

٨٦، ١٠٩، ١٩٤، ٢٢٠،

٢٥٢، ٢٩٥

عذراء العمود (نويسترا سينيورا دي
 بيلار): ٢٤٦
 عذراء فاطمة: ٣٠٠
 عذراء المصاييح: ١٠٥
 عذرة (أدرا)، بلدة: ٥٠
 العراق: ٢١٥، ١٣٧
 العرايش: ٣١١
 ابن عربي = يحيى الدين بن عربي
 العسكر، موضع: ٢٣١
 عصام الخولاني: ٢٣٥
 العقاب (لاس نافاس دي تولوزا)،
 معركة: ٣٥، ٤٦، ٥٠، ١٣٩
 ١٩٦، ٣٢٢
 أبو العلاء المعري: ١٥
 علي أبو الحسن الغني بالله: ١٩٩
 علي بن سعيد: ١٣٧، ٢٧٤
 أبو علي الشلوين: ٢٢٠
 أبو علي الصديقي: ١٩٧
 علي بن النفيس: ٢٤٨
 علي بن يوسف بن تاشفين: ١٩٦
 عماد الدين زنكي: ١٦٦
 ابن عمار = أبو بكر محمد
 عمر بن أسود: ٢٢٩
 عمر بن حفصون: ٢١١
 عمر بن الخطاب: ٢٧٠
 أبو عمر الداني: ١٩٧
 عوسجة بن أبي دانس: ٣٢١
 عيسى بن جابر (عيسى دجابر): ٢٩٠

«غ»

غادر، جبل: ٢٤٠
 الغار، موضع: ٢٣١
 بنو غانية: ٢٣٦
 الغرب (إل الجارب): ٢٤٩، ٣٢٦
 الغرب الإسلامي: ٥٩، ١١٥، ٢٠٩
 غرناطة: ١٠، ١٥، ٢٣، ٢٤، ١٢٥

عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي
 عامر الملقب بشنجول: ٣٣،
 ١٠٢، ١٩٣
 عبد الرحمن الناصر: ٢٢، ٣٢، ٣٣،
 ٥٦، ٥٩، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥،
 ٨٦، ٨٧، ٨٨، ١٠٩، ١١٠،
 ١١١، ١١٢، ١٩٣، ٢٠٨،
 ٢٢٩، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٥٩،
 ٢٨٩
 عبد العزيز بن موسى بن نصير: ٣١،
 ١١٤، ١٣٢، ١٦٥، ٢٥٦،
 ٢٥٧، ٣١١
 أبو عبدالله (بوباديا)، بلدة: ٢١٦
 عبدالله الزغل: ١٩٩
 عبدالله بن عصام الخولاني: ٢٣٥
 عبدالله بن محمد: ٣٢
 أبو عبدالله محمد بن الحداد الوادي
 آشي: ٥٠
 أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن
 (بوابديل) = الملك الصغير (إل)
 ري تشيكو: ١٩٨، ١٩٩،
 ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧
 عبدالله بن محمد بن عبيدالله: ٢٥٩
 عبدالله بن موسى بن نصير: ٢٣٥
 عبد الملك المظفر بن المنصور محمد بن
 أبي عامر: ٣٣، ١٠٢، ٢٥٥
 ابن عبد المنعم الحميري: ٣٢٠
 ابن عبدون = أبو محمد عبد المجيد
 أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز
 البكري: ٢٧، ٢٠١، ٢٠٢،
 ٢٠٩

عثمان بن عفان: ٩٦
 ابن عديس: ٨٢، ١٢٩، ١٣٠
 العدو، موضع: ٢٣١
 ابن عذارى: ١١٢
 العذراء، السيدة: ١٣٤، ٢١٨،
 ٢٤٧، ٢٩٩، ٣١٥، ٣١٦

فرانيسكو بيثارو: ٤٣
فرانيسكو فرانكو باهاموند: ٥٥
٣٠٣، ٢٩٣، ٢٨١
فرساي: ٣٨، ١١٠، ١٨٠، ١٨١
١٨٥
فرنان جنذالت: ٢٨٩
فرناندو الأول: ٢٨٩
فرناندو وإيزابيلا (الملك
الكاثوليكيان): ٣٦، ٥١، ٥٢،
١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٥٩
٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٥
٢١٦، ٢٢٩، ٢٧٦
٣١٠، ٢٧٧
فرناندو الثالث: ٥٦، ٦٠، ٨٧،
١٣٢، ١٩٨، ٢٧٥، ٣٢٢
فرنسا: ٣١، ٣٨، ٣٩، ٥٤، ٢٤٧،
٢٤٩، ٢٧٥، ٢٧٧، ٣٠١
٣١٥، ٣٠٤، ٣٠٣
فريدريش شوبان: ٢٣٧
الفسطاط: ٥٩
ابن فضل الله العمري: ١٧٦
الفلامنكو، غناء: ٣١٩
الفلاندرز: ٢٠٤
فلسطين: ٣٠٤
فلورنسا: ٣٠٠
الفلين، قرية: ٤٩
فنتاس د بزيليانة = بزيليانة
فنيانة: ٣٧
«الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»
لابن ماجد: ٢٠١
فوينخيرولا = سهيل، بلدة
فيافثيوسا، بلدة: ٨٩
فيتوريا، بلدة: ٢٩٢، ٣٠١
فيجراس: ٢٤٩
فيجو: ٣٠٣
فيدريكو جاريثا لوركا: ٥٥، ٥٩
١٥٧

٢٩، ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٤٩، ٥٠،
٥١، ٥٢، ٦٥، ١١٤، ١٣٢،
١٣٧، ١٩٦، ١٩٠، ١٩١،
١٩٢، ١٩٣، ١٩٨، ١٩٩،
٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣،
٢٠٦، ٢١٠، ٢١٤، ٢١٥،
٢١٦، ٢٧٥
الغزال الفاسي: ٢٧٦، ٦٦
أم غزالة، بلد: ٤٢
الغزو الصليبي: ١٦٦
الغساني، محمد بن عبد الوهاب: ٦٦
غمارة، قبيلة: ٢١٧، ١٦١

«ف»

فاتما = فاطمة، بلدة
القائيكان: ٢٨٠
أبو فاجيج = أبو حجاج، بلدة
فارزيا = برزية
فازو (فيزيو)، بلد: ٢٥٥
فاسكو دا جاما: ٢٠١، ٣١٩
الفاسكو نجاداس: ٣٠١
فاطمة (فاتما)، بلدة: ٣١٤، ٣١٥ -
٣١٧
فاطمة الزهراء: ٣١٧
فافلة بن بلاي: ٢٩٩
فالدينياس: ٣٩، ٤٣، ٤٤، ٤٥
فال دي موسى = وادي موسى
فالنشيا = بلنسية
فايا د وليد = بلد الوليد
فتح الأندلس: ٣١، ٣٦، ٢٠٨، ٢١٠،
٢٣١، ٢٣٥، ٢٤٧، ٢٥١،
٢٥٢
الفتنة الكبرى: ١١٢
فحص البلوط: ٤٠
فحص المدينة (سالمدينا): ٢٥٧
الفخار، موضع: ٢٣١
الفخارين = الحجارين

قزمونة : ١٣٨ ،
 قریش : ٥٩
 ابن قزمان = أبو بكر بن قزمان
 قسطنطين : ٢٣٠
 قسطنطين السابع : ٩٣
 القسطنطينية : ٨٦
 قشتالة : ٢٣٤ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
 ٥٢ ، ٦٠ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ،
 ٢٥٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ،
 ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٢
 القصر ، موقع ، ٢٣١
 قصر أبي دانس (الكاثار دوسال) : ٣٢١
 قصر ش (كاثيريس) : ٤٢
 القصيدة العبدونية = رائية ابن عبدون :
 ٣٢١
 ابن القصيرة = أبو بكر محمد بن سليمان
 قطلونية (كاتالونيا) : ٣١ ، ٣٢ ، ١٩٨ ،
 ٢٣٩ ، ٢٥٥
 القطنيات (ألودوناليس) ، بلدة : ٢١٢
 قلعة أيوب (كالاتايدود) : ٢٨٢ ، ٢٨٣
 قلعة باصة = القليعة
 قلعة جزولة (الكالا دي لوس
 جاذوليس) بلدة : ٢١٨
 قلعة الحصن : ١٦
 قلعة رياح (كالاترافا) : ٣٥ ، ٤١ ،
 ٤٧ ، ٤٩
 قلعة عبد السلام (الكالا د إينارس) :
 ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣
 قلعة وادي إيريه (الكالا دي جواديسرو) ،
 بلد : ١٣٨
 قلمرية (كويميرا) : ١٩٦ ، ٣١٢ ، ٣١٤
 قلهرة : ٢٥٧
 القلي ، موضع : ٢٣١
 القليعة = قلعة باصة (الكوباثا) ، بلدة :
 ٣١٤
 قمارش : ١٧٠ ، ١٧٥ - ١٧٨ ، ١٨١ ،
 ١٨٨ ، ١٩٩

فيزيو = فازو
 فيلابرس ، جبال : ٥٢
 فيليب الثالث : ٢٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩
 فيليب الثاني : ٢٦٠ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
 فيليب الجميل : ١٥٩ ، ٢٠٣
 فيليب الخامس : ٣٩
 الفيلبيين : ٢٣
 فيليدمالاجا = بلش
 فينيسيا = البندقية

«ق»

القادر ، الملك : ٤٥
 قاسدس : ٣٠ ، ٣٦ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ،
 ٢٠٨ ، ٢٠٩
 بنو قارله ، موضع : ٢٣٠
 بنو قاسم ، موضع : ٢٣٠
 أبو القاسم بن بشكوال : ١٠٨
 أبو القاسم بن الجدد : ٣٢٤
 أبو القاسم الزهراوي : ٦٥ ،
 أبو القاسم محمد بن عباد : ١١٥
 القاهرة : ٢٧ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٤٨
 القرآن : ٥١
 قر باقة : ٥٠
 قرطاجنة (كارتاخينا) : ٥٠ ، ٨١
 قرطبة : ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ،
 ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٩ ، ٥٣ - ١١٢ ،
 ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ،
 ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٦٢ ،
 ١٦٤ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٤ ، ٢٩٠ ، ٣١٠
 قرطبة - المسجد الجامع (الجامع
 الأعظم) : ١٥ ، ٢٩ ، ٥٥ ، ٦٦ ،
 ٦٧ ، ١١٢ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
 ١٢٩ ، ١٣٠

الكنارياس، جزر = الجزر الخالدات
كتناردي لا أوردن، بلدة: ٤٩
كتتيرية، ساحل = حائط إفرنجة
كنجاس دي أونيس: ٢٩٧، ٢٩٨،
الكنيسة الكاثوليكية: ٣٠٠
كوستاريكا: ٢٣
كوفادونجا: ٢٩٨، ٢٩٩،
كوفادي إيريا: ٣١٥
الكوكلوكس كلان: ١٣٤
الكوميديا الإلهية: ٢٤
كونكة: ٢٣٠
الكونكيستادوريس: ٤٣
كومبرا = قلمرية

«ل»

لا ألامه د أرجون = حمة أرغون
لا بلاي، الرحالة: ٤٢
لاجوارديا، بلدة: ٣٩
لاخاندا، بحيرة: ٢١٠
لارابيدا = الرابطة
لاردة (ليريدا): ٢٢، ٣١، ٣٥،
٢٤٧، ٢٣٩
لارودا = الروضة
لاس ألبوخاراس = البشارت، جبال
لاس بالماس: ١٣٦.
لاس فيجاس = البقاع
لاس نافاس دي تولوزا = العقاب
لاكاسا دل شابيس = بيت الجباس
لامثكيتا كاتيدرال، بقرطبة: ١٠٤
لانخارون = الأنجرون
ابن اللبانة الداني: ٢٣٧
لبلة (نييلا): ٢٥٧
لدریق: ٢٥٦
لسان الدين بن الخطيب: ١٥، ١٣٧،
٢١٤، ١٣٩
لسبوا = الأشبونة
لشبونة = الأشبونة

قمم أوروبا (بيكوس د أويرويا):
٢٩٧،

القنباية (كامبينياس): ٥٤
قنطرة الوادي، بقرطبة: ٥٧، ٥٨
قورية: ١٩٦
القوط: ٢٥٦، ٢٧٠، ٢٧٦، ٢٩٧
القيروان: ٥٩
القيسية، موضع: ٢٣١

«ك»

كاتالونيا = قطلونية
كاثورلا، جبال: ٤٤
كاثيريس = قصر ش
الكاراذ، جبال: ٤٤
كارتاخينا = قرطاجنة
كارلوس الأول = شارل الخامس =
الإمبراطور شرلكان
كارمن: ١١٤
الكاستانييتاس: ١١٣، ٢٠٧
كالانايود = قلعة يعقوب
كالانراثا = قلعة رباح
كالقرت، رسام: ١٥٧
كالينار، بلدة: ١٦١
كامبينياس = القنباية
«الكتاب الشقوي» (بريريه سني)
لعيسى بن جابر (عيسى د جابر):
٢٩١
الكتاراكتا: ٦٥
الكدية، موضع: ٢٣٠
الكرس، موقع: ٤٩
الكرنك، معبد: ١٤
كرنة (كورونيا): ٢٥٥، ٣٠٢، ٣٠٣،
٣٠٩، ٣٠٤
كريستوف كولومبوس: ١٢٦، ١٢٧،
١٤٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣،
٢٠٩، ٣١٩
الكرملين: ٢٤٧

لشدانية (لوزيتانيا): ٣١١
 لقت (أليكانتي): ٥٠
 لك (لوجو): ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٧
 ٣٠٩، ٣٠٢
 لنجار، بلدة: ٥٢
 لوپ دى فيجا: ١٦٠
 لوجرونيو: ٢٥٣، ٢٨٣
 لوجو = لك
 لوخا = لوشة
 لودفيج فان بيتهوفن: ٧١
 لورد، قرية: ٣١٥
 لوركا = فيديريكو جارتيا
 لورنزو، القديس: ٢٨٠
 لوزيتانيا = لشدانية
 لوشة (لسوخا): ١٥، ١٣٨، ١٩١، ٢١٤
 لوقا التودي: ٣٠٣
 لويس الرابع عشر: ٣٨، ٦٦، ١١٠، ١٨١
 ليبانتو، موقعة: ٢١
 ليبيا: ٣٥
 ليبانا، قرية: ٢٩٩
 أبو الليث الصقلي: ١٣١
 ليريدا = لاردة
 ليرية، بلدة: ٣١٤، ٣١٥
 ليناريس، بلدة: ٥٣
 ليوبولدو توريس بالباس: ١٦٩، ١٨٧
 لسيون: ٣١، ٣٤، ٢٥٥، ٢٨٤
 ٢٨٩، ٢٩٣، ٢٩٤
 ٢٩٥، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٤
 ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٢
 «م»
 ماتشوكا: ١٧٠، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٧
 ماربيا = مربلة
 ماردة: ٦٩، ١٩٧، ٢٥٦، ٣٢٢

ماويا كورنل: ١١٤
 ماسكاردو، جنرال: ٢٧٧
 مالفقة: ١٥، ٣٠، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٥٠، ٦٥، ١٩١، ٢٠٨، ٢١٤
 ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠
 ابن مالك = جمال الدين بن مالك
 ماناكور، بلدة: ٢٣٧
 مانتاناريس، بلدة: ٤٠، ٤١
 المانشا: ٣٩، ٤٠، ٤٩، ١٩٧
 مانويل دى فايا: ١٥٧
 مانويل ماتشادو: ٢٠٧، ٢١٤
 مجانيا، نهر: ٤٧
 مجاهد العامري: ٢٣٥
 المجينات: ٢١٠
 محريط (مدرسد): ٢٢، ٢٩، ٣٧
 ٣٨، ٤٨، ٤٩، ٥٥، ١٠٥
 ١٢٦، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٨٢
 ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٢، ٢٩٣
 المجوس: ١٣١
 المحجة العظمى بقرطبة: ٧٢، ٨٧
 ١٠١، ١٠٧
 محكمة الماء (تريونال دى لاس أجوس)
 فى بلنسية: ٢٣٣
 محمد أقبال: ١١
 محمد الأيسر: ١٩٩
 محمد بن تمليخ: ٩٢، ٩٥
 محمد بن الحاج: ١٩٥
 محمد بن زائدة: ١٤٠
 محمد الزغل: ٢١٧
 محمد بن زياد: ٨٢
 محمد بن سعد بن مردنيش: ١٦٦
 محمد بن عائشة: ١٩٥
 محمد بن عبد الرحمن الأوسط: ٣٢
 ٢٠٩، ٢٩٣
 أبو محمد عبد المجيد بن عبدون: ٣٢١
 ٣٢٢
 محمد بن عبد الوهاب: ٢٧٦

مرطانية (موريتانيا): ٣٤
 مرقس، القديس: ٣٠٠
 بنو مروان: ٨٥، ٨٦، ٢١١
 مروان بن الحكم: ١٩٤
 أبو مروان بن صاحب الصلاة: ١٢٨، ١٢٩
 «مسالك الأبصار»، كتاب: ٢٠١
 «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري: ٢٠٩، ٢٠١
 المستعين بن هود: ١٦٦
 مسرور، مولى عبد الرحمن الأوسط: ٨٢
 مسلمة بن عبد الله: ١١١
 المسيح، السيد: ١٣٤
 «مشتاق»، أم الأمير المغيرة: ٩٦
 المشرق: ٦٥، ٩٣، ١٠٧، ١٠٩، ١٣٧، ٢١٧، ٢٢٠، ٣٢٤
 المصارة: ٥٨
 مصر: ١٦، ٣٧، ٤٠، ٤٢، ١١٣، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٦٩، ٢٨٩
 مصطبة فرعون: ١٧٤
 مطرف بن عبد الرحمن: ٩٢، ٩٥
 مطريل: ٥١، ٥٠، ١٦١
 معاوية بن أبي سفيان: ١٩٤
 المعتضد بن عباد: ١١٥، ١٦٦، ٢١٢
 المعتمد بن عباد: ٢٧، ١١٥، ١٣٥
 ٢٠٥، ٢٤٥، ٣٢٥
 «معجم البلدان» لياقوت الحموي: ١٣٨
 المعدن (الماد)، بلد: ٣٢١
 المعلقات السبع: ١٣٧
 المغرب: ٢٣، ٢٤، ٣٤، ٣٥، ٥٢، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٨٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٧٦، ١٩٥، ١٩٨، ٢١٠، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣٧، ٢٤٨

أبو محمد علي بن حزم: ٥٦، ٥٩، ٦٠
 محمد بن علي الوزير: ١٢
 محمد الغني بالله: ١٧٦، ١٧٩
 محمد بن فاطمة: ١٩٥
 محمد الناصر: ٤٦، ٤٧، ١٩٦، ٢٣٦، ٣٢٢
 محمد بن نصر، صاحب الشرطة: ٩٢
 محمد بن نصر بن الأحمر: ٣٦، ١٦٢، ١٧٣، ١٩٧
 محمد بن هشام بن عبد الجبار: ١٩٣
 محمد بن يوسف بن هود: ١٦٧، ١٩٧
 المحيط الأطلسي: ٢٣، ٤٦، ١٢٦، ١٣٨، ٢١٤، ٢٨٣، ٣١٩
 المحيط الهادي: ٢٣، ٤٣
 محيي الدين بن عربي: ٢٣٧
 المدجنون: ١٣٢، ٢٧٢
 مدريد = مجريط
 مدريدنيخوس، بلدة: ٣٩
 مدلين، بلد: ٤٣
 مدينا أثارا = الزهراء
 مديناثيلي = مدينة سالم
 المدينة، بلدة: ٢١٨
 مدينة سالم (مديناثيلي): ٢٢، ٢٥٥، ٢٨٢، ٢٩٢
 مدينة المائدة = قلعة عبد السلام (الكلالا دي إينارس)
 المرابطون: ٣٤، ٣٥، ٣٦، ١٩٥، ١٩٦، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٣١٢، ٣٢٣
 مراكش: ٣٢٥
 مربلة (ماريا): ٢١٨
 ابن مردنيش = محمد بن سعد
 مرسى الدجاج: ٢٢٨
 مرسية: ٣٥، ٤٤، ٤٩، ٥٠، ١٦٤، ١٩٦، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣٩، ٣٢٥
 مرشانة (مرشينة): ٢١٤

١٦٤ ، ١٣٩ ، ١٢٩ ، ١٢٨
٣١٢ ، ٢٥١ ، ٢٣٦ ، ١٩٦
٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٨
٣٢٣

الموخية، بلدة: ٢٢٦
مورور (موروان): ٣٧ ، ٢١٤
موريتانيا = مرطانية
الموريسكيون: ٢٣٩
موريو، فنان: ١٢٦ ، ٢٧٨
موزمبيق: ٣١٥ ، ٣١٩
موسوليني: ٤١
موسى بن علي: ٢٧١
موسى بن أبي الغسان: ١٤٠
موسى بن نصير: ٣١ ، ١١٤ ، ١٦٥
٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٦٩ ، ٢٥٦
٣١١ ، ٢٩٥
موشحات: ٢٤ ، ٢٥
مولاي زيدان: ٢٧٩
مولة، موقع: ٥٠
موهاتن = أبو الحسن، قمة
المونديجو = منديق، نهر
المونييكار = المنكب
ميغيل أونامونو: ١٦ ، ٢٩١
ميغيل ثير فانتس إى سافدرا: ٢١
٢٦٩ ، ٥٥ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٢٤

٢٨٢
ميغيل سيرفيت: ٢٤٨
ميخائيل الغيزري (ميغيل كازيري):
٢٧٩
ميراندا، بلدة: ٣١٤
ميورقة: ٣٧ ، ١٨٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
٢٣٨ ، ٢٣٦
ميريس، مدينة: ٢٩٦ ، ٣٠٢

«ن»

نابليون: ٤٨

٢٥٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
٣٢٣ ، ٣١١
«المغرب في حلّ المغرب» لابن سعيد:
١٣٧ ، ١٢٦
المغيرة بن عبد الرحمن الناصر: ٩٦
المقرى = شهاب الدين أحمد بن محمد
المقري
مكسميليان الأول: ٢٠٣ ، ٢٠٤
المكسيك: ٤٣
مكناس: ٢٣
الملك الصغير = أبو عبدالله محمد بن أبي
الحسن
الملكان الكاثوليكيان = فرناندو وإيزابيلا
ملكشاه: ١٦٦
مملكة الفرنجة: ٣١
متوجر، بلدة: ٥٢
المثاناريس، بلدة: ٣٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
منديق (المونديجو)، نهر: ٣١٤
منذر بن سعيد البلوطي: ٨٣ ، ٨٧
المنذر بن محمد: ٣٢ ، ٨٣
المنصور محمد بن أبي عامي: ٢٢ ، ٣٣
٥٦ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٢
١٠٣ ، ١٠٤ ، ٢٢٦ ، ٢٥٤
٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩
٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
المنصور أبو يوسف يعقوب: ٤٦
المنكب (المونييكار): ٢٢٠ ، ٣٣٠
منورقة: ٣٧ ، ٢٣٤
منية عبدالله، بقرطبة: ٥٦
منية المغيرة، بقرطبة: ٥٦
منية الناعورة، بقرطبة: ١٠٩
المنيو، نهر: ٣٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٣
مواسيه لاباتاي: ٢٤٩ ، ٢٥٠
موال، مواويل: ٢١٨ ، ٢١٩
موتسارت = أماديوس موتسارت
الموحدون: ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٦
٤٩ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦

٣٧، ٥٠، ٥٢، ١٩١، ٢٠٨،
٢١٧، ٢١٦
الوادي آشي = أبو عبدالله محمد بن
الحداد
وادي آنة، نهر: ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٩،
٤٤، ١٩٥، ١٩٦
وادي الحجارة (جوادالآخارا)، نهر:
٢٨٣، ٢٨١، ٢٥٧
وادي الرملة (جواداراما): ٢٥٧،
٢٩٣، ٢٨٤، ٢٩٠
وادي العين (جوادالين)، نهر: ٤٤
وادي القصب: ٢١١
وادي القناة (جوادالكانال)، بلدة: ٢٣
الوادي الكبير: ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٤٤،
٤٦، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٧٢،
٨٣، ١٠١، ١٠٨، ١٣٤،
١٣٩، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٤،
١٦٥، ١٩٦، ٢١٤، ٣٢٢،
٣٢٣

وادي لك (جوادالبيشي): ٢١٩، ٢٥٦
وادي المخازن، موقعة: ٣١١
وادي المنار (جوادالمنار)، نهر: ٤٤
وادي موسى (فال دي موسى): ٢٣٧
واشنطن إيرفنج: ١٥٧
ويذة (أويثي)، بلدة: ٤٠
وجر، بلدة: ٥٢
الوريق، موضع: ٢٣١
ابن وزمر = إبراهيم بن وزمر الحجاري
بنووزير: ٣٢١
وشقة (أويسكا): ٢٢، ٣١، ١٨٩،
٢٣٩، ٢٧٤
ولبة (أويلبا): ٣٠، ٢٠٢، ٢٠٩،
٢٨٣، ٣٢٥، ٣٢٦
بنو الوليد، قبيلة: ٢٩٢
أبو الوليد إسماعيل الحميري: ٢٣٣
أبو الوليد الباقي: ٣٢٤

الناصر (نازار)، بلدة: ٣١٤
ناقار = نبرة
ابن نباتة: ٣٢٢
نبرة (ناقار): ٣١، ٣٣، ٢٤٨
نربون = أربونة
النرويح: ٢٣٤، ٣٠٢
نصر، مولى عبد الرحمن الأوسط: ٨٢
بنو نصر: ١٧٣، ١٨٦
نعيم بن رضوان: ١٤٠
النهر الأحمر: ٢٠٩
نوتردام، كنيسة: ٦٩
نور الدين | محمود: ١٦٦
النورمان: ١٣١
نويسترا سينيورا دي بيلار = عذراء
العمود النيل: ١٤، ٥٤، ٢٣٠
نييلا = لبله

« ه »

الهابسبورج، أسرة: ٢٠٣، ٢٠٤
هادريان: ٥٦
هارون الرشيد: ١٩٤، ٣٢٥
هرنان كورتيس: ٤٣
هشام بن الحكم (المؤيد): ٣٣، ٢٥٤
هشام بن عبد الرحمن (الرضي): ٣٢
هشام المعتد: ٣٤
الهند: ٢٠١، ٢٠٩، ٣١٩
هندنبورج: ٤١
هنري الرابع: ٣٨
أبو الهول: ١١٣، ١٧٤، ١٨١
هولندا: ٢٣٤، ٢٥٣
هوليود: ١٣٨
هيرو، ملك: ٣٠٤

« و »

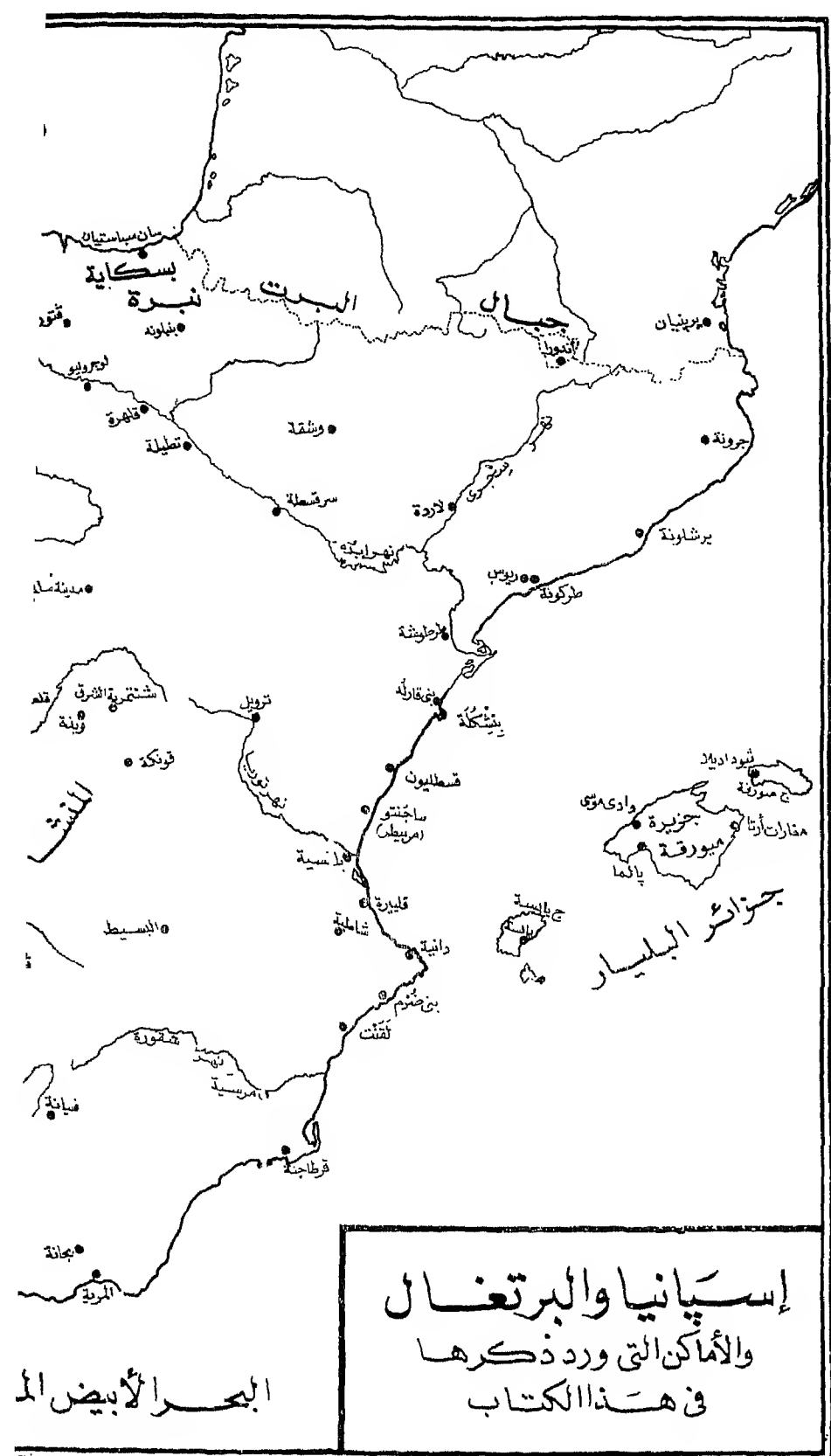
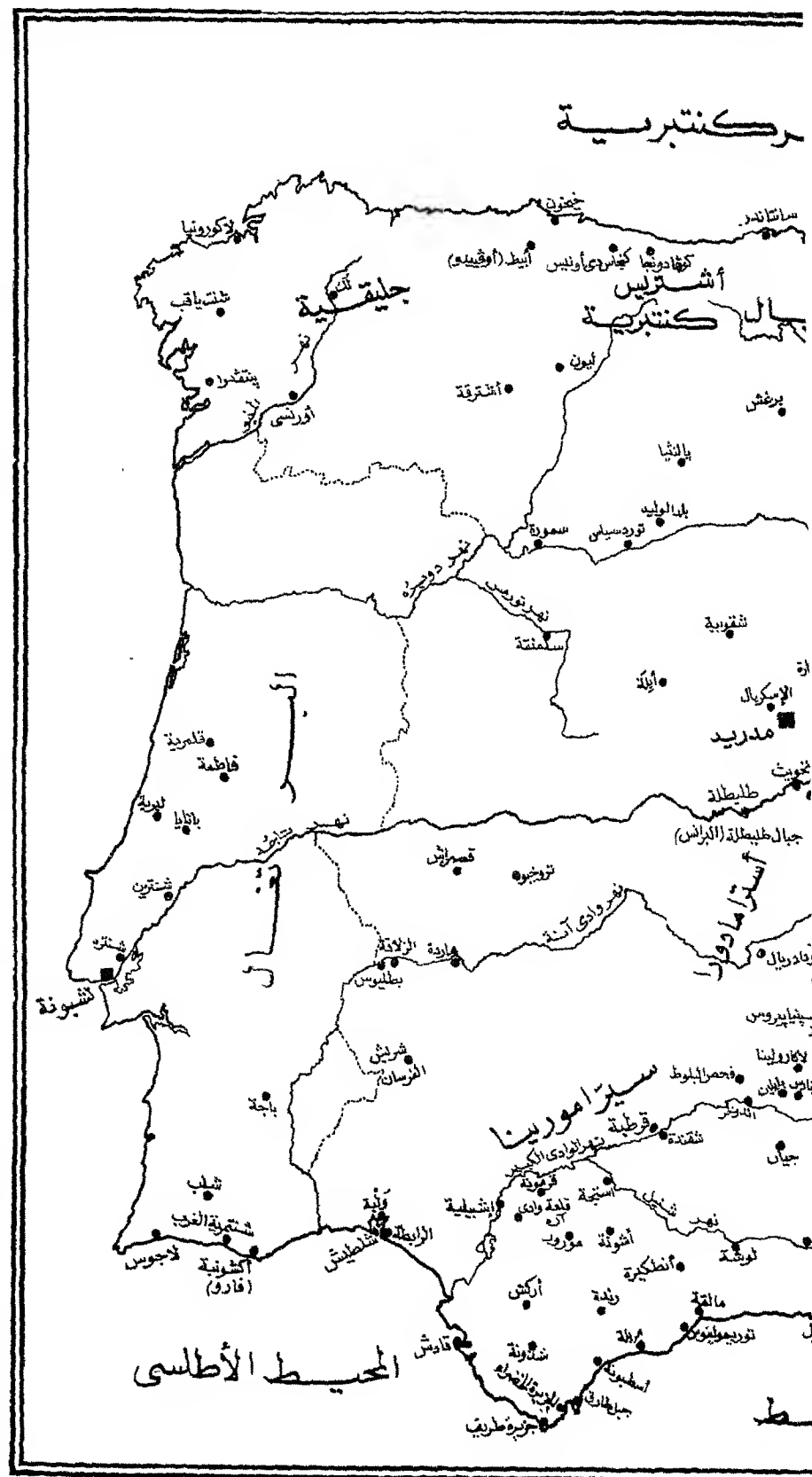
وادي آش (جواديكس): ٢٥، ٣٦،

أبو يعقوب يوسف المنصور: ٤٢،
١١٥، ١١٦، ١٢٨، ١٢٩،
١٣١، ١٩٦، ٣١٢، ٣١٨،
٣٢٢، ٣٢٣
يكلا، قرية: ٤٩
اليمن، اليمنيون: ٢٢٨، ٢٣١
اليهود: ٦٦
ابن يوجان (بنا أوجان)، بلدة: ٢١٢
يوسف بن تاشفين: ٣٤، ١٩٥،
٣١٢، ٣٢٥
يوسف بن هارون الرمادي: ٥٨
يوليوس قيصر: ٥٦، ١١٤
يوهان سباستيان باخ: ٧١

أبو الوليد بن رشد: ١٥، ٢٥، ٥٦،
٦٥
وهرا: ٢٣، ٢٢٨

«ي»

بابرة (أيفورا): ٢٥٦، ٢٥٧، ٣٢١،
٣٢٢، ٣٢٣
يابسة (إيبثا): ٣٧، ٢٣٤
ياقوت الحموي: ٥٤، ١٣٨، ٣١٤
يحيى بن غانية: ١٩٥، ٢٣٦
يحيى بن يحيى الليثي: ٢٦٠
يعقوب الحواري: ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٠



محتويات الكتاب

٧	الاهداء
٩	هذه الطبعة الثانية
١١	موجود لا مفقود
١٣	الطريق إلى الأندلس
٢٩	المكان والزمان
٥٣	سلاماً يا قرطبة
٦٧	مسجد قرطبة: العزيز في المنفى البعيد
٨٥	نور على نور
١١٣	الأرملة الطروب
١٣٧	المعقل الأخير
١٧٣	ولا تحلب إلا الله
١٨٩	مفترق الزمان
٢٠٥	نبض الأندلس
٢٢٥	الجناح الكسير: شرق الأندلس
٢٥١	مدريد وما حولها
٢٨٣	الشمال: أرض الجبال والأساطير
٣١١	البرتغال: خاتمة المطاف
٣٢٧	كشاف

VIAJE POR ESPANA

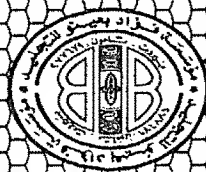
BY
HUSSAIN MONÉS

Professor at the university of Cairo



**SAUDI PUBLISHING
&DISTRIBUTING HOUSE**

1985





رَحِلَةُ الْأَنْدَلُسِ

حَدِيثُ الْفِرْدَوْسِ الْمَوْعُودِ

الكتب كالناس : لها حياة وحفظ ومقادير .

وهذا الكتاب صادف محبة وحسن قبول من قارئه لأول ظهوره ، ربما لأن موضوعه يمس عاطفة المسلم ووجدان العربي ، فهناك في قرطبة تلاقى أشعار أحمد شوقي ومحمد إقبال وشعراء عرب كثيرين مجيدين ، ولا عجب في ذلك فإن الأندلس من أحب أرض الله إلى عباد الله ما بين عرب ومسلمين حتى لقد درجوا على أن يسموه : الفردوس المفقود .

وقد سميت الفردوس الموعود لأخفف بكلامي من شجن المسلم ولوعة العربي . فإن الأندلس لا يكون قد ضاع إذا كنا قد انتفعنا بعبرته أو تعلمنا مما جرى عليه كيف تحصن بقية أوطاننا من أن تكون أندلسات .



الدار السعودية
للنشر والتوزيع

Bibliotheca Alexandrina



0322224